



جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الانسانية

قسم التاريخ

مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك

"دراسة سياسية اقتصادية في تاريخ المنطقة من معركة عين جالوت إلى الغزو التيموري

٦٥٨-٨٠٨هـ/١٢٦٠-١٤٠٥م"

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

أنس عبدالله المحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

٢٠١٤هـ/٢٠١٤م

إهداء.....

إلى الأُمِّي؛ معلم البشرية.....

إلى اليتيم الذي أحيا قلوب الملايين.....

سيدي محمد رسول الله ﷺ

إلى الغائبين الحاضرين.....

أبي ويامن رحمهما الله

إلى من أعطت بكل صدق، ولم تبتغ من وراء ذلك مطمعاً...

أمي الغالية أدامها الله

إلى رفاق مسيرة العمل والأمل.....

أخوتي الأعزاء أدامهم الله

تنويه

لا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أتوجه بجزيل الشكر إلى جامعة دمشق التي أوفدتني، والتي أتمنى لها موقعاً مرموقاً بين جامعات العالم، كما أخص بفائق التقدير والاحترام الأستاذ الدكتور سهيل زكار، الذي تجاوز بعطائه وكرمه عطاء أيّ مشرف، فكان له فضل اقتراح هذا الموضوع، والاشراف عليه، وتقديم كل مايلزم لإتمامه، وكان لي شرف التلمذة على يده.

المحتوى

الصفحة	العنوان
١	المقدمة
٦	دراسة مصادر البحث
١٧	تمهيد
	الفصل الأول
٢٣	نشاط المغول في مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك حتى قبيل الغزو التيموري
٢٤	توطئة
٢٨	أولاً: معركة عين جالوت
٥٠	ثانياً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس
٨٨	ثالثاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون
١٠٧	رابعاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل
١١٣	خامساً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد الناصر محمد بن قلاوون.
	الفصل الثاني
١٣٤	العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط.
١٣٥	أولاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس
١٩٠	ثانياً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون
٢١١	ثالثاً: العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل
٢٢٧	رابعاً: القرصنة الصليبية في حوض مشرق البحر المتوسط في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي
	الفصل الثالث
٢٤٠	النشاط السياسي والعسكري لمملكة إرمينية الصغرى في مشرق البحر المتوسط منذ منتصف القرن السابع الهجري حتى سقوطها بيد المماليك

٢٤١	أولاً: ظهور مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا وعلاقتها مع جيرانها
٢٥٤	ثانياً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس
٢٧١	ثالثاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور قلاوون
٢٧٥	رابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الأشرف خليل
٢٨٢	خامساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور لاجين
٢٨٦	سادساً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الناصر محمد
٣٠٢	سابعاً: المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عصر أسرة الناصر محمد
	الفصل الرابع
٣١٣	زوال دولة المماليك الأولى وقيام الثانية والاحتياح التيموري لمشرق البحر المتوسط ٧٨٤-٨٠٨هـ / ١٣٨٢-١٤٠٥م
٣١٤	توطئة
٣١٦	أولاً: قيام دولة المماليك الثانية
٣٢٢	ثانياً: اضطراب الأوضاع في بلاد الشام
٣٣٦	ثالثاً: الاجتياح التيموري لبلاد الشام واحتلال دمشق
٣٦١	رابعاً: الاجتياح التيموري لآسيا الصغرى وهزيمة الجيوش العثمانية في معركة أنقرة
	الفصل الخامس
٣٦٩	النشاط التجاري في مشرق البحر المتوسط "القرنين الثالث عشر والرابع عشر"
٣٧٠	توطئة
٣٧١	أولاً: الطرق التجارية
٣٧٦	ثانياً: المحطات التجارية
٣٨٥	ثالثاً: السلع المتبادلة
٣٩٤	رابعاً: العلاقات التجارية بين المدن التجارية الأوروبية وسلطنة المماليك
٤١٠	خامساً: قبرص وإرمينية الصغرى: التنافس التجاري مع المماليك

٤٢٢	سادساً: التجارة الكارمية
٤٢٥	خاتمة
٤٣٩	جريدة بالمصادر والمراجع

دلالة الرموز والمختصرات
ت = توفى
تح = تحقيق
تر = ترجمة
ج = جزء
(د.ت) = دون تاريخ النشر
(د.م) = دون مكان النشر
ص = صفحة
ط = طبعة
ق = قسم
م = ميلادي
مج = مجلد
هـ = هجري

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أسهم الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط - ولا يزال - بشكل كبير في التفاعلات الحضارية، والتحولات السياسية والاقتصادية في العالم أجمع منذ فجر التاريخ، ويعود السبب في ذلك لما تحتله هذه المنطقة من موقع جغرافي استراتيجي، إذ تتوسط قارات العالم القديم، إضافة إلى ما امتلكته من قوة بشرية واقتصادية كبيرة، ومن بُعد حضاري عميق، مكنها من أن تشغل دوراً محورياً على مسرح الأحداث العالمية.

فمنذ فجر التاريخ كان مشرق البحر المتوسط مهداً للحضارات العالمية التي انطلقت على أيدي أجدادنا العرب، من فينيقيين وغيرهم، لتصل إلى جميع بلدان البحر المتوسط؛ فعلى سبيل المثال أظهرت الحفريات الأثرية أن جل مدن الأندلس قد جاء تأسيسها للمرة الأولى على أيدي الفينيقيين الذين انطلقوا من مهدهم في مشرق البحر المتوسط، ومن بعد الفينيقيين تعاقبت القوى العالمية على حكم مشرق البحر المتوسط، فعلى التوالي قدم إلى المنطقة كل من المصريين، ثم الآشوريين، ثم الكلدانيين، ثم الفرس، ثم اليونان، ثم الرومان إلى أن عادت السيطرة العربية عليها مع قدوم المسلمين.

ومع نشاط حركة الفتوح الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي أخذت المنطقة بُعداً استراتيجياً أكثر من ذي قبل، ولا سيما عندما غدت مركز العالم في العصر الأموي، وقاعدة لانطلاق الحملات ضد الإمبراطورية البيزنطية براً وبحراً.

لذلك أدرك الغرب الأوربي أن مشرق البحر المتوسط هو المدخل إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه، وبالسيطرة عليه يفقد العالم الإسلامي أهم أسس عظمته، ومن ثم يسهل التحكم فيه سياسياً واقتصادياً، بعد أن يسيطروا على طرق التجارة العالمية التي كانت خطوطها تبدأ وتنتهي في مشرق البحر المتوسط وأسواقه، لهذا السبب ولغيره بدأت الحملات الصليبية المكثفة على المنطقة في نهاية القرن الخامس

المجري/ الحادي عشر الميلادي، إذ انتهت إلى احتلال ساحل بلاد الشام بشكل شبه كامل مع أجزاء من سواحل آسيا الصغرى التي اتخذها الصليبيون نقطة انطلاق لهم نحو دمشق وحلب ومصر.

وتزامن وجود الصليبيين في المنطقة مع ظهور قوة جديدة في شرق آسيا؛ هي قبائل المغول التي توحدت لتشكيل قوة ضاربة قادمة من الشرق تطوي الأرض طياً حتى وصلت إلى هذه المنطقة، فهم أدركوا أهميتها كمنفذ لهم على البحر المتوسط، وعلموا أن من يسيطر على هذا الجزء من العالم يمتلك موقعاً استراتيجياً يمكنه من التحكم بأمن العالم واقتصاده، - هذا المفهوم تكامل أيضاً فيما بعد مع الدولة العثمانية، ثم مع روسيا القيصرية ومحاولاتها المتكررة للوصول إلى المياه الدافئة (البحر المتوسط)، لذلك لقيت التصدي العنيف من قبل الإنكليز والفرنسيين (حليفاً العثمانيين)، اللذين أدركوا مدى خطورة وصول قوة عظمى إلى هذه المنطقة، فقاموا فيما بعد باحتلالها، وزرع الكيان الصهيوني فيها كرأس جسر لهم نحو الجزء الشرقي من العالم، فالمنطقة في هذه الأيام تشهد ما شهدته منذ ثمانية قرون - .

ومن القوى الجديدة التي ظهرت أيضاً على مسرح الأحداث آنذاك؛ دولة إرمينية الصغرى في كيليكيا، التي تحالفت مع المغول؛ وقبل ذلك مع الصليبيين لتحمي نفسها ككيان قائم في جزء استراتيجي ومهم، أما الإمبراطورية البيزنطية فقد انحسرت سيطرتها عن المنطقة لتصبح أشبه بإمبراطورية مدينة القسطنطينية، وبدأت الإمارات التركمانية تراث ملكها، ولعل أهمها إمارة بني عثمان.

هكذا أصبحت المنطقة التي تشكل سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى والسواحل المصرية (المعروفة باسم ليفانت = لبنان) منطقة متميزة متداخلة الصراعات، والأحداث تتفاعل وتحدث تغييرات هنا وهناك، وقد وصلت إلى ذروة التعقد، لذا بات من الضرورة دراسة تلك التطورات فيها، فوقع الاختيار على مرحلة ما بعد الحملة السابعة التي شهدت قيام سلطنة المماليك، واستمرت حتى بداية الغزو التيموري الذي أحدث تغييرات كبرى وفاصلة في المنطقة (٦٥٨-٨٠٨هـ/١٢٦٠-١٤٠٥م).

والسؤال: لماذا هذه المدة بالتحديد؟

بدأت بعد معركة عين جالوت مرحلة جديدة من تاريخ المنطقة، نسفت كل الثوابت السياسية التي كانت سائدة من قبل، وقدمت للعالم قوة جديدة هي المماليك، هذه القوة التي تمكنت بعد قرن من

ظهورها من إخضاع مشرق البحر المتوسط بأكمله لسيطرتها، واستمرت الأوضاع على ما هي عليه حتى اجتياح تيمورلنك للمنطقة، فقد غيّر اجتياحه كل الملامح السياسية فيها، وبدأت بعده حالة جديدة، تخلخلت فيها موازين القوى، ولم تعد كما كانت من قبل، لذلك فالهدف الذي تسعى إليه هذه الأطروحة هو دراسة الحالة الأولى؛ أي المتغيرات السياسية والاقتصادية في المنطقة من معركة عين جالوت حتى الغزو التيموري.

فالبحث يتناول منطقة قائمة بذاتها متداخلة الأحداث؛ متفاعلة، وهو من الأبحاث الشائكة والمعقدة، ولا سيما أن أطراف النزاع فيه عديدة، ومتداخلة مع بعضها بعضاً، ومسرح الأحداث فيها واسع وفسيح؛ إذ يشمل الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والزمن الذي نبحت فيه شهد تحولات عديدة من احتلال، وتحرير، وظهور قوى جديدة.

وتأتي أهمية هذا الموضوع أيضاً في أنه يكشف جذور كثير من الظواهر السياسية والاقتصادية التي ورثها عالمنا المعاصر عن العصور الإسلامية المتأخرة، فالمنطقة التي شهدت الحروب والصراعات، هي ذاتها تشهد اليوم صراعات وأحلاف سياسية واقتصادية بين قوى عديدة لأهداف متقاربة.

ومن غير شك أن نجد مصادر كُثُر تؤرخ لتلك الحقبة؛ لأن الحركة التاريخية عند المسلمين بلغت ذروتها في العصر المملوكي مع المؤرخين العظام أمثال النويري، وابن خلدون، والمقريزي، والقلقشندي... إلخ، فمسألة المصادر، وتوفر المادة العلمية لم تكن تشكل عائقاً أمام البحث، وإنما جاءت المصاعب من غزارة الأحداث، وتشابكها، وكثرة الأطراف التي قد تشترك في حدث واحد، من هنا جاءت الحاجة إلى ترتيب هذه الأحداث، وإيجاد الرابط بينها، والمسبب لها، وكيف تم التعامل مع كل حدث من قبل الأطراف المتعددة.

ولهذا السبب قسمت الأطروحة إلى فصول، وتطرق كل فصل من فصول هذه الدراسة إلى علاقة المماليك - بحكم أنهم الأقوى - مع طرف من هذه الأطراف، فبعد المقدمة، ودراسة المصادر والمراجع، والتمهيد الذي جعل للتعريف بالمنطقة والقوى الموزعة فيها آنذاك، تناول الفصل الأول العلاقة بين المغول والمماليك، والمواجهات التي تمت بينهم من معركة عين جالوت حتى عقد الصلح بينهم سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، ولطول هذه الحقبة التاريخية وُرِّعَ البحث على فقرات فُسمت حسب عهود السلاطين المماليك

الذين تصدوا للمغول، ولم يقتصر الحديث على المواجهات فقط، بل تم التعرض لمحاولات التحالف المغولي مع الغرب الأوربي، والمحاولات المخففة لعقد الصلح مع المماليك.

أما الفصل الثاني فتناول الحديث عن العمليات العسكرية التي قام بها المماليك ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام، وقُسم هذا الفصل أيضاً إلى فقرات اعتماداً على الأعمال العسكرية لكل سلطان مملوكي حتى تحرير عكا، وتم التعرض فيه لعمليات القرصنة الأوربية ضد السواحل المملوكية، بينما اقتصر الفصل الثالث على علاقة المماليك مع الطرف الثالث؛ أي إرمينية الصغرى، فتحدث عن نشأة هذه المملكة، ودورها في مشرق البحر المتوسط إبان حقبة البحث، وعلاقتها مع جيرانها، وأشار إلى نشاطها القوي مع المغول للسيطرة على المنطقة، وإلى الحملات المملوكية المجردة عليها إلى أن تمت إزالتها عن الوجود.

وتُخصص الفصل الرابع للحديث عن المتغيرات الدولية في المنطقة في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الهجري، ولعل أهم تلك المتغيرات قيام سلطنة المماليك الثانية، وما رافقها من اضطرابات في بلاد الشام، غير أن الشيء الأكثر أهمية هو الهجوم المغولي على المنطقة بقيادة تيمورلنك، هذا الاجتياح الغاشم لبلاد الشام ثم لآسيا الصغرى، وما نتج عنه من نتائج بدأت تتغير معها ملامح الشرق الأوسط من جديد، فمع اجتياح تيمورلنك انتهت مرحلة من تاريخ المنطقة كان الاستقرار عنوانها الأساسي، وكان المماليك فيها القوة الرئيسية، لتبدأ بعد ذلك السلطنة المملوكية بالتراجع في ظل مرحلة سادها النزاع والصراع بين الطوائف المملوكية.

ولم تقتصر هذه الدراسة على الجانب السياسي فقط، بل تعدته إلى الجانب الاقتصادي، الذي لم يُعرض بمعناه الواسع، لأن ذلك يشكل بحد ذاته ميداناً فسيحاً، لذلك اقتصر على الاقتصاد السياسي؛ أي أثر الاقتصاد في السياسة الدولية آنذاك، وذلك من خلال التعرف على أهم القوى الاقتصادية، وعلاقتها مع القوى العسكرية، هذا ما تناوله الفصل الخامس الذي تم الحديث فيه أيضاً عن الطرق والمراكز التجارية، والهدف من ذلك الإشارة إلى أهمية القوة التي تهيمن على هذه الطرق والمنافذ، كما تمت الإشارة إلى أهم السلع المتداولة في التجارة، من مراكز إنتاجها، إلى طرق نقلها، وتصريفها، وتعرض البحث بشكل مقتضب إلى القوى التجارية؛ ولاسيما البندقية وجنوى، ولعلاقتها بقوى المنطقة، والامتيازات الممنوحة لها هناك.

فقد حرصت هذه الجمهوريات التجارية أشد الحرص على إقامة أوثق العلاقات التجارية مع قوى المنطقة، في الوقت الذي كان فيه سعي دائم من قبرص لتفرض نفسها كقوة متحكمة بالنشاط التجاري، أحياناً عن طريق السيطرة على بعض موانئ آسيا الصغرى وجعلها محطات لها؛ ولاسيما آياس، وأحياناً بالغارات المدمرة على الشواطئ الشامية والمصرية، مثلما فعل بطرس الأول ملك قبرص عندما أغار على الإسكندرية سنة ١٣٦٧هـ/١٣٦٥م.

أما الخاتمة فكانت مقتصرة على عرض أهم النتائج التي تم التوصل إليها خلال البحث، ودُيِّلت هذه الخاتمة بجريدة للمصادر والمراجع التي بُني عليها هذا البحث.

دراسة المصادر

اعتمدت الدراسة على العديد من المصادر كان أهمها على الإطلاق فيما تعلق بقيام دولة المماليك كتابين، الأول: الذيل على الروضتين لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م)، فقد عاصر قيام دولة المماليك، وكان قد صنف في تاريخ الحروب الصليبية كتاب الروضتين، ووضع للروضتين ذيلاً ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين، كما دون بعض أخبار الحوادث التي عاصرها وعلى هذا يمكن اعتبار مواده شبه وثائقية، وهي عظيمة الأهمية لا يمكن الاستغناء عنها.

والكتاب الثاني هو: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لمؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، وتأتي أهميته كونه معاصراً لكثير من الأحداث التي دَوَّنَهَا، وخاصة ما ساد بين أبناء البيت الأيوبي من خلافات وعداء وحروب، ويذكر أنه استقى معلومات الأحداث التي لم يكن شاهد عيان فيها من رجال كانوا يحتلون مكانة مهمة في العصر الأيوبي، ولا يمكن الاستغناء عنه في الحديث عن قيام الدولة المملوكية والصراع مع بنو أيوب في بلاد الشام.

ويأتي على رأس مؤرخي عصر المماليك القاضي محيي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)، كان من أهم الشخصيات الأدبية والإدارية في عصر المماليك، فقد عاصر قيام السلطنة المملوكية، وكان من شهود عين جالوت، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء في القاهرة عندما تولى السلطنة السلطان الظاهر بيبرس، واستمر في منصبه هذا في أيام المنصور قلاوون، ثم في أيام ابنه الأشرف خليل.

دَوَّن ابن عبد الظاهر ثلاث مؤلفات تتضمن سيرة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة في كتب منفردة، هي على التوالي: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، الألفاظ الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية.

هذه الكتب باستثناء الروض الزاهر ما وصلنا منها كان ناقصاً، إلا أن ما جاء في هذه الكتب يُعد على درجة عالية من الأهمية، فهي غنية بالأحداث، إذ دَوَّن فيها صاحبها بشكل أساسي الأعمال التي استهدفت تصفية الوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام، والتصدي للخطر المغولي، وإن أي باحث يكتب عن عصر المماليك لا يمكنه الاستغناء عن هذه الكتب.

وقام الحسن بن عمر بن حبيب (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، بعمل مشابه لعمل ابن عبد الظاهر عندما أقدم على التصنيف بالتأريخ الخاص لعدد من الحكام، فكان كتابه تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حيث أُرِّخَ فيه لحكم المنصور قلاوون وأولاده، ولكن من المآخذ على هذا الكتاب أنه غلب عليه الطابع الأدبي والتصنع والاختصار.

من المصادر الوثائقية التي اعتمدت عليها الأطروحة الجزء التاسع من كتاب زبدة الفكرة في تاريخ المحجرة لبيبرس الدوادر (ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، كان بيبرس هذا مملوكاً اشتراه الناصر قلاوون سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وهو من بلاد الخطا، مما يرجح أن يكون أصله مغولياً.

تحرر بيبرس من الرق وتدرج في المناصب وخاصة بعد اعتلاء قلاوون لعرش السلطنة، وعمل في خدمة كل من المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد، ولم يتورط في أعمال العصيان، وفي أيام الناصر محمد أصبح دوادراً له، وكلفه بديوان الإنشاء مما زاد في اطلاعه وثقافته، وفي تلك الأيام كتب كتابه زبدة الفكرة في تاريخ المحجرة الذي جاء في ١١ جزء، وقيل أكثر من ذلك، لم يصل منها سوى الرابع والخامس والسادس والتاسع، وهذا الأخير هو أهمها على الإطلاق لأنه كان معاصراً لأحداثه، مشاهداً لمعظمها، ولهذا فإن معلوماته التي دونها في هذا الجزء معلومات وثائقية، وخاصة ما تعلق بالمعارك وعمليات التحرير في الساحل الشامي، لأنه بحكم اختصاصه العسكري، وموقعه في الدولة كان على اطلاع بتفاصيل دقيقة، فرواها بطريقة جعلت كتابه من أهم مصادر تلك الحقبة، وقد اختصر في كتابه (مختار الأخبار) الأحداث التي عاصرها، أي أحداث سلطنة المماليك، كما وضع كتاب آخر أسماه التحفة المملوكية، بدأه بسلطنة أيك وجاءت مواده مشابهة لمواد زبدة الفكرة مع شيء من التأنق في الكلام، وقد تم الاعتماد على مواده بشكل كبير في ثنايا الأطروحة.

ويحتوي كتاب ذيل مرآة الزمان لقطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونيني البعلبكي (ت: ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) على مواد غنية جداً حول المرحلة المبكرة من العصر المملوكي، ولاسيما حول أحوال بلاد الشام بشكل عام، وعلى الرغم من أن هذه المواد قد عُرضت بشكل مشوش بعض الشيء،

فإن ما ورد خلال أخبار الحوليات وفي ثنايا تراجم الوفيات ثمين جدا تمت الاستفادة منه في عدة أماكن من الدراسة.

ومن الكتب المهمة كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء إسماعيل بن علي، (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، فعندما استولى المماليك على بلاد الشام قاموا بتصفية الممالك الأيوبية باستثناء مملكة حمه، التي عاشت مدة طويلة، فاشتهر من حكامها آنذاك أبو الفداء المذكور، وكان لهذا شهرته الواسعة بالتاريخ والجغرافيا، ففي علم التاريخ كان لكتابه هذا أهمية خاصة تأتي من خلال مشاركته في بعض أحداثه، إلا أنه في جزء كبير منه كان مُختصراً لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وبعد وفاة أبي الفداء جاء ابن الوردي، عمر بن مظفر المعري، (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، فاختصر كتاب أبي الفداء وأكمله بعنوان تنمة المختصر في أخبار البشر.

ويُعد كتاب البداية والنهاية لابن كثير عماد الدين إسماعيل (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، من أشهر كتب تاريخ الإسلام العامة وأهمها، ذلك أن ابن كثير عاش في دمشق في عصر المماليك وشهد الكثير من أحداثها، ونقل عن تقدمه من المؤرخين.

ظهر في العصر المملوكي مؤرخين أوقفوا أعمالهم على حداث معين، وكان أشهرهم النويري صاحب كتاب: الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، الذي أوقفه للتأريخ لحادثة اجتياح القبارصة للإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، شكل كتاب النويري أوفى مصدر عن حملة بطرس الأول على الإسكندرية، المؤرخ أصله من مدينة نويرة في صعيد مصر، نشأ وتوفي في الإسكندرية، وعمل فيها بنسخ الكتب مما زاد في ثقافته، وكان مقيماً فيها أثناء اجتياحها من قبل القبارصة، توفي حسب تقدير المؤرخين سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، بدأ بتأليف كتابه بعد الوقعة بخمسة أشهر، أورد فيه تفاصيل مهمة لم تتوفر عند غيره، ومما يؤخذ عليه خروجه عن سياق الكلام أثناء حديثه عن الوقعة، لكنه يبقى الأهم عن هذه الحملة وعن العمليات الأخرى التي قام بها القبارصة ضد الشواطئ المملوكية.

ويعد ابن الفرات المصري ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت: ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) من أعظم المؤرخين المصريين في العصر المملوكي، ذلك بأنه أودع بكتابه تاريخ الدول والملوك مواد ثمينة تعلقت بكثير

and a complicated piece of work because there are numerous fighting forces. Add to it the fact that a lot of events such as occupation, liberation and the upcoming of new forces took place.

This paper is divided into five chapters. Each chapter touches upon the relationship of the Mamlouk – as they are the dominant force – with other forces. First, I introduced the resources and references, then I provided a background to the region and the distribution of forces. The first chapter talks about the relationships between Al-Magoul and the Mamlouk and their fighting against each other from AynJalout battle (658 H / 1260 A.D.) until signing a peace treaty in 723 H / 1323 A.D. This chapter was divided into units according to the reign years of the Mamlouk kings who confronted Al-Magoul. This chapter also touches upon the coalition attempts between Al-Magoul and Europe against the Mamlouk.

The second chapter talks about the military operations of the Mamlouk against the Crusaders in the coast of The Levant, which ended after thirty years in liberating the coast and dismissing the Crusaders in 690 H / 1291 A.D. This chapter also talks about the European piracy of the Mamlouk

coasts and the most prominent of which is the Cyprus invasion of Alexandria in 767 H / 1375 A.D.

The third chapter talks about the relationship of the Mamlouk with the third part, namely Minor Armenia Kingdom in Kilikiaregion. It also talks about the establishment of this kingdom and its role in the events of the Mediterranean Seaeastern part at that time and its relations with its neighbors. After that, the researcher talks in details about the Mamlouk assaults against this kingdom until it was eliminated.

The fourth chapter was dedicated to talk about the international changes in the region in the late eighth and the beginning of the ninth century of Hijra (the late fourteenth century and the beginning of the fifteenth century A.D.). The most important change was the establishment of the MamloukState and the accompanying disturbances, especially in The Levant. One of these changes also was Taymourlank invasion to Minor Asia and its results, which caused a lot of changes in the Middle East.

This paper does not tackle the political aspects only because it touches upon the economic aspects as well – but not economy in the broad sense of the word – as this is a wide domain and needs separate studies. This paper tackles the political economy,

i.e. the effect of economy on the international policy. So, chapter five views the most important trade centers and routes, exchanging goods and the international trade forces and their relationships with the political and military forces.

In the Conclusion, the results which the researcher came up with were viewed and the appendixes, resources and references which the researcher used were listed at the end of this paper.

الفصل الأول:

نشاط المغول في مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك حتى قبيل
الغزو التيموري

أولاً: معركة عين جالوت.

ثانياً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر
بيبرس "658-677هـ / 1260-1276م".

ثالثاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور
قلاوون "679-689هـ / 1280-1290م".

رابعاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف
خليل "689-693هـ / 1290-1293م".

خامساً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الناصر
محمد بن قلاوون "سلطنته الثانية والثالثة 698-741هـ / 1299-1341م".

تمهيد:

تمكن المغول في مدة وجيزة من إخضاع معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف آنذاك، فتوغلوا في أراضيه يقتلون، ويفتكون، ويهتكون، ويحطمون العروش، وقد تم الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي على مرحلتين، الأولى في عهد جنكيز خان مؤسس إمبراطورية المغول، فكان هجومه على العالم الإسلامي جزء من إستراتيجيته في السيطرة على العالم بأسره، سيطر جنكيز خان على معظم أراضي الدولة الخوارزمية الإسلامية التي كانت تحكم بلاد وراء ما النهر، وخوارزم، وأجزاء من خراسان وشرق إيران، وكانت المرحلة الثانية على يد هولاكو حفيد جنكيز خان، فقد استولى هذا على إيران والعراق وبلاد الشام ووصل إلى حدود مصر الشرقية عند غزة.

رافق هذا الاجتياح عمليات إبادة وحشية للشعوب الإسلامية في تلك الأقاليم، بكل حقد وسادية، وبدون تمييز، وبشكل يصعب على الإنسان تصوره، وكفى بوصف المؤرخ ابن الأثير لهذا الاجتياح_ مع اعتراف ابن الأثير بعجزه عن وصف ما حدث بشكل كامل لتوضيح قليلاً مما حدث، فكان مما قاله في هذا الشأن: " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أُمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، إلا أني حتني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبئل بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله باختصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاحين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه إلى أن يفرض العالم وتقنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنّة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شرها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح".

بعد هذا الوصف تحدث ابن الأثير عن فتوحاتهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وروسيا ثم قال: " هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي انفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحد إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبيت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه، ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبطل بها أحد من الأمم منها، هؤلاء النتر قبّحهم الله أقبلوا من المشرق، فعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها".⁽¹⁾

بالإضافة إلى هذا النص المهم لا بد من ذكر القليل عن حياة المغول؛ يمكن القول بأن منغوليا التي تمتد بين سيبيريا شمالاً والتبت جنوباً، وبين منشوريا شرقاً وتركستان غرباً هي الموطن الأصلي للمغول، وهذه يمكن تقسيمها إلى قسمين؛ الشمالي الغربي منها يتكون من مرتفعات وجبال بينها هضاب ووديان، والجنوبي الشرقي أو ما عرف بصحراء غوبي (شامو) يتكون من سهل متسع تغطيه الحصباء والصخور مع وجود بعض الأنهار والبحيرات، والمناخ هناك قاسٍ؛ ففي فصل الشتاء الذي يمتد على معظم أيام السنة قد تصل فيه الحرارة إلى 58 درجة تحت الصفر، وفي فصل الصيف قد تصل الحرارة إلى 60 درجة، كما أن الرياح هناك شديدة.⁽²⁾

(1) ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد، ت: 630هـ): الكامل في التاريخ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 9/ 329-330.

(2) Howorth، (H.H:A History of the Mongols(Erom The 9th Century London 1880-، part 1. P.10-13، 1888)، 16-17.

مصطفى بدر: محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1999م، ص73-75.

المنطقة فقيرة بالنباتات، وغالبا ما كانت النباتات التي تنمو في صحراء غوبي تشكل مراعي للخيول والأغنام، هذا المناخ فرض على المغول حياة البداوة، فقد كانت عندهم قدرة عالية على تحمل البرد والحر والجوع، كما ساد بينهم النظام القبلي بكل صفاته، وكانت طاعتهم لسيدهم مطلقة، فقد ورد عند الفلقشندي في هذا الشأن: " وأما حالهم في طاعة ملكهم، فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلطينهم، لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم، حتى أنه إذا كان أمير في غاية القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنباً توجب عقوبته وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل".⁽¹⁾ وأما عن شجاعتهم فقد تحدث ابن الأثير على لسان أحد المغوليين عن ذلك فقال: " إن قيل إن التتر يُقتلون فصدقوا وإن قيل إنهم ينهزمون فلاتصدقوا".⁽²⁾

أما ديانة المغول فهي الديانة الشامانية Shamanisun، والمغول طبقاً لهذه الديانة يعبدون كل شيء عظيم يعجزون عن إدراكه مثل الشمس والقمر والبرق.....⁽³⁾

أولاً: معركة عين جالوت:

وصلت هذه الجحافل مع حلفائها من الأرمن والكرج إلى بلاد الشام بعد أن قضوا على كل قوة حاولت الصمود في وجههم، ويسقط المدن الثلاثة الكبيرة، بغداد، و حلب، ودمشق، -كما يقول أحد المؤرخين- "تراءى كأن الإسلام في غرب آسيا حان أجله".⁽⁴⁾

(1) الفلقشندي: صبح الأعشى، 311/4.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 342/9.

(3) الفلقشندي: صبح الأعشى،

(4) رنسيان: الحروب الصليبية، 528 /3

وإذا نظر المعاصر إلى هذا؛ مع ما كان يحدث في الأندلس وسواحل المغرب العربي، خُيِّل له أن الإسلام والمسلمين إلى زوال كامل، ولكن هذا ما لم، ولن، يحصل لأن الله وعد في كتابه الكريم (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)⁽¹⁾.

لهذا الأمر غيّرت معركة عين جالوت على أرض فلسطين المفاهيم، وقلبت الموازين، فكانت أول معركة يُهزم فيها المغول، وقد ترتب عليها نتائج عديدة حفظت الإسلام والمسلمين والحضارة الإنسانية في حوض البحر المتوسط.

1- الأوضاع على الجبهة الإسلامية:

نتيجة للانتصارات المتتالية التي حققها المغول، واكتساح الأراضي الإسلامية، دبّ الرعب في سائر البلاد، وترك في صدور الناس أثراً عميقاً جعلهم يعتقدون بأن هذا العنصر الغريب لن تستطيع قوة على وجه الأرض إيقافه، وزاد هذا الشعور بعد سقوط بلاد الشام ووصولهم إلى مشارف مصر.

إلا أن الموقف في مصر كان مختلفاً تماماً، وكان كل شيء فيها ينبئ بأن هناك قوة جديدة وليدة، بدأت تظهر في مصر، وكانت تلك القوة هي المماليك- الذين أطاحوا بالصلبيين في فارسكور والمنصورة-، وقد زادت أهميتهم بعد اعتلاء السلطان قطز لعرش السلطنة المملوكية في ذي القعدة 657 هـ/ تشرين الأول 1259 م⁽²⁾.

كانت مصر تُحكم قبل قطز من قبل صبي صغير هو المنصور علي بن أيبك كان قد استلم الحكم بعد مقتل أبيه، وله من العمر خمس عشرة عاماً، في حين كان قطز نائباً للسلطنة، وكان هو الشخصية الأبرز في مصر.

تطورت الأمور في بلاد الشام ومصر، ومهدت كلها لاعتلاء قطز عرش مصر، فقد بدأت المدن تتهاوى الواحدة تلو الأخرى أمام المغول، حتى وصلوا إلى حلب، وهرب معظم أهلها إلى

⁽¹⁾ سورة الحجر، الآية رقم 9.

⁽²⁾ ابن أيبك: الدرر الزكية، ص 39. المقرئزي: السلوك، 417/1.

دمشق،⁽¹⁾ وكانت هذه الأخيرة تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب؛ وهو حاكم حلب أيضاً، وكان هذا قد اتصل من قبل بهولاكو، وعرض عليه التحالف ضد مماليك مصر،⁽²⁾ لكنه فيما بعد أدرك خطأه وراسل ملوك مصر لتقديم المساعدة العسكرية له لكي يتصدى للمغول.⁽³⁾

وفعلاً وصلت رسالة الملك الناصر إلى القاهرة، وكان يحملها صاحب كمال الدين عمر بن العديم، وعلى الفور عُقد اجتماع في القاهرة ضم القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم بأمر المغول، وخرج المجلس ببعض المقررات،⁽⁴⁾ ولكن المهم أن ما حدث في هذا المجلس هو إدراك العامة والخاصة بأن هذا الصبي الذي يتربع على عرش السلطنة غير مناسب في تلك الظروف، ولاسيما أنه خلال الاجتماع لم يتفوه بكلمة واحدة، فهو لم يكن يمتلك المعرفة ولا الخبرة، عندئذ "لهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم"،⁽⁵⁾ هذا الأمر أوجد سبيلاً لقطز للقول - بعد أن جمع الأمراء - بأنه "لابد من سلطان قاهر يقاثل العدو، والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة"،⁽⁶⁾ هذا في الوقت الذي كثرت فيه مفاصد السلطان المنصور علي، وتدخل أمه في شؤون الإدارة،⁽⁷⁾ هذه الأمور كلها هيأت الظروف لتسلم قطز للسلطنة، حيث انتهز

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، 261/6، 275. ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 44. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 349/1.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 206/6، ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 33، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 56/7، المقريزي: السلوك، 410/1-411.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 72/7، المقريزي: السلوك، 416/1، ابن واصل: مفرج الكروب، 262/6.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، 262/6، المقريزي: السلوك، 416/1-417. وأهم المقررات التي خرج بها هذا الاجتماع هي فتوى ابن عبدالسلام بجواز جمع الأموال من الرعية.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 73/7.

(6) المقريزي: السلوك 417/1-418. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 72/7-73. ابن واصل: مفرج الكروب: 262-263/6.

(7) المقريزي: السلوك 417/1-418. النويري: نهاية الأرب، 478/29. ابن واصل: مفرج الكروب: 194/6، 196، 199، 201، 261-263.

هذا الأخير فرصة خروج الأمراء للصيد فقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهما بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر في ذي القعدة 657هـ/1259م⁽¹⁾.

ومنذ البداية أظهر السلطان قطز دهاء وحنكة لتفادي ردات الفعل على عملية الانقلاب هذه، وأظهر براعة في سبيل توحيد كلمة المسلمين أمام المغول، فداخلياً: عندما نصب نفسه سلطاناً على مصر بعد خلع المنصور علي، واجه معارضة من قبل بعض الأمراء، إذ أنكروا عليه عمله، ولكنه سوَّغ موقفه، وطمأنهم بقوله: "وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم أقيموا بالسلطنة من شئتم"⁽²⁾، فهدأوا وطمأننت قلوبهم.

أما خارجياً: فهناك الملك الناصر صاحب دمشق، والأمير بيبرس مع مماليكه البحرية⁽³⁾، قوتان مسلمتان لا بد من ضمهما إلى القوة الأساسية في مصر، وتوحيدهم في جبهة واحدة.

● فالنسبة للملك الناصر الذي كان معادياً للمماليك في مصر، وكان يطمع دائماً في ضم مصر إلى ملكه باعتبارها من ميراث الدولة الأيوبية، وفي سبيل ذلك قام بمهاجمة مصر⁽⁴⁾،

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، 262/6-263، ابن أيبك: الدرّة الزكية، ص 39. المقرئزي: السلوك 417/1. أبو الفداء: المختصر، 307/2-308.

(2) المقرئزي: السلوك 418/1.

(3) سلف الحديث في الفصل الأول أن الملك الناصر هذا كان صاحب حلب، ولما تسلطت شجر الدر استدعاه أهالي دمشق لحكمها، فأصبح يحكم دمشق وحلب، وأما بيبرس فهو أحد أمراء البحرية، بل هو زعيمهم، هرب من القاهرة إلى دمشق بعد مقتل فارس الدين أقطاي وانقلاب أيبك على البحرية سنة 655 هـ، فالتجأوا إلى الناصر، ثم تغير عليهم الناصر فالتجئوا إلى المغيـث عمر صاحب الكرك، ولما تغير عليهم هذا الأخير عاد بيبرس وبعض الأمراء إلى الناصر في دمشق، وظلوا في خدمته حتى قدوم التتار سنة 658 هـ حيث عادوا إلى مصر واستقبلهم فيها قطز أحسن استقبال.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، 156/6، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 6/7.

كما قام بمراسلة المغول يعرض عليهم التحالف ضد مماليك مصر،⁽¹⁾ لكنه عندما أدرك مخاطر ذلك، وأن المغول لا أمان لهم؛ تراجع عن موقفه وأسرع بمراسلة المماليك في مصر - كما تقدم-، فاعتتم قطز الفرصة بعد تسلمه السلطنة- وكان رسول الملك الناصر (ابن العديم) لا يزال موجوداً في القاهرة- فقام بالرد على رسالة الناصر برسالة أرسلها له مع قاضي القضاة برهان الدين السنجاري، وفي هذه الرسالة عرض قطز استعداداه لتقديم المساعدة للناصر ونجدته،⁽²⁾ فقام الملك الناصر ورحل من دمشق باتجاه مصر، بناءً على ما جاء في رسالة قطز، ومعه الملك المنصور صاحب حماه، وعندما وصلا إلى قطية "قطيا"⁽³⁾ عاد الملك الناصر ومعه بعض الأمراء إلى فلسطين، إذ أنه لم يأمن جانب السلطان قطز، في حين سار معظم العسكر مع الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر، و معهم حريم الناصر وأولاده، وفي فلسطين قبض التتار على الناصر وولده العزيز حيث سُيرا إلى هولوكو في حلب، ولما عاد هولوكو من حلب إلى بلاده أخذهما معه ، وعندما علم هولوكو بخبر عين جالوت وهزيمة جنده قتلها،⁽⁴⁾ والمهم هنا هو توجه معظم العسكر الشامي إلى مصر بقيادة الملك المنصور وانضمام هذا العسكر إلى جانب العسكر المصري في معركة عين جالوت.

• أما بالنسبة للأمير بيبرس البندقداري، الهارب من مصر مع مماليكه البحرية منذ أيام أيبك، فقد تنقل ما بين دمشق وحلب والكرك وغزة، وطال به الترحال بين هذه النيابات، وعندما اجتاح المغول حلب كان موجوداً بها، وتعرض لمطاردتهم، فأخذ فرس خشداشه سنقر الأشقر

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 56. ابن واصل: مفرج الكروب: 6/206. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص33.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 6/263، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: 7/ 73. أبو الفداء: المختصر، 2/ 308.

(3) قطيا (قطية) قرية في طريق مصر قرب الفرما، الحموي: معجم البلدان، مادة قطية.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، 6/280، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/27-28، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ص76-77، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 1/ص350، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 11.

الذي وقع في أسر المغول، في حين هو تمكن من الفرار إلى دمشق،⁽¹⁾ ولما ثبت له بأن أمراء بني أيوب عاجزين عن مقاومة هذا الخطر، اصطدم معهم، واتهمهم بأنهم "سبب هلاك المسلمين"،⁽²⁾ ثم ترك دمشق ورجع إلى غزة، ومن هناك سير إلى السلطان قطز يطلب منه الأمان، فكتب إليه قطز بأن يقدم إليه، ووعدته الوعود الجميلة، وعندما وصل ببيرس ومماليكه البحرية إلى مصر في ربيع الأول 658هـ / 1260م، خرج السلطان قطز للقاءه، وأنزله بدار الوزارة بالقاهرة تعظيماً له، وأقطعته قليوب وأعمالها.⁽³⁾

وبهذا العمل يكون السلطان المظفر قد نجح في الجولة الأولى، فقد تمكن من إيجاد تعاون وثيق بين مصر والشام، وتضمين معظم العساكر الشامية في جيشه.

كان هولأكو على رأس حملة ضخمة تم إعدادها والاعتناء بها بشكل مميز من قبل أخيه منكوخان، الذي انتخب خاناً أعظم للمغول في مجلس القوريلتاي سنة 649هـ / 1251م، فقد وضع تحت تصرف هولأكو قسم كبير من الجيش المغولي، مزود بألف رجل من خبراء إدارة آلات الحرب وقاذفات النفط التي جلبها من بلاد الخطا لهذه الغاية، واخذ إثنين من كل عشرة رجال من جنود المغول ليكونوا حرساً خاصاً لهولأكو، كما زودهم بحاجتهم من المؤن والعتاد،⁽⁴⁾ تم إعطاه تعليمات مفصلة عن طبيعة مهمته،⁽⁵⁾ وقد سار هذا الأخير حسب الخطة المرسومة له ويمكن تتبع مسير حملته انطلاقاً من: قراقورم إلى إيران حيث قضى على قلاع الإسماعيلية هناك سنة

(1) سمباط: تاريخ سمباط، 36/345، غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص427. في الفصل الثالث سيتم الحديث عن كيفية تحرير سنقر الأشقر من أسر المغول.

(2) المقرئزي: السلوك 1/2/419-420.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، 6/267، أبو الفداء: المختصر، 2/309، المقرئزي: السلوك، 420/1.

(4) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 263. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص193.

H.H:A History of the Mongols. Part 1. P.193،Howorth

(5) رشيد الدين: (فضل الله الهمذاني): جامع التواريخ، تر: محمد صادق نشأة وفؤاد الصياد ومحمد هندأوي، وزارة الثقافة، القاهرة، 236-237/1/2.

654هـ/1256م، ومنها سار إلى همدان فسيطر عليها سنة655هـ/1257م، ومنها إلى بغداد فسيطر عليها سنة656هـ/1258م، ومنها سار إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين فسيطر عليها بعد حصار طويل، وفي الوقت نفسه سيطر على الرها وحران ثم سار إلى البيرة فسيطر عليها سنة657هـ/1259م، ومنها سار إلى حلب فسيطر عليه ودمرها، ومن حلب عاد إلى مراغة بسبب وفاة منكوخان، وحدثت منازعات على منصب الخان، في حين استمرت حملته في المسير بقيادة نائبه كتبغا الذي سار إلى دمشق فسيطر عليها سنة657هـ/1259م، وفي طريقه كان قد احتل حماه، والمعرة، وحمص، وبعلبك، وغيرها وصولاً إلى الحدود المصرية في غزة.⁽¹⁾

وفي أثناء وجود هولوكو في حلب أرسل برسالة إلى السلطان المظفر قطز تحوي أصنافاً شتى من التهديد والوعيد، وتطالبه بإعلان الخضوع لهولوكو وتسليم البلاد.⁽²⁾

تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة، فجمع الأمراء لمشاورتهم في الأمر، وبعد أخذ ورد بينه وبين الأمراء، فوضوه بالأمر قائلين له: "مُر بما يقتضيه رأيك"، وعندما أصبح القول له، أعلن الجهاد ضد المغول، قائلاً: "إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإن ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق".⁽³⁾

ولقطع أي تردد في الخروج لمواجهة المغول، أصدر السلطان أوامره إلى ولاية الأقاليم المصرية بجمع الجيوش، وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وطالب الولاة "بازعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع"،⁽⁴⁾ بل أكثر من ذلك قام بالقبض على رسل هولوكو، وأمر بقتلهم، حيث وسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، 243/1/2 وما بعد. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 151-166. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 263-279. سمباط: تاريخ سمباط، 331/36-332. مصطفى بدر: محنة الإسلام، ص 152 وما بعد.

(2) المقرئزي: السلوك 427/2/1-428، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 47-48. النويري: نهاية الأرب، 472/29.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، 312/1/2-313.

(4) المقرئزي: السلوك، 429/1.

آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه.⁽¹⁾

في الحقيقة إن عملية قتل الرسل هذه كانت لقطع الشك باليقين، وليقضي على ضعف الروح المعنوية التي لمسها عند بعض الأمراء من خلال النقاش الذي دار بينهم،⁽²⁾ وأن حالة الحرب مع المغول أصبحت حقيقة واقعة، فقام بتوسيط الرسل كل واحد في موقع مختلف من القاهرة لإعلان النفير العام، وتحريض الناس على الجهاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكون عملية قتل الرسل هذه بمثابة تهديد للتتار ليأخذوا بحسبانهم أن في مصر قوة تختلف عن تلك القوى التي تغلب عليها المغول في مشرق العالم الإسلامي، وأنها غير أبهة بقوتهم وجبروتهم، وأنها خارج نطاق الرعب الذي فرضه المغول على أعدائهم بوحشيتهم، فهو بمثابة حرب نفسية.

وأيضاً قد يكون قطرز أقدم على قتل الرسل إستعداداً للمغول ليجبرهم على قصد مصر، فهولاكو عندما عاد إلى قراقورم سحب معه قسم من الجيش -سيتم ذكر ذلك-، وأمر نائبه كتبغانوين بالبقاء في مكانه حتى يعود إليه هولاكو، وربما ذلك لمعرفته بأن ما تبقى من القوات مع كتبغا لا تؤهله لخوض معركة فاصلة مع الجيوش التي تجمعت في مصر، لكن قتل الرسل أثار غضب كتبغانوين بشكل جعله يقوم بحشد القوات المغولية ومن انضم إليها من الأرمن ويسير بها قاصداً مصر مخالفاً بذلك أوامر هولاكو القاضية بانتظاره حتى يعود،⁽³⁾ وبذلك يكون السلطان قطرز قد فرض على المغول المعركة في ظروف غير مناسبة لهم.

هنا بدأت عملية الاستعداد للحرب المقبلة، عملية جمع الجيوش وجمع الأموال اللازمة لهذه الجيوش.

(1) المقريزي: السلوك، 429/1. النويري: نهاية الأرب، 472/29. ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 48. وهذا الصبي الذي تركه قطرز وجعله من مماليكه، حاول في عين جالوت قتل قطرز غيلةً، لكن قُبض عليه وقتل، انظر، بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 30/9.

(2) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ 312/1/2. فقد أورد تفاصيل النقاش الذي دار بين الأمراء في مصر بعد رسالة هولاكو.

(3) سمباط (المؤرخ الأرمني): تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 332/36.

لقد إجتمع لدى السلطان قطز معظم الجيوش التي هربت أمام جحافل المغول، فقد سلف الحديث عن مسير العسكر الشامي تحت قيادة الملك المنصور إلى مصر، وكيف خضعت القوى في مصر لسلطان قطز في سبيل محاربة المغول، بالإضافة إلى هذه القوى؛ تحدث الهمذاني عن جموع العساكر التي تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداءً من الدولة الخوارزمية، ومروراً ببغداد وشمال العراق وبلاد الشام، وكيف تجمع عدد كبير منهم في الأراضي المصرية، إذ استقبلهم المظفر قطز أحسن استقبال، وطيب خاطرهم ومنحهم العطايا والأموال، واستقروا في مصر ليكونوا جزءاً مهماً من جيشه،⁽¹⁾ بالإضافة إلى هؤلاء العساكر، قام السلطان وأمر داعي الجهاد بالنداء في كافة الديار المصرية وأعلن النفير العام وأرسل خلف عربان مصر⁽²⁾، فاجتمع عنده من عساكر مصر ما يقارب أربعين ألفاً.⁽³⁾

هذا بالإضافة إلى أنه بدأ بمراسلة الأمراء الأيوبيين الذين انضوا تحت لواء المغول، طالباً منهم التخلي عن المغول، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص، إذ أرسل إليه كتاباً يُسفه فيه رأيه على ما اعتمده من ميله إلى المغول، وتفضيلهم على المسلمين، ووعده أنه إذا ما ترك المغول ومال إليه "بشرط أن لا يقاتل معهم إذا كان بينه - أي قطز - وبينهم - أي المغول - مصافاً" أبقى على ما في يده من البلاد، ولم يطلب منه المشاركة إلى جانب المسلمين في المعركة بل فقط الوقوف على الحياد، وذلك خوفاً عليه من المغول، فأجابه الأشرف إلى ذلك، فعندما طلب كتباً من الأشرف المسير معه إلى عين جالوت، اعتذر وتمارض.⁽⁴⁾

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، 310/1/2 - 311. النويري: نهاية الأرب، 472 / 29.

(2) أفضل المصادر التي تحدثت عن القبائل في مصر هو كتاب المقرئزي (البيان والإعراب عن في أرض مصر من الأعراب)، وقد نشره رمضان البدر وأحمد قاسم ضمن مجموعة باسم رسائل المقرئزي، دار الحديث، القاهرة، 1998م، ص 125-145.

(3) المقرئزي: السلوك، 429/2/1.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان 312/2. العيني: عقد الجمان، 244/1. النويري: نهاية الأرب، 473/29.

وقد رافق عملية التجبيش هذه عملية جمع الأموال اللازمة لتجهيز القوات بما تحتاجه من العدة والعتاد، واعتمد في ذلك على شيخ الإسلام العز بن عبد السلام⁽¹⁾، فقد أصدر هذا الأخير فتوى مفادها أنه: إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتالهم، وجاز للسلطان أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد، وتجهيز العساكر، ولكن جعل الإمام هذا العمل مشروطاً بشرط، وهو أن عملية جمع الأموال من الرعية تتم عندما لا يبقى في بيت المال شيء، ويقتصر الجندي على مركوبه وسلاحه، ويتساوى مع العامي، عندئذ يسوغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء⁽²⁾.

وبناء على هذه الفتوى قرر السلطان قطز "على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد"

وعندما شعر السلطان بأن الحالة أصبحت تسمح بالمسير لملاقاة العدو، سار بنفسه إلى الصالحية ونزل بها، حتى تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والترکمان وغيرهم في يوم الاثنين 15 شعبان 658هـ/ يوليو 1260 م،⁽³⁾ وهنا تكلم السلطان مع الأمراء في موضوع المسير لقتال المغول، فلمس تقاعساً من بعض الأمراء في شأن الجهاد، فقال لهم: "يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا

(1) عز الدين بن عبد السلام الدمشقي الشافعي، إمام عصره، ولد في دمشق سنة 577هـ، وتوفي في القاهرة سنة 660هـ، ولي خطابة دمشق، ثم عزل بعد أن هاجم على المنبر حاكمها الصلح إسماعيل لأنه تنازل عن صفة الشقيف للصليبيين، هاجر إلى القاهرة وهناك ولي القضاء والخطابة، ثم عُزل، انظر: الصفدي (خليل بن أيبك، ت764هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2000م، 318/18-319. وللعز بن عبد السلام عدة كتب نشر معظمها بإيد الطباع في دار الفكر، دمشق، وأهمها كتاب في الجهاد.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 262/6، المقريزي: السلوك، 416/1-417. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 72/7-73.

(3) المقريزي: السلوك 429/2/1. ابن أيبك: الدرّة الزكية، ص 49. والبعض يذكر أن المسير كان في بداية رمضان ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/78. أبو الفداء: المختصر، 2/315.

متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين".⁽¹⁾

طبعاً هذا الخطاب يعكس لنا الحالة النفسية المحطمة عند أمراء المسلمين إبان الإنذار المغولي، التي يؤكدها المؤرخ أبو المحاسن بقوله: "كانت القلوب قد آيست من النصرة على التتار، واجمعوا على حفظ مصر لا غير- أي بدون الخروج للتصدي للمغول- لكثرة عدوهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين"،⁽²⁾ وكان المظفر قطز قد لمس ذلك في نفوسهم، وهذا ما يفسر قتله للرسل، ليظهر الشجاعة، والتصميم، وخاطبهم قائلاً: "أنا ألقى التتار بنفسي"، وهنا لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة والمسير معه.⁽³⁾

2- الأوضاع على الجبهة المغولية:

على الجهة المقابلة، بدأت أحوال المغول- الذين استفادوا كثيراً من الأوضاع السيئة للبلاد الإسلامية- تتبدل بعد أن ترك هولاءكو قيادة الجيوش لنائبه كتبغانوين وعاد يريد قراقورم، إذ قدم عليه وهو في حلب رُسل أخبروه بوفاة أخيه الخان الأعظم منكوخان سنة 655هـ/ آب 1257م، وبحدوث نزاع بين أخويه الآخرين قوبيلاي وأريق بوقا على ولاية العرش، إذ أعلن الأول نفسه خاناً في الصين ونصب الثاني نفسه في منغوليا، وبات من الضروري على هولاءكو الذي يؤيد مطالب قوبيلاي العودة إلى العاصمة،⁽⁴⁾ وربما هناك سبب آخر استدعى قدوم هولاءكو، وهو التهديد

(1) المقرئزي: السلوك 429/2/1 .

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 78/7.

(3) المقرئزي: السلوك 429/1.

(4) Howorth, H.H: A History of the Mongols (From The 9th Century, (London, 1880-1888. part III, P.316

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 28/9. بارتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد عيسى، دار إحسان، دمشق، 1982م ص49. بارتولد شبولر: تاريخ الترك في أواسط آسيا، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، ص 188.

الذي بدأ يواجهه من خانات القبيلة الذهبية، بزعامة بركة خان الذي أسلم وحمل هولاكو مسؤولية قتل المسلمين والخليفة، وأعلن أنه سينتقم لدمائهم، وبدأ بالغارات على أراضي هولاكو.⁽¹⁾

في الحقيقة إن مغادرة هولاكو أحدثت تحولات خطيرة في بنية وقوام الجيش المغولي، فهولاكو عندما عاد إلى فارس لم يعد بمفرده بل عادت معه جموع من العساكر ولم يترك لنائبه كتبغا من العسكر-على قول بيبيرس الدوادر- إلا حوالي 12 ألف فارس، بعد أن هون عليه الناصر صاحب حلب ودمشق أمر مصر والمماليك،⁽²⁾ أما ابن العبري فيذكر أن القوة التي أبقاها هولاكو مع كتبغا هي عشرة آلاف مقاتل،⁽³⁾ أما المؤرخ الأرمني المعاصر سمباط، فذكر أن هولاكو عندما عاد إلى الشرق اصطحب معه ابنه أبغا، وقام الأخير بسحب جيشه معه،⁽⁴⁾ ولم يأت على ذكر تعداد العساكر المنسحبة أو الباقية، وعلى كل حال فإن الجيش المغولي الذي سار إلى دمشق لم يكن- من حيث العدد- كما كان سابقاً.

أما بالنسبة لصليبي بلاد الشام، فمع أن بوهيمند السادس ملك أنطاكية، وهيثم ملك الأرمن كانا يشاركان في عمليات الجيش المغولي على الأراضي الإسلامية،⁽⁵⁾ وعلى الرغم من الميول الظاهرة عند هولاكو نحو المسيحيين، بشكل جعل أحد مؤرخي الأرمن يصفه بأنه صديق ودود للمسيحيين،⁽⁶⁾ إلا أن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم، في الوقت الذي أدركوا فيه أن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة، بل يريدونهم تابعين للخان الكبير، لذا كان هؤلاء الصليبيون يؤثرون المسلمين ويفضلونهم على العنصر الغريب المتغطرس القادم من الصحارى النائية، والذي كان سجله في شرق أوروبا داعياً

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/332/1.

(2) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/27-28.

(3) ابن العبري (غريغوريوس الملطي، ت:1268م): تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، 1992م، ص 280، رنسيما: الحروب الصليبية، 3/532. وربما الصراع الذي حدث على منصب الخان والتهديد الذي بدر من قبل مغول القفجاق هو الذي دفع هولاكو إلى سحب معظم جيوشه معه.

(4) سمباط: تاريخ سمباط، 36/332.

(5) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 42-43.

(6) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 421.

للفنور⁽¹⁾، وقد تطوّر هذا الشعور عندما هاجم أحد البارونات والمسمى جوليان الصيداوي (Julian de sidon) دورية مغولية، وقتل ابن أخ كتبغا، فسخط المغول وقرروا الانتقام، فهاجموا مدينة صيدا، وأنزلوا بها خسائر فادحة⁽²⁾، ولهذا السبب ولغيره التزم الصليبيون الحياد في معركة عين جالوت.

وبالنسبة لعودة هولكو إلى قراقورم، فقد أثرت سلباً على مجريات الأحداث، لأنه من الأفضل - كقاعدة عسكرية - أن يبقى القائد الذي كان قبل القتال ممارساً لقيادته؛ يبقى هو نفسه أثناء القتال، لأن المقاتلين اعتادوا على هذه الممارسة، ويكون القائد قد عرف المقاتلين بشكل جيد حتى يوزعهم في الأمكنة المناسبة، زد على ذلك إن هذا الجيش، بقي بمفرده بدون جيش إحتياطي، وبدون قاعدة قريبة يستطيع أن يطلب منها الإمدادات، وخاصة أن قاعدة هذا الجيش البعيدة أيضاً مشغولة بالقتال الداخلي.⁽³⁾

وبهذه المقارنة البسيطة يتبين أن جبهة المسلمين جبهة موحدة، مقابل جبهة حلت بها عوامل الضعف والانقسام والتصدع، وقد ذكر ذلك المؤرخ الأرمني غريغوري أوف أكانك؛ عندما قال أن الجيش المغولي كان قبيل معركة عين جالوت يعيش حالة عدم إستعداد.⁽⁴⁾

3- بدء المسير:

يُلاحظ في معركة عين جالوت حالة جديدة، لم يألفها الجيش المغولي من قبل، وهي خروج الجيوش الإسلامية لقتاله، في حين أن المسلمين قبل ذلك التزموا مبدأ الدفاع والتحصن داخل مدنهم، منتظرين الهجوم المغولي عليهم، متناسين أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، أما في معركة عين جالوت فقد اتبع المماليك إستراتيجية جديدة، وهي منازلة العدو قبل وصولهم إلى مصر،

(1) رنسيان: الحروب الصليبية، 534/3، 513-535.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 43-44، ابو شامة: الذيل على الروضتين، 410/20.

رنسيان: الحروب الصليبية، 3 / 529-530.

(3) محمد ظاهر وتر: معركة عين جالوت ص 116-117.

(4) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 425.

وبالتالي فرض مكان المعركة المناسب للمماليك، والذي كان له أثره في انتصارهم، أما إذا حلت بهم الهزيمة سيكون عندهم فرصة أخرى للتراجع، وإعادة تجميع قواهم من جديد، ومنذ ذلك الوقت دافع المصريون دائماً عن مصر في بلاد الشام.

تقع عين جالوت في سهل مرج ابن عامر في الجزء الجنوبي الشرقي منه في شمال فلسطين، يحدها من الشمال الشرقي الناصرة، ومن الجنوب جنين، ومن الجنوب الغربي الكرمل وجبال نابلس، ومن الشرق جبال فقوعة، ووادي جالوت، ومن الشمال الغربي تلال شفا عمرو، وهي قريبة من جبال الفقوعة وتحيط بها الأنهار والوديان.⁽¹⁾

أيضاً تكثر في المنطقة الينابيع والعيون الصالحة للشرب، مثل عين العاصي، وعين الجندي، وعين البادية، وعين نصر، وعين موسى... الخ⁽²⁾، وتحيط بها الجبال والتلال، أما بالنسبة للسهول فأهمها سهل مرج ابن عامر، الذي يبلغ طوله حوالي 40 كم شرقاً وغرباً بعرض 20 كم شمالاً وجنوباً⁽³⁾.

هذا السهل هو أوسع السهول الموجودة في فلسطين، وأغناها بالتربة والمياه، يميل هذا السهل من الجهة الجنوبية الشرقية، من جنين، حيث يتدرج بالانخفاض البطيء باتجاه الشمال الغربي إلى منتصف السهل (إلى جنوب العفولة)، وبالمقابل يتدرج بالميل من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية حتى منتصف السهل أيضاً، وعندما تلتقي الميول تتجه نحو الغرب حتى تصل إلى العجرة، وتكثر في هذا السهل الطرقات والمدقات من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، ويسهل فيها السير للراكب والراجل.

(1) محمد محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، دار المأمون، دمشق، 1987م، ص 557. سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، 542/2. محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص 81.

(2) قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت 1969م، ص 55-69.

(3) موسوعة فلسطين الجغرافية، ص 188.

ومما لاشك فيه أن هذا السهل هو أنسب مكان للقتال، وبالأخص منطقة عين جالوت، وذلك لأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس، كما أن المنطقة الشرقية فيها وديان وأحجار كثيرة، وأخايد تحد من الحركة، وتقيّد من المناورة، وبالنسبة لسهل بيسان فهو شديد الحرارة، وفيه من السباح ما لا يؤمن الشروط المناسبة للقتال،⁽¹⁾ لذا نجد أن اختيار مكان اللقاء كان موفقاً إلى حد ما، ناهيك عن أن الجيش وإن لم يكن جيشاً عظيماً، ولكنه جيشاً محترفاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، سواء من حيث التسليح أو التدريب أو المقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي.⁽²⁾

بدأ مسير الجيش المملوكي انطلاقةً من الصالحية باتجاه فلسطين، فكانت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس الذي تقدم الجيش بفرقة مهمتها استطلاع أخبار المغول، وتمهيد الطريق للقوت الرئيسية الزاحفة خلفه، فسار الأمير بيبرس حتى نزل غزة في شعبان 658هـ/ يوليو 1260م، هذا في الوقت الذي كان فيه بيدرا قائد طليعة جيش المغول أيضاً تقدم بقواته حتى وصل إلى غزة، وعندما رأى الطليعة الإسلامية بقيادة بيبرس أرسل إلى كتبغا الذي كان بالقرب من بعلبك يخبره بتحركات جيش المسلمين، ويطلب منه المدد، فرد عليه كتبغا يطلب منه الانتظار والثبات في مكانه حتى تأتيه النجدة، ولكن الأمير بيبرس لم يمهله، إذ بادره بالهجوم، فانكسر التتار، وطاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، وملك غزة بالقوة.⁽³⁾

هذه المعركة تعتبر أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمين على المغول، فقد أفادت المسلمين كثيراً من الجانب المعنوي، وكانت دافعاً قوياً لهم للتوجه إلى عين جالوت ليتسنى لهم اللقاء بشكل أفضل، أيضاً أفادت هذه المناوشة في أنها قدمت للمماليك استطلاع قتالي مباشر،

(1) محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص 88-89.

(2) سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ص 540.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 1/365-366. المقريري: السلوك 1/429-430. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 49. رشيد الدين: جامع التواريخ 1/2/313. يذكر رشيد الدين أن قطز هو الذي هاجم بيدرا عند غزة، ولكن من خلال تسلسل الأحداث تبين صحة رواية المقريري في أن بيبرس هو الذي هاجمه.

واختبار لقدرات العدو وأساليب قتاله،⁽¹⁾ كما قدمت معلومات مموهة عن طبيعة الجيش المملوكي وتعداده وتحركاته وقطعه الرئيسية الموجودة مع قطز؛ الذي عرج - قبل الذهاب إلى عين جالوت- إلى عكا أولاً لاستطلاع موقف الصليبيين، طالباً منهم السماح للجيش الإسلامي باجتياز الأراضي التي بحوزتهم والتزود بالمؤن، فوافقوا، وأكثر من ذلك؛ عرضوا عليه المساعدة ضد المغول، لكنه اكتفى بأن أخذ منهم وعداً بالوقوف على الحياد" لا له ولا عليه"، ثم وجّه إليهم تحذيراً بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد إلحاق الأذى بالمسلمين، رجع إليهم وقائلهم قبل أن يقاتل المغول،⁽²⁾ لكن الصليبيين كانوا قد وافقوا طواعية على مطالب قطز، لأنهم كانوا مستاءين من تصرف المغول في صيدا،⁽³⁾ وبالتالي "أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول".⁽⁴⁾

4- الاشتباك:

قبل الخوض في تفاصيل معركة عين جالوت تجب الإشارة إلى أن الجيش المملوكي لم يشتبك من قبل في معركة مع الجيش المغولي، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه يجهل تماماً أساليب القتال المغولية؛ فالعساكر الشامية؛ وغيرها من العساكر الإسلامية التي تراجعت أمام المغول وتجمعت في مصر-كما سلف الحديث-، كانت قد اشتبكت مع المغول في معارك سابقة، ومن الممكن أن تكون هذه العساكر قد قدمت معلومات مفيدة عن الفنون القتالية لدى المغول، زد على هذا أن ابن عبد الظاهر تحدث صراحةً عن أهمية المعلومات التي حصل عليها بيبيرس باشتباكه- سالف الذكر- مع بيدرا، فقال: "وردت رسل الملك الظاهر ينذر الناس، ويعلمهم بقرب العدو، وينبه على عورات العدو، ويقللهم في أعينهم، ويجسرهم على انتهاز الفرصة، وكان ذلك أحد أسباب

(1) يشير ابن عبد الظاهر إلى أهمية المعلومات التي قدمها الظاهر بيبيرس عن قوات التتر من خلال غاراته

الاستطلاعية، أنظر: ابن عبد الظاهر (محي الدين، ت692هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح:

عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص 64.

(2) المقرئزي: السلوك 430/1. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 46-47.

(3) الفارس الداوي: المصدر السالف، ص 46

(4) رنسيان: الحروب الصليبية، 532/3.

النصر"،⁽¹⁾ كما أن جواسيس المماليك كانوا ينقلون لهم أخبار المغول أول بأول،⁽²⁾ والأهم من هذا كله أن السلطان قطز كان قد حصل قبل الاشتباك مع المغول على معلومات قيّمة من صارم الدين أزيك، صارم الدين هذا كان مملوكاً للأشرف صاحب حمص، وقد دخل في خدمة هولاكو، فوثق به هولاكو وقربه إليه، ولما غادر هولاكو حلب أوكل لهذا المملوك مهمة استشارية؛ وهي أن يقدم المعلومات لكتبغا وبيدرا والتي تساعدهم في دخول مصر ثم أمره بالتوجه إلى كتبغا، فقال هذا المملوك: " لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية.... بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبيرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرفهم بأن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، ... وكنت قلت في جملة كلامي: قل للأمرء لا تخافوا، ها أنا ذا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان ".⁽³⁾

بعد أن أنهى السلطان قطز مفاوضاته مع الصليبيين توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي، فاجتاز الناصرة في طريقه إلى عين جالوت، الواقعة بين بيسان ونابلس،⁽⁴⁾ وكان كتبغا قد وصل إلى أرض المعركة " وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب "،⁽⁵⁾ وبدأ الأمير بيبيرس يناوش المغول، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت.⁽⁶⁾

(1) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 64.

² سمباط: تاريخ سمباط، 36/ 332.

(3) وردت هذه الرواية في تاريخ قرطاي العزي الخازنداري، وينقلها الدكتور أحمد عبادي كاملة في كتابه: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، الملحق رقم 3، ص 256.

كما أوردها ابن أبيك في كتابه الدرّة الزكية، ص 53-57، مع اختلاف جوهري وهو عندما أرسل إلى المماليك طلب منهم أن يقووا الميمنة الإسلامية، أما في رواية الخازنداري طلب منهم أن يقووا الميسرة الإسلامية.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة عين.

(5) رشيد الدين: جامع التواريخ 1/ 2/ 313.

(6) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 1/ 366.

كان المصاف الأعظم في يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ/ أيلول 1260م، وكان اللقاء بعد طلوع الشمس، ويتحدث صارم الدين عن تفاصيل ما قبل اللقاء، أثناء قدوم عساكر المسلمين، قائلاً: " فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا، وظللت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم منحدرون من الجبل، وقال لي: يا صارم ! هذا رنك⁽¹⁾ من؟ قلت: سنقر الرومي، ثم ظهرت سناجق صفر، قال: هذا رنك من؟، قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب⁽²⁾ أولاً فأول وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات⁽³⁾ والطبلخانات⁽⁴⁾ وامتلاً الوادي والبر من العياط وغابت

(1) رنك: كلمة فارسية بمعنى اللون، وقد استعملت كشعار للوظائف، وكان من عادة كل أمير مملوكي كبيراً أو صغيراً أن يكون له رنك خاص به، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الأمير فعند ترقيته إلى مرتبة أعلى، أو على الوظيفة التي يؤثر أن يعرف بها من بين الوظائف التي شغلها، وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم وأملاكهم ومراكبهم، وحتى على السيوف والأقواس الخاصة بهم وبممالिकهم.

القلقشندي: صبح الأعشى: 61/4-62.

(2) طلب: الفرقة من المماليك خاصة بأمر من الأمراء وجمعها أطلاب، وعدد عسكره 70-200 فارس في ميدان القتال، ثم استخدم للدلالة على الكتيبة. محمد أحمددهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، 1990م، ص 108.

(3) الكوسات هي صنوجبات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي. القلقشندي: صبح الأعشى، 9/4، 13. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 113.

(4) الطباخانة كلمة فارسية معناها بيت الطبل، أو الفرقة الموسيقية السلطانية، وكانت العادة أن تدق كل ليلة في القلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب. القلقشندي: صبح الأعشى، 8/4، 9، 13. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص 106.

وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غراً بمعرفة رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني هذا رنك من؟، فصرت أي شيء طلع على لساني قلته".⁽¹⁾

ومن جانب المسلمين فقد سيطر عليهم الخوف من التتار، فعندما قدم رسول صارم الدين إلى المماليك " وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً"،⁽²⁾ وعندما التقى الجمعان في عين جالوت كان " في قلوب المسلمين وهم عظيم من التتار"،⁽³⁾ بدأ القتال؛ وكان قتالاً شديداً لم يشاهد مثله من قبل، فانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر، فحمل السلطان قطز بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة، حتى تحاربوا وتراجعوا و جبر ضعفها، واشتد القتال، والسلطان المظفر يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت، ويكرّم بهم كرامة بعد كرامة.⁽⁴⁾

وعندما رأى اضطراب عسكره، ألقى عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته وإسلامه، فالتفت حوله القوات وحملوا على المغول حملة رجل واحد، فاختل توازن المغول، في الوقت الذي كان فيه الأمير بيبرس قد نصب كميناً للتتار في المنطقة، إذ عمد إلى إخفاء بعض قواته في الأحراش وبين الأشجار المحيطة بعين جالوت لتضليل العدو بطليعة المسلمين، إلى أن وصلوا إلى الكمين الذي أعده لهم الأمير بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسل المسلمين في قتال المغول إلى أن فتح الله عليهم بالنصر، وقتل كتبغا.⁽⁵⁾

انهارت جموع المغول، ولاذوا بالفرار، ثم أنهم عادوا وانتظموا مرة ثانية بالقرب من بيسان في مصاف أعظم من الأول، لاحتواء الهزيمة التي حلت بهم في عين جالوت، وكان هذا اللقاء

(1) انظر رواية صارم الدين أزيك عند العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ملحق 3، ص 267-

..268

(2) رواية صارم الدين أزيك، ص 267 .

(3) المقرئزي: السلوك، 430/2/1

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 79/7.

(5) المقرئزي: السلوك 430/2/1، رشيد الدين: جامع التواريخ، 314/1/2. النويري: نهاية الأرب،

474/29. أبو الفداء: المختصر، 315/2.

أشد من سالفه في عين جالوت، تزلزل فيه المسلمون زلزلاً شديداً، ثم عاد السلطان قطز يصرخ بشكل سمعه معظم العسكر، وهو يقول: وا اسلاماه، ثلاث مرات، " يا الله انصر عبدك قطز على التتار"،⁽¹⁾ فقويت عزائم المسلمين، وانتهى أمر هذه الواقعة التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة عدة مرات إلى نصر المسلمين وهزيمة المغول، فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرياً لله تعالى، ثم ركب لينظر عاقبة المغول، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم⁽²⁾.

ويذكر ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت، بل ساق خلف المغول الذين انسحبوا شمالاً عن طريق الساحل فلاقهم عند أفامية وقد تجمعوا ووجدوا صفوفهم للمرة الثالثة، فهاجمهم بكل شجاع وكسرههم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة،⁽³⁾ ويقول ابن تغري بردي أن المطاردة استمرت حتى حلب حيث تم تحرير الأسرى منهم،⁽⁴⁾ وقتل قادة المغول الذين كانوا قد عينوا حكاماً على المدن الشامية، وأسروا نساءهم وأطفالهم،⁽⁵⁾ وعندما وصلت أخبار الهزيمة إلى هولاكو استبد به الغضب، وأراد إرسال جيش آخر لمحاربة المماليك،⁽⁶⁾ غير أن خلافات حادة وحروب أهلية وقعت بينه وبين أقاربه حكام القبيلة

(1) المقرئزي: المصدر السالف، 431-430/2/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 79/7، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 366/1.

(2) المقرئزي: المصدر السالف، 431-430/2/1. ابن تغري بردي: المصدر السالف، 79/7، اليونيني: المصدر السالف، 366/1. وقد كتب الأديب المصر أحمد علي باكثير رواية وإسلاماه، وصف فيها تفاصيل المعركة بصورة أدبية رائعة.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 65.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 82/7.

(5) رشيد الدين: جامع التواريخ، 316/1/2.

(6) سمباط: تاريخ سمباط، 332/36.

الذهبية حالت دون تنفيذ رغبة هولاكو، فَعَدَلَ عن فكرته، وكل ما استطاع عمل آنذاك هو قتل الملك الناصر صاحب حلب ودمشق، مع أمراء الشام الذين كانوا أسرى عنده. (1)

5- نتائج عين جالوت

تأتي أهمية الوقائع بما تحدّثه من تغييرات، وبما تخلفه من آثار، وتعد معركة عين جالوت من أهم أحداث التاريخ، ونقطة تحول كبرى فيه، ترتب عليها نتائج بالغة الأهمية سياسياً وعسكرياً، على مستوى الغرب والشرق، وبرهنت أن الاحتراف العسكري المدعوم بالظهير الشعبي، والمستند على الإيمان، والمتحلي بالعبقريّة يمكنه أن يهزم أية قوة مهما بلغة جبروتها.

في الحقيقة لا يمكن الحديث عن هذه المعركة دون التعرض للنتائج التي خلفتها، والتي ساهمت في تغيير ميزان القوى وتبديل أوضاع مشرق البحر المتوسط، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وقد تمثلت النتائج بنقاط عديدة، أهمها:

• تحرير بلاد الشام من حكم المغول، ودخولها في وحدة شبه طوعية مع مصر تحت حكم المماليك:

فباحتيال حلب ودمشق وباقي بلاد الشام من قبل المغول "انقضت المملكة الناصرية - نسبة للناصر صاحب حلب ودمشق الذي قتله هولاكو - وبانقضائها انقضت الدولة الأيوبية من البلاد الشامية، كما زالت من الديار المصرية"، (2) ولكن بعد معركة عين جالوت وانسحاب المغول شمالاً وقتل نوابهم في بلاد الشام - كما تبين - حدث فراغ في السلطة في بلاد الشام؛ فملأه المماليك بحكم انتصارهم، وأصبح قطز سيد الموقف في بلاد الشام، وهكذا كما أن حكم المماليك لمصر جاء كنتيجة لغزو خارجي هو الحملة الصليبية السابعة، فإن حكمهم لبلاد الشام جاء أيضاً بنفس الطريقة، نتيجة للغزو المغولي، فهذا الانتصار كان خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة التي

(1) رشيد الدين: المصدر نفسه، 317/1/2، ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي، ت: 723هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1987م، ص 166.

(2) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 27/9. النويري: نهاية الأرب، 472/29.

تتلمس مختلف الوسائل لتدعيمها، ناهيك عن أنها بدأت تحتل مرتبة إجلال واحترام من قبل العالم الإسلامي، فمع قيام هذه السلطنة كان الناس يرفضون حكم المماليك، ولا يريدون إلا حاكماً حراً مولوداً على الفطرة،⁽¹⁾ وفي هذا النصر أثبت المماليك أنهم أهل للحكم، فتروي المصادر أن المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول في اليمن حج بجيش كبير في السنة التالية للموقعة أي في سنة 659هـ/1261م، وفي الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر، فقال له أحد الأمراء: " هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين؟ ". فقال له: " أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتر بالأمس، وأقدم أعلامي لحضوري".⁽²⁾

فنصر عين جالوت كان سبب خلاص الشام من أيدي المغول، وتبعيتها للحكم المملوكي، حيث أقيمت الخطبة باسم قطز في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات،⁽³⁾ وفي الثاني من شوال 658هـ/1260م دخل السلطان قطز دمشق، وأعلنت سائر بلاد الشام خضوعها له باستثناء إمارة الكرك التي كان على حكمها الملك المغيث الأيوبي، فبدأ بترتيب أمور الشام، وتعيين النواب على ولاياتها،⁽⁴⁾ وبذلك يكون السلطان قطز " هو أول من ملك البلاد الشامية واستتاب بها من ملوك الترك".⁽⁵⁾

• كسر شوكة المغول، وتبدد أسطورة أن المغول قوم لا يُهزمون، وانعكاس ذلك نفسياً على الأمراء المماليك في حربهم ضد الصليبيين والمغول مستقبلاً:

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 13/7.

(2) الخزرجي: (علي بن الحسن الخزرجي): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بيسوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط2، 1983م، 124/1.

(3) المقرئزي: السلوك، 431/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/82-83. أبو الفداء: المختصر، 316/2-317.

(4) ابن واصل: مفرج الكرب، 293/6 وما بعد. المقرئزي: السلوك، 1/433. أبو الفداء: المختصر، 315/2-317. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/83-84.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/83. النويري: نهاية الأرب، 29/475-477. أبو الفداء: المختصر، 2/316.

لقد كانت عين جالوت الحلقة الأولى في سلسلة من الوقائع بين المغول والمماليك كان النصر في معظمها من نصيب المماليك، إلا أنه سبق ذلك تاريخ حافل من الانتصارات للمغول، فمنذ خروجهم على المسلمين من سنة 616هـ حتى 658هـ ما لقيهم "عسكر إلا فلوله سوى وقائع كانت بينهم وبين جلال الدين بن خوارزم شاه، انتصف جلال الدين في بعضها، ثم كبسوه على باب آمد وبددوا جمعه"،⁽¹⁾ وقد استغل المغول هذه الخرافة كعامل نفسي كان له أثره في إرهاب خصمهم ودفعه إلى الاستسلام، فمعظم القلاع التي سيطروا عليها خضعت لهم عن طريق المهادنة، ولم تقاومهم إلا القليل، وبلغ الخوف من المغول في نفوس معاصريهم حتى أن الرجل الواحد منهم كان يدخل على القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده على ذلك الفارس،⁽²⁾ فمع نصر المماليك في عين جالوت تبدل هذا الاعتقاد.⁽³⁾

• انتقال مركز الثقل، السياسي والاقتصادي والثقافي، في العالم الإسلامي إلى مصر (القاهرة):

لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية عند المسلمين بعد أن أصبحت مقر الخلافة العباسية، ومقر أعظم قوة إسلامية آنذاك، كذلك فقد غدت مركز إشعاع فكري عند المسلمين، وخاصة بعد دمار بغداد وهجرة العلماء من المشرق إلى مصر.⁽⁴⁾

• تحول موقف المسلمين القتالي من الدفاع إلى الهجوم:

فانتصار عين جالوت كان باعثاً لروح الجهاد الإسلامي، وخاصة بعد تنامي قوة المسلمين تحت قيادة المماليك، فأوقفوا المد المغولي غرب الفرات وأسيا الصغرى، وقضوا على أحلامهم

(1) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، 74/7.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9/337.

(3) Cambirdge Medival History, Vols. IV. p.644.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، 66/2. زكار: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، 543/2.

التوسعية في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى أتاح لهم ذلك العمل تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، وقد تم لهم ذلك بعد ثلاثين عاماً من انتصارهم في عين جالوت .

ثانياً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الظاهر بيبرس "658-677هـ/ 1260-1276م":

عقب معركة عين جالوت قام السلطان المظفر قطز بمجموعة من الأعمال من شأنها أن تعيد الاستقرار إلى بلاد الشام، فنظّم البلاد إدارياً، وعيّن عليها جملة من النواب، لم يكن لبيبرس؛ القائد المغوار، وصاحب الدور الكبير في الحرب ضد المغول، نصيب من هذه النيابات، على الرغم من أن السلطان قطز كان قد وعده قبل معركة عين جالوت بإعطائه ولاية حلب إذا تم النصر على المغول، إلا أن السلطان قطز تراجع عن وعده وأعطاه الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل،⁽¹⁾ بل أكثر من ذلك بدأ السلطان قطز يظهر تكبراً في معاملته مع بيبرس، وتغيرت نيته تجاهه.⁽²⁾

هنا بدأت الجفوة بينهما، ويجب أن لا ننسى أنه كان هناك من قبل جفاء بين المماليك البحرية؛ وعلى رأسهم الآن بيبرس، والمماليك المعزية؛ وعلى رأسهم قطز، فقد شارك قطز في قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية أيام السلطان عز الدين أيبك،⁽³⁾ وقد تسبب هذا في

(1) المقريزي: السلوك، 435/1، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 101،82/7. أبو الفداء: المختصر،

317/2. النويري: نهاية الأرب، 476-477/29.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص68.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص53-55، ابن واصل: مفرج الكروب، 178/6. المقريزي:

المصدر السالف، 389/1-390.

تشنت البحرية في بلاد الشام مدة من الزمن منتقلين من منطقة إلى أخرى، يلتصون رعاية ملك أوحاكم يكتريهم ويقدم لهم المساعدة،⁽¹⁾ وقد ظهر هذا الجفاء واضحاً بعد عين جالوت، وتحدث اليونيني عنه فقال: " ولم تزل الضغائن والحقود تتراءى في صفحات العيون والحدود، وكل منهما يحترس من صاحبه بجنة الوداع، ويترقب فرصة تقف الروح من الجسد بانتهازها على ثنية الوداع ".⁽²⁾

وربما هناك أسباب عديدة مجهولة دفعت ببيبرس وبعض الأمراء لقتل قطز بالقرب من الصالحية أثناء مسيره إلى القاهرة، وكان ذلك في حوالي منتصف ذي القعدة سنة 658هـ/ تشرين الأول 1260م،⁽³⁾ وتسلطن مكانه ببيبرس وحمل لقب الظاهر وبدأ يعمل على بسط سلطانه.

1- مناورات الظاهر ببيبرس لتدعيم أركان السلطنة المملوكية:

منذ بداية حكم السلطان الظاهر ببيبرس عمل على إحاطة السلطنة المملوكية بمسوغات وعوامل البقاء والاعتراف بها وإعطائها صفة شرعية الحكم، فتمكن من إرساء الدعائم والقواعد التي هيأت للسلطين المماليك الاستمرارية من بعده، وفي سبيل ذلك واجه المشاكل والثورات والتمردات الداخلية والخارجية، إلا أنه تمكن بحنكته من استغلالها لصالحه، إذ أظهر من خلالها هيبة الدولة وقوة سلطانه داخلياً وخارجياً.

في بداية حكمه واجه الظاهر ببيبرس معارضة من قبل الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي عُين نائباً على دمشق من قبل المظفر قطز بعد معركة عين جالوت، وكان يشغل قبل ذلك أتابك العسكر أيام المنصور علي بن أيك،⁽⁴⁾ ولما تسلطن ببيبرس رفض هذا الطاعة له وجمع من حوله

(1) ببيبرس الداوادر: زبدة الفكرة، 32/9.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 370/1.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 67-68، أبو الفداء: المختصر، 317/2، المقريزي:

السلوك، 435/1، ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 61-63. النويري: نهاية الأرب، 29/ 477-478.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب: 296/6. ابن طولون (محمد بن طولون الدمشقي، ت 853هـ: إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة، دمشق، 1964م، ص 4-5.

الأمرء وأعيان دمشق وألزمهم بالحلف له، وتلقب بالملك المجاهد، في ذي الحجة سنة 658هـ/1260م.⁽¹⁾

في سنة 659هـ/1261م كاتب السلطان الظاهر الأمرء الذين كانوا مع الحلبي في دمشق؛ فأجابوه وخرجوا عن طاعة الحلبي، وهربوا من دمشق، فلما لحق بهم الحلبي بمن بقي معه من الأجناد هزموه، فعاد إلى القلعة بدمشق فدخلها، ثم حمله الخوف على الهروب منها إلى بعلبك، فدخل دمشق الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري وأعلن فيها شعار الملك الظاهر،⁽²⁾ واستقر البندقداري نائباً بها مدة شهرين ثم عُزل وعُين مكانه الأمير طيبرس الوزير،⁽³⁾ أما الحلبي، فقد لحقه العسكر وقبضوا عليه في بعلبك وأُرسِل إلى السلطان في مصر، فعفا عنه ورسم له بخيل وبغال وجمال وقماش وغير ذلك⁽⁴⁾.

أيضاً تعرض السلطان الظاهر بيبرس في بداية حكمه إلى محاولة استقلالية انفصالية من قبل بعض المماليك -العززية والناصرية- الذين كانوا موجودين في دمشق بكثرة، وعلى رأسهم الأمير بغدي الأشرفي، والأمير شمس الدين البرلي،⁽⁵⁾ فعندما استتب الأمر في دمشق للظاهر بيبرس وازداد خطر المغول على البيرة⁽⁶⁾ وحلب، أراد أن ينظف الجبهة الداخلية لكي يتفرغ للمخاطر الخارجية، فأوعز للأمير أيدكين البندقداري نائب دمشق بالقبض على البرلي وبغدي

(1) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره بلوشيه في PATROLOGIA ORIENTALIS، T.XII. ص 410-411. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 103/7. ابن واصل: مفرج الكروب، 6 / 300-301. المقرئزي: السلوك، 1/438.

(2) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 419-420. اليونيني (موسى بن محمد بن أحمد، 726هـ): ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1954م، ج2، ص91.

(3) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص420.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض، ص96. ابن طولون: اعلام السورى، ص5. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص420. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/92.

(5) كان البرلي قد ولّاه السلطان قطز أميراً على الساحل من غزة إلى الغور -على نهر الأردن-. (ابن واصل: مفرج الكروب: 295/6). أما سبب وجوده في دمشق هو أمر السلطان بيبرس له بمساعدة نائب دمشق الأمير علاء الدين البندقداري في قتال علم الدين الحلبي. أبو الفداء: المختصر: 2/321. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص97.

(6) البيرة بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة، الحموي: معجم البلدان، مادة بيروت.

وغيرهما من أمراء العزيزية والناصرية؛ فبادر أيدكين باعتيال البغددي، مما أثار مخاوف العزيزية والناصرية، فالتقوا حول البرلي وهربوا من دمشق إلى حمص محاولين استمالة حاكمها الأشرف بن موسى بن شيركوه، دون جدوى، فواصلوا سيرهم إلى حماه محاولين أيضاً استمالة الملك المنصور الأيوبي حاكم حماه، لكنه لم يصغ إليهم، فتابعو مسيرهم إلى حلب وبها فخر الدين الحمصي، فسيطروا عليها بالحيلة، وخرج منها فخر الدين، وقام البرلي بجمع العرب والتركمان حوله ليشكل منهم قوة يستعين بها ضد السلطان بيبرس، وقد حدث ذلك كله سنة 659هـ/1261م.⁽¹⁾

أدرك السلطان بيبرس خطر البرلي، وخوفاً من استفحال أمره قرر القضاء عليه إذ وجه إليه قوة تحت قيادة جمال الدين المحمدي وانضم إليها في الطريق فخر الدين الحمصي - حاكم حلب الذي احتال عليه البرلي - وقوة أخرى بقيادة سنجر الحلبي - بعد أن عفا عنه السلطان - فلما علم البرلي بذلك أدرك أنه لا يستطيع المقاومة فهرب إلى البيرة؛ الثغر الحصين على نهر الفرات، وهناك أدرك أيضاً أنه ليس نداً للمغول، وبعد مناورات عديدة قرر الاستسلام للظاهر بيبرس، فاستقبله في القاهرة 2 ذي الحجة 660هـ/ 18 تشرين الأول 1262م، فأكرم السلطان وفادته، ثم غادر القاهرة إلى البيرة، وهناك تغير عليه السلطان بيبرس وأمر بالقبض عليه في رجب سنة 661هـ/حزيران 1263م.⁽²⁾

وسيراً على خطى تدعيم أركان السلطنة الناشئة، قرر السلطان الظاهر القيام بعمل من شأنه إضفاء الشرعية على حكمه، وجعل دولة المماليك ممثلة للمسلمين وصاحبة الشأن في العالم الإسلامي، فأظهر اهتمامه بإحياء الخلافة العباسية، وحل المشاكل الناجمة عن سقوط بغداد، فاعترف الخليفة - الذي سيتم تنصيبه - بالسلطان كان من شأنه أن يضيفي الشرعية على حكم المماليك، فالمسلمين كانوا يرون في الخلافة الإسلامية شعاراً يمثل الإسلام، وعلى ذلك كان على دولة المماليك إحياء الخلافة الإسلامية فيكونوا بذلك حماة الإسلام والخلافة فيزيداد تقدير المسلمين

(1) أبو الفداء: المختصر: 321/2. ابن واصل: مفرج الكروب: 310/6-311. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: 119/2-122.

(2) أبو الفداء: المختصر: 322/2-325. ابن أبي الفضائل: النهج السديد: ص 439، 452 ويرد لديه أنه قدم الديار المصرية في ي القعدة سنة 660هـ. ابن واصل: مفرج الكروب: 319/6. المقرئزي: السلوك: 465/1-466، 475-476. شافع بن علي: حسن المناقب السرية، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط2، 1999م، ص 106.

لهم، فهم من أصل مملوكي، والنظرية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم حراً،⁽¹⁾ ويروى بأن المعاصرين للحكم المملوكي استأؤوا وتذمروا منهم بعد انقلابهم على ساداتهم الأيوبيين، فأهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يُسمعون ما يكره، حتى في وجهه إذا ركب ومراً بالطرقات، ويقولون: " لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة"،⁽²⁾ وخاصة بأن المماليك ظهروا بمظهر من اغتصب الحكم من ساداتهم الأيوبيين، فكان لزاماً عليهم محو هذه النظرة من ذاكرة معاصريهم، لذا نجد اهتمام السلطان بيبرس بإحياء الخلافة العباسية لكي تضي الشرعية على حكمه، فقام بتقليد منصب الخلافة لرجل من بني العباس واسمه أبو القاسم أحمد، فبايعه السلطان ورجال الدين والدولة "على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها"⁽³⁾، ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله، ولما تمت له البيعة في رجب 659هـ/ يونيو 1261م قام الخليفة المستنصر بالله وقلد السلطان الظاهر حكم "الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمينية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً"، وأوكل إليه "أمر الجهاد الذي أضحي على الأمة فرضاً"⁽⁴⁾.

وبذلك تم إحياء منصب الخلافة بعد أن بقي شاغراً ثلاث سنين ونصف منذ قتل الخليفة المستنصر بالله في صفر 656هـ/ شباط 1258م.

وعليه يكون السلطان الظاهر بيبرس قد دعم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التي قام بها في صورة إحياء الخلافة العباسية، ففي الحقيقة كانت سلطة الخليفة شكلية، والحكم كله بيد السلطان، ويؤكد أحد الباحثين بأن "أهم مظاهر السيادة التي تمتع بها الخلفاء العباسيون في مصر، ثلاثة،

(1) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص 11.

(2) ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 7/ 13.

(3) المقريزي: السلوك: 45/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: 143/2. ابن واصل: مفرج الكروب: 312/6-313. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص100-101.

(4) ورد نص التقليد كاملاً عند: المقريزي: السلوك: 453/1-457. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: 99/2-103. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص102-107. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج9، تح: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص37.

وهي: السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً، وذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ونقش اسمه على السكة⁽¹⁾، وبعد عهد السلطان الظاهر بيبرس لم يعد يسك اسم الخليفة على العملة مع أنها من شعائر الخلافة، وكان الدعاء في المساجد للخليفة ثم للسلطان باستثناء مسجد القلعة، فإن الدعاء فيه كان للسلطان ثم للخليفة، وما بقي للخلفاء في مصر هو لبس البردة ومسك القضيب⁽²⁾.

هذا الإجراء الذي قام به السلطان أكسبه الصفة الشرعية في حكمه للبلاد الإسلامية، كما أوجد لهم المسوغ في وجودهم وبقائهم عندما أوكل إليهم أمر الجهاد والعمل على تطهير البلاد من الصليبيين والمغول، وهذا شرف عظيم في نظر المسلمين، فيكون بذلك قد قطع الطريق أمام بقايا الأيوبيين المطالبين بحكم البلاد، وصار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت حتى الحكم العثماني للبلاد يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامي، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق باعتبارهم المفوضين من قبل الخليفة بالسلطنة⁽³⁾ وترتب على عملية إحياء الخلافة وجعل القاهرة مقرها أن أصبحت القاهرة تشهد مرحلة جديدة من حياتها، أصبحت فيها مقر العالم الإسلامي، وتمتعت نتيجة ذلك بشهرة دينية وعلمية واسعة، وأصبحت مركز النشاط الإسلامي والديني والسياسي والعسكري والثقافي بدلاً من بغداد، ف " الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت "،⁽⁴⁾ فحين صارت مصر دار خلافة عظم أمرها، كما قام الظاهر بيبرس بفتح الجامع الأزهر سنة 665هـ/، وقد كان هذا الجامع معطلاً من إقامة الجمعة فيه منذ أيام صلاح الدين الأيوبي عندما قام بإلغاء الخلافة الفاطمية.⁵

(1) علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1948م، ص207

(2) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1982م، ج1، ص34.

(3) ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهري): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بولس راويس، طبعة مصورة عن طبعة باريس، 1894م، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1988-1989م، ص89.

(4) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن، ت911): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرفية، د.ت، ج2، ص66.

(5) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م 3/ 213، 218-219. السلوك، 1/ 556. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 360.

وسيراً على مسيرة توحيد الحكم ومن أجل تنظيف الجبهة الداخلية قبل الشروع بأي عمل عسكري؛ كان لزاماً على السلطان الظاهر بيبرس التخلص من المغيث عمر بن الملك العادل صاحب الكرك والشوبك، الحصنان المنيعان في جنوب فلسطين، وكان هو الأمير الوحيد بين الأمراء الأيوبيين الذين لم يسلموا لبيبرس، وكان على علاقة سيئة معه، لأنه في ما مضى أثار غضب بيبرس عندما سلم بعض المماليك البحرية، الذين كانوا عنده في الكرك إلى الملك الناصر صاحب دمشق في سنة 657هـ / 1258م، فكما هو معروف بعد مقتل فارس الدين أقطاي سنة 652هـ/ على يد المعز أيبك هرب أتباعه من البحرية إلى جهات عدة خارج مصر، وكان من بينهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري والأمير قلاوون والأمير سنقر الأشقر، ولجأ هؤلاء إلى الناصر صاحب حلب ودمشق، فأجارهم، ولما انقلب عليهم سنة 655هـ/1257م لجأوا إلى المغيث عمر صاحب الكرك والشوبك، ثم قام الأخير بتسليم بعضهم إلى الناصر على أثر تهديده له باجتياح الكرك سنة 657هـ/1259م، في حين تمكن بعضهم من الفرار وعلى رأسهم الأمير بيبرس، وربما هذا العمل جعل بيبرس يحقد على المغيث عمر،⁽¹⁾ ولكن هذا غير كافٍ لأن يقوم بيبرس بحرب ضده، إلا أن السبب الأهم هو أهمية بلاد المغيث الاستراتيجية في مشروع أو مخطط بيبرس لطرد المغول والصليبيين من البلاد، فبلاد المغيث قريبة من مواقع العمل العسكري المقبل مع الصليبيين والمغول، وقربها من مصر يهدد استقرار السلطنة، ولاسيما أن المغيث حاول من قبل مهاجمة مصر؛ إلا أنه أخفق،⁽²⁾ فبدأ بيبرس يفكر في السيطرة على الكرك والشوبك، أولاً للاستفادة من حصانتهما، وثانياً للتخلص من المغيث عمر، الذي كان شوكة في جانب بيبرس، فهو لن يتمكن من التفرغ لعدويه ما دام المغيث ومملكته قائمان، ومن الحكمة ألا يدخل في معارك حربية ضد أعدائه في الشام أو غيرهم، ما دام مثل هذا العدو الخطير قائماً في مؤخرة جيشه.

بدء السلطان بيبرس أعماله ضد مملكة المغيث بأن أرسل سنة 660هـ/1261م قوة بقيادة الأمير بدر الدين الأيدمرى تمكنت من أخذ الشوبك وتخليصها من يد المغيث،⁽³⁾ ورداً على ذلك

⁽¹⁾ للاستزادة انظر: المقرئزي: السلوك: 1/390-391، 406، 414-415، 420. ابن واصل: مفرج الكروب: 6/178-179، 202، 204، 212، 218، 257-260، 267. أبو الفداء: المختصر: 297/2-298، 300-301، 307.

⁽²⁾ حاول ذلك سنة 655هـ بتحريض من البحرية. المقرئزي: السلوك: 1/406.

⁽³⁾ ابن واصل: مفرج الكروب، 6/326. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص51.

بدء المغيـث عمر بإرسال فرقة الشهرزورية⁽¹⁾ للإغارة على الشوبك وتخريبها؛ فأرسل السلطان قواته لمحاصرة الكرك، إلا أن المغيـث كاتب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله يسأله الشفاعة عند بيبرس، فكان ذلك، وأوقف بيبرس نشاطه ضد المغيـث مؤقتاً، وعفا عنه وأرسل إليه خلعة ومنشوراً وأنعم عليه،⁽²⁾ وعندما رتب بيبرس أوضاعه مع الصليبيين في الشام ببعض المهادانات عاد يفكر في التخلص من المغيـث عمر، وواتته الظروف في سنة 661هـ/ 1263م عندما وجد نفسه دون ارتباطات حربية مع الصليبيين، فبينما كان بيبرس في رحلة صيد في غزة قدمت عليه والدة المغيـث تشفع لولدها، فأكرمها وأعادها وأرسل إلى المغيـث بالحضور ويغريه ويسوف له، ويؤكد له بأنه لن يمسه بأذى. تردد المغيـث بالحضور، ثم عزم على السفر، ولما وصل إلى بيسان في فلسطين؛ حيث كان بيبرس هناك استقبله أحسن استقبال، ولكن على قول ابن واصل؛ فإنه " خدعه أعظم خدعة، وأمد له في الأمل، وأتى بيوت الخداع من أبوابها "، وبعد هذا الاستقبال أمر باعتقاله على الفور في جمادى الأولى سنة 661هـ/ آذار 1263م،⁽³⁾ وعلى الفور عقد السلطان مجلساً حضره كبار العلماء وقاضي قضاة دمشق شمس الدين بن خلكان وأطلعهم على الرسائل المتبادلة بين المغيـث وهولاكو، وفيها دعوة المغيـث لهولاكو للقدوم إلى مصر لاحتلالها ويعدده بمساعدته بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل، فحصل بموجب ذلك على فتوى تجيز له قتل المغيـث عمر، فأرسله مصفداً بالحديد إلى القاهرة حيث قتل فيها،⁽⁴⁾ وأرسل إلى الكرك قوة على رأسها الأمير بدر

(1) الشهرزورية نسبة إلى مدينة شهرزور في كردستان، وهم أكراد هربوا من وجه الزحف المغولي ووصلوا إلى دمشق سنة 656هـ/ 1258م، فاستقبلهم الناصر وأراد أن يتقوى بهم، وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف، بعد ذلك تركوه وذهبوا إلى المغيـث عمر الذي أكرمهم وأحسن إليهم وتقوى بهم. انظر: المقرئزي: السلوك: 411/1. الحموي: معجم البلدان، مادة شهرزور.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 327/6-328.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، 358/6. أبو الفداء: المختصر، 327/2. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص 58. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 450.

(4) أبو الفداء: المختصر، 329/2. المقرئزي: السلوك، 483-481/1. ابن واصل: مفرج الكروب، 360/6.

الدين بيسرى والأمير عز الدين الأستادار لاستلامها، وبالتالي فقد خضعت الكرك للسلطان بيبيرس.⁽¹⁾

أمنت هذه الأعمال للسلطان الظاهر بيبيرس صفاء الجبهة الداخلية وخلوها من المعارضين، وقد رافق ذلك حراك دبلوماسي خارجي من شأنه أن يحول دون اتفاق القوى المعادية له، فعقد سلسلة من الاتفاقيات والمحالفات مع ملوك صقلية، وإسبانية، والإمبراطورية البيزنطية، وبركة خان سلطان مغول القبجاق.

2- عودة المغول وهجومهم على البيرة:

كانت جموع المغول قد تشتت عقب معركة عين جالوت، لكن ما أن سمعوا بمقتل قطز بهذه الطريقة حتى بدأوا بلم شملهم، إذ توقعوا حدوث انقسامات داخل الدولة، وأن ذلك سيوفر لهم الفرصة لتغيير نتيجة معركة عين جالوت، فتمكن القائد بيدرا من جمع قوة كبيرة من المغول الموجودين في حران والجزيرة، وانضم إليهم من سَلَم من معركة عين جالوت، وزحف بهم على البيرة أواخر عام 658هـ / 1260م.⁽²⁾

كان نائب حلب الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ قد سارع بتجهيز قوة صغيرة لكي تتصدى للمغول بعد استتجاد صاحب البيرة به، وذلك على الرغم من أن الأمراء في حلب أشاروا عليه بعد التعرض للمغول بمثل هذه القوة، لأنها سوف تتعرض للإبادة، وفعلاً فقد

(1) بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص 58. مفضل بن أبي الفضائل، ص 451-452. المقرئزي: السلوك، 482/1.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 89/2-90. ابن واصل: مفرج الكروب، 6/302. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 104/7.

كانت الهزيمة من مصير هذه القوة الصغيرة التي أرسلت بقيادة الأمير سابق الدين، وقد لاذ هذا الأخير مع نجا بالفرار.⁽¹⁾

كانت هزيمة هذه القوة - بالإضافة إلى أسباب أخرى - سبباً في عزل الملك السعيد عن حكم حلب من قبل الأمراء العزيزية والناصرية؛ واعتقاله، ثم عينوا بدلاً منه الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزي.⁽²⁾

المهم أن هزيمة هذه القوة أمام البيرة شجعت المغول بقيادة بيدرا على المضي إلى حلب، فوصلوها في ذي الحجة 658هـ / 1260م وشرعوا بمهاجمتها، فانسحب الأمير حسام الدين لاجين مع عساكره إلى حماه، ودخل المغول حلب، وأخرجوا أهلها إلى ظاهر حلب، وهناك أفنوا غالبيتهم قتلاً.⁽³⁾

3- موقعة حمص الأولى 659هـ/1260م:

اضطر الأمير حسام الدين لاجين إلى الانسحاب نحو حماه، وربما كان الهدف من ذلك استدراج المغول لمكان أفضل لمنازلتهم، وكان على حكم حماه آنذاك الملك المنصور محمد الأيوبي، وعندما وصل المغول إلى حماه قادمين من حلب انسحب الجوكندار مع الملك المنصور إلى حمص لإعطاء أنفسهم فرصة ثانية لحشد أكبر عدد ممكن من القوات الإسلامية، فوصلوا حمص وكان على حكمها الملك الأشرف موسى الأيوبي.⁽⁴⁾

(1) أبو الفداء: المختصر، 319/2. ابن واصل: المصدر السالف، 302/6. ابن تغري بردي: المصدر السالف، 105/7.

(2) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 70. ابن تغري بردي: المصدر السالف، 106/7.

(3) أبو الفداء: المصدر السالف، 319/2، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 89/2، العييني: عقد الجمان، 267/1-268. ابن تغري بردي: المصدر السالف، 105/7.

(4) أبو الفداء: المختصر، 319/2، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 89/2.

لم يدخل المغول إلى حماه، بل ساروا إلى حمص بقوة يبلغ عددها ستة آلاف مقاتل، في حين كان المسلمون بقوة تبلغ حوالي ألف وأربعمائة فارس، وعلى رأسهم حسام الدين لاجين نائب حلب، والملك المنصور نائب حماه، والأشرف نائب حمص.⁽¹⁾

لم يكن الظاهر بيبرس في ذلك الوقت في وضع عسكري مناسب يُمكنه من إرسال قواته لصد الهجوم المغولي، وذلك بسبب نشوب بعض الثورات ضده، فكانت الثورة الأولى بقيادة الأمير سنجر الحلبي نائب دمشق الذي ثار لقتل قطز، وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد-كما تقدم- وخطب له على منابر دمشق في ذي الحجة سنة 658/هـ نوفمبر 1260م، أما الثورة الثانية فكانت في مصر و تزعمها رجل شيعي عرف بالكوراني.⁽²⁾

التقى الجمعان يوم الجمعة الخامس من محرم 659هـ/كانون الأول 1260م في معركة على مقربة من قبر خالد بن الوليد في حمص، فحمل المسلمون على التتار حملة رجل واحد، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب بيدرا قائد المغول في نفر من رجاله،⁽³⁾ ويقول ابن عبد الظاهر أن هذه الواقعة "أهلكت شجعان التتار"، ففيها قُتل "أبطالهم، وكماتهم، وحماتهم".⁽⁴⁾

تفرقت جموع المغول بعد هذه الهزيمة، ولما عاد الملك المنصور إلى حماه حاولت قوة من المغول كانت قد تجمعت في سلمية مهاجمة حماه، فنازلوها يوماً واحداً ثم انسحبوا إلى أفاميا، وكان قد أقام في قلعتها الأمير سيف الدين الديبلي الأشرفي فأخذ يهاجم المغول حتى أجبرهم على ترك أفاميا.⁽⁵⁾

(1) اليونيني: المصدر نفسه، 89/2-90. ابن أبيك: الدرّة الزكيّة، ص 68. ابن واصل: مفرج الكروب، 304/6. ويضيف النويري أن زامل أمير العربان انضم إلى هؤلاء الأمراء. نهاية الأرب، 40/30.

(2) المقرئزي: السلوك، 1/440، العينيني: عقد الجمان، 270/2-271.

(3) اليونيني: المصدر السالف، 89/2-90، أبو الفداء: المصدر نفسه، 320/2، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 75. ابن واصل: مفرج الكروب، 305/6.

ويذكر المقرئزي أن المعركة حصلت قرب الرستن، السلوك: 442/1.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 97.

(5) أبو الفداء: المختصر، 320/2، ابن واصل: مفرج الكروب، 307/6.

انسحب المغول من حماه وأفاميا وساروا إلى حلب وفرضوا عليها حصاراً استمر حوالي أربعة أشهر، وما إن استتبّت أحوال السلطنة للظاهر بيبرس وقضى على الثورات التي قامت ضده⁽¹⁾ حتى سارع بإرسال جيش كبير إلى حلب بقيادة فخر الدين الطنبا الحمصي، والأمير حسام الدين لاجين والأمير حسام الدين العينتابي، وعندما وصل الجيش إلى غزة أرسل الصليبيون في عكا إلى المغول يخبروهم بذلك، فأسرع الجيش المغولي بالإنسحاب من أمام حلب في أوائل جمادى الأولى سنة 659هـ/1261م حيث دخلها الجيش المملوكي.⁽²⁾

4- الهجوم على الموصل: 660هـ/1261م:

استأنف المغول نشاطهم على الحدود الشرقية بهجوم ناجح نفذوه ضد الموصل في أوائل المحرم سنة 660هـ/1261م، كان حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ قد مات، فخلفه ابنه الملك الصالح ركن الدين اسماعيل، وقد دخل هذا في علاقات جيدة مع الظاهر بيبرس، إذ توجه في سنة 659هـ/1261م إلى مصر لزيارته، هذا ما أغضب المغول، ودفع بهولاكو إلى إرسال جيش على رأسه قائد مسيحي اسمه صندغون وصل إلى الموصل وشرع في حصارها،⁽³⁾ وبعد أن نصب عليها حوالي خمسة وعشرين منجنيقاً، فبدأ القتال من الداخل والخارج " وضايقوها أشد مضايقة، ولم يكن فيها سلاح يقاتلون به، ولا قوت يمسك رمق من بها ".⁽⁴⁾

طلب الملك الصالح المساعدة من الأمير شمس الدين البرلي في حلب، فخرج الأخير لنجدته في ألف وخمسمائة مقاتل تقريباً، ولكنه هُزم عند جبل سنجار أمام عسكر المغول الذين

(1) أحمد بيبرس ثورة الكوراني في نهاية سنة 658هـ/1260م، وصلب زعماءها على باب زويلة، انظر، العيني: عقد الجمان، 271/2.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 93/2. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 71. النويري: نهاية الأرب، 42/30.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، 327/1/2. ابن عبد الظاهر: الروض، ص 114-115.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ج 157/2. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 88. المقريزي: السلوك، 1/

460، 467، 475. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 94.

ساروا إليه من الموصل بعشرة آلاف مقاتل، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة 660هـ/آذار 1262م.⁽¹⁾

عاد صندغون إلى حصار الموصل ومعه الأسرى، فأدخلهم من الثقوب في السور إلى الملك الصالح ليعرفوه بانهزام البرلي،⁽²⁾ وذلك لإضعاف المقاومة من الداخل، واستمر الحصار إلى أن خرج الملك الصالح إلى المغول في النصف من شعبان سنة 660هـ/حزيران 1262م بعد إعطائه الأمان، فنكثوا بأيمانهم، وقبضوا عليه، وخربوا المدينة واستباحوها، وكان دخولهم عليها في 26 شعبان من تلك السنة، واستمر استباحهم للمدينة تسعة أيام، ثم رحلوا عن المدينة ومعهم الملك الصالح، وفي طريقهم إلى ديارهم قتلوه.⁽³⁾

5- جهود السلطان بيبرس لتقوية الجبهة الشرقية مع المغول:

أمام مخاطر المغول هذه، وبعد أن أصبح مركز الظاهر قوياً في الحكم، وخلا الجو من المنافسين له، شرع بوضع سياسة تستهدف التصدي للمغول وطرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام، فكان الظاهر بيبرس يعلم تمام العلم أن الصراع مع المغول لم ينته بانتصار المماليك في عين جالوت وفي حمص، وأن الحرب ستستمر طويلاً وتستلزم وجود قوة عسكرية ضخمة، وسياسة دولية حكيمة لإيجاد التوازنات في وقت كثر فيه أعداء المماليك من مغول وأرمن وصليبيين مع بعض التهديدات الداخلية، وتهديدات قادمة من ممالك النوبة.

من أجل ذلك بدأ بيبرس ببناء قوة عسكرية ضخمة وصلت إلى أربعين ألف فارس، بعد أن كانت في أواخر عصر الأيوبيين لا تتجاوز العشرة آلاف مقاتل،⁽⁴⁾ وبدأ الاعتماد على مغول

(1) اليونيني:المصدر السالف، 2/ 157. المقريزي: المصدر السالف، 1/ 475. ابن أيبك: المصدر السالف، ص 88.

(2) اليونيني:المصدر السالف، 2/ 159. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 97.

(3) اليونيني:ذيل مرآة الزمان، 2/ 159. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 98-99. ابن أيبك: الدرّة الزكية، ص 89-90. رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/ 330.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 197. المقريزي: السلوك، 1/ 475. كريستوفر ماريشال: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية (المائة الثانية)، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص 50.

القفجاق في تدعيم قوته العسكرية، حيث وصلت أعداد كبيرة منهم، عرفوا باسم الوافدية، اهتم بهم الظاهر بيبرس، وأصبحوا من جملة المماليك السلطانية.⁽¹⁾

بات الآن أمام السلطان أن يتحرك دبلوماسياً وعسكرياً لكي يتفادى هجوم مزدوج صليبي مغولي، فقام بعملين: الأول: إرسال حملات عسكرية ضد الإمارات الصليبية في بلاد الشام لكسر شوكتها، وتأديبها وثنيها عن التحالف مع المغول، مستغلاً انشغال هولاء بحروبه الداخلية، والثاني: القيام بسلسلة من التحالفات مع القوى العالمية والأوربية لضمان حيادها في حروبه المقبلة .

فالنسبة للعمل الأول أو الخطوة الأولى، - سيتم الحديث عنها بالتفصيل لاحقاً- أرسل السلطان قواته سنة 659هـ/1261م لمهاجمة أنطاكية لتأديب أميرها بوهمند السادس على تعاونه مع المغول، ولثنيه عن التعاون معاً مستقبلاً، فأحرقت قواته ميناء السويدية في أنطاكية وأغرقت مراكبه وأسرت حوال 300 صليبي غير القتلى، ثم قاد بيبرس بنفسه هجوماً كاسحاً على عكا في جمادى الآخرة سنة 661هـ/1263م، فهدم أبراجها، وقتل وأسر عدداً كبيراً من سكانها،⁽²⁾ وأرسل سنة 664هـ/1266م حملة إلى أرمينية الصغرى لشغلها بنفسها عن مساعدة المغول، فخربت بلادهم وعانت بها فساداً.⁽³⁾

وفيما يتعلق بالعمل الثاني وهو محالفة القوى الأوربية، فإن بيبرس لم يلق صعوبة في التحالف أو مهادنة تلك القوى، ويرجع بعض المؤرخين السبب في ذلك إلى تعطل الطرق التجارية التي كانت تمر في الأراضي المغولية بسبب العمليات العسكرية هناك، لذا فإن تجارة شرق آسيا كانت تصل إلى أوروبا عن طريق الموانئ المصرية، وبالتالي فإن الكثير من القوى الأوربية التي تهتم بالتجارة، مثل البندقية وجنوة وبيزا وغيرها، كان من صالحها أن تكون على علاقة طيبة مع

(1) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 137-138، 178-180، ابن واصل: مفرج الكروب، 6/340.

النويري: نهاية الأرب، 30/62-63، 89-90.

(2) انظر، الفصل الثالث، ص

(3) انظر، الفصل الرابع، ص

مصر،⁽¹⁾ كما أنه تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية وصقلية وقشتالة والإمبراطورية الغربية المقدسة.⁽²⁾

من شأن هذه التحركات الدبلوماسية أن تمنع قيام حلف صليبي مغولي، أما فيما يتعلق بالأعمال ضد المغول، فإن السلطان الظاهر بيبرس قد قام بخطوات مهمة كوسائل دفاعية على الجبهة الشرقية، فعملية وقائية؛ ولحرمان المغول من إمكانية التعسكر في بلاد الشام، أصدر السلطان أوامر لنواب حلب سنة 1262/660م تقضي بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاء وجيوشه أن تعسكر بها وترعى عليها دوابهم أثناء هجومها على الشام، وتم إحراق تلك المروج وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط، وبهذا العمل يكون المغول قد حرّموا من أهم الطرق المؤدية إلى بلاد الشام،⁽³⁾ كما أقام السلطان في الجبهة الشرقية المواجهة للمغول عند الرحبة⁽⁴⁾ والبيرة وغيرها سلسلة من المنارات التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة وهذه المنارات هي عبارة عن أبراج للمراقبة على رؤوس الجبال يربط فيها الحراس ليل نهار، فإذا رأوا عدواً مقبلاً قاموا بإشعال النار؛ إن كان ذلك في الليل، أو إثارة الدخان إن كان ذلك في النهار، وسرعان ما تنتقل هذه الشارات النارية والدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة، وصار ما يستجد منها على الفرات صباحاً يصل إلى قلعة الجبل مساءً، وما يستجد مساءً يصل صباحاً،⁽⁵⁾ كما جدد القلاع على حدود الفرات لاسيما قلعة البيرة التي شحنها بالمؤن

(1) Michael Prowdin: The Mongolempire its riseond Legacytlonon، 1967.P.370-371.

(2) انظر: العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 202-207.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 136، النويري: نهاية الأرب، 63/30، المقريزي: السلوك، 473/1، وقد تحدث العمري عن الطريقة التي تتم فيها إحراق المروج، انظر، التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص 261-262.

(4) الرحبة بيت الرقة وبغداد على شاطئ الفرات إلى الجنوب من قرقيسيا وتسمى رحبة مالك بن طوق. الحموي، معجم البلدان، مادة رحبة

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 398/1، وقد تحدث المقدسي والعمري عن طريقة عمل هذه المناور وعن أهميتها في مقاومة الأعداء، انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 177، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 200-201.

والسلاح حتى تتحمل الحصار لمدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جانب المغول،⁽¹⁾ كما شرع بتنظيم البريد، بحيث أصبح جهازاً متطوراً ربط به جميع أنحاء المملكة، براً وجواً (الحمام الزاجل)، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل في القاهرة، ومنها يتفرع سائر الخطوط، حتى صار البريد يصل من القاهرة إلى دمشق وبالعكس في ثلاثة أيام⁽²⁾، فضلاً عن أن بيبرس كان لديه جهاز استخبارات على درجة عالية من الكفاية، فكان له عيون في الأردن مقر هولوكو، وفي سويس بأرمينيا الصغرى، وفي عكا، وجميعهم كانوا يوافون القاهرة بالأخبار أول بأول، فعندما أرسل هولوكو على سبيل المثال جاسوسين من قبله إلى القاهرة، أسرعت مصادر السلطان بيبرس في فارس وغيرها بموافاته باسميهما وصفاتهما حتى تم القبض عليهما بمجرد وصولهما إلى دمياط، فوجد معهما كتاباً من هولوكو إلى الأتابك في مصر يرغب ويستميله ضد السلطان بيبرس.⁽³⁾

على أن أهم خطوة خطاها السلطان بيبرس في حربه ضد المغول، هي التحالف مع بركة خان القبيلة الذهبية، فقد قابل بيبرس تحالف مغول فارس مع الأرمن والكرج وصلبيبي أنطاكية بتحالف مشابه؛ إن لم يكن أكثر فاعلية على الأرض، مع هذه القبائل المغولية.

فمن المعروف أن إمبراطورية جنكيز خان تفككت إلى أربعة أقسام، نتيجة المنازعات التي دبت بين خلفائه، وكان أحد أهم أقسامها، مغول أو خانات القبيلة الذهبية، في جنوب روسيا "حوض الفولغا"، وبعد وفاة حاكمها باتو سنة 1256م؛ آل حكم القبيلة إلى بركة خان، وهو أول حاكم مغولي مسلم⁽⁴⁾ وكان من أشد المعارضين لاجتياح هولوكو لأراضي المسلمين وقضائه على الخلافة العباسية، إلا أنه لم يتمكن من منعه من الإقدام على ذلك.

في الحقيقة هناك عوامل عديدة وراء هذا التقارب المغولي - المملوكي، وأهمها:

- العامل الديني: وهو عامل مهم آنذاك في عصر كان الإيمان فيه أساس التحالفات والحروب.

(1) المقريزي: السلوك، 525/1. ابن عبد الظاهر: الروض، ص 226.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 383-372/14، المقريزي: السلوك، 447-446/1، ابن إياس: بدائع

الزهور، 108/1. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 195-196.

(4) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص 50.

- العامل الاقتصادي: فشواطئ البحر الأسود التي أصبحت تحت سيطرة خانات القبيلة الذهبية، كانت تشكل المصدر الرئيس للعبيد الذين شكلوا عماد الجيش المملوكي⁽¹⁾.
- أيضاً فقد جمعهم العداء المشترك لهولاكو، ومعلوم ما هو سبب العداء المملوكي لهولاكو، أما عداء بركة لهولاكو فكان لأسباب عديدة أهمها:
- أيضاً العامل الديني، فقد نعم بركة على هولاكو بسبب ما فعله بالمسلمين من مجازر، وقد توعده بالانتقام منه متى سنحت له الفرصة بذلك⁽²⁾.
- تجاهل هولاكو حق بركة من نصيبه في غنائم الحرب حسب القاعدة المغولية التي سنّها جنكيز خان والتي تجعل قسم من هذه الغنائم يذهب لبيت باتو، وبما أن بركة خان حل محل باتو في خانة القفجاق، فقد توجب أن تذهب إليه هذه الحصة، لكن هولاكو تجاهل ذلك ولم يرسل له شيئاً من غنائم الشام والعراق⁽³⁾، وعندما أرسل بركة إلى بلاط هولاكو السفراء مطالباً بنصيبه من الغنائم قام هولاكو بقتل السفراء مما زاد في حدة العداء والتنافس⁽⁴⁾.
- ناهيك عن أن الإمبراطور منكو خان جعل أراضي القوقاز التابعة أصلاً للقبيلة الذهبية من نصيب هولاكو، مما عمق الكراهية بين الطرفين⁽⁵⁾.
- وتصادم الطرفان مرة أخرى في القوريلتاي، عندما ساند هولاكو؛ قوبيلاي وأيده في المطالبة بالخانية، في حين وقف بركة خان مع أريق برقا، ولما فاز قوبيلاي أصدر مرسوم بإقرار هولاكو على البلاد التي فتحها من ضفاف جيحون حتى الديار المصرية، كما أرسل له ثلاثون ألفاً من شباب المغول دعماً له⁽⁶⁾.

(1) برتولد شبولر: المرجع نفسه، ص 52-53، 94.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ، 332/1/2، جمال الدين سرور: دولة بيبرس، ص 92 هامش 4.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 497/1-498.

(4) D.Ayglon: The Great yasa of Chingiz Khon، in((Studia Islamica)) Vol.XXXIV.P 147.

(5) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص 50-51.

(6) رشيد الدين: جامع التواريخ، 336/1/2.

أمام هذه الأسباب من البديهي أن يكون بركة خان حليفاً لببيرس؛ العدو اللدود لهولاكو، فكثرت فيما بينهما تبادل الرسائل، وبدأ ببيرس يشجع بركة خان على قتال هولاكو حتى يشغل إيلخان فارس عن الهجوم على بلاد الشام، فأرسل له في بعض رسائله قائلاً: " وليس الإسلام قولاً باللسان، والجهاد أجد ما له من أركان، وقد توالت الأخبار بأن هلاون لأجل زوجته وكونها نصرانية أقام دين الصليب، وقدم مراعاة دين زوجته على دينك، وأسكن الجائيق الكافر مواطن الخلفاء إيثاراً لزوجته عليك"،⁽¹⁾ فرّد عليه بركة بإرسال وفد وصل إلى القاهرة في 11 رجب 661هـ/1263م يحمل رسالة مضمونها: " أنت تعلم أنني محب لهذا الدين، وهولاكو قد تعدى على المسلمين، واستولى على بلادهم، وقد رأيت أن تقصده من جهتك، وأقصده من جهتي، ونصدمه صدمة واحدة، فنقتله أو نطرده عن البلاد، ومتى كانت واحدة من هاتين، أعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها".⁽²⁾

وفعلاً أثمرت هذه الاتصالات، واستفاد المماليك إلى حدٍ ما من انشغال مغول فارس في حروبهم مع مغول القبيلة الذهبية، كما اهتم بركة خان ببث الفرقة بين المغول في آسيا الوسطى لكي يشد انتباه هولاكو إلى الشرق ويستنفد طاقة كبيرة من قوته،⁽³⁾ وقد استمر التحالف في عهد خليفة بركة خان (منكو تيمور 1267-1280م) وخلفاء الظاهر ببيرس.

وتجب الإشارة إلى أن التعاون والتنسيق بين الطرفين لم يقتصر على العمل العسكري فقط، بل تعداه إلى الجوانب العلمية والثقافية أيضاً، وقد ظهر ذلك واضحاً في الآثار والأبنية والمساجد والطب.....، فنتيجة هذه العلاقات " اكتسبت المعالم الحضارية على نهر الفولغا مظاهر إسلامية من حوض البحر المتوسط".⁽⁴⁾

أمام هذه المشاكل لم يكن بإمكان هولاكو التدخل بعمل عسكري مباشر ضد الظاهر ببيرس، وربما ذلك دفعه لأن يطلب من ملك أرمينية الصغرى أثناء زيارته لهولاكو القيام بهجوم

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 89، 139-140، المقريزي: السلوك، 465/1.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 195.

(3) نادية مصطفى وآخرون: العلاقات الدولية في العصر المملوكي، القاهرة، ط1، 1996م، ص 26.

(4) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص 94-95.

على حدود دولة المماليك، وفعلاً قام الأخير بذلك، إلا أنه مُني بهزيمتين على يد الجيش المملوكي في بلاد الشام سنة 662هـ/1263م.⁽¹⁾

6- الدولة الإيلخانية⁽²⁾:

تجب الإشارة هنا ولو بشكل سريع إلى قضية مهمة وهي قيام الدولة الإيلخانية في فارس، فمن المعروف أن النشاط المغولي ضد العالم الإسلامي بدأ سنة 616هـ/ عندما أطلق جنكيزخان حملته الأولى ضد أراضي الخوارزميين، سيطر خلالها على مناطق مهمة مثل بخارى وسمرقند، وعلى الرغم من وفاته سنة 624هـ/ إلا أن خلفائه استمروا في إرسال الحملات للتوسع غرباً، فكان أهمها وأضخمها على الإطلاق تلك التي أرسلها منكوخان سنة 651هـ/ بقيادة شقيقه هولاقو، فقد أشرف منكو شخصياً على إعداد هذه الحملة، وأعطى أخيه هولاقو تعليمات مفصلة عن مهمته، وكلفه باكمال السيطرة على العالم الإسلامي الممتد حتى البحر المتوسط، مع مصر.⁽³⁾

وفعلاً نجح هولاقو إلى حد ما في تنفيذ مهمته-كما تقدم-، فوصلت قواته إلى غزة سنة 656هـ/، لكنها في تلك السنة؛ كما هو معلوم تعرضت لهزيمة ساحقة على يد المماليك في معركة عين جالوت، وتمكن المماليك من رد المغول إلى ما بعد الفرات شرقاً، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً شكّل نهر الفرات الحدود الشرقية للمغول، وهو الحد الفاصل بينهم وبين المماليك غرباً.

في الحقيقة كان الحكم المغولي في فارس- منذ أن بدأ توسعهم فيها أيام جنكيزخان حتى خضوعها بالكامل لهم مع العراق على يد هولاقو- حكماً مباشراً ويسير بالية واحدة؛ يتم تحت إشراف الخان عن طريق قادة يُرسلون من منغوليا مباشرة لتولي مهام الحكم والإدارة وقيادة الجيش المقيم هناك،⁽⁴⁾ وحتى هولاقو نفسه لم يكن مستقلاً عن قراقورم، بل كان نائباً عن أخيه

(1) تناول الفصل الرابع الحديث عن هذه الغارات بالتفصيل، ص

² ايلخان تعني نائب الخان، لأن كلمة ايل أو ايلك تعني مطيع أو خادم، وهنا تأتي بمعنى نائب.

(3) رشيد الدين : جامع التواريخ، 234/1/2، 236-237.

(4) عباس اقبال: تاريخ المغول، ص 185

منكوخان، فلم يضرب باسمه درهماً ولا ديناراً، بل كلها كانت باسم الخان الأعظم منكو، حتى أيام أراغون حيث بدأ بضرب السكة باسمه واسم الخان الأعظم، وعندما جاء غازان حذف اسم الخان من السكة وأفردها باسمه.⁽¹⁾

لكن بعد وفاة منكوخان واعتلاء قوبيلاي لمنصب الخانية بدأت الأمور تتغير، وبدأت فارس والعراق وأذربيجان وغيرها من المناطق الخاضعة لهولاكو تتمتع بنوع من الاستقلالية عن منغوليا؛ وخاصة بعد أن قام قوبيلاي بإرسال تفويض لهولاكو بحكم المناطق الواقعة بين جيحون ومصر والشام،⁽²⁾ ولكنه ظل معترفاً بولاء اسمي لأخيه قوبيلاي.

بعد وفاة هولاكو سنة 663هـ/ خلفه ابنه أبغا، وفي أيام هذا استقلت المناطق التي كانت تحت يد أبيه -من جيحون حتى الفرات- فعلياً عن خانات المغول في قراقورم فيما عُرف بعد باسم الدولة الإيلخانية وعاصمتها تبريز، وإن ظلت الصلات بين الطرفين قائمة على شكل إرسال السفارات والهدايا، هذه الدولة حُكمت من قبل أبناء هولاكو واستمرت هذه الأسرة تحكماً قرناً من الزمان تقريباً،⁽³⁾ وهي التي تولت مهمة محاربة المماليك بحكم مجاورتها لهم في بلاد الشام، ولم يعد للامبراطورية المغولية في الصين أي تدخل في الأعمال التوسعية لمغول فارس ضد المماليك، فالصراع المملوكي كان مع مغول فارس فقط.

تحالف الإيلخانيون مع الأرمن والكرج، وبدلوا جهوداً حثيثة للتحالف مع الغرب الأوربي للقيام بحملة مشتركة ضد المماليك، لكن المحاولات كانت مفلسة، ورداً على ذلك تحالف المماليك مع مغول القبيلة الذهبية المعادين لمغول فارس-كما سلف الحديث-.

7 - رد الفعل المغولي والهجوم على البيرة سنة 663هـ/ 1264م:

(1) ابن خلدون، العبر، 1124/5-1125.

(2) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 419-420. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 213.

(3) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 217. فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص 28-29.

وبالعودة للحديث عن الأحداث، كان لابد للنشاط المملوكي على أطراف العراق أن يثير ردة فعل عند المغول، وفعلاً، فقد تمثل ذلك بحصارهم للبيرة في ربيع الأول سنة 663هـ/1264م، ومعهم سبعة عشر منجنيقاً⁽¹⁾.

يذكر ابن عبد الظاهر بأن هجوم المغول على البيرة في ذلك الوقت كان بناءً على نصيحة من الصليبيين، لأن العساكر الإسلامية لا يمكنها القيام بنشاط عسكري في فصل الربيع ما دامت خيلهم تتفرق في المراعي،⁽²⁾ وبالتالي يصعب جمعها وتجهيزها مباشرة.

حاصر المغول البيرة، وكان من المقرر مشاركة الجيش الأرمني، وبالفعل فقد سار الملك هيثوم الأول إلى البيرة، ولكنه اضطر إلى العودة بعد أن علم بأنه رزق بحفيد.⁽³⁾

عندما علم السلطان بخبر المغول أرسل إلى بلاد الشام لتجهيز العساكر، وبلغ تعداد عساكر الشام وعساكر مصر التي خرجت لمواجهة المغول المحاصرين للبيرة حوالي اثني عشر ألف فارس، أربعة آلاف فارس من بلاد الشام، وثمانية آلاف من مصر، بالإضافة إلى هؤلاء فقد أمر السلطان كل من صاحب حماه وحلب بالتحرك بقواتهما باتجاه الفرات، كما أرسل جنوداً إلى أمير العرب عيسى بن مهنا وأمره بأن يسير بها إلى حرّان، ثم خرج هو بنفسه على رأس القوات السلطانية في مطلع ربيع الآخر سنة 663هـ/1265م⁽⁴⁾.

يدل حجم الحملة هذه على مدى اهتمام السلطان بالموقف، وتقديره لخطورة قيام اتفاق صليبي مغولي، بعد النصيحة الصليبية للمغول، التي توحى بوجود حلف بينهم، لذا نجد أنه تمركز مع جيشه بجوار مناطق الصليبيين، ولم يسير مع باقي القوات إلى البيرة، فوصل غزة في العشرين من ربيع الآخر، وفي السادس والعشرين منه ورد عليه كتاب من دمشق يقول بأن المغول المقيمين

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص221، 223. المقرئزي: المصدر السالف، 524/1. ابن

أبيك، الدرّة الزكية، ص107. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 473/1.

(2) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص222. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 473/1.

(3) سمباط: تاريخ سمباط، 340/36.

(4) النويري: نهاية الأرب، 262/30. ابن عبد الظاهر: الروض، ص222. المقرئزي: السلوك،

523/1-524. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/318. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 474/1.

على البيرة عندما شاهدوا العساكر الإسلامية، هربوا، ورموا مجانيقهم وغرّقوا مراكبهم⁽¹⁾، عندئذ، ولما أدرك أنه لن يقاوم على جبهتين، استغل فرصة وجوده في بلاد الشام لتأديب الصليبيين، وقبل أن يلتفت للصليبيين، أمر بتقوية البيرة وتحصينها " وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين "⁽²⁾، بعد ذلك شرع في مهاجمة المراكز الصليبية، فاسترد عدة قلاع وحصون مثل قيسارية وأرسوف، كما هاجم حيفا وعتليت.⁽³⁾

وبهذا العمل يكون السلطان قد نجح في إحباط خطة هولوكو، وقام بتأديب الصليبيين.

مات هولوكو في ربيع الآخر 663هـ/ شباط 1265م وخلفه ابنه أبغا خان الذي تم تتويجه في الثالث من رمضان 663هـ/1265م⁽⁴⁾ وقد ورث هذا عن أبيه صراعاته مع القبيلة الذهبية وبلاد ما وراء النهر،⁽⁵⁾ وقد شغلته هذه الصراعات عن القيام بعمل عسكري مباشر أو اتخاذ موقف واضح ضد المماليك، وجل ما قام به التتار آنذاك؛ هو غارات خاطفة ومفلسة من النتائج،⁽⁶⁾ مما حدا بسلطنة المماليك لاستغلال هذه الفرصة - فرصة انشغال المغول بمشاكلهم الداخلية- بتسديد ضربات مميتة للصليبي ساحل بلاد الشام، وللأمر من الذين تعاونوا مع المغول، وفعلاً فقد كثّف المماليك عملياتهم العسكرية في الساحل الشامي خلال المدة 664-666هـ/1265-1267م ضد

(1) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 223-224. النويري: المصدر السالف، 30/ 263. المقريزي: المصدر السالف، 524. سمباط: تاريخ سمباط، 36/ 340. اليونيني: المصدر السالف، 2/ 318.

(2) المقريزي: المصدر السالف، 1/ 525، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 226. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 107. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 29.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 230، 234-235. النويري: نهاية الأرب، 30/ 265-268. للاستزادة، انظر الفصل الثالث، ص

(4) رشيد الدين: جامع التواريخ، 341/1/2، 11/2/2.

(5) رشيد الدين: المصدر نفسه، 13/2/2 وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 410، 434-435.

(6) منها على سبيل المثال هجومهم على الرحبة سنة 665هـ أثناء وجود السلطان في صفد، إلا أن أهالي الرحبة ردوهم خائبين.

الصلبيين، فحرروا عرقة، وصفد، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وأغاروا على طرابلس، وعكا، وحصن الأكراد، وأجبروا الصليبيين على عقد المهادنات وتقديم التنازلات.⁽¹⁾

لم تقتصر الأعمال العسكرية على الصليبيين، بل أرسل السلطان حملة كبيرة ضد أرمينية الصغرى سنة 664هـ/ 1266م بقيادة الملك المنصور صاحب حماه، أحدثت الخراب والدمار وأسرت أحد ولدي الملك الأرمني "هيثوم الأول" وقتلت الثاني، وعلى إثرها اضطر هيثوم الأول إلى عقد معاهدة مع المماليك سنة 666هـ/ 1268م تنازل فيها عن كل القلاع الإسلامية التي كان قد تسلمها من المغول أثناء اجتياحهم لبلاد الشام، مقابل إطلاق سراح ابنه.⁽²⁾

8- محاولات عقد هدنة بين المغول والمماليك:

أمام سلسلة الانتصارات التي حققها المماليك، والتي جعلت منهم قوة عظمى في المنطقة، ظهرت رغبة عند خان مغول فارس- رغبة ممزوجة بالكبر- لعقد معاهدة مع السلطان بيبرس، فربما أنهم أدركوا استحالة قيامهم بعمل عسكري ناجح ضده.

تجدر الإشارة إلى أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس هو الذي بدأ بفكرة عقد هدنة بين الطرفين، فقد كتب في سنة 667هـ/ 1268م إلى السلطان الظاهر بيبرس يقترح عليه فكرة الصلح مع المغول؛ ويقدم نفسه وسيطاً بينهم، إلا أن السلطان رفض التفاهم مع مغول فارس بقوله: " أما أبغا فما له إلا السيف وهو مطلوب منا بئار المسلمين ".⁽³⁾

لم تقتصر محاولات التقريب بين الطرفين على الإمبراطور البيزنطي، بل إن الملك الأرمني هيثوم الأول، عرض نفسه أيضاً على أن يكون وسيطاً للصلح بين الطرفين.⁽⁴⁾

والسؤال هنا: ما هو السبب الذي جعل حكام الأناضول يتبنون هذه القضية بحماسة؟.

في الحقيقة إن استتباب الأمن بين المغول والممالك يعود بالفائدة الكبيرة الأرمن والبيزنطيين، فالإمبراطور البيزنطي كان حليف السلطان الظاهر بيبرس، وإذا عدنا للأسباب التي

(1) سيتم الحديث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث، ص.....

(2) سيتم الحديث في الفصل الرابع عن هذه الحملة مطولاً، انظر ص.....

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 335.

(4) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص 339.

قربت بينهم وجعلتهم حلفاء، لكان أهمها هو العداء المشترك للإمارات الصليبية الموجودة في بلاد الشام، وبالتالي فإسكات جبهة المغول يمكن أن يوفر للمماليك فرصة العمل ضد صليبي بلاد الشام، وإشغالهم عن الإمبراطورية البيزنطية بسلطنة المماليك، هذا احتمال، والاحتمال الآخر هو أن يكون أبغا نفسه قد كلف الإمبراطور البيزنطي بهذا العمل نظراً لظروفه الصعبة، فهو في حالة حرب على حدوده الشرقية والشمالية، وبالتالي كان من المفيد له استتباب الأمن مع المماليك على الحدود الغربية.

وعقد مثل هذه المعاهدة كان أيضاً من شأنه أن يخدم ملوك أرمينية الصغرى، حلفاء مغول فارس، فالأرمن تعرضوا لضربة قاسية من قبل بيبرس سنة 664هـ/1266م، بوصفهم حلفاء المغول، ووقعوا على إثرها هدنة مدلة سنة 664هـ/1268م، تنازلوا فيها عن عدد من الحصون، ناهيك عن شروط عديدة مُقيدة لهم،⁽¹⁾ لذا فإن عقد هدنة بين الطرفين يخلصهم من مشاكل عديدة، ويمكن أن يدخلوا بالصلح على اعتبارهم من طرف المغول.

بدأت المراسلات بين الطرفين بإرسال خطاب من قبل أبغا إلى بيبرس عن طريق أرمينية الصغرى سنة 667هـ/1268م، مزج فيه اللين بالشدّة والتهديد والفخر والتكبر، ثم ختمه بطلب عقد معاهدة بين الجانبين، وهذا يأتي- بحسب ما جاء في الرسالة- لصالح السلطان الظاهر لأن أبغا " تملك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل ".

فرد السلطان الظاهر على رسالة أبغا برسالة أقوى منها، وسخر منه عندما ذكّره بمصير كتبغا قائد المغول في عين جالوت، وجعل شرط الصلح استعادة جميع الأراضي التي احتلها المغول في العراق والجزيرة و بلاد الروم و الشام.⁽²⁾

وبالنهاية أخفقت هذه المراسلات، ولم يتم عقد هدنة بين الطرفين، و من الطبيعي أن يحصل ذلك، إذ أن كل من الطرفين لم يكن متحمساً لمثل هذه الهدنة، وخاصة أن مراسلاتهم امتلأت بالفخر والتعالي على بعضهم، وإنكار أهمية الطرف الآخر.

(1) انظر الفصل الرابع، ص ...

(2) انظر نص المراسلات عند ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 340-342. المقرئزي: السلوك، 1/574. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 144-145.

9- توجه المغول بأنظارهم إلى الصليبيين بعد فشل المفاوضات مع المماليك:

أرسل أبغا سفارة إلى روما سنة 666هـ/1268م، - وكان قد سبقها سفارة أخرى سنة 664هـ/1266 ولم تحقق أية نتائج-، في وقت كانت فيه أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت إلى أوروبا، واستعدادات لويس التاسع مع عدد من ملوك أوروبا لإرسال حملة لنجدة الصليبيين في الشرق كانت في مراحلها النهائية، وقد حملت هذه السفارة أنباء تفيد بوجود جيش مغولي على أهبة الاستعداد لمهاجمة المماليك فور ظهور الجيوش الأوربية على السواحل،⁽¹⁾ لذا فإن جيمس الأول ملك أرغون قاد أسطوله إلى الشرق في سنة 668هـ/1269م، وأرسل إلى أبغا أنه قادم إليه من جهة سيس⁽²⁾ عاصمة أرمينية الصغرى لشن هجوم مزدوج على المماليك.⁽³⁾

فما كان من المغول؛ وبناءً على هذا الاتفاق، إلا أن أغاروا على الساجور⁽⁴⁾ بالقرب من حلب، وعلى مناطق أخرى، وأخذوا مواشي العربان، وكان ذلك في ربيع الأول 668هـ/أكتوبر 1269م، ولكن بمجرد سماعهم بمسير السلطان إليهم سارعوا بالعودة إلى بلادهم،⁽⁵⁾ أما بالنسبة للمساعدة الأوربية فقد أخفقت، لأن الأسطول تعرض لعاصفة بحرية أجبرت الملك جيمس الأول على العودة مع القسم الأعظم من قواته، في حين تابع ما تبقى من القوات المسير إلى عكا بصحبة ولديه، فوصلوا إلى عكا، لكنهم لم يقوموا بأي عمل وعادوا من حيث أتو بعد أن شاهدوا ما حل بالصليبيين قرب عكا.⁽⁶⁾

(1) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص 112.

(2) سيس أو سيسية بلغة أهلها: عاصمة أرمينية الصغرى، كانت إحدى مدن الثغور الشامية، تقع بين أنطاكية وطرسوس على عين زرية، الحموي: معجم البلدان، مادة سيسية.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض، 362. النويري: نهاية الأرب، 30/322. رنسيان: الحروب الصليبية، 567/3-568.

- Boyle, John Andrew: The Journey of Hetumoking of **Lihle Armenia**, to the Court Khon Mongle, Central Asiatic Journal, 1X, 1946. P.557.

(4) نهر بجهات منبج، تقع عليه عينتاب وتل باشر. الحموي: معجم البلدان، مادة ساجور.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 361. المقرئزي: السلوك، 1/584. النويري: نهاية الأرب، 30/170-171.

(6) انظر الفصل الثالث، حملة ولدي ملك أرغون، ص...

أما حملة لويس التاسع التي هاجمت تونس بغية الوصول إلى مصر إنطلاقاً منها؛ أخفقت بسبب وفاة لويس التاسع وانتشار الأمراض والأوبئة في صفوفها،⁽¹⁾ ولما علم إدوارد ولي عهد انكلترا - الذي كان قد اتفق مع لويس التاسع على المسير سوياً إلى الشرق وقد خرج بأسطوله من أجل ذلك - ما آلت إليه حملة لويس التاسع، عرج نحو الشرق، فوصل عكا في سنة 1271م، وعلى الفور أرسل إلى أبغا خان مغول فارس يطالبه بالالتزام بتعهداته للقيام بهجوم مزدوج على المماليك.⁽²⁾

والتزاماً بتعهداته؛ أرسل أبغا قائده صمغار مع قوات من الروم بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف فارس، فأغاروا على عينتاب، ووصلوا إلى عمق حارم في منتصف ربيع الأول من ذلك العام، وهناك قتلوا جماعة من الأهالي، ثم أرسلوا ألف وخمسمائة فارس للإغارة على البلاد الحلبية ولكشف الطريق لهم.⁽³⁾

كان السلطان موجوداً في الشام، فأرسل إلى مصر بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي بثلاثة آلاف فارس، ولما وصلته القوات سار بها إلى حلب، في حين جرد الأمير شمس الدين أستاذ دار ومعه جماعة من العربان إلى مرعش،⁴ وجرّد الحاج طيبرس الوزير وعيسى بن مهنا إلى حران والرها، وبحركة السلطان هذه عاد المغول إلى ديارهم بعد أن قُتل وأسر عدداً منهم في حران.⁽⁵⁾

(1) مارينو سانوتو: الأسرار، 111/38-112. . المقريزي: السلوك، 1/ 590.

(2) Howorth: A history of the Mongols. Part 3. P. 242-243.

عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص 113.

(3) النويري: نهاية الأرب، 30/ 178. ابن أيبك: الدرّة الزكية، ص 164. ابن عبد الظاهر: الروض، ص 395، ثم أشار في صفحة 396 إلى أن حركة التتار كانت بالاتفاق مع الصليبيين الذين أغاروا على قاقون في الوقت نفسه.

(4) مدينة بين ثغور بلاد الشام وبلاد الروم، لها ريبض يعرف بالهارونية، الحموي: معجم البلدان مادة مرسى.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 395-396. النويري: نهاية الأرب، 30/ 187. ابن أيبك:

أيبك: الدرّة الزكية، ص 165. اليونيني: نيل مرآة الزمان، 2/ 468-478. البرزالي: المقتفي،

243/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 156. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا،

ص 113.

أما الصليبيين في عكا؛ فتزامناً مع الهجوم المغولي، أغاروا على قاقون الواقعة إلى الشرق من عكا وبعض المناطق المحيطة بهم في أواخر ربيع الآخر من ذلك العام، وهم أيضاً تعرضوا لهزيمة أجبرت إدوارد الأول على التخلي عن مشروعه الصليبي وعقد هدنة مع الظاهر بيبرس والعودة إلى دياره بعد أن تعرض لمحاولة إغتيال من قبل المماليك.⁽¹⁾

10- عودة المفاوضات بين مغول فارس والمماليك:

في شوال سنة 670هـ/ أيار 1271م وصل إلى السلطان بيبرس أثناء وجوده في دمشق، رسل قادمين من قبل صمغار قائد المغول المقيم في آسيا الصغرى، والبرواناه⁽²⁾ معين الدين وزير السلطان السلجوقي في بلاد الروم، وكانوا يحملون رسالة شفوية تقدم عرضاً من قبل صمغار والبرواناه يطلبون فيها الصلح، ويعرضون أنفسهم وسطاء بين السلطان وأبغا لتحقيق ذلك.⁽³⁾

رحب السلطان بيبرس بهم، ثم شكّل وفداً وأرسل معه رسالة إلى أبغا استجابة للعرض الذي قدمه صمغار والبرواناه، ولكن هذه الرسالة حملت تهديداً مبطناً، لم يكن من شأنه تحقيق الصلح، فالسلطان ذكر في الرسالة بأن منكوتر خان القفجاق يُلح عليه في الاشتراك بهجوم على أراضي ايلخانات فارس، وأين ما وصلت خيل السلطان بيبرس كان له، وأين ما وصلت خيل منكوتر كان له،⁽⁴⁾ وأكثر من ذلك؛ فهو يجعل شرط الصلح أن يُعيد أبغا جميع أراضي المسلمين التي تحت يده،⁽⁵⁾ وهذا مستحيل.

(1) انظر الفصل الثالث، ص.....

(2) لفظ فارسي معناه الحاجب، استخدم عند السلاجقة في آسيا الصغرى بمعنى الوزير الأكبر، انظر، دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص33. محمد قنديل البقلي: التعرف بصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص64. ومعين الدين هذا هو وزير السلطان السلجوقي غياث الدين بن ركن الدين واسمه حسام الدين بيجار، انظر: ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص79. البرزالي: المقتفي، 347/1.

(3) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص34. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص399. اليونيني:

ذيل مرآة الزمان، 471/2-472.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص400.

(5) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص35. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 472/2.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ما ورد عند ابن عبد الظاهر يدفع إلى الشك بوجود اتصالات سرية بين السلطان والبرواناة، فهو يذكر - أي ابن عبد الظاهر - أن السلطان حمل الوفد المرسل إلى أبغا، والمار ضمن أراضي آسيا الصغرى، وبطريقة سرية-هدية من قماش فاخر للبرواناه،⁽¹⁾ بل أكثر من ذلك إن البرواناه قُتل سنة 676هـ من قبل أبغا-كما سيتضح- بعد أن انكشف ميله للسلطان الظاهر.⁽²⁾

دعا أبغا كبار قاداته للتشاور أمام الموقف الجديد، وبعدها أرسل سفراءه إلى القاهرة عام 671هـ/ 1272م طالباً بدء المفاوضات من أجل الصلح، على أن يكون الأمير سنقر الأشقر هو الوسيط، لكن السفراء غيروا في كلامهم واقترحوا شروطاً كان يتعذر على السلطان قبولها، وهي أن يسير السلطان بنفسه أو من يليه في المرتبة إلى فارس لعقد الصلح، فأجابهم السلطان بأن أبغا إذا قصد الصلح يمشي فيه هو أو واحد من أخوته،⁽³⁾ وفي النهاية أخفقت المفاوضات وهي نتيجة طبيعية لمثل تلك مراسلات.

11- موقعة البيرة وهزيمة المغول على الفرات سنة 671هـ/1272م (موقعة جنقر)⁽⁴⁾:

أدرك أبغا استحالة الصلح مع بيبرس، وبدأ يعد العدة للهجوم على أراضي السلطنة، وفي الحقيقة أن ذلك تم قبل أن تعود رسله إليه،⁽⁵⁾ وبالتالي إن عملية إرسال الرسل كانت للتضليل وكسب الوقت.

وصلت الأخبار بتحركات المغول في تاسع ربيع الأول والسلطان في مصر، أما نزولهم على الرحبة فقد وصل خبره في خامس جمادى الأولى والسلطان آنذاك كان قد وصل إلى دمشق،

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 399.

(2) ابن شداد: المصدر السالف، ص 183. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 207. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 186/3. رشيد الدين: جامع التواريخ، 65/2/2.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 400-404. المقرئزي: السلوك، 605/1.

(4) سميت بهذا الاسم نسبة إلى جنقر قائد المغول آنذاك، انظر ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 169.

(5) رسل أبغا تم تسفيرها من قبل السلطان في مطلع ربيع الأول، في حين أن الخبر وصل إلى السلطان بتحركات المغول في تاسع ربيع الأول من السنة نفسها، انظر: ابن عبد الظاهر، الروض، ص 404-405.

فسار إلى القصير جهة حمص وهناك بلغه أنهم تركوا الرحبة ونزلوا على البيرة،⁽¹⁾ وأنهم نصبوا عليها المجانيق، فسار إلى حمص، ومن هناك أخذ مراكب الصيادين ببخيرة قدس وحملها على الجمال، ووصل بها إلى مخاضة على الفرات تعرف بمخاضة الحمام، بعد أن بلغه اجتماع المغول على شط الفرات الشرقي وتحصنهم هناك، وكانت عدتهم خمسة آلاف فارس من كبار المغل يتقدمهم جنقر،⁽²⁾ فألقى المراكب التي حملها معه في الفرات، وأراد أن يعمل منها جسر على الفرات لعبور قواته، إلا أن القوارب التي حملها؛ وعددها عشرة فقط كانت لا تقي بالغرض، وخوفاً من ضياع الفرصة، أمر قواته باقتحام الفرات، فكان الأمير قلاوون أول من خاضه،⁽³⁾ فصدم التتار صدمة فرقهم بها ومزقهم، فألقت باقي القوات المملوكية نفسها في الفرات، وساقوا فيها عوماً الفارس إلى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة، ومجاديفهم رماحهم، وعليهم وعلى خيولهم الحديد، " فوقعوا على التتار، فاستلوا أرواحهم من جسومهم طعناً وضرباً، أسروا منهم تقدير مايتي نفس ولم ينج منهم إلا القليل"،⁽⁴⁾ وقتل مقدمهم جنقر، وصلّى السلطان بمنزلة العدو ركعتين، وكان ذلك يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، ثم عاد السلطان بعسكره يوم الاثنين إلى الضفة الغربية للفرات، أما بالنسبة للمغول الذين نزلوا على البيرة بقيادة درباي، فعندما وصلهم خبر هذه الواقعة، رحلوا عنها بعد أن أشرفوا على أخذها، وتركوا مالهم من العدد والمجانيق والأمتعة، " ونجوا بأنفسهم لا يلوي كبيرهم على صغيرهم"، فسار السلطان إليها ودخلها في الثاني والعشرين من الشهر نفسه جمادى الأولى 671هـ، فخلع على أهلها وأنعم عليهم.⁽⁵⁾

12- المفاوضات بين السلطان الظاهر ومعين الدين البرواناه:

- (1) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 55. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/3.
- (2) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 169، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 55، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 405، المقرئزي: السلوك 606/1.
- (3) ابن أبيك: المصدر السالف، ص 170. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 55.
- (4) ابن شداد: المصدر نفسه، ص 55-56.
- (5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 408، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 56، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 170-171، المقرئزي: السلوك 607/1، اليونيني ذيل مرآة الزمان، 3/3. النويري: نهاية الأرب، 30/333-334. بيبرس الدودار، زبدة الفكرة، 9/88-89. البرزالي: المقتفي، 269/1.

كما هو معروف بأن سلاجقة الروم كانوا خاضعين لمغول فارس، وقد ضاق ذرعاً الوزير السلجوقي معين الدين من تسلطهم وتدخلهم في شؤون بلاده، وخاصة أجاوي و صمغار ممثلي المغول في بلاده، فقرر التخلص من تسلطهم بالالتجاء إلى المماليك، لذا راسل السلطان سراً في سنة 672هـ/ يعرض عليه تبعيته إن خلّصه السلطان منهم وأعطاه الحماية، فقبل السلطان هذا العرض، ووعده بالمسير في السنة القادمة لأن خيله متعبة، وعندما عادت رسل معين الدين إليه من عند السلطان وجدوا أجاوي و صمغار قد تم سحبهم من قبل أبغا بناء على احتجاج "سري" كان قد قدمه معين الدين لأبغا سالفاً، لذا فقد تكلّم معين الدين في إجابة السلطان بعد أن صلحت بلاده بخروج أجاوي و صمغار. (1)

في السنة التالية؛ 673، وفي شهر شعبان/ آذار 1275م، تحرك السلطان بجيشه إلى بلاد الشام، وربما كانت وجهته آسيا الصغرى حسب ما وعد البرواناة، وقد تزامن ذلك مع سحب ممثلي التتار "صمغار وأجاوي" من آسيا الصغرى، وهذا يعني بالنسبة للبرواناة غياب المسوخ لقدوم السلطان، فكتب البرواناة للسلطان بيبرس يقول له: " اقص هذه السنة سييس، ففي السنة الآتية أملكك البلاد إنشاء الله"، (2) فوجد السلطان فرصة مناسبة لتسديد ضربة لمملكة أرمينية الصغرى وبخاصة أن صاحبها خالف ما كان متفق عليه بينه وبين الظاهر بيبرس في إرسال الهدايا وعدم تجديد الحصون، كما أنه منع وصول الأخبار الصحيحة عن تحركات المغول، وصارت قواته ترتدي زي المغول وتهاجم القوافل التجارية (3)، فما كان من السلطان إلا أن هاجم أرمينية تحت هذه الذريعة في رمضان 673هـ/ 1275م، حيث استولى على: إياس، وأذنة، والمصيصة، وعاد بالكثير من الغنائم والأسرى، (4) وبهذا العمل يكون السلطان قد سدّد ضربة قوية للأرمن أخرجتهم مؤقتاً من دائرة الصراع المغولي المملوكي.

(1) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 78-79. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 34/3.

(2) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 106-107، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 177-178،

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 432. النويري: نهاية الأرب، 30/337.

(4) ابن أبيك: المصدر السالف، ص 177-178، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/29-31، ابن عبد

الظاهر: المصدر السالف، ص 433، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/389-392.

رد المغول على هذه الحملة المدمرة لأرمينية بهجوم على البيرة، إذ أرسل أبغا إلى البرواناه، وممثلي المغول في بلاد الروم، - وكان ممثل المغول آنذاك هو تقو نوبن الذي تم تعيينه بدلاً من آجاي وصمغار- بمحاصرة البيرة، فرحلوا قاصدين البيرة ونزلوا عليها في 8 جمادى الآخرة 674هـ/1275م، وكانت عدة العساكر ثلاثون ألفاً، خمسة عشر ألف فقط من المغول، والباقي من عساكر الروم، ومن عساكر ماردين وميافارقين، بالإضافة إلى طوائف عديدة من عساكر الموصل، وشهرزور⁽¹⁾ والعراق.

نصبوا على البيرة ثلاثة وعشرين منجنيقاً، ولكن حصارهم لم يدم طويلاً، لأن " القلعة حصينة، وعساكر الملك الظاهر قريبة منها، وفيها ذخائر كثيرة " وعساكرهم وهنت، فكان أهل البيرة يخرجون على المغول في الليل ويهاجمونهم، فأحرقوا المنجنيقات، ونهبوا أثقالهم وفتكوا بعساكرهم، فقررروا الرحيل، وتم ذلك في يوم السبت 17 من الشهر نفسه بعد حصار دام تسعة أيام فقط.⁽²⁾

13- معركة أبلستين⁽³⁾ 675هـ/1276م:

أ- المراسلات بين السلطان بيبرس و الوزير معين الدين والأمراء السلاجقة:

قبل حصار البيرة سالف الذكر سنة 674هـ/1275م، تم استدعاء البرواناة إلى الأردو من قبل أبغا مرتين، الأولى كانت عقب حملة المماليك على أرمينية الصغرى، والثانية كانت نتيجة وشاية من آجاي⁽¹⁾، الذي أعاده أبغا إلى مكانه في أسيا الصغرى سنة 673هـ.⁽²⁾

(1) هي كويبة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، معناها بالفارسية المدينة، أهلها أكراد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة شهرزور، والمقصود هنا هو الأكراد. انظر، البرزالي: المقتفي، 344/1.

(2) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 125-127. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 114/3-115. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 41/7. البرزالي: المقتفي، 344/1، 346. المقريزي: السلوك، 1/621. النويري: نهاية الأرب، 219/30-220. العيني: عقد الجمان، 139-140. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 82.

(3) أبلستين مدينة ببلاد لروم اسمها حالياً ألبستان، وهي على مقربة من أفسوس، الحموي: معجم البلدان، مادة أبكن.

ولما عاد البرواناة إلى آسيا الصغرى سنة 674هـ، أتته مباشرة تعليمات من قبل أبغا لمهاجمة البيرة مع القائد تقو نوين، فتم الحصار - كما مر من قبل -، وحدث في أثناء الحصار أن أمسكت دورية من دوريات المغول؛ التي كانت تستطلع أخبار المماليك ثلاثة رسل من الظاهر بيبيرس يحملون رسالة إلى البرواناة تتضمن: " أننا وقفنا على ما كتبت به إلينا، وها نحن على إثر رسلك، فكن على أهبة فيما عزمت عليه من إجتماع الكلمة على العدو المخذول"، ولما أطلعوا البرواناة على هذه الرسالة أنكر علمه بذلك وقال إنها مكيدة " من صاحب سيس يريد بها قتلي وما هذه منه بأولة"، فتظاهروا بتصديقه، وأرسلوا إلى أبغا بذلك دون أن يعلم البرواناة.⁽³⁾

أخفق حصار البيرة لأسباب تقدم ذكرها، ونتيجة لما استجد من أمور أثناء الحصار، فقد المغول ثقتهم بالوزير البرواناة، فأيقن هو والأمراء " أن لا مقام لهم في الروم مع التتر"،⁽⁴⁾ فرأى أنه من الأفضل أن يسير قُدماً في مشروعه السالف، وهو التحالف مع المماليك واستدعاء السلطان بيبيرس إلى بلاده للتخلص من المغول، فهو بهذا العمل على الأقل لا يخرج مفلساً من الطرفين.

وفور عودته إلى بلاده اجتمع معين الدين البرواناة مع الأمراء، وأخذ عليهم الأيمان أن يكونوا مع الملك الظاهر، و" أن يعادوا من عاداه، ويوالوا من والاه"،⁽⁵⁾ وأرسلوا بذلك إلى السلطان، مشترطين: مساعدة عسكرية لحمايتهم من المغول، وأن يبقى السلطان السلجوقي في مكانه حاكماً، وبالمقابل ما كان يُدفع من جزية للمغول يأخذه السلطان.⁽⁶⁾

(1) سلف الكلام عنه على أنه أحد قادة المغول في آسيا الصغرى، وكان مع صمغار قد تسلط على السلاجقة هناك، ونتيجة شكوى من البرواناة إلى أبغا تم سحبه من هناك سنة 672هـ ثم أُعيد إلى مكانه في السنة التالية.

(2) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 122-123. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 112/3-113.

(3) ابن شداد: المصدر السالف، ص 126. اليونيني: المصدر السالف، 115/3. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 42/7.

(4) ابن شداد: المصدر السالف، ص 128. اليونيني: المصدر السالف، 116/3.

(5) ابن شداد: المصدر السالف، ص 128. اليونيني: المصدر السالف، 116/3.

(6) ابن شداد: المصدر السالف، ص 128. اليونيني: المصدر السالف، 117/3. البرزالي: المقتفي، 347/1. وقد أشار رشيد الدين إلى هذه المراسلات، جامع التواريخ، 61/2/2. بيبيرس الدوادر: التحفة الملوكية، 82.

في الحقيقة كان هذا العرض سخي، إلا أن السلطان لم يورط نفسه برد سريع، بل أرجأ عملية التدخل العسكري إلى العام المقبل بحجة أن المياه آنذاك كانت قليلة في الآبار " وإذا انقضى الربيع يقع العزم على التوجه إن شاء الله ".⁽¹⁾

يعلل أحد المؤرخين رفض السلطان هذا العرض بأنه لم يشأ الإقدام على مخاطرة قد تؤدي إلى نكبة تأتي على السمعة التي بناها بحكمته، فاستراتيجياً وجد أنه من المستحيل أن يرسل إلى بلاد الروم جيشاً يكون الأرمن في مؤخرته ويكون هو تحت رحمتهم، وسياسياً بعض قادة السلاجقة في بلاد الروم لم يشاركوا في قبول الاقتراح، وحتى الطقس في هذا الوقت من السنة لم يكن مشجعاً على إرسال جيش إلى مكان ناء كبلاد الروم، وأخيراً لعل ببيرس لم تكن عنده الثقة الكافية بالبرواناه ونواياه.⁽²⁾

في هذا الوقت كتب أبغا إلى البرواناه يستدعيه في الحضور إليه، فغدا موقف البرواناه حرجاً إذ لم يجد بُدّاً من المسير إلى أبغا، فسار إليه في 11 ذي الحجة 674هـ/ 27 مايو 1276م " يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ".⁽³⁾

في أثناء غياب البرواناه في مسيره إلى أبغا كتب بعض أمراء السلاجقة إلى السلطان الظاهر يحثوه على القدوم إلى آسيا الصغرى، وكان ذلك باتفاق مسبق مع البرواناه، ليجد هذا الأخير العذر بعدم إكمال مسيره إلى أبغا والعودة إلى آسيا الصغرى بحجة هجوم المماليك، فهو كان يخشى لقاء أبغا، وفعلاً وصلت رسل السلاجقة إلى السلطان الظاهر، فقام هذا الأخير بإرسال الأمير بكتوت في محرم 675هـ/1276م إلى آسيا الصغرى - ليستطلع الوضع هناك - ومعه رسائل إلى الأمراء السلاجقة يدعوهم فيها إلى طاعته والانقياد له، " فمن أطاعني حقن دمه وماله وريح الجنة، ومن عصاني فلا يلومن إلا نفسه "،⁽⁴⁾ وفعلاً وصل الأمير بكتوت إلى الأبلستين،

(1) ابن شداد: المصدر السالف، ص 129.

(2) عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر ببيرس، الرياض، ص 70.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 42/7-43، ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 188-189، ابن شداد:

تاريخ الملك الظاهر، ص 153.

(4) ابن أيك: المصدر السالف، ص 189، اليونيني: المصدر السالف، 3/165. ابن شداد: المصدر

السالف، ص 154.

وهناك اجتمع بعدد من أمراء السلاجقة الذين أبدوا له تحمسهم للوقوف إلى جانب السلطان ضد المغول. (1)

بعث بكتوت بالكتب إلى الأمراء السلاجقة، وكان هناك شبه إجماع على أن يكتبوا للسلطان بأنهم على أمره وأن " البلاد بلاده "، (2) ولكن هؤلاء الأمراء ارتكبوا خطأً بأن قاموا في وجه المغول المقيمين هناك قبل أن يأمرهم السلطان، مما أدى إلى حدوث انقسامات، فأرسلوا إلى السلطان، وكان في حمص، يستعجلوه في المسير، فكان رده: " أنتم استعجلتم في المباينة، كنت قد وعدت معين الدين أني في أواخر هذه السنة أطأ البلاد بعساكري، فإنها بمصر"، واعتذر عن المسير لقلّة عساكره، ولامهم على تصرفهم هذا ونصحهم بالتحصن في قلاعهم ريثما يذهب إلى مصر ويأتي بالعسكر في فصل الشتاء، " فإن آبار الشام في هذا الوقت قد غارت وقلّت مياهها". (3)

ثم سار السلطان إلى حلب، ومن هناك وفي 25 صفر من تلك السنة أرسل الأمير سيف الدين بلبان الزيني بعسكر قليل ليأتي بالسلطان غياث الدين والأمراء الذين حلفوا له، لكن هذه القوة ما إن وصلت قلعة الحدث حتى عادت بسرعة بعد أن وردها الخبر بقدم البرواناه ومعه منكوتمر أخو أبغا و 30 ألف فارس مغولي، وعندما علم السلطان بذلك انسحب على فوره إلى دمشق خوفاً من أن يعلم المغول بوجوده هناك مع قوة صغيرة فيهاجموا حلب، ودخل دمشق في ربيع الآخر ومنها توجه إلى مصر. (4)

كان سبب قدوم هذه القوة أن البرواناة عندما سار إلى أبغا؛ أمر أحد أمرائه المقربين، أن يكتب للظاهر بيبرس بالقدوم، ثم يكتب للبرواناة وهو في طريقه إلى أبغا بضرورة الرجوع بسبب هجوم المماليك، وهي حيلة من البرواناة لأنه كان خائفاً من لقاء أبغا، ولما كتب طرنطاي هذا إلى

(1) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 154-155، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 190، ابن الفرات:

تاريخ ابن الفرات، 66-65/7. البرزالي: المقتفي، 363/1.

(2) ابن شداد: المصدر السالف، ص 157. البرزالي: المقتفي، 363/1.

(3) ابن شداد: المصدر السالف، ص 160-161. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 192-193. اليونيني:

ذيل مرآة الزمان، 170-169/3.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان 170/3. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 68-67/7. ابن شداد: تاريخ

الملك الظاهر، ص 161، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 194.

البرواناة بهجوم المماليك المزعوم، سيّر هذا الأخير هذه الكتب إلى أبغا، فأمره أبغا بالعودة وأمده بثلاثين ألف فارس.⁽¹⁾

وصلت القوات المغولية إلى أراضي سلاجقة الروم، وهناك قام المغول بسلسلة من الاستجابات مع الأمراء الذي أرسلوا الظاهر وأعلنوا ميلهم له، ومن خلال هذه التحقيقات تبين لهم ضلوع البرواناه في هذه المؤامرة.⁽²⁾

ب - استعدادات السلطان والمسير إلى آسيا الصغرى:

أثار مسير هذه القوة المغولية مخاوف السلطان، واستباقاً لأي هجوم مغولي، قرر السلطان - بناءً على المراسلات المتقدمة مع الأمراء السلاجقة - استغلال الموقف ومهاجمة المغول، لذا عاد سريعاً إلى مصر فدخلها في ربيع الأول 675هـ/ آب 1276م، وفي الشتاء التالي - حسب الاتفاق - أصدر الأوامر للقوات بالقيام باستعراض عسكري، ومناورات استمرت ثلاثة أيام، شارك فيها بنفسه، ثم شرع في السفر إلى بلاد الروم بعد أن رتب الأمير آق سنقر الفارقي نائباً عنه في خدمة ولده السلطان الملك السعيد، وترك عنده من العساكر خمسة آلاف فارس لحفظ البلاد، فخرج من القلعة في 20 رمضان 675هـ/ شباط 1277م، ودخل دمشق في 17 شوال/ آذار، ثم خرج منها في 20 شوال إلى حلب، فوصلها في مستهل ذي القعدة، ومنها سار إلى حيلان⁽³⁾ في 2 ذي القعدة/ نيسان.⁽⁴⁾

وخوفاً من هجوم مغولي قادم من جهة العراق أرسل السلطان أثناء وجوده في حلب نائبها الأمير نور الدين بن مجلي إلى الفرات لحفظ معاينه من هجمات المغول، وانضم إليه أمير العرب عيسى بن مهنا، وقد نجح هؤلاء فيما بعد بالتصدي لهجوم قام به عرب خفاجة المواليين

⁽¹⁾ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/ 42-43.

⁽²⁾ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، 163-164. ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 195-197.

اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 3/ 170-173.

⁽³⁾ حيلان قرية تقع شمالي حلب، تخرج منه عين تسقي حلب، الحموي: معجم البلدان، مادة حيلة.

⁽⁴⁾ المقريزي: السلوك 1/ 626-627، ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 195، اليونيني: ذيل مرآة الزمان،

175/3. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 166-167. البرزالي: المقتفي، 1/ 382.

للمغول بتكليف من أبغا، وغنموا منهم غنائم عديدة، أما السلطان كان قد انطلق على رأس الجيش من حيلان في يوم الجمعة 3 ذي القعدة باتجاه بلاد سلاجقة الروم متبعاً المسالك المؤدية إليها، وكان أول لقاء جمعهم مع التتار عندما تقدم الأمير سنقر الأشقر بفرقة استطلاعية، فاصطدم مع فرقة مغولية عدتها ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم كراي، فانهزموا أمامه، وأسر جماعة منهم، وذلك في 9 ذي القعدة يوم الخميس.⁽¹⁾

ج- بدء المعركة:

وصلت الأخبار للمغول، فبدأوا بجمع قواتهم وترتيبها، فاصطفوا على نهر جيحان، كان مقدم المغول تتاون ومقدم سلاجقة الروم البرواناه، فلما أشرف السلطان بجيشه على صحراء أبلستين من أحد الجبال المجاورة وجد المغول قد رتبوا عساكرهم أحد عشر طُلباً، في كل طُلب أكثر من ألف فارس، في حين أنهم عزلوا عسكر الروم المسلمين، وذلك تحسباً من أن يكون بينهم وبين المماليك مراسلات فينضموا إليهم أثناء المعركة، وكان هنالك عسكر من الكرج انتظموا في طُلب واحد.⁽²⁾

بدأ القتال بأن هجمت ميسرة المغول على سنجقية⁽³⁾ السلطان، ونجحت طائفة منهم باختراق السنجقية مهاجمين اليمين، فلما رآهم السلطان أردفهم بنفسه، ثم التقت فرأى الميسرة وقد

(1) ابن أبيك: المصدر السالف، ص 198. اليونيني: المصدر السالف، 175/3-176. المقرئزي: المصدر السالف، 627/1-628. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 170-171. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 258/2-259. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 167/7-168. البرزالي: المقتفي، 382/1.
(2) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 458-459. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 172. المقرئزي: السلوك 1/628. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 168/7.

(3) السنجق: معناه الرمح، واستخدم بمعنى العلم أو الراية، وجمعه سناجق، وهي رايات صفر مطرزة بالذهب يحملها السنجقدار في موكب السلطان، والمقصود بها هنا الفرسان الذين يحملون رايات السلطان على رماح، ويكون عادة في الوسط، الفلقشندي: صبح الأعشى، 456/5، 458. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص 93.

تعرضت لهجوم عنيف من قبل ميمنة المغول وكادت أن تهلك، فأشار إلى صاحب حماه بأن يردف الميسرة، ثم حمل هو وجيشه حملة واحدة على المغول " فطحنوا التتار طحناً، وبدلوا فرحهم حزناً "،⁽¹⁾ ثم تزلج المغول عن خيولهم وقاتلوا بكل شراسة، ولكن ذلك لم يُغن عن الهزيمة، وريح المماليك المعركة، وريحوا معها غنائم عظيمة.⁽²⁾

نجا البرواناه بنفسه هارباً إلى قيصرية (قيصري)⁽³⁾، فدخلها يوم الأحد 12 ذي القعدة، وطالب من فيها من المسلمين بالخروج خوفاً من انتقام المغول الفارين من المعركة، ثم سار إلى توقات⁽⁴⁾ التي تبعد عن قيصرية ثلاثة أو أربعة أيام، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، إذ توجه السلطان إلى قيصرية فدخلها في 17 ذي القعدة 675هـ/ 22 نيسان 1277م، وهناك جلس على تخت آل سلجوق، وضربت السكة باسمه، وجعل الخطبة في مساجد قيصرية باسمه، وجلس مع الفقهاء والقضاة والقراء.⁽⁵⁾

(1) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 199.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 459-460. أبو الفداء: المختصر، 340/2-341. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 176/3-177. المقريزي: السلوك، 628/1-629. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 172. بيبس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/95. النويري: نهاية الأرب، 30/352-350. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 198-199. البرزالي: المقتفي، 1/382. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 168/1. Howorth: History of the Mongols. Part 3. P.252-255.

(3) قيسارية قيصرية مدينة تقع على نهر قارصو أحد فروع نهر قزل أرمك بآسيا الصغرى وهي تختلف عن قيسارية فلسطين، وهي كرسي ملك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي: معجم البلدان، مادة قيسارية.

(4) بلدة في أرض الروم بين سيواس وقونية بينها وبين سيواس يومان، الحموي: معجم البلدان، مادة توسكاس.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 464-467. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 177/3-178، 181. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 174، 175-177. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 201. رشيد الدين: جامع التواريخ، 62/2/2. البرزالي: المقتفي، 1/383. أبو الفداء: المختصر، 341/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 170/7، 173.

أرسل البرواناة إلى السلطان يهنئه بالجلوس على تخت السلاجقة، فأرسل إليه السلطان بالحضور ليوليه مكانه، فردّ عليه يطلب مهلة خمسة عشر يوماً، ويقول ابن شداد أن مراده من هذه المهلة هو أن يبقى السلطان في آسيا الصغرى حتى يدركه أبغا، فلما علم السلطان بذلك ترك قيصرية ورحل،⁽¹⁾ فوصل دمشق في 7 محرم 676هـ/حزيران 1277م، وقد لاقى في طريق العودة مصاعب جمّة، كما أنه لم ينس معاقبة الأرمن الذين أخفوا المغول الهاربين، من المعركة.⁽²⁾

وصلت أخبار الهزيمة إلى أبغا، فأسرع بنفسه إلى ميدان المعركة، وهناك هاله ما رآه من كثرة القتلى من المغول، فبكى عليهم، وعزم على الزحف خلف الظاهر بيبرس وكلف جيشاً خفيفاً بذلك، لكنه ما لبث أن عدل عن أمره عندما علم بابتعاد السلطان وأنه أصبح في بلاده، فاقتنع برأي الأمراء المغول بأن يؤجل هجومه إلى فصل الخريف أو الشتاء،⁽³⁾ ولكنه أرسل رسالة تهديد للسلطان جاء فيها: " إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلاننا وتقتلون بعضهم، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا، فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام .. وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل ما لكم من أخضر ويابس لأن الله الأزلي قد وهب لجنكيز خان وذريته بلاد العالم وأدخل السراة المتمردين في ريقة طاعتنا، وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلاً على الإديار".⁽⁴⁾

(1) ابن شداد: المصدر السالف، ص 177. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 174/7.

(2) ابن عبد الظاهر: المصدر السالف، ص 468-471. ابن شداد: المصدر السالف، ص 177-179. رشيد الدين: جامع التواريخ، 62/2/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 174/7. للاستزادة عن معركة الأبلستين انظر، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 57-59. النويري: نهاية الأرب، 353-350/30. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 85. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 262-259 /2.

(3) رشيد الدين: المصدر السالف، 63-62/2/2. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 186-185/3. ابن شداد: المصدر السالف، ص 181. أبو الفداء: المختصر، 341/2.

(4) رشيد الدين: جامع التواريخ، 63/2/2 - 64.

وبدافع الغضب والانتقام، وبعد أن رأى أبغا أن معظم القتلى من المغول، وليس فيهم من سلاجقة الروم إلا القليل، تأكد من الخيانة، لذا أباح أراضي سلاجقة الروم لجنوده، فعاثوا فيها قتلاً وسلباً، ورأى أن البرواناه قد غرر به عندما لم يخبره بحقيقته حجم جيش السلطان بيبرس وأمره، ولم يقبل عذره في أنه نفسه لم يكن يعرف ذلك وأمر بقتله،⁽¹⁾ ثم أجرى بعض التعديلات الإدارية هناك بحيث أخضع بلاد سلاجقة الروم للحكم المغولي المباشر، وعين أخيه قونكقور حاكماً عاماً عليها ومعه قوة كبيرة لحفظ البلاد،⁽²⁾ وبذلك تحولت سلطنة سلاجقة الروم من دولة مستقلة تتبع بشكل غير مباشر للمغول، إلى ولاية خاضعة مباشرة لهم.

بعد الفراغ من الحديث عن معركة الأبلستين لأبد من الإجابة على سؤال مهم، هو: ما هي الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس للإقدام على هذه المعركة خارج أراضيه، وهي عملية سابقة من نوعها، فلم يحدث أن قام الجيش المملوكي بمهاجمة الجيش المغولي في عقر داره، بل كان العكس دوماً؛ وكانت عمليات الجيش المملوكي عمليات دفاعية فقط؟.

المتفحص للخريطة الجغرافية آنذاك ولخط سير الحملات المغولية يتضح له: أن بلاد سلاجقة الروم شكلت المدخل الشمالي لبلاد الشام، وأن معظم الحملات المغولية في مسيرها لبلاد الشام؛ منذ حملة هولكو سنة 658هـ/1260م وما تلاها، كانت تأتي من ناحية الشمال والشمال الشرقي، ومعظمها عبر أراضي سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما أن الانسحاب غالباً ما كان يتم نحو الشمال.

أكثر من ذلك؛ فإن أراضي سلاجقة الروم بمقدراتها العسكرية والاقتصادية تحت تصرف المغول، وسلاجقة الروم لم يكونوا أقل رغبة وحماساً من المماليك-بحكم وحدة الدين- في العمل سويماً ضد المغول، وعندما سمحت الظروف بذلك لم يشأ الظاهر بيبرس إضاعتها.

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 3/186. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 181-184. ابن أيبك:

الدرة الزكية، ص 206-207. رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/62-65. بيبرس الدوادار: زبدة

الفكرة، 9/99-100. أبو الفداء: المختصر، 2/341. البرزالي: المقتفي، 1/386.

(2) رشيد الدين: المصدر السالف، 2/64.

وبالتالي فالسيطرة على أراضي سلاجقة الروم يعني قطع الطريق على المغول، ونقل ميدان المعركة إلى الشمال خارج أراضي سلطنة المماليك، وحرمان المغول من المردود الاقتصادي الذي كانوا يحصلون عليه كجزية من سلاجقة الروم، ووضع عسكر سلاجقة الروم في الكفة المقابلة للمغول إلى جانب المماليك.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية السيطرة على أراضي سلاجقة الروم يُسرّع في عملية القضاء على مملكة أرمينية الصغرى.

فأراضي سلاجقة الروم شكلت الحدود الشمالية والشرقية لأرمينية الصغرى، وكونت الجسر الذي يصلها مع مغول فارس، وغياب هذا الغطاء يعني فقدان أرمينية الصغرى-بمقدراتها الضعيفة أمام المماليك- لخط الإمداد القادم من المغول شرقاً، وبالتالي تصبح في عزلة شبه كاملة بعد أن تم عزلها عن الصليبيين منذ عقد تقريباً عندما تم تحرير أنطاكية سنة 666هـ/ 1268.

وصحيح أن الظاهر بيبرس حقق انتصاراً ساحقاً على المغول في الأبلستين، إلا أنه لم يمتلك القدرة لتتويج انتصاره العسكري باستغلال سياسي، بل كانت النتائج عكسية، فهو قام بالانسحاب فوراً إلى بلاد الشام، إذ لم تكن عنده القدرة على الاحتفاظ بهذه البلاد، فأحكم المغول قبضتهم على أراضي سلاجقة الروم أكثر من قبل بعد أن تنبهوا لأهميتها، كما قاموا بعمليات إبادة وحشية بحق أهلها المسلمين، فيذكر البرزالي أن ما قُتل من أهلها في عمليات الانتقام التي قام بها أبغا بلغ حوالي 100 ألف، وقيل 500 ألف من أهالي المنطقة الممتدة فيما بين قيصرية و أرزن الروم.⁽¹⁾

ثالثاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد المنصور قلاوون " 679-689هـ / 1280-1290م:

(¹) المقتفي، 386/1.

بعد وفاة الظاهر بيبرس بدمشق في المحرم سنة 676هـ/1277م تولى السلطنة ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان في 26 صفر 676هـ/ 30 تموز 1277م،⁽¹⁾ واستمر حكمه سنتين وشهرين وثمانية أيام، لم تشهد مدة حكمه أحداث مهمة مع المغول، وتم عزله في 7 ربيع الأول 678هـ/ 15 أيلول 1279م بعد أن تأمر عليه الأمراء المماليك وعلى رأسهم الأمير قلاوون، وبعد عزله تم نفيه إلى الكرك.⁽²⁾

من الطبيعي أن يُعرض الحكم على الأمير قلاوون كونه أقوى الأمراء المماليك والأولى بتدبير المملكة والأحق بتقلد أمرها،⁽³⁾ فشخصيته بدأت بالظهور منذ أيام الظاهر بيبرس حيث ارتقت في دولة الظاهر مرتبته، وارتفعت درجته، وعظمت لديه منزلته، ووقر في نفس الظاهر أن الملك إليه صائر،⁽⁴⁾ ولكن قلاوون قابل هذا العرض بالرفض لأن الظروف لم تكن تسمح باعتلائه العرش، فادعى أنه لم يخلع الملك السعيد طمعاً بالسلطنة؛ بل "حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، ويستهيئوا منها الأعيان والأكابر، ويضيعوا مصالح العساكر، والأولى ألا تُخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر"،⁽⁵⁾ ولكن كما يبدو أن هذه كانت خطة من قلاوون لتمكين نفسه، فبعد أن خلع الملك السعيد قام بتمليك الأمير بدر الدين سلامش الابن الأصغر للظاهر بيبرس، ولقبه بالملك العادل سلامش،⁽⁶⁾ فإذا كان الملك السعيد شاباً فتياً وغير قادر على إدارة الجيوش، فسلامش هذا كان طفلاً ليس له من العمر إلا سبع سنوات وأشهر، فكلام قلاوون سالف الذكر متناقض مع تنصيب سلامش، ولكن إذا علمنا أن قلاوون عين نفسه أتابكاً على العسكر

(1) النويري: نهاية الأرب، 30/369-370. ابن أبيك: كنز الدرر، ص208. البرزالي: المقتفي، 1/398، 393. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 3/156. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ص103؛ ويقول أنه استلم السلطة في شهر ربيع الأول. ابن تغري بردي: النجوم، 7/175.

(2) - ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص227. العيني: عقد الجمان، 2/223. البرزالي: المقتفي، 1/453. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص67. أبو الفداء: المختصر، 2/344. المقرئزي: السلوك، 1/654-655.

(3) العيني: عقد الجمان، 2/223.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/119.

(5) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص116. المقرئزي: السلوك، 1/657.

(6) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/148. أبو الفداء: المختصر، 2/344. البرزالي: المقتفي، 1/458. ابن أبي الفضائل، النهج السديد، 2/310.

ووصياً على سلامش، وأن النقود ضربت باسميهما معاً، وكذلك خطب لهما سوياً على المنابر،⁽¹⁾ أدركنا أبعاد القضية في أن قلاوون عزل بركة ونصّب سلامش الأقل مقدرة على ضبط السلطنة وقيادتها، وبالتالي مسوغات عزل سلامش وتنصيب قلاوون تزداد، ويصبح الأمر ضرورياً مع عجز سلامش على إدارة الدولة، ناهيك عن أنه في تنصيب سلامش تم اسكات المماليك الظاهرية وهم يوم ذاك معظم عسكر الديار المصرية.⁽²⁾

وفي أثناء سلطنة سلامش لم يكن لهذا الأخير إلا الاسم، في حين كان قلاوون " يدير الأحوال ويفرق الأموال ويؤسس الممالك ويمهد لنفسه المسالك"،⁽³⁾ وكما يقول المقرئزي كان صورة أتاك وتصرفه تصرف الملوك،⁽⁴⁾ فبدأ بعزل الأمراء الظاهرية، و" أحضر من كان من البحرية الصالحية منسياً، وقرب من كان منهم مبعداً مقصياً، فأعطاهم الاقطاعات وأمرهم بالطبلخانات، وأرسل بعضهم إلى الجهات الشامية، واستتابهم في القلاع..، وجازى المماليك الظاهرية بسوء أفعالهم...، وقبض على أعيانهم..، فأودعوا السجون..، ولما أحكم تدبير الأمور..، جمع الأمراء وقال لهم: " قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل، وأن لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير، لانتشار السمعة في البلاد وامتهان الحرمة في الحواضر والبوادي"، فاتفقت الأمراء على توليته،⁽⁵⁾ وتم خلع الأمير سلامش قبل أن يمضي في الحكم ثلاثة أشهر، وتولى قلاوون الحكم في 20 رجب 678هـ/ 26 تشرين الثاني 1279م وتلقب بالملك المنصور.⁽⁶⁾

(1) النويري: نهاية الأرب، 398/30-399. بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ص116-117. ابن

تغري بردي: النجوم، 286/7. المقرئزي: السلوك، 657/1-658.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 147/7. المقرئزي: السلوك، 657/1.

(3) النويري: نهاية الأرب، 30/400.

(4) المقرئزي: السلوك، 658/1.

(5) بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ص116-117. المقرئزي: السلوك، 658/1. ابن تغري بردي:

النجوم، 287/7-288.

(6) - ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 150/7-151. ابن أيبك: كنز الدرر، ص231-232. اليونيني:

اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 8/4-9. النويري: نهاية الأرب، تح: الباز العريني، 31/ص7. ابن

تغري بردي: النجوم، 296/7. العيني: عقد الجمال، 242/2-246. البرزالي: المقتفي، 460/1.

بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص69-70.

بدء السلطان المنصور حكمه في مواجهة مجموعة من المشاكل الداخلية، أهمها تمرد الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق محاولاً الانفصال ببلاد الشام عن مصر، حيث دعا أهل الشام إلى طاعته وتلقّب بالملك الكامل، وخطب له على منبر الجامع الأموي، وكاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية، ولم يبق للملك المنصور قلاوون حكم إلا على الديار المصرية وأعمالها،⁽¹⁾

قام السلطان قلاوون بإرسال جيوشه بقيادة سنجر الحلبي - الذي تسلطن من قبل بدمشق عقب وفاة قطز - وغيره من الأمراء لمحاربة سنقر الأشقر؛ فانتصرت عليه الجيوش قرب غزة، وفر هارباً إلى الرملة، لكن هذه الهزيمة لم تفت بعضه، حيث استمال بعض الأمراء، وأنته النجدات من حمص وحماة وحلب وبعض أمراء العربان (الأمير عيسى بن مهنا، والأمير ابن حجي)، وعلى الرغم من هذا فقد حلت به هزيمة أخرى في ظاهر دمشق على يد جيوش السلطان قلاوون بقيادة علم الدين سنجر الحلبي في 16 صفر 679هـ/ بعد أن تخلى عنه العسكر الحموي والحلبي والشامي وانضموا إلى العسكر المصري، ففر إلى الرحبة شمال بلاد الشام وبعد أن عجز عن أخذها كتب من هناك يستجد بالمغول ويحرض أبغا بن هولكو ايلخان مغول فارس ويحسن له الغارة على بلاد الشام،⁽²⁾

(1) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن، ت779هـ): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط2، 2010م، 52/1. ابن تغري بردي: النجوم، 294/7. المقرئزي: السلوك، 672/1. أبو الفداء: المختصر، 345/2. بييرس الدوادار: زبدة الفكرة، 123-122/9.

(2) النويري: نهاية الأرب، 17/31-20. العييني: عقد الجمان، 246/2. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 58-57/1. المقرئزي: السلوك، 676-675/1. ابن أيك: الدرّة الزكية، ص236. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص288. البرزالي: المقتفي، 474 / 1، 477-478.. 675. ابن تغري بردي: النجوم، 295/7. أبو الفداء: المختصر، 345/2.. بييرس المنصوري: مختار الأخبار، ص71. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4 / 40-41. بييرس الدوادار، التحفة الملوكية، ص93. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص197.

بعد مكاتبة أبغا عاد سنقر الأشقر إلى صهيون، إذ كان قد أرسل إليها أهله وماله قبل التقائه مع العسكر المصري في المعركة الماضية،⁽¹⁾ وكانت من ضمن البلاد التي أطاعته.⁽²⁾

أما عن سبب عودته إلى صهيون فتذكر أحد المصادر أن علاء الدين الجويني حاكم بغداد من قبل أبغا بن هولكو أرسل له يطلب منه الدخول في طاعة أبغا، إلا أن عيسى بن مهنا وغيره حذّره من دخول دار الكفر بعد أن منّ عليه الله في الإسلام،⁽³⁾ وتذكر مصادر أخرى بأن سنقر الأشقر وعيسى بن مهنا لا إذا بالفرار إلى صهيون بعد أن جرد إليهم السلطان قلاوون جيشاً بقيادة حسام الدين بن أطلس خان.⁽⁴⁾

المهم أن مراسلات الأمير سنقر الأشقر وعيسى بن مهنا أمير العربان، إلى أبغا شجعتة على انتهاز الفرصة والانتقام لهزائم المغول في عين جالوت والبيرة والأبلستين؛ ما دام الخلاف قائم في السلطنة المملوكية،⁽⁵⁾ وما دام هناك - حسب اعتقاده - من سيقف معه من أهل الشام وحكامها، فقام بإرسال قواته لمهاجمة بلاد الشام، وتم تقسيمها إلى ثلاث فرق هاجمت من محورين، الشمال والشرق، فمن جهة الشمال سارت فرقة بقيادة ثلاثة من أمراء المغول هم صمغار وتتجي وطرنجي، ومن الشرق سارت فرقتان، الأولى بقيادة بايدو بن طوغاي بن هولكو وبصحبتة

(1) المقرئزي: المصدر السالف، 676/1. النويري: المصدر السالف، 31/21. ابن أيك: المصدر

السالف، ص 236-237. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 197.

(2) يذكر ابن حبيب البلاد التي خرجت معه وهي: صهيون، وبُرزية، وبلاطنس، والشُّغر، وبكاس،

وحصن عكار، وشيزر، وحمص، وأفامية. انظر، تذكرة النبيه، 58/1. البرزالي: المقتفي، 483/1.

(3) ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 237. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 316/2-317. ابن

الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 197.

(4) العييني: عقد الجمان، 246/2، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 172/7. المقرئزي: السلوك، 1/

678.

(5) البرزالي: المقتفي، 485/1. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 197-198.

حاكم ماردين، والثانية بقيادة منكوتر بن هولكو وفيها معظم العسكر و" شرار المغول"، كما وصلت الأخبار بأن ملك أرمينية الصغرى خرج إليهم من طريق الدرساك ليجتمع معهم.⁽¹⁾

أمام هذا الهجوم المغولي الشرس، وما أحدثه من خوف في بلاد الشام، حيث عزم سكانها على الرحيل إلى مصر⁽²⁾، بدأت الاستعدادات للتصدي لهم على الشكل التالي:

- من كان في دمشق من العساكر المصرية المجردة من قبل لقتال سنقر الأشقر تجمعوا تحت قيادة ركن الدين إياجي الحاجب ومعهم العساكر الشامية ومن كان يحاصر قلعة شيزر،⁽³⁾ والتي كانت تابعة آنذاك للأمير سنقر الأشقر.
- خرج من القاهرة بعض العسكر ومقدمهم الأمير بدر الدين بكتاش النجمي، وقد اجتمع هؤلاء جميعاً في حماه.⁽⁴⁾
- بدأت الكتب تتواتر إلى الأمير سنقر الأشقر حاملة " التعنيف والتخويف والترهيب والترغيب، فجنح إلى سلم الإسلام وأصاخ إلى التوبيخ والملام"،⁽⁵⁾ ثم نزلت عساكر من صهيون وشيزر وخيمت تحت قلاعها استعداداً لقتال المغول لكنها لم تجتمع بالمصريين.⁽⁶⁾ بالمصريين.⁽⁶⁾

(1) المقرئزي: السلوك، 681/1، العيني: عقد الجمان، 247/2، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات 185/7. أبو الفداء: المختصر، 347 /2. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص288. بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 129-128/9.

Howorth: History of The Mongols، Part3، .P267.

(2) البرزالي: المقتفي، 485 /1. ابن أبيك: الدرّة الزكية، 238.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 185/7، المقرئزي: السلوك، 682/1. وكان بعض العسكر يحاصر شيزر التابعة لنقر الأشقر. البرزالي: المقتفي، 484-485/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4 /45.

(4) ابن الفرات: المصدر السالف، 185/7، المقرئزي: السلوك، 682/1. البرزالي: المقتفي، 485/1.

(5) العيني: عقد الجمان، 247/2.

(6) ابن الفرات: المصدر السالف، 7 /186. المقرئزي: السلوك، 682/1. البرزالي: المقتفي، 485/1.

485/1

• وبعد تواتر الأخبار بقدوم المغول، وميل سنقر الأشقر إلى الصلح والرجوع عما هو عليه، خرج السلطان المنصور قلاوون بجيشه من مصر في أواخر جمادى الآخرة.⁽¹⁾ ومن ناحية المغول، ففي 21 جمادى الآخرة 679 هـ / ، هاجمت قواتهم أعمال حلب، وملكوا عينتاب، ويغراس، ودريساك، ثم دخلوا حلب، وقد خلت من العساكر الذين انسحبوا وتجمعوا في حماه، فلم يكن هناك مقاومة للمغول في حلب، فقتلوا ونهبوا وسبوا، وأحرقوا الجامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء، وبعد يومين من التخريب والقتل على هذه الصورة انسحبوا في 23 جمادى الآخرة عائدين إلى بلادهم⁽²⁾، وكانت مشاركة الأرمن واضحة في هذه الحملة، وقد أخذ أهل سيس منبر الجامع معهم إلى بلادهم⁽³⁾.

وسبب عودة المغول بهذه السرعة، هو ما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين واجتماعهم على قتال المغول، وبذلك تكون فرصة استغلال الانقسام قد سقطت وذهب المسوخ لهجومهم، وعندما انسحبوا عاد السلطان من غزة إلى مصر بعد سماعه بانسحابهم.⁽⁴⁾

قد لا يكون صحيحاً ما يقال بأن السلطان قلاوون قد تنبه لخطر المغول بعد هذه الغارة، فهو لم يكن غافل عن هذا العدو، وقد أمضى معظم حياته العسكرية في قتالهم والتعامل معهم، بل يمكن القول أنه - وبصفته التلميذ النجيب للسلطان الظاهر بيبرس - أدرك خطورة القتال على جبهتين في آن واحد، وخاصة بعد أن رأى استغلال صليبي المرقب لهجوم المغول، ف" تطرقوا إلى

(1) العيني: عقد الجمان، 248/2 . ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 190/7. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 239. البرزالي: المقتفي، 487/1.

(2) المقريزي: السلوك، 682/1، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 186/7، العيني: عقد الجمان، 254/2، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 134/9. البرزالي: المقتفي، 486/1. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 95. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 45/4.

(3) ينفرد ابن أبيك الدواداري بذكر المعلومة، انظر: الدرّة الزكية، ص 238، في حين يذكر الذهبي في تاريخ دول الإسلام أن المغول أحرقوه، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان، ت: 748 هـ): تاريخ الإسلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999م، حوادث 671-680، ص 50

(4) العيني: عقد الجمان، 254/2 . المقريزي: السلوك، 683/1. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 190/3. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 239. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 134/9. البرزالي: المقتفي، 486/1، 490.

أذية المسلمين بأطراف تلك البلاد"،⁽¹⁾ فعمد إلى اتباع سياسة سلفه في تحييد جبهة؛ والقتال على أخرى، وظهر ذلك عندما أذنَ لصاحب حصن الأكراد الأمير سيف الدين بلبان الطباخي بعد انسحاب المغول بمهاجمة الصليبيين في قلعة المرقب، وإن كان الطباخي هذا قد أخفق في هجومه على المرقب،⁽²⁾ إلا أن هذا لا يعني نهاية مشروع السلطان قلاوون، بل إنه بادر بنفسه بالهجوم على الصليبيين، إذ جهز جيشه وخرج في مستهل ذي الحجة 679هـ / آذار 1281م، وما أن وصل إلى منزلة الروحاء في فلسطين حتى تقاطرت عليه رسل الصليبيين من عكا وطرابلس يطلبون تجديد الهدنة التي عقدت من قبل مع الظاهر بيبرس والزيادة عليها، فوافق السلطان على عقد الهدنة مع أهل عكا لمدة أحد عشر سنة تقريباً أولها 2 محرم 680هـ / 1281م، كما توصل إلى مهادنة أخرى مع بوهيمند السادس صاحب طرابلس لمدة عشر سنين كوامل متواليات أولها 27 ربيع الأول 680هـ / 1281م.⁽³⁾

هذه المهادنات التي عقدها المنصور قلاوون أمنت له التحرك بحرية كاملة ضد المغول في معركة حمص التي حدثت بعد الهدنة بسبعة أشهر، ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون هذه الهدنة غاية السلطان قلاوون وهدفه من وراء هذا التحرك، وإنما قام بهذه المناورات العسكرية لإخافة الصليبيين وإجبارهم على المبادرة بطلب الهدنة، كي لا يطلبها هو، إذ لم يعهد للمماليك أن طلبوا الهدنة من قبل من الصليبيين، وبالتالي يظهر بمظهر الضعيف، وما يرجح القول بأنها مناورة عسكرية أن الظروف لا تسمح له بحريتهم ما دامت الحرب مع المغول قائمة، ومشكلة الأمير سنقر الأشقر لم يكن قد انتهت بعد، فهو ما زال يسيطر على عدد من القلاع الشامية.

(1) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/135.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/195. المقرئ: السلوك، 1/684، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/135. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص199. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4/52. ابن المغيزل: ذيل مفرج الكرب، ص97. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/320-321.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/137، 157. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/204-205. ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة، 7/300، العييني: عقد الجمان، 2/262. البرزالي: المقتفي، 1/504. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص84. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4/84.

لم يبق أمام السلطان إلا إنهاء مشكلة الأمير سنقر الأشقر، والتي كانت سبباً في طمع المغول ببلاد الشام وإغارتهم عليها، وفي أثناء الرحلة هذه، كان المنصور قلاوون قد أرسل جيشاً بقيادة عز الدين أيبك الأفرم للقضاء على سنقر الأشقر، إلا أن هذا الأخير أرسل إلى السلطان يعرض عليه الصلح، وقد انتظم الصلح بينهم في صفر 680هـ/حزيران 1281م بأن يُعوض سنقر الأشقر؛ بعد تنازله عن شيزر، ب الشغر، وبكاس⁽¹⁾ - وكانتا قد أخذتا منه - ومعهما أفامية، وكفر طاب،⁽²⁾ وأنطاكية، وأن يقيم على هذه الضياع؛ مع الضياع التي بيده وهي: صهيون،⁽³⁾ وبلاطنس،⁽⁴⁾ وبرزية،⁽⁵⁾ واللاذقية، وأن يكون أميراً على ستمائة فارس⁽⁶⁾ عدا من عنده من الأمراء، وأقد أجابه السلطان إلى طلبه هذا، ورفض طلبه بنعته بلقب ملك، وتُعت بأمر،⁽⁷⁾ وفيما بعد نعم السلطان عليه لأنه عندما قام السلطان بمنازلة حصن المرقب سنة 684هـ/1285م لم يأت

(1) الشغر وبكاس: قلعتان قويتان حصينتان متقابلان على رأس جبلين يفصل بينهما وادٍ كالخندق، وهما من النواحي الغربية من أعمال حلب قرب أنطاكية وهما على جانب نهر العاصي. الحموي: معجم البلدان، مادة بكرد ومادة شغب. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 133/2/1. وهما في منتصف الطريق بين أنطاكية وأفامية، شمال شرق صهيون، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 262.

(2) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، الحموي: معجم البلدان، مادة كفسوسية.
(3) صهيون: حصن من أعمال حمص قريب من الساحل ولكنه لا يشرف على البحر، الحموي: معجم البلدان، مادة صهيون.

(4) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية وهو من أعمال حلب، الحموي معجم البلدان، مادة بلاط.
(5) برزية: حصن قرب السواحل الشامية، مضرب المثل في الحصانة، الحموي معجم البلدان، مادة برزية. تقع إلى الشمال الغربي من أفامية، وشرق صهيون، وجنوب الشغر وبكاس، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 261.
(6) المعروف أن مرتبة أمير مائة كانت أعلى المراتب في سلطنة المماليك، ينال صاحبها اقطاعاً يعيش عليه مئة فارس، وكلما زاد عدد الفرسان زاد اقطاع الأمير، وما قصده سنقر هنا هو أن يعطيه السلطان من الاقطاعات ما يساوي اقطاعات ستة من أكابر الأمراء.

انظر تعقيب مصطفى زيادة في السلوك: 687/1 حاشية 1. وكذلك تعقيب الباز العريني في نهاية الأرب، 22/31، حاشية 5.

(7) النويري: نهاية الأرب، 21/31-22. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 209/7. المقريزي: السلوك، 687/1. أبو الفداء: المختصر، 347/2. البرزالي: المقتفي، 506/1-507. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/324. بيبرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص 98.

سنقر الأشقر لمساندته، واكتفى بإرسال ابنه، فقام السلطان في سنة 686هـ بإرسال جيش بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة لمحاربة الأشقر، فتم القتال بينهما إلى أن طلب الأشقر الأمان، فأمنه طرنطاي وصحبه إلى القاهرة حيث استقبله السلطان وأنعم عليه (1).

معركة حمص 680هـ/1281م:

لدى العودة إلى المصادر الإسلامية للحديث عن معركة حمص، يُلاحظ مدى التشابه بينها؛ مع فوارق لا تذكر، وسبب ذلك عائد إلى أن منهل هذه الروايات ينحصر تقريباً في مصدرين، الأول فيما رواه بيبرس الدوادر في كتابه " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة "، وقد كان أحد الأمراء الذين شاركوا في هذه المعركة، و الثاني هي رواية الملك المنصور أبو الفداء صاحب حماه في كتابه المسمى " المختصر في أخبار البشر "، وأبو الفداء هو من أقرب المؤرخين زماناً ومكاناً للمعركة بعد الدوادر.

وكما جاء في المصادر الإسلامية: وصلت الأخبار في جمادى الآخرة 680هـ/ 1281م بمسير المغول في جيش كبير إلى بلاد الشام، وأن هذا الجيش سار في قسمين، الأول كان بقيادة أبغا خان المغول ومعه ثلاثة آلاف فارس ساروا قاصدين الرحبة ويرافقه صاحب ماردين، ورابطوا هناك،⁽²⁾ والقسم الثاني كان بقيادة منكوتر الأخ الأصغر لأبغا، ومعه قوات المغول الرئيسية،⁽³⁾ وقد تباينت المصادر في تقديرها، فالبعض ذكر مئة ألف جندي أو يزيدون⁽⁴⁾، يزيدون⁽⁴⁾، وبعضهم ذكر ثمانين ألف جندي، منهم خمسون ألف من المغول، والباقي من أجناس

(1) النويري: نهاية الأرب، 23/31-24. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 49/8. أبو الفداء: المختصر، 357/2.

(2) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/ 141. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4/ 91. أبو الفداء: المختصر، 2/ 347. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 62. البرزالي: المقتفي، 1/ 516.

(3) المقريزي: السلوك، 1/ 690-691. أبو الفداء: المختصر، 2/ 347. رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/ 83.

(4) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 490-491، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 303، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 243.

مختلفة من كرج، وروم، وأرمن، وفرنج،⁽¹⁾ سار فيهم من عينتاب حتى وصل حماه، وأفسد نواحيها.⁽²⁾ وسبب الحملة على ما يذكر رشيد الدين هو: مهاجمة أهالي الشام لأراضي الروم التابعة للمغول واستيلائهم على القوافل والمحاصيل.⁽³⁾

أما بالنسبة للسلطان، فإن الكشافة الإسلامية التي توجهت للكشف عن تحركات المغول تمكنت من القبض على أحد قادتهم وهم ما يزالون في عينتاب، وبعد معرفة ما عليه الجيش المغولي من عدد وعدة بدأت الاستعدادات لمواجهة التتار.⁽⁴⁾

جمع السلطان الأمراء واستشارهم أين يكون الملتقى مع التتار، فتم الاتفاق على مرج حمص، مع أن رغبة السلطان كانت مرج دمشق،⁽⁵⁾ ثم بدأ المسير، وانطلق السلطان في جمادى الآخرة 680هـ/ تشرين الثاني 1281م على رأس القوات الإسلامية من دمشق إلى حمص، فنزلها في 11 رجب/ كانون الأول، وهناك شرع في مراسلة الأمير سنقر الأشقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء بحكم ما استقر بينهما من الصلح و اليمين، فنزل سنقر الأشقر من صهيون وسار إلى

(1) المقرئزي: السلوك، 692/1، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 213/7، النويري: نهاية الأرب، 31/31. العيني: عقد الجمان، 271 / 2. الأرمن كانوا بقيادة ملكهم ليون، والكرج بقيادة ملكهم ديمتري الثاني، انظر، السلوك 692/3/1 حاشية 1. نهاية الأرب، 31 / 31 حاشية 1 و2.

(2) اليونيني: نيل مرآة الزمان، 4 / 93. النويري: نهاية الأرب، 32/31. البرزالي: المقتفي، 1 / 516.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، 82/2/2.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9 / 140-141. وورد عنه أن الذي قبض عليه هو أمير آخور أبغا، وقال أن عددهم أكثر من 80 ألف فارس، وانظر أيضاً، النويري: نهاية الأرب، 31 / 30-31. المقرئزي: السلوك، 691/1. البرزالي: المقتفي، 513/1.

(5) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 489/2، ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 242.

السلطان فوصله بعد أن كان قد وصل الملك المنصور صاحب حماه، وكان برفقة الأمير سنقر الأشقر جماعة من الأمراء الظاهرية⁽¹⁾.

تكامل وصول القوات الإسلامية إلى حمص، وبدأ السلطان بترتيب قواته، وقسمها إلى ميمنة وميسرة وقلب، معتمداً في توزيع قواته على ما وردته من معلومات، حيث وصله معلومات من نائب حماه حصل عليها هذا الأخير من أحد العساكر المغول الموالين للسلطان، يُخبره بأن المغول 80 ألف مقاتل، في القلب أربع وأربعون ألفاً، وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، فعليه أن يقوي ميسرة المسلمين، وأن يحترز على السناجق⁽²⁾.

بدأ السلطان بترتيب قواته التي بلغت تقريباً 50 ألف مقاتل،⁽³⁾ فضمت الميمنة المملوكية العسكر الشامي بشكل رئيسي، مع عربان البلاد الشامية، وكان على رأس الميمنة الأمير عيسى بن مهنا أمير العرب، ومعه الملك المنصور صاحب حماة وعدد من الأمراء.

أما الميسرة فقد ضمت قسم من العسكر الشامي، وعسكر حصن الأكراد، والمماليك الظاهرية الذين كانوا مع سنقر الأشقر، والمماليك والأمراء الذين بايعوه من قبل، وكان المقدم عليهم سنقر الأشقر.

أما الجاليش أو المقدمة؛ فقد ضمت الأمراء والعسكر المصري، ومقدمهم نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي، أما السلطان فقد وقف تحت السناجق ومعه مماليكه⁽⁴⁾.

(1) أبو الفداء: المختصر، 347/2، ابن الفرت: تاريخ ابن الفرات، 214/7، العيني: عقد الجمال، 271/2، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4/ 92. المقريزي: السلوك، 691/1. البرزالي: المقتفي، 517/1. بيبرس المنصوري: مختار الاخبار، ص72.

(2) المقريزي: السلوك، 692/1، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 215/7، العيني: عقد الجمال: 272/2، النويري: نهاية الأرب، 31 / 32.

(3) ذكر **ابن كثير** وابن تغري بردي والبرزالي أن عسكر المغول كان تعداده 100 ألف مقاتل، وأن عسكر المسلمين كان على النصف من ذلك تقريباً، انظر: البداية والنهاية، 13 / 295، النجوم الزاهرة، 7 / 303. المقتفي، 1 / 518.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 142/9-143. وقد نقل عنه كل من: النويري: المصدر السالف، 33/31-34. ابن الفرات: المصدر السالف، 7 / 215-216. المقريزي: المصدر السالف،

قبل البدء في الحديث عن وقائع المعركة لابد من الإشارة إلى أن الجيش المغولي في مسيره إلى بلاد الشام إتبع الطريق التقليدي، وهو المسير من آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد الشام جنوباً، فأبغاً نزل أولاً بين قيسارية والأبلستين، ومن هناك سار هو بفرقة بلغ قوامها ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة، في حين سار أخوه منكوتر مع باقي الجيش إلى عينتاب ثم إلى أطراف حلب إلى حماه ثم إلى حمص،⁽¹⁾ وهنا يمكن عد قوة نفوذ عريان البادية الشامية مثل آل فضل وآل مهنا وآل مري التابعين للسلطنة المملوكية أحد أهم العوامل التي جعلت المغول يعتمدون الطريق الشمالي.

كان الملتقى بوطاة حمص بالقرب من قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس 14 رجب 680هـ/كانون الأول 1281م، ويقول المقرئ أن المسلمين والمغول " لم يعتدوا منذ عشرين سنة مثل هذه العدة، ولا جمعوا مثل جمعهم هذا "،⁽²⁾ بدأت المعركة عندما صدمت ميسرة التتار ميمنة المسلمين صدمة عنيفة، إلا أن المسلمين ثبتوا، وكسروا ميسرة التتار كسرة شديدة انتهت بهم إلى القلب الذي لهم، وكان به منكوتر بن هولكو " فانهم طريداً وولى شريداً"، في الوقت نفسه انكسرت ميسرة المسلمين أمام ميمنة المغول، وانهم من كان فيها، وساق في إثرهم التتار حتى حمص، وهناك قتلوا من أهلها خلق عظيم.

لم يعلم كل طرف ما حلّ بصاحبه من نصر وهزيمة، فميسرة المسلمين المنهزمة تظن أن الهزيمة نزلت بالجيش كله، لذا تفرقوا في البلاد حتى وصل بعضهم إلى صفد وغزة، وميمنة المغول تطاردتهم ظناً بأن النصر كان حليف الجيش المغولي، فنزلوا يرعون خيولهم في مروج حمص، لكن عندما أخبرتهم كشافتهم بحقيقة الأمر ركبوا خيولهم وولوا عائدين إلى أرض المعركة.

في هذه الأثناء لم يبق في أرض المعركة إلا السلطان بجمع قليل من قواته، فالميسرة المملوكية انكسرت وانهمزمت، والميمنة تحني ثمرات النصر في مطاردتها للعدو المنهزم أمامها، فأخفى السلطان الأعلام والرايات، ولما مرت به ميمنة التتار عائدة من حمص وعانينا السلطان واقفاً مع قواته وقد تكاثفت حوله؛ لم تقدم عليه، بل طلبوا طريق الرستن مسرعين في عودتهم.

1/692-693. العيني: المصدر السالف، 2/ 272-273. أما أبو الفداء فذكر أن الملك

المنصور صاحب حماه كان هو مقدم الميمنة، المختصر، 2/347.

(1) المقرئ: السلوك، 1/ 690-691.

(2) المقرئ: السلوك، 1/ 693.

انتهت المعركة مع حلول المساء، وجرح منكوتر، وقُتل جم غفير من التتار، وحسب ما ذكره بيبرس الدودار، فإن ما قتل منهم أثناء الهزيمة أكثر مما قتل أثناء اللقاء، فالبيرة أغلقت المعابر والمخاض على الفرات، فغرق معظم عسكرهم أثناء العبور من معابر ثانية، ولما اختبأ بعضهم في أزوار الفرات، أمر السلطان بحرقها، فهلك أكثرهم حرقاً، ناهيك عن فرقة سلكت طريق سلمية، فكان مصيرها الهلاك،⁽¹⁾ وبالنسبة للملك الأرمني الذي شارك بفعالية في المعركة، وكان ضمن المطاردين للميسرة المملوكية، أثناء عودته إلى بلاده تعرض لكمين من قبل الأمير شجاع الدين السيناني قتل فيه معظم قواته وأسر الباقي، ولم يفلت منهم دون العشرين.⁽²⁾

أما أبغا فإنه كان على الرحبة، وعندما وصلت لأهلها أخبار النصر ولى منهزماً إلى بغداد.⁽³⁾

هذا ما جاء بشكل عام في المصادر الإسلامية، وإلى حد ما المصادر المغولية تتوافق مع المصادر الإسلامية في أنّ نصراً عظيماً حققه السلطان في معركة حمص⁽⁴⁾، لكن هناك إحدى الوثائق الصليبية التي تم نشرها مؤخراً تشير إلى أن السلطان لم يحقق نصراً حقيقياً، وإنما جاء نصره بالمصادفة⁽⁵⁾.

(1) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/ 144-147. النويري: نهاية الأرب، 31/34-36. العيني: عقد الجمان، 2/275-280. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 4/93-94. أبو الفداء: المختصر، 2/347-348. البرزالي: المقتفي، 1/518-519. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 288-289. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/324-332. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/221. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/302-306. ابن أيك: الدرّة الزكية، ص 243-244. وهذا الأخير روى عن والده الذي كان مشاركاً في المعركة.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/221-222. المقرئ: السلوك، 1/698.

(3) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/147. أبو الفداء: المختصر، 2/348.

(4) رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/83-84. ويعلل هزيمة المغول بأن منكوتر كان طفلاً ولم يشاهد بعد المعارك الطاحنة.

(5) هذه الرسالة محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية في بريطانيا، ضمن مجموعة تعرف باسم "الرسائل الملكية"، والرسالة تحت عنوان "أخباراً من سورية"، قام مؤخراً الدكتور سهيل زكار بترجمتها ونشرها ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية،

هذه الوثيقة هي رسالة من شخص اسمه "جوزيف دي كانسي" أحد فرسان الإيستارية المقيمين في عكا، كان معاصراً للمعركة، وربما كان شاهداً عليها، أرسلها إلى إدوارد الأول ملك انكلترا، ومن نص الرسالة يتبين أن الملك عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات حول الأحداث التي تجري في الأراضي المقدسة، وفي هذه الرسالة شيء من التعاطف مع المغول، لا محبةً بهم، بل كراهية بالمماليك الذين أذاقوا الإيستارية مرارة الهزيمة مرات عدة.

من خلال دراسة نص الرسالة يتبين أنه لم يكن هناك أي مشكلة عند الصليبيين في تقديم المساعدة أو الاشتراك في المعركة إلى جانب المغول، لو أن المغول طلبوا منهم ذلك، أي لم يكن للهدنة التي عقدها السلطان معهم قبل أشهر أي قيمة، وكانت المشاركة الأرمنية والجورجية واضحة، فالرسالة تجعل لشجاعة ملك أرمينيا واستبساله الفضل الأكبر في كسرة ميسرة المسلمين وهزيمتها، بل ومطاردتها مع ملك جورجيا، وهذا ما لا تنكره المصادر الإسلامية، لكنها-أي المصادر الإسلامية- كلها تجمع على أنه ميسرة التتار تلقت هزيمة منكرة من قبل ميمنة المماليك-كما تقدم ذكره-، وأن هذه الكسرة هي القشة التي قصمت ظهر البعير وحسمت المعركة لصالح المسلمين، أما دي كانسي، صاحب هذه الرسالة، فعلى العكس يقول بأن ميمنة المسلمين تعرضت هي الأخرى لهزيمة، ولكن لم تكن بالدرجة نفسها التي كانت عليها كسرة الميسرة الإسلامية، وذلك بفضل شجاعة السلطان وصموده⁽¹⁾.

وحسب ما أورده، لم يتمكن أحد من الطرفين من حسم المعركة لصالحه، وحصد نتائجها، فبعد الضربة التي تلقاها الجيش الإسلامي بدأ المغول بجمع الأسلاب والغنائم، ولم يبق حول السلطان سوى ستمائة مقاتل ساق بهم نحو الغبار الذي أحدثه المغول من جمع الغنائم، ظناً أن هذا الغبار كان سببه تراجع المغول، وهناك تواجه مع منكوتر الذي كان في ستين من رجاله، إذ كان قسم من جيشه يلاحق المسلمين والآخر مشغول بجمع الغنائم، فعرفه السلطان من خلال شاراته، وظن أن هذا كمين، أما منكوتر فإنه تراجع بعد أن أدرك ضعف إمكاناته أمام إمكانات السلطان المملوكي، تراجع هذا عزز شكوك السلطان بأنه كمين، وأنه عاد لحتّ باقي الجيش على

وهو مطبوع ولكنه لم ينشر بعد، ص 20 وما بعدها. وسيتم الإشارة لها ب: دي كانسي، أخبار من سورية.

(1) دي كانسي: أخبار من سورية، ص 23-24.

التقدم، فعاد السلطان مسرعاً وفرق الليل بينهما، وعلى هذا يقرر دي كانسي بأن المعركة لم تحسم لأي طرف " ولكن بما أن السلطان كان الأخير بالتراجع، اعتقد الناس أن النصر كان من نصيبه"، بل أكثر من ذلك إن المسلمين _ على قول دي كانسي - لم يتلقوا " ضربة بمثل هذه القسوة ولا هزموا مثل هذه الهزيمة"، وبالنسبة للملك الأرمني الذي كان يطارد ميسرة المماليك فيذكر دي كانسي أنه بعد عودته لساحة المعركة لم يجد أحد فعاد إلى بلاده، ولم يذكر تعرضه لكمين كما تذكر المصادر الإسلامية، ولكن يقول أن تعبته وهلاك بعض جنوده كان بسبب مشقة الطريق القاحلة⁽¹⁾.

إن هذه الرسالة على مكانة من الأهمية، ويمكن الاعتماد عليها في جوانب عدة، ولكن لا يمكن الإقرار بما تقوله بأن الهزيمة الحقيقية كانت من نصيب المماليك، فهذا الكلام مخالف تماماً لما ورد في المصادر الإسلامية والمغولية والأرمنية والصليبية المعاصرة على حد سواء.

1- ففي المصادر الإسلامية المعاصرة يتحدث كل من بيبيرس الدوادر، وأبو الفداء، واليونيني، والبرزالي، والنويري؛ وجميعهم كانوا معاصرين للمعركة - بل حتى بيبيرس الدوادر كن أحد قادة المعركة - عن نصر عظيم حققه الجيش المملوكي.⁽²⁾

2- بالنسبة للمصادر المغولية؛ فما أورده مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين المعاصر لهذه المعركة في كتابه جامع التواريخ عندما قال: "... وارتاع البعض وولوا الأدبار، فانهزم الجنود، وهلك من جيش المغول خلق كثير، فلما بلغ أباقاخان هذا الخبر غضب على الأمراء غضباً شديداً، وقال: سوف أمر بمعاينة المقصرين في موسم الصيف عندما يعقد مجلس المغول (القوريلتاي)، وفي العام القادم سوف أذهب بنفسني إلى الشام، وأتلافى هذا الأمر"،⁽³⁾ ما لا يدع مجالاً للقول بهزيمة المماليك وانتصار المغول مادام هم يقرون بعكس ذلك.

⁽¹⁾ دي كانسي: أخبار من سورية، ص 27-28.

⁽²⁾ بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 140/9 وما بعد. أبو الفداء: المختصر، 348/2. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 94-95. البرزالي: المقتفي، 1/ 518-519. النويري: نهاية الأرب، 31/ 30-36.

⁽³⁾ رشيد الدين: جامع التواريخ، 83/2/2-84.

3- ومن المصادر الأرمينية المعاصرة كتاب "خلاصة تواريخ الشرق" للراهب هيثوم، وهو حفيد الملك هيثوم الأول، يقر فيه بالنصر المملوكي وهزيمة الجيوش المغولية والأرمنية.⁽¹⁾

4- أما فيما يتعلق بالمصادر الصليبية، فأهمها على الإطلاق أعمال القبارصة للفارس الداوي الصوري الذي قدم في الجزء الثالث من كتابه هذا أكبر عمل وثائقي عن الأيام الأخيرة للصليبيين في بلاد الشام، وعبر بما كتبه عن الانطباع العام الذي ساد الصليبيين عن معركة حمص، وهو إلى حد ما مشابه للرواية الإسلامية عندما يتحدث عن ضربة قاسية نزلت بالمسلمين في بداية المعركة، دفعتهم إلى التقهقر والتراجع إلى الخلف، وهو يعني بذلك الميسرة، ولكنه يعود فيقول بأن المسلمين "تجمعوا من جديد، وانقضوا على التتار، وهزموهم، وصار منغو(منكوتر) في وضع سيء جداً بلغ حداً أنه أرغم على الهزيمة، وتخلّى عن الميدان"، بل أكثر من ذلك، فإنه يتفق مع المصادر الإسلامية في أن ملك أرمينية الصغرى تعرض أثناء عودته لبلاده إلى كمين من قبل التركمان لم ينجو منه إلا ثلاثين فقط من رجاله، وليس كما يدعي دي كانسي بأن الهلاك الذي لحق الجيش الأرميني أثناء عودته كان سببه العطش والجوع.⁽²⁾

عاد السلطان إلى دمشق ودخلها في يوم الجمعة 22 رجب 680هـ / 1282م منهياً بذلك أعماله العسكرية ضد المغول.⁽³⁾

إن أهم نتائج معركة حمص على الإطلاق تتمثل في إسكات جبهة المغول مدة من الزمن قضوها في استرداد قوتهم، ناهيك عن المشاكل التي أحدثها إعلان الخان الجديد- أحمد تكودار- عن إسلامه،⁽⁴⁾ هذا ما أعطى السلطان قلاوون فرصة ذهبية للعمل بحرية تامة ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام وضد الأرمن في كيليكية، فكان تحرير طرابلس سنة 688هـ / 1289م ثمرة هذه الأعمال، بحيث لم يبق للصليبيين في ساحل الشام سوى عكا التي تولى فتحها ابنه الأشرف خليل سنة 690هـ / 1291م، لتطوى بذلك صفحة الوجود الصليبي في بلاد الشام، لكن التهديد المغولي لم يتوقف حتى بعد تحول الدولة الأيلخانية في فارس إلى الإسلام مع غازان، فغازان بعد إسلامه قام

(1) زكار: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص 22-23.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 98.

(3) العييني: عقد الجمان، 2/283.

(4) انظر الصفحة التالية.

باحتيال دمشق معلناً الحرب على المماليك باسم الإصلاح الإسلامي، إلا أنه من جهة ثانية تعاون مع الصليبيين في قبرص، ومع الأرمن في كيليكية، وأرسل إلى ملوك أوروبا الغربية والبابوية يستجدي التحالف معهم ضد المماليك أبناء دينه، بل أكثر من ذلك عرض عليهم تسليمهم الأماكن المقدسة في فلسطين، - كما سيتوضح لاحقاً-.

أعقب معركة حمص فتور على جبهة المغول، فلم يقع صدام يستحق الذكر بين المماليك والمغول في عهد السلطان قلاوون، وفي عهد ابنه الأشرف خليل، وجلّ ما قام به المغول للانتقام لما حل بهم في حمص هي مجموعة من السفارات تم إرسالها إلى الغرب الأوربي والبابوية أملاً في عقد تحالف عسكري ضد المماليك.⁽¹⁾

توفي أبغا بن هولكو خان مغول فارس في ذي الحجة 680هـ/ آذار 1282م، وعلى قول ابن عبد الظاهر: فإنه ماتهماً وكمداً عما ناله من خسارة في معركة حمص، تولى الحكم بعده أخوه تكودار (تكدار) في ربيع الأول 681هـ/ حزيران 1283م، قام هذا الأخير باعتناق الإسلام بعد توليه الحكم وتلقب بالسلطان أحمد، ثم شرع في تحويل المغول إلى إسلام وإحلال الشريعة الإسلامية محل أحكام الياسا، وبدأ بتحويل المعابد والكنائس إلى مساجد، وخارجياً حاول التقرب من المماليك فقام بمراسلة السلطان قلاوون يعرض عليه رغبته في نبذ الخصومات ونشر الإسلام والمودة، فلم يرض قادة المغول عن سياسته هذه وبدأوا يتآمرون ضده، لذلك عندما أعلن أراغون بن أبغا ثورته على تكودار، ساندته معظم القادة والأمراء حتى انتهت ثورته بالنصر وقتل السلطان تكودار، وجلس أراغون على العرش في جمادى الأولى 683هـ/ آب 1284م.⁽²⁾

(1) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا،

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ، 93/2/2 وما بعدها، ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص3. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 90/1. المقرئزي: السلوك، 714/1، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. 4-3/8، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، 289 وما بعد. فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، جامعة قطر، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية 1987، ص 121 وما بعدها، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص 167-171، عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 236، 238-242.

أمن أراغون بفكرة التحالف مع الغرب الأوربي على أنها الوسيلة الوحيدة المتبقية لاقتلاع المماليك، لذلك فقد كثرت سفاراته المترددة على أبواب البابا وملوك أوربا، وكانت تدعو إلى عمل عسكري سريع ومشارك ضد المماليك، فقد بلغ عدد سفاراته أربعاً خلال ثمانية أعوام، حتى أن آخر سفارتين التقيتا في روما،⁽¹⁾ وفكرة السفارات الأربع تقوم على العمل المشترك؛ بأن يقوم الصليبيون بالهجوم على مصر، ويقوم هو في الوقت نفسه بالهجوم على بلاد الشام ليتمكنوا من تحطيم المسلمين فيما بينهم " وذلك حتى يكون هناك سيدان فقط هما الخاقان قوبيلاي، والبابا "،⁽²⁾ وذهب في إغرائه للصليبيين بأن أعلن أنه سوف يُعمد في القدس بمجرد الاستيلاء عليها.⁽³⁾

باءت محاولات أراغون كلها بإخفاق ذريع، إذ كان من المفترض عليه أن يعرف بأن الغرب الأوربي اختلفت فيه الأوضاع تماماً عما كانت عليه قبل قرنين من الزمن، وأن البابا لم يعد قادراً على إلهاب مشاعرهم الصليبية، حتى أنه بات عاجزاً عن حل مشاكله الداخلية حتى يحمي ممتلكاته غير الشرعية في الشرق، لذا ما يمكن ملاحظته في هذه السفارات هو عبارة عن مشاريع عسكرية مقترحة من قبل أراغون للقضاء على المماليك والمسلمين، وبالمقابل ردود بابوية لا علاقة لها بالمقترحات، تطلب الدخول في الدين المسيحي تحت لواء البابوية⁽⁴⁾.

يمكن وصف محاولات أراغون هذه بأنها ذروة المحاولات المغولية للاستفادة من الغرب الأوربي في عمل عسكري مشترك ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر، لطالما حلمت بذلك البابوية؛ وطالبت المغول مراراً بتنفيذه، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فعندما تحمس المغول لهذا المشروع، كانت البابوية والغرب الأوربي قد أصبحوا عاجزين عن المشاركة بمشاريع

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.306-607.

(1) السفارة الثالثة والرابعة، كان على رأس السفارة الثالثة " بورسكاريلون " الجنوبي، وقد التقى بالسفارة الرابعة في إيطاليا في كانون الأول 1290م وأصبح أحد أعضائها . انظر: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا واثرها على العالم الإسلامي، ص 126-127.

(2) عادل هلال: المرجع السالف، ص 119.

(3)Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.349.

(4) للإطلاع على المراسلات ومضمونها بالتفصيل، انظر، عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص 119 وما بعدها.

جديدة على أرض بلاد الشام، ثم طويت بعد ذلك صفحة العلاقات المغولية الصليبية بهذا الشأن مع غازان الذي حاول كثيراً مع الغرب الأوربي لكنه لاقى المصير نفسه، وقد انتشر الإسلام بين مغول الإيلخانية.

إذاً انشغل المغول عن جبهة المماليك بقضية التحالف الأوربي، وطول الأمل، ناهيك عن مشاكل داخلية كثورة نوروز بن أراغون آقا في خراسان ضد أراغون وغيرها،⁽¹⁾ لذا لم يشهد عهد السلطان قلاوون ومعاصره أراغون أعمال عسكرية تذكر على الجبهة المغولية سوى بعض الغارات التي قام بها المماليك على نواحي نهر دجلة.⁽²⁾

وقد استغل السلطان قلاوون أوضاع المغول خير استغلال للعمل على تصفية بقايا الصليبيين في بلاد الشام، لذا سارع للانتقام من أرمن كيليكية بسبب اشتراكهم بمعركة حمص، فهاجم الحدود الجنوبية لأرمينية الصغرى في صفر سنة 682هـ/1283م، وعاث في بلادهم خراباً،⁽³⁾ كما أجبرهم على عقد هدنة سنة 684هـ/1285م مدتها عشر سنوات يدفع فيها الأرمن جزية سنوية مقدارها مليون درهم، ويطلقون سراح الأسرى المسلمين عندهم، ويتوقفون عن القيام بأي تحصينات عسكرية وإطلاق حرية التجار المسلمين في بلادهم.⁽⁴⁾

ثم قام بمهاجمة الاستبارية في حصن المرقب، استولى عليه في ربيع الأول سنة 684هـ/1285م، عندئذ اضطر حاكم طرابلس الصليبي للتنازل عن حصن مرقية للمماليك تفادياً لخطرهم، كما طلب صليبيو صور عقد معاهدة سلام مع السلطان لمدة عشر سنوات مقابل تقديم نصف دخل صور وعدم تجديد حصون المدينة، وتوج السلطان قلاوون أعماله العسكرية بتحرير طرابلس في ربيع الآخر 688هـ/1289م عندما قام أهلها بنقض الهدنة والقبض على مجموعة التجار المسلمين، وأعقب ذلك استيلائه على جيلة وبيروت وغيرها من القلاع.⁽⁵⁾

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، 149/2/2، 156.

(2) Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.327.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص 30-32.

(4) انظر الفصل الرابع، ص

(5) انظر الفصل الثالث، ص

ولمواجهة التحركات الدبلوماسية للمغول، وتحسباً من أي اتفاق أوربي مغولي قام السلطان بتعزيز العلاقات مع خان القبيلة الذهبية " تدان منكو" الذي استلم الحكم بعد بركة خان سنة 680هـ/1281م، فتم تبادل الرسل والوفود بين الطرفين مؤكدين على وحدة الموقف بينهما،⁽¹⁾ و كان قد عزز علاقاته مع القوى المسيحية الأوربية، ففي سنة 680هـ جدد الاتفاق الذي كان قائماً مع الإمبراطور البيزنطي،⁽²⁾ كما وقع في سنة 690هـ/1290م معاهدة تجاربه مع الجنوبية⁽³⁾ الذين كان لهم النفوذ الأقوى في طرابلس، وكان قد عقد معاهدة تجارية أخرى مع ملك أراغون سنة 689هـ/1289م، أجاز بمقتضاها ملك أراغون تصدير الخشب والحديد إلى مصر،⁽⁴⁾ وكان ذلك ممنوع من قبل البابوية لكي لا تحصل مصر على المواد اللازمة لصنع السفن، ناهيك عن رسائل ووفود كل من ملك فرنسا وقشتاله وصقلية.⁽⁵⁾

رابعاً: المواجهات العسكرية المملوكية - المغولية، في مشرق البحر المتوسط في عهد الأشرف خليل "689-693هـ/1290-1293م":

توفي السلطان المنصور قلاوون أثناء استعداده للمسير لتحرير عكا، واعتلى عرش السلطنة من بعده ابنه الأشرف خليل الذي تابع المسير باتجاه عكا، وتمكن من تحريرها في جمادى الآخرة 690هـ/1291م، ثم أتبع تحريرها تحرير ما تبقى في أيدي الصليبيين من مدن الساحل مثل صور

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص46، المقريزي: السلوك، 708/1-711، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 277/7، حياة ناصر الحجى: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حولية مجلة كلية الآداب بالكويت، الحولية الثانية، 1981م، ص 14.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص204، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 229/7، القلقشندي: صبح الأعشى، 72/14.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 165-169.

(4) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص156-164.

(5) Land Pooles(s):A History Of Egypt in he Middle Ages، London، 1925، P.281.

وحيفا وعتليت وصيدا، مُنهيًا بهذه السلسلة من الفتوحات؛ وفي أول سنة من حكمه، عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام والذي دام قرابة قرنين.⁽¹⁾

استغل الأشرف خليل فرصة خلو المنطقة من الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا في قبرص بعد طردهم من الساحل الشامي، وانشغال المغول في مشاكلهم الداخلية ليسدد ضربة قوية لحلفائهم الأرمن عندما استولى على قلعة الروم الحصينة على شط الفرات سنة 691هـ/1292م وأسماها قلعة المسلمين، وكانت تضم حامية أرمنية وأخرى مغولية،⁽²⁾

• أوضاع مغول فارس:

كان المغول أضعف من أن ينتقموا من المماليك، فأرغون ايلخان مغول فارس كان قد توفي في ربيع الأول سنة 690هـ/أذار 1291م، واعتلى العرش من بعده أخوه كيخاتو (690-694هـ/1291-1295م)،⁽³⁾ الذي لم يكن يتمتع بأهلية الحكم، فاستمر حكمه أربع سنوات عُرف فيها بإسرافه وتبذيره وولعه بالخمير والنساء،⁽⁴⁾ في وقت عانت فيه دولته من عجز مالي ضخم، ناهيك عن الأوبئة والأمراض التي انتشرت في سنوات القحط التي عاصرت حكمه،⁽⁵⁾ بشكل لم يحل دون وقوع ثورة ضده على يد فريق من الأمراء بقيادة بايدو حفيد هولكو انتهت بقتله في جمادى الأولى 694هـ/نيسان 1295م، واعتلاء ابن عمه بايدو لعرش الايلخانية.⁽⁶⁾

(1) انظر الفصل الثالث، ص... .

(2) انظر الفصل الرابع، ص..

(3) رشيد الدين: المصدر نفسه، 162/2/2 - 169.

(4) Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.377.

فهمني: تاريخ دولة المغول في إيران، ص 183.

(5) Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.369-370.

فهمني: المرجع السالف، ص 183. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 256-259.

(6) رشيد الدين: جامع التواريخ، 188/2/2 . البديسي(شرف خان): شرفنامه، تر: محمد علي عوني، القاهرة، 1962م، 15/2.

اعتلى بايدو العرش، وكان قد اعتنق المسيحية،⁽¹⁾ ولكنه لم يتمكن من الصمود أمام ثورة غازان بن أرغون، فبعد ثمانية أشهر من حكمه فقط ثار غازان، وانتصرت ثورته وقتل بايدو أواخر سنة 694هـ/تشرين الأول 1295م وحل غازان محل بايدو في حكم مغول فارس، وكان قد اعتنق الإسلام قبل ثورته في شعبان سنة 694هـ/1295م.⁽²⁾

وبذلك انقضى عهد السلطان المنصور قلاوون وعهد السلطان الأشرف خليل، ولم تقع وقعة تذكر بين المغول والمماليك، وكما سلف تعاقب على حكم مغول فارس بعد أبغا حتى قدوم غازان أربع حكام هم أحمد تكدار، وأراغون، وكیخاتو، ثم بايدو، لم يمارس أي أحد منهم نشاطاً عسكرياً على جبهة المماليك وجل أعمالهم تمثلت بغارة قام بها جماعة من المغول على الرحبة سنة 691هـ/1292م للسلب، ردتهم قوات دمشق على أعقابهم، كما أن كیخاتو أرسل إلى السلطان الأشرف يتهدهد ويتوعده ويطالبه بمدينة حلب على اثر تحرير قلعة الروم،⁽³⁾ ولكن مع قدوم غازان حدثت تغيرات خطيرة على الجبهة المغولية- المملوكية.

• الأوضاع في السلطنة المملوكية، والصراعات التي أعقبت مقتل الأشرف خليل.

في أقل من عشرة سنين اعتلى عرش السلطنة المملوكية أربعة سلاطين، قتل اثنان منهم، وطرد الثالث، ونفي الرابع مؤقتاً إلى إمارة الكرك، والحديث هنا ليس بصدد أوضاع السلطنة الداخلية، ولكن لا بد من التعرض لذلك بسطور قليلة على سبيل التوضيح.

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 191/8.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، تر: فؤاد الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000م، ص 121، 125-127، البديسي: شرفنامه، 15/2، بييرس الدوادر: زبدة الفكرة، 256/9-257، عبد السلام فهمي: تاريخ دولة المغول في إيران، ص 188-189. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 261-265.

(3) المقرئزي: السلوك، 876/1.

تم اغتيال السلطان الأشرف خليل في 12 محرم 693هـ/كانون أول 1293م، بعد مؤامرة دبرها نائب السلطنة بيدرا مع مجموعة من الأمراء من بينهم الأمير لاجين المنصوري، نائب دمشق من قبل، والأمير قرا سنقر النائب السالف لحلب.⁽¹⁾

لم ينج بيدرا بفعلته، فقد أخفقت محاولات تنصيبه سلطاناً وقُتل،⁽²⁾ واستقر الرأي على تسلطن محمد بن قلاوون ابن التسع سنوات، ولُقّب بالملك الناصر، وكان ذلك في 16 محرم 693هـ/كانون الأول 1293م، وتم تنصيب الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزيراً ومدبراً للسلطنة.⁽³⁾

وعلى أرض الواقع يمكن النظر إلى عملية تنصيب الناصر محمد على أنها إجراء مؤقت لإنهاء الأزمة التي أحدثها مقتل الأشرف خليل، فالناصر محمد كان غلاماً في التاسعة من عمره؛ وقيل في الثامنة من عمره، ولم تكن له شخصية مقنعة لأمرء عظام دوخوا المغول والصليبيين، وأكثر من ذلك فإن مبدأ الوراثة لم يكن آنذاك مبدأ يُعمل به، فالمماليك كأفراد يرون أنهم متساوون بالحقوق والواجبات، فجميعهم تم شراؤهم من أسواق الرقيق، وتنشأتهم بالطريقة نفسها، وعرش السلطنة مفتوح أمام الجميع، "والدنيا لمن غلب"، والأشرف خليل عندما خَلَفَ أبيه واستلم السلطنة، لم يكن ذلك عملاً بمبدأ الوراثة وإنما عائداً إلى قوة شخصيته، ومهارته، بالإضافة إلى أنه كان نائب السلطنة، على هذا لم يكن للناصر محمد من السلطنة "إلا اسم الملك من غير زيادة على ذلك

(1) أبو الفداء: المختصر 2/ 366، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 41/8، ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 167، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 347-348. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 404-405. البرزالي: المقتفي، 2/ 346. النويري: نهاية الأرب، 31/ 259.

(2) بيبس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ 244-245. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 168. أبو الفداء: المختصر، 2/ 366. النويري: نهاية الأرب، 31/ 263-264. البرزالي: المقتفي، 2/ 347.

(3) المقرئزي: السلوك، 1/ 794، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 41/8، أبو الفداء: المختصر، 2/ 366-367، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 172، ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 169. النويري: نهاية الأرب، 31/ 267-268. البرزالي: المقتفي، 2/ 347. بيبس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 139.

"(1) والصراع على السلطنة لم ينته بتمليكه، بل استمر على أشده بين نائب السلطنة كتبغا، والشجاعي وزير الدولة، وانتهت المعركة السياسية بمقتل الشجاعي في صفر 693هـ/ كانون الثاني 1294م.(2)

والآن خلت الساحة أمام كتبغا، ولم يبقَ أمامه من منافس على السلطنة، وأسهل ما كان يمكنه فعله هو خلع الناصر محمد، وبعد تشجيع وإغراء من الأمير حسام الدين لاجين⁽³⁾ أقدم كتبغا على خلع الناصر محمد بعد أن أقنع القضاة والأمراء والخليفة العباسي بأن البلاد تحتاج إلى سلطان رشيد يخافه الجنود وتخشاه الرعية، وضرب لهم مثلاً على فساد حكم الناصر؛ الثورة التي قام بها المماليك الأشرفية⁽⁴⁾ وما ترتب عليها من فوضى إذ " انحرف ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه".⁽⁵⁾

خلع السلطان محمد في 11 محرم 694هـ/1294م، وحُجر عليه مع أمه في إحدى غرف القلعة إلى أن تسلطن لاجين سنة 696هـ/ 1296م نفاه مع أمه إلى الكرك، وتسلطن كتبغا في اليوم نفسه، وتلقب بالملك العادل، وأصبح الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة،⁽⁶⁾ دام حكم زين

(1) المقرئزي: السلوك، 794/1. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 192/8-193.

(2) المقرئزي: السلوك، 801/1-802. النويري: نهاية الأرب، 31/ 273 وما بعد. أبو الفداء: المختصر، 2/ 367. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 353.

(3) كان هذا أحد مدبري عملية اغتيال الأشرف، وبواسطة من صديقه كتبغا تم العفو عنه من قبل الناصر محمد، وسيصبح - كما سيتبين سلطاناً - بعد تنكره لصديقه كتبغا. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/49. البرزالي: المقتفي، 2/347.

(4) قام المماليك الأشرفية، أي ممالك السلطان الأشرف خليل بثورة بالقاهرة بسبب العفو عن لاجين، انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/49. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/191، النويري: نهاية الأرب، 31/281.

(5) المقرئزي: السلوك، 1/806. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/191.

(6) المقرئزي: السلوك، 1/806-807. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/191-193. بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/253، 264. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/422-423.

الدين كتبغا سنتين وأشهر لم يشهد أي اصطدام على الجبهة الشرقية، وامتاز عهده بكثرة الأوبئة والأمراض والفقر والغلاء، وتناقص فيضان النيل، فوصف ابن الفرات سلطنته بأنها "سلطنة تعيسة، ووقت غير مناسب، لما اتفقت في أيامه من الأمور المؤلمة لسائر الخلق والرعية في غالب مملكته بالديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية"،⁽¹⁾ ومن الطبيعي أن يكره الناس حكمه الذي اقترن بكل هذه النكبات، فتم خلع على يد نائبه وصنيعته لاجين، إثر خلاف نزل بينهما أثناء عودة الملك العادل كتبغا من دمشق في زيارة قام بها لبلاد الشام، وكان ذلك في منطقة العوجاء بفلسطين، وقيل في اللجون، وتمكن العادل من الفرار من دهليزه بعد أن قصده لاجين وبقية الأمراء لقتله، وعاد إلى دمشق، وبفلسطين اتفق الأمراء على تنصيب لاجين سلطاناً بشرط " أن يكون معهم كأحدهم وأن لا ينفرد برأي دونهم، وأن لا يبسط أيدي مماليكه فيهم، ولا يقدمهم عليهم"، وعلى ذلك أقسموا له على الولاء والطاعة، وتلقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين وكان ذلك في محرم 696هـ/تشرين الثاني 1296م، وخطب له على منابر الشام ومصر،⁽²⁾ أما بالنسبة للعادل زين الدين كتبغا، فإنه لما تحقق عنده تسلطن لاجين، ووضح له عدم جدوى مقاومته، خلع نفسه واعترف بسلطنة لاجين، حيث قال: " الملك المنصور خشداشي، وأنا في خدمته وطاعته"،⁽³⁾ ثم ولاه قلعة صرخد على ألا يكاتب أحد ولا يشاور أحد ولا يستفسر أحد⁽⁴⁾.

لاجين في الأصل مملوك اشتراه المنصور قلاوون وقربه منه وزوجه من إحدى بناته وأعطاه نيابة دمشق، فلما تسلطن الأشرف خليل عزله عن دمشق، وكان لهذا الأمر أثر في نفس لاجين

البرزالي: المقتفي، 2/ 381. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 101. النويري: نهاية الأرب، 31/ 283.

(1) تاريخ ابن الفرات، 8/ 193. وانظر أيضاً: ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 357-365. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 178/1. البرزالي: المقتفي، 2/ 381، 390، 414، 421، 422، 424، 427، 429، 433، 446، 447، 482.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 221-223، المقريزي: السلوك، 1/ 822/3-823. أبو الفداء: المختصر، 2/ 371، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/ 64-65. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 432-433.

(3) المقريزي: السلوك، 1/ 824.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 228. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/ 66.

أدى إلى اشتراكه في عملية اغتياله، كما تقدم، وسارت الأحداث إلى أن تسلطن لاجين، وسار في حكمه مسيرة حسنة في إصلاح أمور الرعية، لكنه لم يتحرر من سيطرة مماليكه وخاصة منكوتر، الذي كان مكروهاً ومرفوضاً من معظم الأمراء، فالأمراء عندما أقسموا ل لاجين اشترطوا عليه أن لا يستسلم لإرادة مماليكه، وجعلوه أساساً لملكه، ولم يكن ذلك إلا عن معرفة بطبيعة لاجين ومماليكه، وعلى أرض الواقع لم يلتزم لاجين بما أقسم، واستسلم كلياً لنائبه منكوتر وزاد الطين بلة عندما اختاره نائباً للسلطنة، إذ بدأ منكوتر يتصرف بشكل مستقل، ويسعى للتخلص من معارضيته وإزاحتهم عن طريقه بطرق شتى، فكلفهم بعمل خارجي؛ وهو غزو أرمينية الصغرى، كما حاول قتلهم، فأرسل إلى نائب حلب بلبان الطباخي يأمره بالتخلص من بعض أمراء الشام، مما أدى إلى فرار بعضهم إلى المغول، أما القضية التي كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير هي قضية الأمير طغجي الذي عاد من الحجاز في صفر 698هـ/1299م إلى مصر، فما كان من منكوتر إلى أن أمره بالرحيل إلى طرابلس ليتخلص منه، وعلى الرغم من توسط الأمراء له عند لاجين، وقبول الأخير بوساطتهم مبدئياً إلا أنه تراجع وخضع لأمر منكوتر، فما كان من الأمراء، بعد أن طفق الكيل، إلا أن تخلصوا من لاجين منكوتر بقتلهم في 10 ربيع الآخر 698هـ/1299م.⁽¹⁾

(1) . انظر: النويري: نهاية الأرب، 31/357-360. أبو الفداء: المختصر، 2/370-378، المقريزي: السلوك، 1/833 مع حاشية 4، ص 852 مع حاشية 2، ص 855-857، بيبس المنصوري: مختار الأخبار، ص 104، 107-108. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/85-86، 101-102. البرزالي: المقتفي، 2/573-574.

خامساً: المواجهات العسكرية المملوكية- المغولية في مشرق البحر المتوسط في عهد
الناصر محمد بن قلاوون، سلطنته الثانية والثالثة " 698-741هـ / 1299-
1341م:

عصفت الفتنة في البلاد، وانتهت بمقتل السلطان لاجين ونائبه منكوتر كما تقدم، ليصبح
عرش السلطنة شاغراً، بعد أن أخفقت محاولات الأمير كرجي - الذي قتل السلطان لاجين -
تنصيب نفسه، وانتشرت الفوضى، وقُتل الأمير كرجي بعد أن حاول تنصيب نفسه بقوة السلاح
سلطاناً على مصر، واستقر الرأي بعد طول مشاورة على استدعاء الناصر محمد من منفاه في
الكرك ليكون سلطاناً، ومرة أخرى يكون للصراعات السياسية وتساوي الأطراف المتصارعة على
الحكم سبباً في اختيار الناصر محمد سلطاناً على مصر، فهو كان بعيداً كل البعد مكاناً ونفوذاً عن
حلبة الصراع السياسي في مصر، ولم يكن يتوقع العودة إلى السلطنة ثانية، لذا عندما ذهب الوفد
من القاهرة واستدعاه إلى الحكم من الكرك سر سروراً عظيماً، بل أمه ظنت أن يكون ذلك مكيدة،
وجلس على العرش في 6 جمادى الأولى 698هـ/شباط 1299م، ورتب الأمير سار نائباً للسلطنة
والأمير بيبرس الجاشنكير استادار والأمير حسام الدين أتابكاً.⁽¹⁾

1- غزو غازان لبلاد الشام:

لم يكن السلطان الناصر يباشر أعماله حتى وردت الأخبار بعزم المغول على اجتياح بلاد
الشام، وقد سلفت الإشارة إلى أن السياسة التي اتبعتها السلطان لاجين باستسلامه الكلي لرغبات
نائبه منكوتر كان من أم نتائجها هروب بعض كبار الأمراء، مثل الأمير سيف الدين بكتمر

(1) . انظر: المقرئزي: السلوك، 1/ 865 وما بعد. النويري: نهاية الأرب، 31/363 وما بعد.
العيني: عقد الجمان، 3/348 وما بعد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/115-116. ابن أبيك:
الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ص 6-
7. البرزالي: المقتفي، 2/ 574-575. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية. ص155.

السلاح دار، والأمير فارس الدين الألبكي، والأمير سيف الدين عزاز، والأمير قبجق نائب دمشق، وقد لجأ هؤلاء - بعد أن حاول منكوتر التخلص منهم لكي يصفو له الجو-⁽¹⁾ إلى غازان الذي أحسن استقبالهم وأغدق عليهم الأموال والهبات،⁽²⁾ وبالتالي أحسن استخدامهم.

قدوم هؤلاء - وهم من كبار الأمراء - شكل عاملاً مشجعاً لغازان للإقدام في تنفيذ خطته المبيتة سلفاً وهي غزو بلاد الشام، ناهيك عن أن هؤلاء زينوا لغازان اقتحام بلاد الشام ووعده بالمساعدة، وعرفوه مكامن الضعف عند المماليك.⁽³⁾ ليس هذا فقط؛ بل دربوا المغول على فنون القتال المملوكية.

وشروعاً في التنفيذ كان غازان قد أرسل قائده سلامش بن باجو على رأس جيش مكون من خمسة وعشرين ألف فارس إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى للانطلاق من هناك مع جيوش سلاجقة الروم إلى بلاد الشام عن طريق أرمينية الصغرى، على أن يسير غازان على رأس جيش مكون من سبعين ألف جندي إلى بلاد الشام من ناحية ديار بكر، ومن بعد عبور الفرات ومهاجمة البيرة والرحبة وقلعة المسلمين (قلعة الروم من قبل)، " يكون اجتماعهم على حلب، فإن التقاهم أحد إلتقوه، وإلا دخلوا البلاد الشامية ".⁽⁴⁾

وفعلاً وصل سلامش إلى بلاد الروم، وهناك راودته نفسه بالانفراد بحكمها والاستقلال عن سيده غازان، وخاصة أنه على رأس جيش ضخم، فأعلن استقلاله وتملكه لبلاد الروم (آسيا

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 96/8، المقريزي: السلوك، 853/1-855، أبو الفداء: المختصر،

374/2، زيتنر: تاريخ سلاطين المماليك، ص 47-48. النويري: نهاية الأرب، 352/31 وما بعد.

(2) المقريزي: السلوك، 871/1. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 444-445. النويري: نهاية الأرب، 356/31. البرزالي: المقتفي، 573-574.

(3) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 445، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 237.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.434.

(4) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 8، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 458-459. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 117/8.

الصغرى) وخلع على أمرائها، وانضم إليه حاكم الإمارة القرمانية، ثم أرسل إلى السلطان لاجين -
قُبيل مقتله - يطلب المساعدة، على قتال غازان.⁽¹⁾

المساعدة التي طلبها سلامش لم تصله، وربما سبب ذلك هو سوء الأوضاع السياسية في
القاهرة، أما بالنسبة لغازان، فعندما ثبت له خروج سلامش وتمرده، عدل عن خطته في مهاجمة
بلاد الشام، وأراد تدارك أمر سلامش قبل استفحاله، فجهّز له جيشاً في حوالي خمس وثلاثين ألف
فارس برئاسة بولاي، وعاد هو إلى تبريز.⁽²⁾

التقى بولاي مع سلامش على سيواس في 25 رجب 698هـ/، وبعد أن انحاز إلى بولاي
معظم عسكر المغول والروم والتركمان، الذين كانوا مع سلامش؛ فرّ هذا الأخير هارباً إلى دمشق
فوصلها في 5 شعبان 698هـ/، وكان السلطان لاجين قد أمر بإرسال خمسة عشر ألف فارس
لنجدة سلامش، لكن بعد سماع خبر هزيمته تراجع عن أوامره، أما سلامش فقد وصل مصر في
15 رمضان، وبعد إقامة استمرت ثمانية أيام في القاهرة عاد إلى دمشق وقد زوده السلطان بقوة
ترافقه إلى بلاد الروم ليحضر أهله ثم يعود، لكن بمجرد وصوله إلى أرمينية الصغرى خرج عليه
النتار وقتلوه.⁽³⁾

وهنا تجب الإشارة إلى أن هذا الهجوم المغولي الذي كان مقرراً على بلاد الشام رافقه هجوم
صليبي بحري على ساحل بلاد الشام "بيروت" في العشر الأول من شعبان 698هـ/1299م لكن
الهجوم فشل بفعل الرياح التي فرقتهم وأغرقت بعض سفنهم.⁽⁴⁾

(1) المقرئزي: السلوك، 876/1، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص8، النويري: نهاية الأرب، 373/31.

(2) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 460-461. النويري: المصدر السالف، 374/31.
المقرئزي: السلوك، 877/1.

(3) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 10-11، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 462-464،

النويري: نهاية الأرب، 374/31-375. المقرئزي: السلوك، 877/1.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.427-428.

(4) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص12، المقرئزي: السلوك، 875/1، وفي نهاية الأرب للنويري في العشر الآخر
من شعبان، 376 /31. ابن تغري بردي: المصدر السالف، 117/8.

أ- وقعة وادي الخزندار، واحتلال دمشق 699هـ/1299م:

تعددت الأسباب التي دعت غازان لمهاجمة بلاد الشام، وأهمها على الإطلاق:

- السياسة المغولية التي تعد التوسع غرباً باتجاه المتوسط ضرورة إستراتيجية، وغازان - كغيره من خانات المغول - سار على سياسة الدولة المغولية.
- مبادرة المماليك بإتخاذ موقفاً عدائياً من غازان عندما رحبوا بانشقاق سلامش وساعده ضد غازان، وخاصة أن سلامش قام بنهب ماردين التابعة للمغول بعسكر حلب.⁽¹⁾
- وجود نخبة أمراء المماليك عند غازان، وربما يحدث هذا شرخاً في صفوف العسكر المملوكي عند اللقاء.
- كما أنه حانت الفرصة للانتقام من المماليك الذين أخذوا قلعة الروم التابعة للمغول في أسية الصغرى، وجعلوها إحدى قلاعهم القوية.
- وجد غازان في الاضطرابات السياسية التي تعيشها القاهرة آنذاك، عاملاً مشجعاً على غزو الأراضي المملوكية.
- ويضيف رشيد الدين سبباً آخر؛ وهو الغارات التي كان يشنها المماليك على ناحية الروم - آسيا الصغرى - وديار بكر، " فيقطعون الطريق ويحرقون الغلات، ويشقون على المسلمين ".⁽²⁾

كما أن غازان حاول زج الأوربيين إلى جانبه في حربه هذه، فقام بمراسلة ملك قبرص، ومقدمي الداوية والإسبانية المقيمين بقبرص عن طريق سفيره إيسول البيزي Isol of piza يدعوهم للانضمام إلى حملته، لكن هؤلاء رفضوا طلبه،⁽³⁾ فاعتمد على حلفائه الطبيعيين، الأرمن والكرج، فساروا سوياً إلى بلاد الشام، وكانت الاستعدادات قوية حيث جُهِز كل مقاتل في الجيش بمؤنة تكفيه لستة أشهر، وبلغ تعداد قوات غازان حوالي تسعين ألف.⁽⁴⁾

(1) ابو الفداء: المختصر، 2/ 380-381. المقريزي: السلوك، 1/ 878.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 159. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 237.

(3) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص 133. ريلي سميث: فرسان الإسبانية،

(4) Howarth: History of The Mongols، Part 3، P.435-436.

بالمقابل قرر السلطان الناصر المسير إلى بلاد الشام لملاقاة المغول والتصدي لهم،
وفعلاً كان اللقاء بين الطرفين في السابع عشر من ربيع الأول في مجمع المروح في وادي الخزندار
على مقربة من سلمية ما بين حمص وحماه.⁽¹⁾

بالنسبة لأوضاع الجيش المملوكي، فقد كانت سيئة لأسباب عديدة أهمها: إن استعدادات
الجيش لم تكن قوية، فيذكر ابن أيبك أنه " لم يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار، ولا
كأنهم عندهم عدو، بل مُشمريين الذبول كانحدار السيول لملتقى العدو المخذول"،⁽²⁾ ناهيك عما
أحدثته طائفة الأورانية من فتنة بين صفوف الجيش وأمرائه،⁽³⁾ وجاء مؤرخ المغول رشيد الدين على
ذكرها بأنها " أنباء حسنة "، تفيد في وقوع الخلاف في العسكر المصري.⁽⁴⁾

(1) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 470، ابن حبيب: تذكرة النبيه، 220/1، العيني: عقد
الجمان، 4/ 10، بيبرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص 157، المقريزي: السلوك، 1/ 886. لكن
النويري يذكر أن الواقعة كانت في 28 ربيع الأول، نهاية الأرب: 31/384. ويقع وادي الخزندار
مابين السلمية والسعن.

(2) ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 15. بيبرس الدوادر:

(3) - الأورانية: أو الأويرانية، طائفة مغولية سميت بذلك نسبة إلى قبيلة أويرات، قدمت إلى مصر
أيام السلطان كتبغا سنة 695هـ/ بسبب خلافات بين أمرائهم وغازان، لم يكونوا مسلمين، استقبلهم
السلطان وأكرمهم وأقرّ أمرائهم، مما سبب مضايقات لباقي المماليك وللشعب، وأسكن معظمهم
على ساحل بلاد الشام. انظر، النويري: نهاية الأرب، 31/296-299، ابن الفرات: تاريخ ابن
الفرات: 8/205.

- أما بالنسبة للفتنة التي أحدثوها فقد كانت في تل العجول بفلسطين عندما أقدم بعض أمرائهم على
قتل السلطان والأميرين سلار، وبيبرس، لإعادة السلطنة للعادل كتبغا، ولكن محاولتهم باءت
بالفشل، وحكم على أمرائهم الذين شاركوا بالفتنة بالقتل. انظر: العيني: عقد الجمان، 3/463-
468، المقريزي: السلوك، 1/883-884، النويري: نهاية الأرب، 31/383، ابن أبي الفضائل:
النهج السديد، 2/ 468.

(4) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 160.

قبل اللقاء؛ عمد المغول إلى حيلة كان لها أكبر الأثر في انتصارهم، فقد أشاعوا خبر عودتهم وانسحابهم بعد أن علموا ما عليه الجيش المملوكي من كثرة وقوة، فظن المماليك أن ذلك حقيقة وأن المغول عجزوا عن الملتقى،⁽¹⁾ ويعلل رشيد الدين أن هذه المخادعة أقدم عليها غازان بعد علمه بأن المماليك نزلوا في المكان الذي كان فيه اللقاء مع منكوتر قبل بضعة أعوام، وبالتالي قد اختاروا المكان الأفضل، وجعلوا المكان الرديء لجند غازان، فرأى أن المصلحة تقتضي عدم المواجهة وهم على هذه الحال، فأفسد عليهم خطتهم بهذه الحيلة،⁽²⁾ ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الخبر-خبر انسحاب المغول- على استعدادات وحماسة الجيش المملوكي.

كما أن المماليك ارتكبوا قبل اللقاء أخطاء فادحة، منها أنه نودي في الجنود برمي الرماح في الأرض والاعتماد على الضرب بالسيوف، هذه الرماح التي رميت بالأرض عرقلت سير الخيول وأصابت حوافرها بضرر كبير.⁽³⁾

والجديد في المعركة هي خطة غازان التي كان لها أيضاً أثر عظيم في انتصار المغول وهزيمة المماليك، فالمتعارف عليه في المعارك آنذاك أنه عندما يبادر أحد الأطراف بالهجوم؛ يقوم الطرف الآخر بالتقدم لصد هذا الهجوم، وما حصل في وقعة الخزندار؛ أن غازان أمر جيشه بعدم التقدم إذ ما بادرت الجيش المملوكي بالهجوم، وذلك للتخفيف من حدة هجمة الفرسان وإضعاف الخيل، ولكي يُمكن رماته من رمي السهام، فذلك أثبت لهم.⁽⁴⁾

(1) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 16.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 160.

(3) العيني: عقد الجمان، 11/4. المقرئزي: السلوك، 886/1.

(4) العيني: عقد الجمان، 14-13/4، المقرئزي: السلوك، 887/1.

وفِعلاً بادر المماليك بالهجوم ولم يتحرك المغول فلما رأوا ذلك قل عزمهم، حتى أن النفط الذي كان مع الزرايين في مقدمة الجيش نفذ وانطفأ،⁽¹⁾ وعندما تم اللقاء كانت سهام المغول قد فعلت فعلها في الجيش المملوكي.

على الرغم من اضطراب صفوف العسكر المملوكي لكن المصادر تذكر بأن ميسرة المماليك صدمت بعنف ميمنة المغول وقتلت منهم حوالي خمسة آلاف⁽²⁾ لكن الميمنة كُسرت أمام ميسرة المغول، وتمكن غازان - بعد أن فكر بالفرار - من تدارك انكسار ميمنته بأن أردفها بقوة مغولية لم تشارك في الصدمة الأولى، فدارت الدائرة على المماليك وولوا منهزمين،⁽³⁾ وبدأت عمليات المطاردة ولكن بحلول الليل توقف المغول عن الملاحقة خوفاً من أن تكون هذه العملية مكيدة، و كان ذلك - على قول ابن أبيك - لطفاً من رب العالمين.⁽⁴⁾

تشتتت فلول المماليك سالكة سبل مختلفة، وبالنسبة للسلطان الناصر ساق بمن معه إلى بعلبك وقد أغلقت أبوابها في وجههم، فخرجوا إلى دمشق ودخلوها أول ربيع الآخر 699هـ، ومنها ساروا إلى مصر حيث وصلوها في 12 ربيع الآخر 699هـ.⁽⁵⁾

(1) الزراقون جمع زراق، وهم الجنود الذين يحملون المزراق، والمزراق هو عود من الخشب مجوف بطول الرمح وفيه سنان، وفي جوفه ماء حارق، ويكون قصد الزراق وجه الخصم أو الدابة. انظر: عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، القاهرة، 49/2.

وهنا كان تقدير الزراقون أن يلتقوا مع المغول في منتصف الطريق، فتم إشعال النفط حسب التقدير، ولكن على بعد المسافة وثبات العدو فرغ النفط وبردت الهمة. العيني: عقد الجمان، 14/4.

(2) خمسة آلاف على قول المقرئزي في السلوك، 887/1، وعلى قول الياضي في مرآة الجنان، نحو من عشرة آلاف، 530/4، وعلى قول ابن حبيب في تذكرة النبيه أربعة عشر ألف مقابل ألف من المسلمين 220/1.

(3) النويري: نهاية الأرب، 384/31-385. بيبرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص 157.

(4) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 17.

(5) العيني: عقد الجمان، 25/4، المقرئزي: السلوك، 888/1-896. ابن كثير: البداية والنهاية، 7/14. النويري: نهاية الأرب، 385/31-386. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 162-163. أبو الفداء: المختصر، 381/2. البرزالي: المقتفي، 23/3. بيبرس

ولما تمت الهزيمة على المماليك سار غازان إلى حمص فدخلها ونهب الخزائن السلطانية،⁽¹⁾ ومن هناك توجه إلى دمشق حيث دخلها في العاشر من ربيع الآخر، وكان قبل دخوله إلى دمشق قد اجتمع مع بعض علماء دمشق ووعدهم بالأمان لأهالي المدينة، كما دخل إلى دمشق قبله بثلاثة أيام أحد أمراء المغول واسمه إسماعيل التتري، قرأ هذا في الجامع الأموي فرمان غازان الذي يذكر فيه أنه قدم لإنهاء عدوان المماليك، وإزالة الفساد، وإقامة العدل والسلام، وتوعد بعدم التعرض لدمشق وأهلها بسوء، ووعد بالأمان حتى لليهود، والصابئة، والنصارى.⁽²⁾

لم يلتزم غازان بوعوده، بل كثر السلب والنهب والاعتداء على الأهالي والقرى، بل وصل أذاهم إلى القدس الشريف والخليل وغزة، وعانت دمشق منهم كثيراً، في حين استعصت عليهم قلعتها، ورفض الأمير علم الدين سنجر المعروف بأرجواش نائب القلعة تسليم القلعة، على الرغم من كثرة التوسلات والتهديدات، وقد فشلت كل المحاولات المغولية العسكرية للاستيلاء عليها.⁽³⁾

ب- الموقف الأوربي من احتلال دمشق:

الدوادر: التحفة الملوكية، ص 157-158. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 111. زيتير سين: تاريخ سلاطين المماليك، 58-59. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 470/2.

(1) النويري: نهاية الأرب، 386/31-387.

(2) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 20-23، العيني: عقد الجمان، 30/4، المقريزي:

السلوك، 1011/1، زيتير سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص 66، النويري: نهاية الأرب، 388/31. البرزالي: المقتفي، 3/28.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 220/1، العيني، المصدر السالف، 41/4 وما بعد، المقريزي: المصدر السالف، 896/1. النويري: المصدر السالف، 395/31 وما بعد. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 471/2، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 18 وما بعد. بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 298/9-299. البرزالي: المقتفي، 3/29-33، 41-44، 63.

لم يذكر مؤرخ المغول رشيد الدين عمليات السلب، بل على العكس تحدث عن الرعاي والعناية التي أولاهها غازان للمدينة، حتى أنه عندما قام بعض الجنود (الأرمن والكرج) بعمليات سلب في الصالحية، عاقبهم غازان ورد الأسرى. انظر، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 164-165.

على الرغم من إسلام غازان إلا أنه ظل مغولياً يحمل صفات أسلافه، وبادر إلى التحالف مع الغرب الأوربي جرياً على عادة من سبقه من حكام مغول فارس، ولكن الجديد في الأمر أنه مسلم، وبحكم دولة ذات أغلبية إسلامية، ويسعى لمخالفة دول صليبية ضد أبناء دينه، وكانت المبادرة قد بدأت من غازان عندما أرسل قبل احتلاله لدمشق -كما تقدم الحديث- رسالة إلى ملك قبرص ومقدمي الداوية والاستبارية يعرض عليهم الانضمام إلى حملته، لكن عرضه قوبل بالرفض على الرغم من تكراره.⁽¹⁾

إلا أن نجاحه في احتلال بلاد الشام بدل الموقف الأوربي كلياً، إذ سارع البابا بونيفاس الثامن (1294-1303م) بإرسال دعوات لأمرء أوربا والقادة ورجال الدين -الذين كانوا موجودين في عكا قبل سقوطها- بالرحيل إلى الأماكن المقدسة بعد أن استعادها حليفهم غازان؛ والذي وصلت سفارته إلى روما في صيف 1300م تعرّض التحالف مع الأوربيين.⁽²⁾

أما الرد العملي الأوربي الذي ترجم على أرض الواقع فقد اقتصر على رسالة أرسلها جيمس الثاني ملك أراغون (1291-1326) مؤرخة في 18 مايو 1300م - قبيل رحيل المغول عن الشام - تحمل عنوان "إلى الملك الأقوى والأعظم غازان ملك المغول، ملك ملوك كل الشرق"، يعرض فيها المساعدة فيما يحتاجه غازان من سفن، وموّن، ومنتوعة، وخيل، مقابل إعطائه خمس الأراضي المقدسة التي استولى عليها حديثاً، والتي سيستولي عليها مستقبلاً، والسماح لرعايا جيمس بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أية ضرائب ورسوم.⁽³⁾

هذه الوعود الأوربية، وعلى الرغم من شروطها التعسفية، لم تتعدّ أن تكون حبراً على ورق، وفي الحقيقة لم يكن بمقدور ملوك أوربا تنفيذها، فمشاكلهم الداخلية أقوى من أن تسمح لهم بعمل خارجي.

ج-رحيل غازان وقواته عن بلاد الشام:

(1) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص 133.

(2) عادل هلال: المرجع نفسه، ص 134.

(3) Howarth: History of The Mongols، Part 3، P.488.

نهب غازان بلاد الشام، وقيل بأن مجموع ما حُمل إلى خزائنه من دمشق فقط، حوالي ثلاثة ملايين وستمئة ألف درهم، وما حصل عليه أمراءه قُدر بمليونين ومائتي ألف درهم، هذا فقط من الأموال، ناهيك عما سُلِب من غلال وسلاح وخيول ودواب.... إلخ،⁽¹⁾ وبعد مدة قرر غازان مغادرة بلاد الشام متوجهاً إلى بلاده،⁽²⁾ وكان قد ولى نيابة دمشق للأمير قبجق، ونيابة حماه وحمص وحلب للأمير بكتمر، ونيابة صفد وطرابلس والساحل للأمير البكي، وترك مع كل نائب قوة مغولية، وكلهم يخضعون لقطوشاه مقدم التتار في بلاد الشام، وقد ترك معه ستين ألف مقاتل، على أنه سيعود إليه في الربيع القادم لمتابعة المسير إلى الديار المصرية.⁽³⁾

وبعد رحيل غازان بعشرة أيام تقريباً "23 جمادى الأولى/ 14 شباط 1300م"، لحق به نائبه قطوشاه بعد أن أخفق حصاره لقلعة دمشق، فأقنعه نائب الشام قبجق بتركها وأعطاه كمية كبيرة من الأموال - على سبيل الرشوة- جمعها له من الناس، ثم لحق به القائد بولاي في 12 رجب وقد كان على رأس قوة مغولية صغيرة تتحرك في الأغوار لشن الغارات، إذ وصلوا بغاراتهم إلى غزة وقتلوا في جامعها خمسة عشر نفر من المسلمين،⁽⁴⁾ فالتقى قطوشاه مع غازان في الموصل في

(1) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 220/1، البرزالي: المقتفي، 3/ 45-46. المقرئزي: السلوك، 894/1. زيتير سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص 71. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/ 127. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 498. ويذكر أن ما حصل عليه الأمراء والشيوخ الذين كانوا معه يساوي مليونين ومائتي ألف درهم.

(2) بالنسبة لتاريخ رحيله فهو إما 12 جمادى الأولى، البرزالي: المقتفي، 3/ 43. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 31، النويري: نهاية الأرب، 31/ 397. أو 15 جمادى الأولى، العيني: عقد الجمان 45/45، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 494.

(3) البرزالي: المقتفي، 3/ 43، 44، 58، العيني: عقد الجمان، 4/ 45، المقرئزي: السلوك، 895/1، حاشية 3. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 481-490. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 31. النويري: نهاية الأرب، 31/ 397-398. زيتير سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص 70.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.486.

(4) النويري: نهاية الأرب، 31/ 399-401، بيبيرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/ 299. البرزالي: المقتفي، 3/ 68. المقرئزي: السلوك، 1/ 896.

15 رجب، وأخبره بأن قبجق والي الشام وأتباعه خالفوه وخرجوا عن طاعته، لكن غازان لم يتمكن من العودة بسبب ما بلغه من تمرد بعض أمرائه.⁽¹⁾

بتكامل خروج التتار من بلاد الشام تنتهي حملة غازان الأولى، وقد أفلست من كل النتائج السياسية والعسكرية على الرغم من الانتصار الساحق الذي حققه في وادي الخزندار، إذ لم يستولي على أي من القلاع الشامية، بل امتعت عليه بجملتها اقتداء بقلعة دمشق، ثم أقيمت الخطبة في يوم الجمعة باسم الناصر محمد في 17 رجب 699هـ/نيسان 1300م بعد انقطاع دام مائة يوم.⁽²⁾

عقب هزيمة الخزندار عاد السلطان الناصر إلى مصر وبدأ بجمع جيوشه وتجهيزها للمسير إلى بلاد الشام لطرد المغول، واجه في سبيل ذلك مشاق عديدة؛ تغلب عليها، ثم أذن للعساكر بالمسير، وبينما هو كذلك إذ وصلته الأخبار وهو بالصالحية تفيد برحيل المغول من بلاد الشام، وبعد نقاش تقرر أن يعود السلطان إلى القاهرة، ويتابع الجيش مسيره إلى بلاد الشام بقيادة الأميرين سار وبيبرس الجاشنكير "لتدبير البلاد، وإصلاح ما استحکم بها من الفساد"،⁽³⁾ وكانت الرسائل قد سُيرت إلى الأمراء الذين دخلوا في طاعة غازان، وهم قبجق، وبكتمر، والبكي، تسترضيهم وتحثهم على العودة إلى الخدمة والطاعة، فأجابوا بالموافقة.⁽⁴⁾

وصل الجيش المصري إلى دمشق في 10 شعبان 699هـ/أول مايو 1300م، أقاموا بها مدة، أجروا خلالها الكثير من الترتيبات الإدارية إلى أن استقرت أحوالها وعادت إلى سابق عهدها، ثم تركوها عائدين إلى مصر 8 رمضان من السنة نفسها.⁽⁵⁾

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 165.

(2) النويري: المصدر السالف، 401/31، العيني: عقد الجمان 47/4، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 506، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 37، المقريزي: السلوك، 900/1. البرزالي: المقتفي، 3/ 73. تاريخ سلاطين المماليك، ص 79.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 300/9. البرزالي: المقتفي، 3/ 78، 80.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 300/9، النويري: نهاية الأرب، 404/31. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 38.

(5) المقريزي: السلوك، 901/3-902، العيني: عقد الجمان، 79/4، النويري: نهاية الأرب، 404/3-406، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة: 300/9-301. البرزالي: المقتفي، 3/ 86.

د - حملة غازان الثانية إلى بلاد الشام:

علم غازان بخروج الشام من يده وعودة قبجق وزملاءه لخدمة السلطان الناصر، فاستشاط غضباً وقرر العودة إلى بلاد الشام ومهاجمتها من جديد، وفعلاً سار غازان باتجاه الشام في شتاء 700هـ/1301م عابراً الفرات⁽¹⁾، وعندما تواترت الأخبار بقدوم المغول سار السلطان بالعساكر إلى الشام في العشر الأوسط من صفر⁽²⁾ فوصل إلى غزة، وهناك توقف المسير بسبب انقطاع الطرق بالمطر الغزير، " فلما عين السلطان وأمرؤه تشدد الحال وما أوجبتها السيول و الأحوال من الأمحال ألجأهم ذلك إلى الترحال، فرحلوا عن المنزلة وعادوا إلى الديار المصرية، ووصل السلطان القلعة في العاشر من جمادى الأولى ".⁽³⁾

وكان السلطان قبل عودته قد جرد الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار والأمير يعقوب الشهرزوري بألفي فارس إلى دمشق،⁽⁴⁾ أما بالنسبة لغازان فقد وصلت عساكره إلى حلب وأقامت فيها من 25 ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة، أعملوا فيها الغارات على المناطق المجاورة، فوصلوا إلى شيزر وأنطاكية وأفامية وكفرطاب وسرمين والمعرة وجبل السماق وأنطاكية وهم ينهبون ويسلبون ويأسرون، ويبيع الأسرى المسلمين بأسعار زهيدة، إذ اشترى ملك أرمينية الصغرى عدداً كبيراً منهم، وسُير بعضهم بالمراكب إلى أوربا،⁽⁵⁾ ولكن إقامة المغول في المنطقة لم تَطُل لأنهم

(1) العيني: عقد الجمان، 4/122، 126-128.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.454-455.

(2) هذا على قول بييرس الدودار في زبدة الفكرة، 9/305، وعلى قول ابن أبي الفضائل في النهج السديد 12 صفر، 2/539. وفي نهاية الأرب للنويري 3 صفر، 31/413.

(3) بييرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/306. البرزالي: المقتفي، 3/132. أبو الفداء: المختصر، 2/384. المقرئ: السلوك، 1/908. بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/131.

(4) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/540. المقرئ: السلوك، 1/909.

(5) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/541، النويري: نهاية الأرب، 31/415. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/132. المقرئ: السلوك، 1/908-909. بييرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/306. البرزالي: المقتفي، 3/135، 142،

عانوا من الأمطار والتلوج مثلما عانى السلطان الناصر، وقد هلك الكثير من جيشه، فرجعوا إلى بلادهم "شبه المكسورين" (1).

أخفق غازان في حملته الثانية، لكن ذلك لم يُثنه عن متابعة العمل لتحقيق مشروعه التوسعي في بلاد الشام فعمد إلى إتباع سياسة جديدة تقوم على المراوغة لكسب الوقت ولكسب عنصر المفاجأة، لذا قام بإرسال سفارة إلى المماليك تطلب عقد الصلح بين الطرفين.

وصلت رسله إلى القاهرة في الخامس من ذي الحجة 700هـ/ آب 1301، ومعهم رسالة تفيض بعبارات الترغيب والترهيب، يُحْمَل فيها المماليك مسؤولية هجماته السالفة على بلاد الشام لأن عساكرهم كانت قد هاجمت ماردين وبلادها في شهر رمضان، (2) "فما كان منه إلا أن أخذته بالعباد شفقة عليهم لما حل بهم من الضعف والرعب"، فقام بمهاجمة بلاد الشام، وبعد هذه المقدمة دعا المماليك إلى الصلح إصلاحاً لأمر الرعية، ثم أنهى الرسالة بطلب الهدايا، (3) أما في نص الرسالة الذي أورده البديسي فإن غازان طلب صراحةً إقامة الخطبة والسكة باسمه مع تقديم جزية سنوية، " وإلا فإن الولايات والمصائب التي صبت على سكان بلاد الخوارزميين من قبل الجنكيزيين ستصب مثلها وأكثر على المصريين" (4).

رفض السلطان الناصر طلبات غازان التي تحمل معنى الخضوع له، وردّ عليه برسالة أنكر فيها ادعاءاته ومسوغاته في الهجوم على بلاد الشام، وعاب عليه استعانتته بالأرمن والكرج على أبناء دينه، وأخبر بأنه إذا أراد الصلح فعلاً فعليه أن يرسل شيخاً من كبار دولته " يكون إذا قطع أمراً أو فصل حكماً عوّلت عليه وانتهيتم إليه.. لنتكلم معه بما فيه الصلاح لذات البين"، وبالنسبة

(1) النويري: المصدر السالف، 415/31. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 168.

(2) أشار رشيد الدين إلى أن سبب هجوم غازان على الشام أول مرة كان بسبب هجوم المماليك على ماردين، انظر، جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 159. وربما المقصود به هو هجوم سلامش - سالف الذكر - على ماردين مع العسكر الحلبي.

(3) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 546-547، 549-554، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 52، 53-56، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/136، مع بعض الاختلاف فيما جاء عند بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/307-309، النويري: نهاية الأرب، 31/426-430.

(4) البديسي: شرفنامه، 2/19.

للهدايا التي طلبها؛ فمن الواجب عليه " أن يهدي إلينا من العراق أصنافه لنقابل الهدية بهدية أضعافها ونتحقق من صدق نيته ".⁽¹⁾

في الحقيقة إن رسالة غازان لم تكن إلا مراوغة، لأنه في الوقت ذاته كان يُرسل ملوك أوربا للقيام بعمل مشترك ضد المماليك، فسفارته التي أرسلها بقيادة بوسكاريللو وصلت إلى البابا بونيفاس الثامن وإلى إدوار الأول ملك انكلترا في سنة 1302م،⁽²⁾ ولكنها لم تحصد أية نتائج، وذلك أمر طبيعي ما دامت أوربا تعاني من مشاكل داخلية تلهيها عن الأعمال خارجية.⁽³⁾

ذ - موقعة عُرض سنة 702هـ/1303م:

أخفقت محاولات الصلح، وهذا أمر طبيعي فهي لم تكن مبنية على أسس صادقة، وخاصة أن عبارات الريبة والشك ملأت رسائلهم، وقد ثبت لدى المماليك مراوغة غازان عندما انتهت إليهم في صفر 702هـ أخبار مسيره إلى بلاد الشام،⁽⁴⁾ فقد وصل إلى الرحبة و أراد منازلتها بنفسه، ثم عدلَ عنها بعد أن أخذ منها رهائن وعاد إلى بلاده⁽⁵⁾ تاركاً قوة عسكرية مؤلفة من اثنا عشر تومان بقيادة نائبه قطلوشاه مع فرقة من الأرمن وأخرى من الجورجيين، والتومان أو الطومان هي فرقة عسكرية مؤلف من عشرة آلاف مقاتل⁽⁶⁾ وبالتالي يكون تعداد العسكر المغولي 120 ألف مقاتل، لكن بيبرس الدودار ذكر أنهم كانوا في هيئة اثني عشر تومان وفي حقيقة الأمر كان تعدادهم

(1) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 66-70، ابن أبي الفضائل النهج السديد، 571/2-581. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 142/8-146، مع الاختلاف بعض الشيء فيما ذكر بيبرس الدودار في زبدة الفكرة، 9/312-318، ونهاية الأرب للنويري، 31/431-441.

(2) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص136.

(3) من هذه المشاكل قضية اسكتلندا ومحاولات السيطرة عليها من قبل إدوارد، ومشكلة الملك الفرنسي مع البابا والتي نتج عنها نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينون الفرنسية.

P.489.، Part 3، Howorth: History of The Mongols

(4) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/583. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 66-70. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/146.

(5) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/325.

(6) دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص 48.

تسعين ألف فارس،⁽¹⁾ كما أرسل إلى حاكم دمشق عز الدين أيبك الأفرم يغيره بالدخول في طاعته وترك طاعة السلطان الناصر.⁽²⁾

أسرع السلطان بتسيير قوة من القاهرة في رجب 702هـ/ على رأسها الأمير بيبرس الجاشنكير ومعه عدد من الأمراء؛ بينهم المؤرخ بيبرس الدوادار، وصلوا دمشق في منتصف شعبان/نيسان، في الوقت الذي اجتمعت فيه عساكر حمص وحماء وحلب وطرابلس وبعض العساكر الدمشقية في حماه عند نائبها العادل كتبغا.⁽³⁾

اتفق ذلك مع قدوم قوة من عساكر المغول مؤلفة من خمسة آلاف فارس تقريباً أغاروا على القريتين،⁽⁴⁾ فتم تجريد قوة في ألف وخمسمائة فارس من العساكر المجتمعة في حماه ومن بينهم المؤرخ أبو الفداء، تمكنوا من الإحاطة بالمغول والالتحام معهم في مكان قريب من عرض⁽⁵⁾ في العاشر من شعبان / أول نيسان، حيث حاقت الهزيمة بالتتار، ولوا منهزمين فكان هذا النصر على قول أبو الفداء (عنون النصر الثاني)⁽⁶⁾ في شقحب.

ز - موقعة شقحب (مرج الصفر) 702هـ/1303م:

كتب الأمراء من الشام إلى الناصر محمد في مصر يخبروه بالنصر الذي وقع في عرض، ويستحثوه على الخروج بالعسكر المصري، فعندما وصله الكتاب سُر بذلك وأمر العساكر بالخروج

(1) زبدة الفكرة، 9/326، 331، أما ابن حبيب فيذكر أنهم كانوا في ثلاثة عشر تومان، تذكرة النبيه، 1/241

(2) بيبرس الدوادار: المصدر نفسه، 9/326-330. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/157.

(3) بيبرس الدوادار: المصدر نفسه، 9/325-331، المقريزي: السلوك، 1/930. ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة، 8/157. أبو الفداء: المختصر، 2/387. البرزالي: المقتفي، 3/217-218.

(4) قرية من قرى حمص. الحموي، معجم البلدان، مادة قريتان.

(5) بلدة من أعمال حلب بين تدمر والرصافة. الحموي، معجم البلدان، مادة عرض. ومن المفترض

أن تكون المعركة هذه تمت أثناء انسحاب المغول من القريتين، راجع الخريطة المرفقة.

(6) أبو الفداء: المختصر، 2/387، المقريزي: السلوك، 1/931، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/332.

ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/246. البرزالي: المقتفي، 3/217. ويقول أن المسلمين كانوا في

1500 فارس وكان المغول بقدرهم مرتين أو ثلاثة.

سريعاً،⁽¹⁾ وكان التتار المنهزمين إلى قطلوشاه قد أخبروه بأن السلطان لم يخرج بعد من مصر، وأنه ليس بالشام سوى العسكر الشامي، فاتفقوا على اغتنام الفرصة و المسير لملاقاة الجيش الشامي ودخول دمشق قبل وصول السلطان، فوصلوا حماه في الثالث والعشرين من شعبان.⁽²⁾

سارت العساكر (عساكر حمص، وحماه، وحلب، وطرابلس) التي اجتمعت من قبل في حماه عند نائبها زين الدين كتبغا جنوباً باتجاه دمشق لكي تعطي نفسها فرصة أفضل للمواجهة وتجتمع بالعسكر المصري المخيم بمرج راهط، فالتقت بكشافة الجيش المصري التي كانت بقيادة المؤرخ بيبرس الدوادار في القطيفة، فأخبروهم بقدوم التتار بقيادة قطلوشاه، ثم قرر الجميع التراجع قليلاً انتظاراً لقدوم السلطان الناصر بباقي العسكر المصري، فانسحبوا باتجاه الكسوة حيث التقوا بالسلطان على عقبة شجورا⁽³⁾ في مستهل شهر رمضان المعظم 702هـ/ وهناك تم ترتيبهم يمينة وميسرة وقلب.⁽⁴⁾

كان اللقاء بين المماليك والمغول عند شقحب بطرف مرج الصفر، تحت جبل غباغب في حوران، يوم السبت ثاني شهر رمضان 702 هـ/نيسان 1303م⁽⁵⁾ واستمرت المعركة ثلاثة أيام، بدأت بأن زحفت كراديس المغول بعد ظهر يوم السبت حاملين على اليمينه والتي كان على رأسها الأمير حسام الدين الأستازدار، وقد استشهد ذلك النهار، لكن اليمينه ثبتت بعد أن تم ردها ببعض العساكر من الميسرة، في حين حققت ميسرة المماليك وقلبهم نصراً ساحقاً على التتار الذين لجئوا مع حلول المساء إلى أعلى جبل غباغب، في حين تمكن بولاي أحد مقدميهم من الفرار مع زهاء عشرين ألف فارس.

أحاطت جيوش المماليك بالجبل، وعندما صعد قطلوشاه إلى الجبل ظن أن النصر كان حليفه، وأن بولاي الذي هرب إنما ساق خلف المماليك، وعندئذ علم من أحد الأسرى أن السلطان

(1) العيني: عقد الجمان، 222/4.

(2) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 333/9. أبو الفداء: المختصر، 388/2.

(3) هي ممر في الطريق بين دمشق والكسوة، المقرئزي: السلوك، 932/1. حاشية 1.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 333/9-334، المقرئزي: السلوك، 932/1. أبو الفداء:

المختصر، 388/2، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 159/8.

(5) أبو الفداء: المصدر نفسه، 388/2. المقرئزي: السلوك، 932/1.

الناصر قدم من مصر وأن العسكر المصري كان حاضراً في تلك الواقعة، ولما أصبح نهار الأحد ثاني أيام المعركة رأى المغول إحاطة المماليك بهم، فأيقنوا بالخذلان، وأرادوا التسلل بعد أن هلكت خيلهم عطشاً، ففرجت لهم العساكر ثغرة من رأس الميسرة بادروا بالفرار منها، ولم يبق منهم إلا فرقة مع "طيطق" أحد مقدميهم، تقديرهم عشرون ألف فارس، " فحملت العساكر عليهم فصيروهم رميماً "، ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان بدأت عمليات المطاردة، وقد هلك فيها خلق عظيم من التتار، وحتى أن قطلوشاه لم يعبر الفرات إلا في قليل من أصحابه.⁽¹⁾

أما الناصر محمد فقد احتفل بانتصاره في دمشق طيلة شهر رمضان سنة 702 هـ ثم عاد إلى القاهرة في شوال من تلك السنة ليستكمل الاحتفالات هناك.⁽²⁾

2- السلطان محمد بن قلاوون وأولجايتو:

مُنِي جيش غازان بهزيمة ساحقة في معركة مرج الصفر - شقحب -، وتعد حملته هذه آخر الحملات المغولية الكبيرة المُرسلة إلى بلاد الشام، كما تعد معركة مرج الصفر هذه آخر جولة في الصراع بين مغول فارس والمماليك، وقد انتهت بانتصار المماليك وتأكيد سيادتهم على مشرق البحر المتوسط حتى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

ساد الجبهة المملوكية-المغولية بعد ذلك هدوء نسبي؛ استمر حتى ظهور تيمورلنك في منطقة مشرق البحر المتوسط في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حيث قلب ظهوره الموازين السياسية وتوزيع القوى في تلك المنطقة.

(1) أهم مصدر على وقائع معركة شقحب هو زبدة الفكرة للأمير بيبرس الدوادار؛ أحد قادة ميسرة الجيش المملوكي في هذه المعركة . انظر، 337-335/9، و التحفة الملوكية، ص 163-173. بالإضافة إلى نهاية الأرب للنويري، وهو شاهد عيان لهذه المعركة، 29/32، والمختصر لأبي الفداء؛ وقد شارك أيضاً بهذه الوقعة، 388/2. وللاستزادة انظر، العيني: عقد الجمان، 231/4-240. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 247-246/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 163-160/8. المقريزي: السلوك 936-935/3/1، 937. البرزالي: المقتفي، 3/ 222-218. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 591/3. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، 132-120.

(2) المقريزي: السلوك، 939-938/3/1.

فقد توفي غازان في شوال 703هـ/ أيار 1304م، وعلى قول أبو الفداء؛ كانت وفاته كمدماً على هزيمة المغول في مرج الصفر،⁽¹⁾ فتولى الحكم من بعده أخيه أولجايتو خدابندا - خريندة -⁽²⁾، وقد ابتدأ هذا عهده بنشاط دبلوماسي واسع، فبعد توليه الحكم مباشرة قام بإطلاق سراح سفراء الناصر محمد الذين كانوا محتجزين عند غازان،⁽³⁾ وأرسل معهم إلى الناصر محمد يطلب إطلاق سراح أحد الأمراء المغول من أسر المماليك، كما طالب بالصلح وإخماد الفتنة، وقد قابل المماليك هذا العرض بترحاب وردوا عليه بالموافقة.⁽⁴⁾

وعلى الرغم من هذه المراسلات فإن أولجايتو؛ جرياً على عادة الخانات من قبله، وحرصاً على المحافظة على العلاقات الطيبة مع الغرب الأوربي، قام بإرسال سفارة إلى أوربا سنة 1305هـ/م قابل أعضاؤها ملك فرنسا، وملك انكلترا، والبابا، حيث استقبلوهم بترحاب، وحملوهم - كالعادة - وعود خيالية.⁽⁵⁾

لم يشهد عهد أولجايتو أي نشاطاً عسكرياً مهماً على الجبهة المملوكية، على غير عادة أسلافه، باستثناء حصاره الفاشل للرحبة سنة 712هـ/م، ومرد ذلك عائد إلى توتر العلاقات على الجبهتين الشرقية والغربية لإيلخانية فارس.

(1) أبو الفداء: المختصر، 390/2. البديليسي: شرفنامه، 19/2. المقرئزي: السلوك، 1/954.

(2) البديليسي: المصدر السالف، 20/2. المقرئزي: السلوك، 1/954. لقب خدابندا معناه عبد الله، "خدا" معناها باللغة الفارسية "الله" و "بنده" معناها "غلام"، أما "خريندة" فمعناها "غلام الحمار" لأن "خر" باللغة الفارسية معناها "حمار"، وسبب هذا اللقب على قول البديليسي أن أولجايتو هذا هرب إلى شيراز وكرمان عندما اعتلى غازان الحكم، وهناك اختلط بالخريندكية والمكارين " الحمارين والبالغين" لمدة طويلة، فأطلق عليه لقب الخريندة. أنظر، البديليسي: شرفنامه، 20/2. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 1/143. أما أولجايتو فهو لقب اختاره بعد جلوسه على العرش وهو يعني المغفور له. انظر عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 309.

(3) كان السلطان الناصر محمد قد أرسل سفرائه إلى غازان للرد على سفارته، وعندما حلت الهزيمة بجيش غازان في مرج الصفر كان هؤلاء السفراء لا يزالون عنده فقام باحتجازهم.

ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 127-128.

Howorth: History of the Mongols. Part3. P.536-537.

(4) ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 128. المقرئزي: السلوك، 6/2. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 309-310.

(5) عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص 137-140.

أ- حصار الرحبة سنة 712هـ / 1313م:

في سنة 711هـ / 1312م هرب الأمير قرا سنقر نائب دمشق والأمير جمال الدين الأفرم نائب طرابلس مع مجموعة من الأمراء إلى أولجايتو بسبب خلافات وقعت بينهم وبين الملك الناصر محمد، فاستقبلهم أولجايتو استقبالاً حسناً وأقطعهم الإقطاعات،⁽¹⁾ وأخذ هؤلاء كالعادة يحسنون له مهاجمة بلاد الشام؛ لذلك سار قاصداً الرحبة بعد أن أخبره قرا سنقر بأنه سيقنع صاحبها بتسليمه المدينة بدون قتال،⁽²⁾ وشرع في حصارها لمدة شهر، ثم نزل عنها بعد أن عجز في اقتحامها وفشل مساعي قراسنقر بإقناع حاكمها بالتسليم،⁽³⁾ ذكر الدواداري نقلاً عن حاكم الرحبة أن أولجايتو هذا لم يكن رجل حرب، بل همه الأكل والشرب والنساء والملاهي، ولولا تحريض قراسنقر ورفاقه، لما تحرك وهاجم البيرة.⁽⁴⁾

ب- إحتلال المماليك لمطية:

رد الناصر محمد على هذا الهجوم باحتلال مطية التابعة للغول سنة 715هـ / ، وعلى قول أبو الفداء فإن لمطية هذه أهمية إستراتيجية كونها واقعة على الطريق إذا ما أرادت الغيرة المملوكية مهاجمة أراضي سلاجقة الروم، وحدث في أحد المرات أن تعرّض أهالي مطية للغيرة المملوكية، فأسروا وقتلوا منهم عدداً، فجرد السلطان محمد حملة إليها بقيادة الأمير تنكز نائب دمشق وقتنذ، وكان المؤرخ أبو الفداء مشاركاً في الحملة على رأس العسكر الحموي، بدأ حصار مطية في 22 محرم 715هـ / وفي اليوم التالي سُلمت المدينة بالأمان، لكن المماليك لم يحتفظوا بها طويلاً إذ سرعان ما استردها الأمير المغولي جوبان.⁽⁵⁾

3- السلطان محمد بن قلاوون وأبوسعيد:

(1) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 32/2، 37، 183. المقرئزي: السلوك، 115/1/2.

(2) ابن أبيك: الدر الفاخر، 251-252.

(3) أبو الفداء: المختصر، 413/2. المقرئزي: السلوك، 115/1/2. ابن أبيك: الدر الفاخر، 259-260.

البديسي: شرفنامه، 23/2. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 319-320.

Howorth: history of the Mongols. Part 3. P566-567.

(4) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 261.

(5) أبو الفداء: المختصر، 418-420. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 284-285. المقرئزي: السلوك،

144-143/1/2.

في شوال من سنة 716هـ/ كانون الأول 1316م توفي أولجايتو، فخلفه على عرش الإيلخانية ابنه أبوسعيد وكان عمره آنذاك 12 سنة، مما أعطى مجالاً للأمرء الكبار للتسلط على الحكم والاستئثار به،⁽¹⁾ مما أسفر عن حروب أهلية وتمردات داخلية استمرت لسنوات،⁽²⁾ في ظل تهديدات المغول الجغثائيين من جهة الشرق، ومغول القبيلة الذهبية في الشمال،⁽³⁾ الذين دأبوا على مهاجمة أراضي الإيلخانية.

هذا في الوقت الذي أصبحت فيه السلطنة المملوكية في ظل حكم الناصر محمد دولة مرهوبة الجانب أكثر من ذي قبل، وأكثر استقراراً، فرأى السلطان أبوسعيد أنه من الأفضل المحافظة على هدوء الجبهة الغربية للتفرغ للأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية، بدأت المراسلات بين الطرفين منذ السنة الثانية لتولي أبو سعيد الحكم، ففي سنة 717هـ/ وصل إلى السلطان الناصر محمد وفد من قبل أبوسعيد برئاسة المجد إسماعيل السلامي ومعه عدد من أمراء المغول يحمل الهدايا ويعرض مشروع للصلح،⁽⁴⁾ استمرت المفاوضات حتى سنة 720هـ/ وحدث أثناء ذلك أن أرسل السلطان الناصر محمد ثلاثون فداوياً، وكلفهم بمهمة اغتيال قراسنقر الملتجأ عند أولجايتو، فانتشر خبر أن هؤلاء أرسلوا لاغتيال أبو سعيد، وعلى الرغم من أن معظمهم تم القبض عليه وإعدامه، إلا أن أبو سعيد بقي مدة من الزمن محتجباً خوفاً منهم،⁽⁵⁾ ومن المفترض أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع الاتصالات بين الطرفين، لكن ربما الخوف دفع أبوسعيد إلى إرسال المجد إسماعيل مرة ثانية سنة 720هـ/ 1320م ليعرض عليه مشروع الصلح الذي يتضمن الشروط التالية⁽⁶⁾:

■ الإمتناع عن إرسال الفداوية إلى بلاد الإيلخانيين.

(1) البديسي: شرفنامه، 25/2-26. أبو الفداء: المختصر، 426/2-427. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 327-337.

(2) عن هذه الثورات بالتفصيل، انظر، عباس إقبال: المغول في التاريخ، ص 327-337.

(3) عن هذه الحروب بالتفصيل، انظر، الصياد: الشرق الاسلامي في عهد الإيلخانيين، ص 431-438.

(4) المقرئزي: السلوك، 175/1/2.

(5) المقرئزي: السلوك، 207/1/2. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 342. الصياد: الشرق الاسلامي، ص 481-480.

Howorth: History of the Mongols. Part 3. P. 600.

(6) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 342. الصياد: الشرق الاسلامي، ص 482.

- عدم المطالبة بتسليم رعايا البلدين الذين يلجأون إلى البلد الآخر .
 - كف السلطان عن إرسال العربان والتركماني لشن الغارات على أراضي الإيلخانية.
 - توطيد العلاقات التجارية بين الطرفين، وحرية انتقال التجار مع بضائعهم.
 - تسيير المحمل كل سنة من العراق إلى الحجاز وهو يحمل علميين أحدهما باسم سلطان مصر والآخر باسم إيلخان فارس.
 - ألا يطالب السلطان بالأمير قراسنقر .
- وافق السلطان الناصر على هذه الشروط وتم توقيع الصلح بين الطرفين بشكل نهائي سنة 723هـ/1323م.⁽¹⁾

منذ ذلك الوقت زال الخطر المغولي على الجبهة الشرقية للمماليك، وتوقف نشاطهم حتى أواخر القرن الثامن الهجري عندما ظهر تيمورلنك واجتاح مشرق البحر المتوسط.

في الحقيقة أصبحت دولة مغول فارس عاجزة عن أي عمل عسكري ضد السلطنة المملوكية، فقد توفي أبوسعيد سنة 736هـ/1335م،⁽²⁾ وكان هو آخر الإيلخانات الكبار من أسرة هولكو، وبعد وفاته أخذت إيلخانية فارس بالتدهور، وشهدت صراعات مريرة على منصب الإيلخان وخاصة أن أبوسعيد لم ينجب أبناء ذكور،⁽³⁾ وانتقل الحكم من أسرة هولكو إلى بيت جنكيز خان عندما نُصب (أرباجون) من سلالة أريق بوقا أخ هولكو حاكماً بدلاً من أبو سعيد، ثم فيما بعد تفككت الإيلخانية إلى عدة دويلات وممالك مستقلة، استمرت حتى قضى عليها تيمورلنك أواخر القرن الثامن الهجري.⁽⁴⁾

مايهم هنا هو أن هذه الدويلات انشغلت في مشاكلها الداخلية وصراعاتها ضد بعضها البعض ولم يكن لأيٍ منها نشاطاً توسعياً في مشرق البحر المتوسط، بل على العكس كلها كانت تنظر إلى السلطنة المملوكية على أنها دولة قوية، وكانت غالباً ما تطلب هذه الدول المساعدة من المماليك في صراعاتهم ضد بعضهم البعض.

(1) المقريزي: السلوك، 242/1/2. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص 312-313.

(2) البديسي: شرفنامه، 34/2. ابن خلدون: العبر، 1163/5.

(3) البديسي: شرفنامه، 35/2.

(4) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 360 وما بعد.

الفصل الثاني

العمليات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين في مشرق البحر المتوسط.

أولاً- العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد الظاهر بيبرس "658-677هـ / 1260-1276م".

ثانياً- العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد المنصور قلاوون "679-689هـ / 1280-1290م".

ثالثاً- العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد الأشرف خليل "689-693هـ / 1290-1293م".

رابعاً - العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد الناصر محمد بن قلاوون "سلطنته الثانية والثالثة 698-741هـ / 1299-1341م".

خامساً - العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد أسرة الناصر محمد بن قلاوون "741-784هـ / 1341-1382م".

أولاً- العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد الظاهر بيبرس "658-677هـ / 1260-1276م":

أ- المرحلة التمهيديّة أو مرحلة المناوشات:

أضحت سلطنة المماليك بعد معركة عين جالوت هي القوة الحامية للمسلمين في الشرق الإسلامي، وغدا بيبرس الزعيم الذي أنيط به حمل لواء الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية، فقد جاء في كتاب تقيده السلطنة من قبل الخليفة المستنصر بالله - بعد إعادة الخلافة العباسية - ما يلي: " ومما يجب أيضاً تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضى على الأمة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحن مبيضاً، وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء، فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً، وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً...."(1)

على هذا كان لزاماً على بيبرس محاربة الصليبيين الذين لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، والتصدي للمغول الذين يعتدون على الحدود الشرقية والشمالية للدولة، وفي سبيل هذا سعى إلى تأمين الموقف الداخلي والخارجي للدولة كما ذكر من قبل، ليبدأ في العمليات العسكرية.

بدأت العمليات العسكرية ضد الصليبيين في وقت مبكر من حكم السلطان الظاهر بيبرس على شكل غارات، ففي سنة 659هـ / 1261م عندما خرج السلطان إلى دمشق - مع الخليفة العباسي الذي جُهِز لاسترداد بغداد- قدمت عليه وهو في العوجا جنوب فلسطين وفود من الصليبيين يطلبون الصلح، وهم مندوبون عن يافا، وبيروت، وعكا، وكان السلطان قد أرسل عسكره للإغارة على نواحي بعلبك، فسأله الصليبيون هناك رجوع العسكر والإمساك إلى حين تدبير الحال، وقد تم الاتفاق وعقد الصلح بين السلطان الظاهر وحكام عكا، ويافا، وبيروت؛ بأن تستقر الأحوال كما كانت عليه أواخر أيام الملك الناصر،⁽²⁾ كما نص الصلح على إطلاق الأسرى الذين أسروا من

(1) المقرئزي: السلوك، 456/1. بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص40.

(2) أي الناصر يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب ودمشق الذي توفي في أسر هولوكو قتلاً سنة 658هـ/1260م بعد هزيمة المغول في عين جالوت، وليس الناصر صلاح الدين الأيوبي، فقد ورد عند ابن شافع قوله " وكتبت الهدن لهم على العادة في الأيام الناصرية بن العزيز ". انظر: حسن

الطرفين خلال المدة من وفاة الناصر إلى عقد هذه الهدنة،⁽¹⁾ وهنا لا بد من ذكر الأسباب التي دفعت ببيبرس لسحب عسكره من الإغارة على بعلبك، أولها ما حدث في بلاد الشام آنذاك من غلاء ونقص في المؤن والعلوفات التي تأتي بشكل رئيس من بلاد الفرنج، لذلك عندما عقدت الهدنة "أمنت السبل، وكثر الجلب"،⁽²⁾ وترددت التجار وسلكت السفار،⁽³⁾ وثانيها ما ذكر سالفاً من خطر المغيث عمر في الكرك، وحاجة السلطان الظاهر لتأمين الجبهة الداخلية أولاً.

ولكي يضع الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ ويختبر مدى صدق الصليبيين، شرع في جمع الأسرى ثم أنفذهم إلى بانياس تمهيداً لمبادلتهم بالأسرى المسلمين كما تم الاتفاق، إلا أن الصليبيون - باستثناء صاحب يافا - أخذوا يماطلون، لأن الداوية والإسبترارية لم تكن عندهم الرغبة بتسليم هؤلاء الأسرى الذين كانوا من الحرفيين المهرة، ولأن تسليمهم يعني خسارتهم للمرابح التي كانت هذه المؤسسات الصليبية تجنيها من خلال تسخيرهم،⁽⁴⁾ فبدأوا بالمطالبة بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضاً مطالبهم بأنكم "أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية من مرج عيون،⁽⁵⁾ وقايضتم صاحب تبنين⁽⁶⁾ بمواضع، والعوض الآن في يده والمقايضة في أيديكم، فكيف تطلبون العوض مرتين؟ وهذا لاسبيل إليه، فإن كنتم باقين على العهد فنحن لا نغيّر عهدنا، وإن كنتم تختارون غير ذلك فنحن بحمد الله لم يبق لنا عائق ولا عدو، ولا لنا شغل إلا الجهاد"،⁽⁷⁾ وعلى أثر اخفاق المفاوضات معهم قام السلطان بإعادة الأسرى إلى

المناقب، ص 98. ابن واصل: مفرج الكروب، 279/6-280. وكان للناصر هذا مع صاحب يافا معاهدة قديمة.

(1) أي الأسرى خلال سنة أو أكثر. للاستزادة انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 117-

118. المقرئزي: السلوك، 464/1. ابن واصل: مفرج الكروب، 322/6-323.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 118. ابن واصل: المصدر السالف، 323/6.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص 44.

(4) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 49.

(5) مكان على الساحل الشامي فيه أراضي للرعي. الحموي: معجم البلدان، مادة مرج. حالياً في الجنوب اللبناني بين صيدا وصور.

(6) بلدة في جبال بني سنقر المطلّة على بانياس بين دمشق وصور. الحموي: معجم البلدان، مادة تبوك.

(7) ابن واصل: مفرج الكروب، 323/6. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 119. النويري: نهاية الأرب، 30/47-48، 255.

دمشق واستعملهم في العمائر، كما قام بإنفاذ الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم وعلى العرب الزبيديين الذين كانوا يساعدهم؛ وقد نفذ هذا الأخير المهمة وعاد غانماً سالمًا،⁽¹⁾ وبذلك تكون قد بدأت العمليات العسكرية ولكن على شكل هجمات خفيفة.

الإغارة على أنطاكية:

من الملاحظ أنه في المفاوضات التي جرت في دمشق سنة 659هـ / 1261م بين بيبرس وأمراء الصليبيين لم تشمل هذه المفاوضات أملاك وأراضي بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، الذي تحالف مع المغول ضد المسلمين، و ارتكب أعمال عدوانية في شمال بلاد الشام،⁽²⁾ لذلك أرسل السلطان في منتصف 660هـ / 1262م الأمير شمس الدين سنقر الرومي على رأس قوة عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي شهدتها بسبب وجود البرلي فيها - ومعلوم ما هو أهمية حلب بالنسبة لأي عمل عسكري سيتم ضد أنطاكية-، وفي أثناء وجود الأمير سنقر الرومي في حلب -وبعد أن هدأت أحوالها- أمره السلطان بالتوجه إلى أنطاكية ومناوشتها، وقد انضم إليه في تنفيذ هذه المهمة كل من صاحب حماه وصاحب حمص؛ فنازلها، وأخذ الميناء، وأحرق المراكب، وحاصر مدينة السويدية التابعة لها وأخذها عنوة، ثم عاد ومعه أكثر من 300 أسير،⁽³⁾ ويضيف صاحب أعمال القبارصة أن قوات المماليك فرضت الحصار على أنطاكية، ولكنها أجبرت على فك الحصار والإسحاب بعد قدوم مساعدة مغولية كان قد طلبها ملك أرمينية الصغرى.⁽⁴⁾

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص120. شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص99.

المقريزي: السلوك، 464/1. النويري: نهاية الأرب، 48/30.

(2) الفصل الرابع يتناول الحديث عن أعمال بوهيمند والأرمن مع المغول.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 133. المقريزي: السلوك، 472/1. بيبرس الدوادار: زبدة

الفكرة، 53/9. ابن واصل: مفرج الكروب، 336/6. مع اختلاف في تقدير عدد الأسرى.

(4) الفارس الداوي الصوري (جيرارد أوف مونتريل): أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين،

دمشق، 2008م، ص49.

في سنة 661هـ/ 1263م تخلص السلطان بيبرس من معارضة المغيـث عمر، وقام باعتقاله وارساله إلى القاهرة؛ وضم الكرك إلى حكمه-كما ورد آنفاً- " ولما خلا بال السلطان من هم الملك المغيـث، توجه بكليته إلى الفرنج" (1) الذين شرعوا يـحيدون عن الحق لما رأوه من إحسان السلطان، وكثرت كتب النواب بالشكوى منهم، وأنهم اعتمدوا أمور توجب فسخ الهدنة، (2) فلما أتى السلطان إلى بلاد الشام في سنة 661هـ/ 1263م سار إلى وسط بلادهم، فورده رسول منهم يتزلف إلى السلطان ويهنئه بالسلامة، ويقول: " ما عرفنا بوصول السلطان "، فكتب إليهم: " من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه من كثرتها التي لعل ببيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سناكبها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان (3) من التتار، فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون، فأني شيء تعلمون...." (4).

وفي أثناء ذلك وصلت هدايا من أصحاب يافا وأرسوف، فأخذها السلطان تطميناً لقلوبهم، وأمر بالألا يتعرض أحد لهم حتى ينتهي من أمر المغيـث عمر، وفي اليوم الذي قبض فيه على المغيـث عمر؛ أمر بإحضار رسلهم وقال لهم: "ما تقولون؟"، فقالوا: "نتمسك بالهدنة التي بيننا"- وكانوا قبل ذلك يكاتبونه بفسخ الهدنة والندم عليها - (5) فرد عليهم: "لم ما كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التي لو جرت لكنت بحاراً"، ثم ذكر لهم أموراً توجب فسخ الهدنة منها: منعهم الجلب والميرة القاصدة بلاد الشام من عندهم، وعدم إطلاق الأسرى الذين كان من شروط الهدنة إطلاقهم، وبنائهم سور على رضى أرسوف؛ ومن شروط الهدنة أن لا يجددوا بناء، وأخيراً قيام ملك قبرص بأسر الرسل الذين سيرهم السلطان إلى سلاحقة الروم عبر البحر، وقال

(1) المقرئزي: السلوك، 483/1.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 361/6.

(3) موقان: هي إحدى أقسام أذربيجان وأهلها من التركمان ويطلق عليها أهلها موغان، ياقوت: معجم البلدان، مادة موقان.

(4) المقرئزي: السلوك 483/1 - 484، ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص 152. النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت: 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30، تح: محمد عبد الهادي شعيرة، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1990م، ص256.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، 362/6-363.

لهم: "إذا كان صاحب جزيرة قبرص من أهل ملتكم، يخرق حرمتكم ولا يفي بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم، فأبي حرمة تبقى لكم، وأي ذمام يوثق به منكم"، ثم أخبرهم أنهم لو أرادوا حقاً فك الأسرى من عند صاحب قبرص "قمتم جميعكم عليه، وأحطتم على كل ما يتعلق به وأصحابه، واسترحتم من هذه الفضيحة...". وأخيراً طالبهم بصدد والشقيف اللتان أخذهما الصليبيون من الملك الصالح إسماعيل⁽¹⁾ - وكانوا أخذوها منه على أن يساعده ضد السلطان نجم الدين أيوب حاكم مصر، لكنهم خذلوه؛ بل وقفوه إلى جانب لويس التاسع ضد مصر - قائلاً لهم "وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام، وطاعة ملكها ونصرتة والخروج في خدمته وإنفاق الأموال في نجدته، وقد صارت بحمد الله مملكة الشام وغيرها لي، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم، ولم يبق لي عدو أخافه، فردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك".⁽²⁾

وقد فوجئ الفرنج بهذا الطلب الأخير الخاص بصدد والشقيف، إلا أنهم حاولوا أن يكسبوا رضى السلطان فأكدوا له حرصهم على إبقاء الهدنة إذ قالوا: "نحن لا ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونحن نزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوي ونفك الأسرى ونستأنف الخدمة"، فرد عليهم: "كان هذا قبل خروجي من مصر، في هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر إلى هنا"، ثم أمر بطردهم.⁽³⁾

من الواضح أن السلطان بيبرس، بعد أن تكبد هذه النفقات الباهظة في إعداد هذا الجيش الجرار وخروجه، لن يسمح للفرصة أن تمر دون أن يوجه ضربة قوية لعدوه، وكانت عكا كما يبدو هدفه الأول، إلا أنها - ومن المؤكد أنه يعلم - كانت قوية، ولن يتمكن من أخذها بسهولة، ولكن

(1) تنازل الملك الصالح إسماعيل حاكم دمشق عن صدد والشقيف للصليبيين سنة 639هـ/1241م، فهاجمه الشيخ العز بن عبد السلام من على المنبر على فعلته هذه، فعزله عن الخطابة. ابن واصل: مفرج الكروب، دار الكتب المصرية، 1977م، 301/5-303. وتجب الإشارة إلى أنها من فتوح الناصر صلاح الدين سنة 584هـ/1188م. ابن الأثير: الكامل، 196/9، 199.

(2) وردت هذه المناقشة عند: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص152-156. المقريزي: السلوك، 482/1-487. ابن واصل: مفرج الكروب، 363/6-365. النويري: نهاية الأرب، 256/30-257.

(3) المصادر السابقة نفسها، مع الأجزاء والصفحات.

الهجوم المتكرر عليها عند كل فرصة مواتية، وتخريب البلاد حولها سوف يساهم في إضعافها تدريجياً، ويمهد لاحتلالها، وكان أول عمل قام به هو أن أصدر أوامره إلى الأمير علاء الدين طيبرس بهدم كنيسة الناصرة؛ وهي أكبر مواطن العبادات عندهم،⁽¹⁾ مؤملاً أن يخرج الفرنج من عكا للدفاع عنها، فيكر عليهم، فسار إليها وهدمها ولم يلق مقاومة تذكر منهم، إذ وجدوا أنه من الحكمة عدم خروجهم منها، ثم كلف الأمير بدر الدين الأيدمرى بالإغارة على عكا، فنفذ ضدها غارتين غنم منهما الكثير ثم عاد إلى مخيم السلطان قرب جبل الطور.⁽²⁾

لم يكتنف السلطان بهذه الغارة، بل خرج في جمادى الآخرة 661هـ/أيار 1363م بنفسه على رأس فريق من فرسانه إليها، وحاصرها من جهة البر، "فإذا الفرنج قد حفرُوا خندقاً حول تل الفضول، وجعلوا معائر في الطريق ووقفوا صفوفاً على التل، فلما أشرف السلطان عليهم رتب العسكر بنفسه، وشرع الجميع في ذكر الله وتهليله وتكبيره، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم، وللوقت رُدمت الخنادق بأيدي غلمان العساكر وبمن حضر من الفقراء والمجاهدين وصعد المسلمون فوق تل الفضول، وقد انهزم الفرنج إلى المدينة... وامتدت الأيدي إلى ما حول عكا من الأبراج الصليبية، فهُدمت، وحُرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها، وتقدم الجيش حتى أبواب عكا وقتلوا وأسروا عدة من الفرنج في ساعة واحدة، والسلطان قائم على رأس التل يعمل الرأي في أخذ المدينة والأمراء تحمل على الأبواب واحداً بعد واحد، ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج في الخنادق، وهلك منهم جماعة في الأبواب، وقد جرح أثناء ذلك نائب عكا، ثم عاد السلطان بعدما غنم وأسر،⁽³⁾ وقد اكتفى السلطان بما قام به تجاه عكا، ثم عاد إلى القاهرة في 17

(1) أبو الفداء: المختصر، 329/2. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص157. المقريزي: السلوك، 487/1.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 365/6. المقريزي: السلوك، 487/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص157.

(3) المقريزي: السلوك، 489/1. العييني (بدر الدين محمود، ت: 855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (عصر سلاطين المماليك)، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 2010م، 356/1. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص50. ببيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 58/9. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص159.

رجب 661هـ / 27 أيار 1263م بعد أن زار القدس، وقد عين قبل رحيله الأمير ناصر الدين القيمري نائباً للسلطنة بالفتوحات الساحلية.⁽¹⁾

بقي السلطان في القاهرة بقية سنة 661 هـ والسنة الذي يليه، وصرف وقته في معالجة الأمور الداخلية لمملكته، إلا أنه لم يهمل الاستعداد للحملات الحربية المقبلة ضد أعدائه، فاهتم بصنع الأسلحة على نطاق واسع وإعدادها، ومتابعة الجند لتدريبات وافية،⁽²⁾ أما في بلاد الشام فالمناوشات لم تتوقف بين الصليبيين والمسلمين.⁽³⁾

ب- مرحلة الحرب الشاملة وفتوحات الظاهر بيبرس:

كان هذا الشكل من الغارات السالفة الذكر مهماً جداً للحملات العسكرية الكبيرة التي استهدفت المدن والحصون المنيعة، وغالباً ما كانت هذه الغارات إما لقطع الإمدادات عن المنطقة التي تشكل هدفاً للحملة المقبلة، أو لاستنزاف قوتها، أو لجمع معلومات حولها، أو لشغل العدو عن الوجهة الحقيقية، وكثرت هذه الغارات - كما سيتبين - في العمليات العسكرية المملوكية.

شكل الصليبيون في الساحل الشامي سلسلة مترابطة امتدت من أنطاكية حتى يافا مقيمين في مجموعة من الحصون والقلاع الموزعة على هذا الساحل، لذا اقتضت الخطة العسكرية التي انتهجها السلطان بيبرس ضد الصليبيين - كما سيتضح من سير الأحداث - تفكيك هذا الترابط الصليبي الممتد من الشمال إلى الجنوب وحصره في كيانات وإمارات تفصل بينها مساحات من الأراضي الإسلامية المحررة، بشكل يجعل التعاون بين هذه الإمارات أمراً صعباً، ثم القضاء على كل كيان على حده - وسيتم توضيح ذلك بالخرائط - ، وقد وُفقَ في ذلك، وتمهيداً لهذا المشروع أراد أن يؤمن خطوط المواصلات بين مصر والشام بتحرير جنوب فلسطين من الصليبيين بعد أن حرر الكرك وتخلص من المغيث عمر.

1- حملة سنة 663هـ / 1265م إلى جنوب فلسطين:

(1) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 162. ابن واصل: مفرج الكروب، 371/6.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 170 وما بعد.

(3) المقرئزي: السلوك، 513/1. شافع بن علي: حسن المناقب، ص 157.

استهدفت الأعمال العسكرية في جنوب فلسطين أمران مهمان: الأول وقد سلف ذكره هو تأمين طرق المواصلات بين مصر والشام، والثاني هو تجريد عكا من ممتلكاتها إضعافاً لها وتمهيداً للقضاء عليها لأنه من الصعب التوجه إليها مباشرة.

• تحرير قيسارية، جمادى الأولى 663هـ / آذار 1265م:

كان أول هجوم حربي منظم وهادف قام به الظاهر بيبرس ضد معقل الصليبيين في الشام؛ هو ضد قيسارية سنة 663هـ / 1264م، فمعظم وقته في السنوات الأولى من حكمه قضاءه في تنظيم شؤون مملكته الناشئة، وكانت الأعمال الحربية التي قام بها حتى الآن إما دفاعاً أو غارات صغيرة تهدف إلى دراسة الموقف؛ وأرض المعركة المقبلة، لكي يقوم بتنظيم وتشكيل القوات بشكل مناسب.

إن خروج السلطان إلى بلاد الشام في هذه السنة لم يكن المقصود منه تحرير قيسارية؛ أو حتى العمل ضد الصليبيين، وإنما كان خروجه بسبب ما وصله من أخبار تفيد بأن المغول نزلوا على البيرة،⁽¹⁾ فأرسل على الفور إلى بلاد الشام لتجهيز أربعة آلاف فارس، في حين جهز ثمانية آلاف في مصر وأرسلهم إلى بلاد الشام على شكل دفعات، أما هو فقد خرج في مطلع شهر ربيع الآخر 663هـ / ، وأثناء وجوده في فلسطين في السادس والعشرين من هذا الشهر ورد عليه البريد من دمشق بأن المغول هربوا عندما شاهدوا العسكر قادماً عليهم صحبة الملك المنصور صاحب حماة والأمير إيفان، وأنهم تركوا المجانيق وغرّقوا مراكبهم، فكتب السلطان بذلك إلى القاهرة وغيرها، وكتب بعمارة ما خرب من البيرة، وحمل آلات القتال والأسلحة إليها من مصر والشام وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين، وأمر بتقديم المعونات إلى أهل البيرة.⁽²⁾

إذاً وصلت الأخبار إلى السلطان وهو في فلسطين، على رأس جيش جرار، فلم يشأ العودة دون أن يستفيد من هذه القوة التي جمعها على عجل، لذا قرر مهاجمة الصليبيين في المنطقة الساحلية، وبهذا تكون قد بدأت سلسلة الفتوحات انطلاقاً من قيسارية.

(1) يشير ابن عبد الظاهر بأن الصليبيين نصحو المغول بالهجوم في الربيع لأن خيل المسلمين تكون متفرقة في المراعي. انظر: الروض الزاهر، ص 222. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 1/473.

(2) المقريزي: السلوك، 1/523-524. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 221-227. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 107. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 29.

ولكن ما هو السبب الذي جعل السلطان الظاهر بيبرس يختار قيسارية دون غيرها؟.

السبب يأتي من أهمية مدينة قيسارية كأحد أهم معاقل الصليبيين في شرق البحر المتوسط، كما أن قيسارية هي المفتاح لمدينتي أرسوف ويافا في الجنوب، وهي أعظم قوة منهما، وبالتالي فالسيطرة على قيسارية يعني عزل هاتين المدينتين تماماً عن عكا، وتحريرهما بعد تحرير قيسارية سيبقى أمراً طبيعياً، وهذا ما يفسر توجه الظاهر بيبرس فور انتهائه من قيسارية إلى أرسوف وتحريرها بينما اكتفى بتهديد صاحب يافا بعد أن جعلها مشغولة الحركة كما سيتبين.

بدأ التحرك ضد قيسارية، وكانت السرية أحد أهم ميزات السلطان الظاهر عندما كان ينوي التحرك ضد الصليبيين، وقد ضمن له هذا نجاحاً منقطع النظير في معظم أعماله، فهو عندما أراد مهاجمة قيسارية " ما أعلم أحد مغزاه، ولا فهم أين مرامه ومرماه"،⁽¹⁾ فقطع بجيشه نهر العوجا، وحط رحاله قريباً من غابة أرسوف مُظهراً التلهي بالصيد، وبسرية تامة، وتحت هذا التظاهر استطاع أن يقترب من هدفه الحقيقي عندما ساق في قوة عسكرية صغيرة إلى أرسوف ثم قيسارية فكشف منطقتيها، وعاد إلى الدهليز، بعد أن جمع المعلومات، وأصبح بإمكانه أن يقوم بمحاصرتهما عن خبرة وإطلاع، وجلس مع الصناع يستحثهم، فعمل في يوم واحد أربع منجنيقات كبار سوى الصغار، وكتب إلى القلاع الإسلامية القريبة بطلب المجانيق والصناع والحجارين، وبتكامل تجهيزاته تحرك الجيش في منتصف ليلة الأربعاء 8 جمادى الأولى 663هـ/ شباط 1265م، إلى أن وصل قريب من عيون الأساور،⁽²⁾ وعند حلول الظلام أمر الجيش بلباس آلة الحرب والاستعداد في أقصى درجاته، وبسرية تامة تحرك قبيل الفجر إلى قيسارية فوافها على حين غفلة بكرة نهار يوم الخميس 9 جمادى الأولى 663هـ/ شباط 1265م، ويقال بأن حاميتها فوجئت بذلك، فضرب حولها حصاراً من جهاتها البرية، ونصب المجانيق عليها وشرع في مهاجمتها⁽³⁾.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 229.

(2) منزلة قرب قيمون والرملة من أعمال فلسطين

(3) المقريزي: السلوك، 1/526. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 229-230. العيني: عقد الجمان، 1/396. النويري: نهاية الأرب، 266/30. بيبرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص 53.

وليضمن السلطان عدم قيام الصليبيين في عكا بمساعدة قيسارية، قام بإنفاذ الأمير شهاب الدين القيمري على رأس قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلة الصليبيين فيها لمنعهم من تقديم أية مساعدة لقيسارية، فوصلوا بغاراتهم إلى أبوابها، وأسروا جماعة من الفرنج⁽¹⁾.

اعتمدت قيسارية في الدفاع عن نفسها بشكل أساسي على أسوار البلدة المبنية من الحجارة المربعة المصقولة، بالإضافة إلى الخندق الذي كان يحيط بالسور من الخارج الذي شكل خط دفاعي أول ضد الحملات والغارات⁽²⁾، مع ذلك تمكن المهاجمين من تجاوز خنادق قيسارية واعتلاء أسوارها، وأحرقت أبواب المدينة، واندفع المسلمون إلى داخلها في نفس يوم الخميس، فما كان من الصليبيين إلا أن هربوا إلى قلعتها وتحصنوا بداخلها، بنيت القلعة على رعن شكل السور الجنوبي للميناء³، وكانت هذه القلعة تعرف بالخضراء، تمتاز بالحصانة والمنعة فضلاً عن وقوعها على حافة البحر، فزحف السلطان بقواته وحاصرها، فنصب عليها المجانيق، واستخدم في هجومه عليها الدبابات ذات العجلات، والزحافات، وبلغت مرحلة القتال ذروتها عندما خاض السلطان عباب البحر على رأس كوكبة من فرسانه لشل حركتهم، وتحت وطأة الحصار والرمية الشديدة اضطر الصليبيون إلى الهرب من القلعة باتجاه عكا بحراً، فدخلتها القوات الإسلامية في يوم الخميس منتصف جمادى الأولى / آذار من السنة ذاتها، وأذن عليها للصلاة فجر يوم الجمعة، وبعد هذا الفتح المؤزر شرع السلطان بهدم المدينة والقلعة بعد أن قسم المدينة على الأمراء والحمالين والحلقة، وقد شارك بنفسه في عمليات الهدم⁽⁴⁾.

• تحرير أرسوف، رجب 663هـ / نيسان 1265م:

(1) المقرئزي: السلوك: 527/1.

(2) كريستوفر مارشال: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية؛ المائة الثانية، تر: سهيل زكار، لم ينشر بعد، ص 151، 155.

(3) كريستوفر مارشال: فن الحرب، ص 151.

(4) بيبس الدودار: زبدة الفكرة، 74/9. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 318/2. المقرئزي: السلوك،

527/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 230-233. العيني: عقد الجمان، 397/1.

النويري: نهاية الأرب، 267/30. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 107.

أعقب الاستيلاء على قيسارية مجموعة من الغارات والأعمال العسكرية السريعة لهدم أو تخريب بعض المواقع تمهيداً للاستيلاء على أرسوف؛ ولتضليل الصليبيين عن معرفة وجهة العمل العسكري المقبل، أرسل السلطان أثناء تهديم قيسارية تجريدة بقيادة الأميريين سنقر الرومي وسيف الدين المستعرب إلى قلعة للصليبيين عند الملوحة قرب دمشق حيث تمكنوا من تدميرها، كما أرسل إلى حيفا تجريدة ثانية في 26 جمادى الأولى / 16 آذار بقيادة كل من سنقر الألفي وسنقر السلاح دار وعز الدين الحموي، وعندما وصلوها هرب منها الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها، وفي أثناء ذلك انطلق السلطان بنفسه على رأس قوة عسكرية باتجاه عثليت، فأغار عليها، وأمر "بتشعيثها، وقطع أشجارها، فقطعت كلها، وخربت أبنيتها في يوم واحد"، ثم تركها إلى فرصة ثانية، وعاد إلى الدهليز بقيسارية، ليكمل هدمها، إذ أن تخريب قيسارية كان قائماً آنذاك ولم ينتهي.⁽¹⁾

ما أن انتهى السلطان الظاهر من تدمير قيسارية حتى تحرك بسرية تامة صوب أرسوف جنوباً، وذكر سالفاً أن السرية وإخفاء وجهة الحملة كانت من حيل السلطان الظاهر بيبرس في حروبه، حتى لا يأخذ العدو احتياطاته، فوصل أرسوف ونزلها في 1 جمادى الآخرة 663هـ / 21 آذار 1265م، وضرب حصاره عليها على امتداد جهاتها البرية، ونصب عليها المجانيق، وتجب الإشارة إلى أن أرسوف كانت ملكاً للاستبارية بحق الشراء، ذلك أنهم كانوا قد اشتروها من صاحبها السير باليان أوف إبليين، وكانت القلعة مزودة بشكل جيد بالجنود،⁽²⁾ استمر الحصار أربعين يوماً والسلطان ملازم العمل بيده في الحفر وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار، أسوة غيره من الناس،⁽³⁾ وقد "حضر العباد والزهاد والفقهاء إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم".⁽⁴⁾

ومع طول الحصار، واستمرار الضرب؛ انهارت المقاومة الصليبية في داخلها، وفي الساعة الرابعة من يوم 8 رجب / 26 نيسان أمر السلطان بالهجوم العام عليها، فسقطت المدينة في يده

(1) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، 74/9. المقرئزي: السلوك، 527/1-528. ابن عبد الظاهر: الروض

الزاهر، ص 234-235. العيني: عقد الجمان، 1/396.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 54.

(3) المقرئزي: السلوك، 58/1-529. بيبرس الدودار: التحفة الملوكية، ص 54.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 238.

في اليوم نفسه، فطلب الفرنج الذين تحصنوا داخل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم وأمر بجمع سيوفهم، كما أمر بنقل المصابين منهم إلى يافا.⁽¹⁾

أباح السلطان القلعة للناس، وكان فيها من الغلال والذخائر والمال الشيء الكثير، كما كان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض السلطان لشيء منه إلا ما اشتراه بماله، وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين، خلصوا تلك الساعة، وأخذت قيودهم قيد بها الفرنج، ثم قام السلطان بتقسيم أبراج أرسوف على الأمراء لهدمها، وأمر بأن يتولى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار، فهدمت بأيديهم⁽²⁾.

بتحرير قيسارية وأرسوف بقيت يافا بمفردها في الجنوب منعزلة عن شقيقاتها في الشمال، يفصل بينهم مناطق إسلامية محررة تجعل الاتصال بينهم صعباً جداً، هذا الأمر شل حركتها، لذا كتب السلطان لأمير يافا بعد تحرير قيسارية وأرسوف يهدده ويحذره قائلاً بأن يافا لم تعد " تحتمل الهزيمة، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها ثلثة مرتفعة، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا ألفاً من المقاتلة لابسة السلاح، وإذا هدموا جدار هدمنا أسوار، والسيف في يد الضارب، والجواد عنانه في قبضة الراكب، ولنا يد تقطع الأعناق، ويد تصل الأرزاق، ومن تحرش فعن تجربة، ومن أراد شيئاً من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة"⁽³⁾.

لم يُقدم السلطان على عمل عسكري في هذه الحملة ضد يافا لأنها لم تعد تشكل خطراً، وهي في هدنة مع السلطان الظاهر، ناهيك عن أن حاكمها - كما تقدم - هو الوحيد الذي التزم بالهدنة وقام بتسليم الأسرى.

(1) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 74/9-75. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 55. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 235 وما بعد. العيني: عقد الجمان، 397/1. شافع بن علي: حسن المناقب، ص 183-185.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 243. المقريزي: السلوك 530/1. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 107. بيبيرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص 54-55.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض، ص 243.

رحل السلطان من أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء 23 رجب 663 هـ/ إلى غزة، ومنها سار إلى مصر، وأثناء عودته إلى مصر أخذ معه الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب ليزين موكبه أثناء دخوله القاهرة وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة.⁽¹⁾

كانت هذه هي الأعمال الرئيسية التي قام بها السلطان الظاهر في الشام في هذا العام، وهي أعمال تمهيدية أمام الأعمال الكبرى التي قام بها في السنة التالية عندما عاد لمتابعة خطة الفتح والتحرير.

2- حملة سنة 664هـ/ 1266م إلى جنوب فلسطين:

كانت هذه الحملة استمراراً للحملة السابقة، فقد بقي ميدان العمل جنوب فلسطين، وكان الهدف هذه المرة هو صفد، إلا أن السلطان إستهل أعماله بمجموعة من الغارات على القلاع الصليبية، وتجب الإشارة إلى أنه غالباً ما كانت غارات الظاهر بيبرس جزء من حملة هجومية، فبالغارة على موقع حصين يضمن أن حاميته باتت مشغولة تماماً، وبالتالي يعني ذلك عزل موقع آخر سوف يجري حصاره وصرف الإنتباه عن الهدف الأساسي المقصود من الحملة، وفي هذه الحملة كانت الغارات قد تم توجيهها إلى جهات كثيرة إلى حد أن الصليبيون كانوا لا يستطيعون امتلاك فكرة واضحة إلى أين يمكن توجيه الحملة الرئيسية، وعلاوة على ذلك؛ كانت أي محاولة تالية للتفريغ عن صفد ربما بعيدة جداً عن التأثير والفعالية.⁽²⁾

• الغارات التي سبقت تحرير صفد:

خرج السلطان من مصر في 3 شعبان 664هـ/ 10 مايو 1266م متوجهاً إلى الشام لاستئناف أعمال التحرير، وعندما وصل إلى غزة قام بتجريد قوة عسكرية على رأسها الأمير أيدغدي العزيزي والأمير قلاوون إلى حمص لرد أي هجوم قد يشنه بوهيمند السادس - بغض

(1) المقرئزي: السلوك: 1/ 534. شافع بن علي: حسن المناقب، ص 197.

(2) كريستوفر مارشال: فن الحرب، ص 300.

النظر عن أن بوهيمند السادس كان قد هاجم حمص بمساعدة فرسان الداوية والاسبتارية في شهر صفر الماضي، إلا أنه ارتد عنها مهزوماً بعد أن تصدى له نائبها الأمير علم الدين سنجر الباشقردي⁽¹⁾، ثم توجه السلطان بنفسه إلى طرابلس للإغارة على بلادها الساحلية، وقد ركز السلطان بأعماله هذه على البلاد التي يمكن أن تقدم العون لصفد عندما يحاصرها، أما الأميران المذكوران فعندما وصلا إلى حمص، ارتدا إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغاروا على معقل قريب منه "فأقاموا عليه يوماً واحداً، وأخذوه وأسروا به جماعة"⁽²⁾، وكان بقلعة حلبا جماعة فهربوا وأخلوها، ودخل العسكر إليها وكسبوا منها شيئاً كثيراً، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلهم وأخذوا نساءهم⁽³⁾، ولما شاهد أهل قلعة عرقة⁽⁴⁾ ما جرى في حلبا تركوها ونجوا بأنفسهم، فأخربت العساكر القلعتين المذكورتين، ثم نزلوا على حصن يعرف بالقليعات، وهو حصن عظيم، فتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان، وهدم أيضاً⁽⁵⁾.

بالسيطرة على هذه القلاع الثلاث (حلبا، وعرقة، والقليعات) التي تؤلف خط دفاع محكم يحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي لإشرافها على المنفذ الذي يصل بين حمص وطرابلس، أصبح الطريق أمام القوات الإسلامية مفتوحاً إلى طرابلس، وضيق الخناق على طرابلس، وأخرجها من دائرة إمكانية تقديم المساعدة لصفد، بل أكثر من ذلك هذه الغارات المكثفة على إمارة طرابلس ربما جعلت حاكمها يفكر بأن الحملة هذه ضده، وربما استبعدت صفد أن تكون الحملة ضدها، هذا في الوقت الذي قام فيه السلطان بتجريد قوات جديدة للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول الساحل الشامي على النحو الآتي:

• جرد الأمير علاء الدين البندقداري والأمير عز الدين أوغان إلى صور،

فأغاروا على الصليبيين هناك، فغنموا وأسروا منهم.

(1) شافع بن علي: حسن المناقب، ص214. النويري: نهاية الأرب، 30/281-282. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص56.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص251. النويري: نهاية الأرب، 30/283.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص251. النويري: نهاية الأرب، 30/283.

(4) **عرقا أو عرقة، تقع شرق طرابلس** مسافة أربع فراسخ. ياقوت: معجم البلدان.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص251-252. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص116. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص56. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص30.

- بعث الأمير بدر الدين الأيدمري والأمير بدر الدين بيسري إلى جهة حصن القرين.
- أرسل الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة.
- وأرسل الأمير ناصر الدين القيمري إلى عثليت.
- سار السلطان بنفسه بقسم من الجيش للإغارة على صور ثم على عكا.
- وتوجه الأمير إيتامش إلى صيدا.

وبهذا يكون الهجوم قد شمل المنطقة من طرابلس شمالاً حتى أرسوف جنوباً، أعمل العسكر فيها الخراب والسلب، فكثرت الغنائم بأيديهم حتى لم يوجد من يشتري البقر والجاموس، والسلطان آنذاك نازل على عكا حتى وافته العساكر، تحرك باتجاه صفد في يوم الاثنين 8 رمضان 664 هـ/حزيران 1266م.⁽¹⁾

• تحرير صفد 18 شوال 664 هـ / 23 تموز 1266 م:

قبل أن يتحرك السلطان إلى صفد؛ وأثناء إقامته على عكا، أنفذ إلى صفد الأمير فخر الدين الشهابي في قوة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة، كما أرسل إلى قلعة الشقيف أميراً آخر تمكن من استمالة أهلها، لمنعهم من تقديم العون لصفد عند محاصرتها⁽²⁾، وبدأت الجيوش المغيرة تتجمع حول صفد، بعد أن أنفذت غاراتها الفعالة ضد الصليبيين، فقد شعثوا المناطق، وأضعفوها بشكل يحول دون تقديم المساعدة لصفد، تكامل حضور الجيش أمام صفد في 8 رمضان 664 هـ/ 13 حزيران 1266م، فشرع من فوره بضرب حصاره حولها، وكنت القلعة آنذاك تابعة للداوية وهي محصنة بشكل جيد،⁽³⁾

⁽¹⁾ المقريزي: السلوك، 545/1. النويري: نهاية الأرب، 384/30-385. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 253. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 337/2. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 63.

⁽²⁾ شافع بن علي: حسن المناقب، ص 223.

London.kings the knights hospitallers in Holly Land، 1931، p 260،

⁽³⁾ الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 63-64.

في الواقع كانت صفد قادرة على إعاقة وصول المسلمين إلى الأراضي الخصبة غربي الأردن، كما كانت قادرة على إعاقة تقدم القوات غرباً باتجاه المراكز الصليبية، وبالتالي فالسيطرة عليها لابد منه كضرورة استراتيجية أو كخطوة أولية في سبيل التقدم نحو المراكز الصليبية الواقعة إلى الغرب منها مثل عكا، وحيفا، وعثليت، وصور.

كان في صفد قلعة حصينة جداً، وقد وصفها العثماني قائلاً: " كان حصنها من أجل حصون الافرنج وأمنعها، وأشدها ضراً على المسلمين وأشنعها، وكان بها طائفة يُقال لها الداوية، نار موقدة وبليّة، عزيان فرسان، معدودون للغارات على البلدان، تصل غاراته من جهة دمشق إلى داريا ومايلها، ومن جهة بيت المقدس إلى كركمة⁽¹⁾ ونواحيها".⁽²⁾

كما قدم المؤرخ الصليبي المجهول صاحب رسالة (بناء قلعة صفد) وصفاً دقيقاً للقلعة، فبعد أن تحدث عن موقعها الاستراتيجي في منتصف الطريق بين دمشق وعكا في الجليل الأعلى، قال أنها كانت على قمة محاطة تماماً بالجبال، والهضاب، والجروف، والمنحدرات، وهذه تشكل دفاعات طبيعية للقلعة، ناهيك عن خط مزدوج من الأسوار، الأسوار الداخلية كان ارتفاعها حوالي 44م، مع سبعة أبراج ارتفعت فوق السور هذا بأربعة أمتار، والأسوار الخارجية كان ارتفاعها حوالي 22م، وبينهم خندق طوله حوالي 825م، وكان حجمها الكلي حوالي 330*170م، وشحنت القلعة بكل ماتحتاجه من آلات الحرب، وكان فيها 1700 مقاتل أيام السلم، يزدادون إلى 2200 في أوقات الحرب، ويذكر أنه من سمات الفخامة للقلعة أنه يمكن الدفاع عنها بقلة من العسكر، وأنه لا يمكن حصارها إلا بواسطة جيش كبير جداً.³

- أهمية صفد:

كونت قلعة صفد خط دفاع أمامي للصليبيين في الساحل، ومنعت المسلمين من التوغل إلى عكا، فقبل بنائها كانت غارات " المسلمين والبدو والخوارزمية والتركماني " تصل إلى عكا،⁽⁴⁾ لكن بناء

⁽¹⁾ ربما المقصود بها كفر كما.

⁽²⁾ العثماني (محمد بن عبد الرحمن الحسيني، ت: 780هـ): تاريخ صفد، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2009م، ص 127.

⁽³⁾ مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد، تر: سهيل زكار، منشور ضمن كتاب تاريخ صفد، ص 71-74.

⁽⁴⁾ مؤرخ صليبي مجهول: المصدر نفسه، ص 75.

القلعة - حوالي سنة 1243م- وضع حداً لهذه الغارات، ولم يعد بإمكان المسلمين عبور نهر الأردن بشكل مكشوف والتوغل بعيداً ما لم يكن معهم جيشاً كبيراً، وأصبح التحرك ما بين صفد وعكا يتم بحرية كبيرة.

كما شكلت هذه القلعة نقطة انطلاق للغارات وعمليات الانقضاض الصليبية ضد الأراضي الإسلامية المجاورة حتى دمشق، وبسبب بناء هذه القلعة لم يعد بإمكان المسلمين زراعة الأراضي المجاورة ولا الرعي فيها، " ونتيجة لذلك سوف تتحول أراضيه - أي أراضي حاكم دمشق - إلى الدمار والخراب، وسوف يكون أيضاً مرغماً على تحمل نفقات كبيرة، وأن يستخدم الجنود المأجورين من أجل الدفاع عن دمشق والمناطق المحيطة بها".⁽¹⁾

أضف إلى هذه الأضرار التي كانت تسببها قلعة صفد أن السلطان كان على يقين تام بأن تحرير عكا وإلى حد ما طرابلس أمراً غير ممكن في ذلك الوقت، والوسيلة الأفضل هي تجريدتهما من ممتلكاتهما وتدمير خطوطهما الدفاعية، ثم إعمال الغارات عليهما في سبيل اضعافهما حتى تحين فرصة الإنقضاض عليهما، فهو كان قد دخل إلى عكا قبيل معركة عين جالوت،⁽²⁾ وبالتالي يكون قد شاهد عن كثب الدفاعات الهائلة لمدينة عكا، وفي هذا السياق تأتي أهمية تحرير صفد وإزالة الستار الشرقي عن عكا، وأكثر من ذلك؛ جعل صفد نيابة مهمتها متابعة العمل ضد الصليبيين لكي تتفرغ دمشق لأمر المغول.

بالعودة للحصار، فقد وصلت المجانيق من دمشق إلى صفد مفككة في 12 رمضان / 26 حزيران، ولم تبدأ في الرمي حتى 26 رمضان / 1 تموز، بعد تجميعها ونصبها، وبتكامل وصول القوات شرع السلطان بشن هجومه الأول في ثاني يوم العيد 2 شوال / 7 تموز مستخدماً السهام والرماح المشتعلة بالنفط، هذا كان بعد قصف المدينة بالمجانيق، وقد وعد السلطان الحجارين أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة، وأمر حاشيته ألا يشتغلوا بخدمته، فكان بين الفريقين قتال عظيم، وقاد السلطان بنفسه هجوماً على خندق الباشورة (سد ترابي) إلا أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، فيما حقق فقط إحداث نقوب في أسوارها، ونتيجة لكثرة

(1) مؤرخ صليبي مجهول: بناء قلعة صفد، ص 66-68.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 46.

الجراح بين صفوف المقاتلين، نصب السلطان خيمة فيها حكماء وجراحية وأشربة ومآكل، فصار من يُجرح يُحضر إليها.

وفي 8 شوال / 13 تموز شن السلطان هجوماً ثانياً، فلم يتمكن من اقتحام المدينة، ولكنه نجح في إقامة جسر على باب القلعة، ثم كرر الهجوم في 11 شوال 16 تموز، وأخفق مرة أخرى، وتعود أسباب هذا الفشل المتكرر إلى منعة القلعة وقوتها، فقد جددت استحكاماتها من قبل فرسان الداوية قبل خمسة وعشرين سنة، كما أن الحامية فيها كانت وفيرة العدد.

لم يزل السلطان مصرّاً على اقتحام المدينة على الرغم من هذه الصعاب، فقام في 14 شوال / 19 تموز بهجوم آخر اشتد القتال فيه واستمر طوال الليل حتى صباح 15 شوال فتمكن من الاستيلاء على التحصينات الأولية ورفع أعلامه عليها، ودحر الصليبيين الذين اندفعوا إلى القلعة وتحصنوا بها،⁽¹⁾ واستمر السلطان يناصبهم الحصار ويناهزهم القتال، ثم عمد إلى حيلة توفر عليه عناء الحصار، إذ أعلن بأنه سيمنح العفو لكل السريان⁽²⁾ الموجودين في الداخل، وكانت هذه خطة ذكية من السلطان إذ أحدث انشقاقاً بينهم؛ وبدأت الاتهامات بالخيانة تُكال من الصليبيين للسريان، وأمام شدة الهجوم وضياح خطوط الدفاع الأولية؛ وفقدانهم الأمل بأي مساعدة، ناهيك عن الخلاف الذي دب بينهم، قرروا الاستسلام وطلب الأمان،⁽³⁾ فاشتراط عليهم " أن لا يستصحبوا سلاحاً ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيات، ولا يتلفوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم، وأن يُفتشوا عند خروجهم، فإن وُجد مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض العهد".⁽⁴⁾

واستمرت المفاوضات حتى تم الاتفاق على هذه الشروط في يوم الجمعة 18 شوال / 23 تموز، فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب، وطلعت الصناجق - الأعلام - وكانت ساعة

(1) المقرئزي: السلوك، 547-546/1. النويري: نهاية الأرب، 287-285/30. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 259-258.

(2) والمقصود بالسريان هنا أي المسيحيين الشرقيين.

(3) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 64.

(4) المقرئزي: السلوك، 547/1. العثماني: تاريخ صغد، ص 128. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 261-260. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 491-490/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 337/2. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 57.

مشهودة ووقف السلطان راكباً على باب صفد ونزل الفرنج أولاً فأولاً، وصاروا جميعاً في يديه، وفي أثناء تفتيشهم وجد بأنهم قد نقضوا شروطه، إذ اصطحبوا معهم أسلحة وبعض أسرى من المسلمين على أنهم نصارى، فأمر السلطان بضرب رقابهم، فضربت على تلة قريبة من صفد، وكانزا زهاء ألفي فارس.⁽¹⁾

ولم يبق من الفرنج إلا نفرين، أحدهما الرسول، فإنه اختار أن يقيم عند السلطان ويسلم، فأسلم وأقطع السلطان اقطاعاً وقربه، والآخر ترك حتى يخبر الفرنج بما شاهده.⁽²⁾

في حين تذكر بعض المصادر في هذا الصدد رواية تدل على أن جنود حامية صفد لم تخل بالشروط، وأن السلطان لم يكن مرتبط معهم شخصياً بعهد أمان، فهو لم يحلف لأهل صفد، وإنما عندما جاء الوفد الصليبي أجلس مكانه الأمير كرمون آغا التتري، وأوقف الأمرء في خدمته، وحلف لهم كرمون وهم يظنونه السلطان، أما السلطان فقد فعل هذا لأن في نيته الانتقام "لما أنكوا ولما فعلوا بالمسلمين"⁽³⁾، لذا فلم يشأ أن يتقيد بيمين يحلفه.

ويذكر الفارس الداوي - وهو شاهد عيان - رواية قريبة جداً من الرواية الإسلامية، فهو يقول: بأن الرسول الصليبي إلى السلطان، واسمه ليوكاسالير Leocasalier، كان على علم بالخدعة؛ لكنه لم يجرأ على البوح بها، فهو يعرف السلطان جيداً، لذلك فإن السلطان أطلعه على الحيلة؛ بأنه سوف يرسل بدلاً عنه أميراً يشبهه يحلف لهم على الأمان "ثم يجعلهم بعد ذلك طعمة لسيفه، وإذا ما رغب ليو بالتعاون معه وتسهيل هذا العمل فإن السلطان سوف يعطيه جميع الأشياء الممتازة، لكنه إذا رفض فهو عندما سيستولي على القلعة سوف يقتله، ولكن بشكل شنيع خاص".

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 216-262. العثماني: تاريخ صفد، ص 128. ابن أبيك الدودار: الدرّة الزكية، ص 117-118. النويري، نهاية الأرب، 3/289. العيني، عقد الجمان، 422/1.

(2) المقرئزي: السلوك، 1/548. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 262.

(3) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 117-118. اليونيني: نيل مرآة الزمان، 2/338. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 492.

ويقول صاحب مرآة الجنان أنه أخذها خديعة. اليافعي (عبد الله بن أسعد اليميني المكي، ت 768هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1970م، ج 4، ص 162.

وأمام التهديد وافق الرسول، وفي اليوم التالي ذهب الأمير على أنه السلطان إلى أمام القلعة وحلف لهم، وظنوه أنه السلطان، وشعروا بالثقة، وفي اليوم التالي عندما بدأوا بالخروج اقتيدوا إلى خارج صفد، إلى رابية صغيرة وهناك جرى اعدامهم بقطع رؤوسهم. أما الراهب ليو فإنه بقي عند السلطان وأسلم.⁽¹⁾

وعندما علم أهل عكا بقتل هذا العدد في صفد، سيروا إلى السلطان يطلبون جثث القتلى قائلين له: "تصدّق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة بهم"، فترك السلطان رسولهم في خيمته، ثم أخذ كوكبة من الفرسان وساق في أول الليل إلى عكا فما أصبح إلا وهو على بابها، فلما فتح الصليبيون الباب وخرجوا لقضاء حوائجهم ساق عليهم فقتل منهم عدداً كبيراً وعاد من فوره إلى صفد، فلما دخل إلى خيمته طلب رسول عكا وأعاد إليه الرسالة قائلاً له: "عد إليهم فقد عملنا عندهم شهداء وكفيناكم مؤونة النقل وكلفته".⁽²⁾

اتخذ السلطان الظاهر بيبرس من مدينة صفد بعد تحريرها مركز لنيابة جديدة من نيابات السلطنة في الشام - وكانت قبل ذلك إحدى معازل هيئة الفرسان الداوية - كما أمر بعماريتها وتحصينها ونقل الذخائر والأسلحة إليها، وأقطع بلدها لمن رتبته لحفظها من الأجناد، وقدم عليها الأمير علاء الدين كندغدي، وولى في قلعتها الأمير مجد الدين الطوري، وصير نيابته في بلدها إلى الأمير عز الدين أيبك العلاني، واستدعى السلطان الرجال لملاقاته بصفد، كما رتب فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه⁽³⁾.

• التحركات بعد تحرير صفد:

بتحرير صفد زالت القوة الرئيسية للصليبيين في العمق الفلسطيني، وبات وجودهم وجودهم محصور على الساحل في شريط أضيق من قبل، كما أن هذا العمل أتاح للظاهر التحرك بحرية أكبر في الداخل (غربي نهر الأردن)، فقام بتحرير طبرية هونين وتبنين واللد والرملة، وعيّن على

(1) الفارس الداوي: أعمال القبالرصة، ص 64-66.

(2) ابن أيبك الدودار: الدرّة الذكيّة، ص 118. العثماني: تاريخ صفد، ص 128. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، 493.

(3) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ص 105. المقريزي: السلوك، 548/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 343/2. العثماني: تاريخ صفد، ص 130.

هذه النواحي عمالاً.⁽¹⁾ ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى دمشق في 27 شوال 664هـ/ 1 آب 1266م وأمر الجيش بعدم دخولها لأنه سيتوجه مباشرة إلى مملكة أرمينية الصغرى لتدميرها.⁽²⁾

في هذه الأثناء قرر السلطان مهاجمة أرمينية الصغرى بسبب مواقفها العدائية من السلطنة المملوكية، منتهزاً فرصة انشغال حلفائها المغول في حروب عديدة، لذا جرّد جيشاً بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون والملك الأيوبي المنصور - صاحب حماة- ضد أرمينية، وجال الجنود أرمينية مدمرين ومخربين كثيراً من القرى، وأسرين عدداً من الناس، وكان ملك أرمينية آنذاك غائباً في زيارة للتتار، تاركاً في أرمينية ابنه طوروس وليون، فقتل طوروس وأسر ليون مع كثير من الناس، وعندما وصلت أخبار انتصاراتهم خرج السلطان إلى أفاميا لملاقاتهم، وعاد على رأسهم إلى دمشق.⁽³⁾

من دمشق عاد إلى مصر عند طريق الكرك، وأثناء الصيد في عودته كسرت فخذة عندما وقع عن فرسه، فحمل إلى القاهرة، وتعافى بعد مدة⁽⁴⁾.

3-المهادنات مع القوى الصليبية سنة 665هـ/1266-1267م:

لم يرق السلطان في هذه السنة بأي عمل هجومي كاسح، فكان جل عمله استغلال نصره العسكري السابق سياسياً، بالإضافة إلى إعادة بناء صفد، وإكمال تهديم المعقل التي أخذها من الفرنج في منطقة الساحل، ليمنعهم من الاستفادة منها فيما لو استعادوا سيطرتهم عليها، فأما صفد فكان لا بد من إعادة بنائها لأنها كانت في داخل الشام، وتسيطر على أراضي الخليل، فإذا حصنت ووضع فيها حامية قوية فسوف تحمي الجانب الجنوبي الشرقي من أراضي السلطان في الشام من هجمات الصليبيين. على هذا خرج السلطان من مصر على رأس قسم من جيشه في جمادى الآخرة سنة 665هـ/ شباط 1267م، وكما ذكرنا كان الهدف الرئيس إعمار صفد

(1) المقرئزي: السلوك، 1/550.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص269. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 118. بيبيرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص58.

(3) سيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الحملة في الفصل الثاني.

(4) المقرئزي: السلوك، 1/555. النويري: نهاية الأرب، 30/133.

وقلعتها⁽¹⁾، وكان قبل ذلك قد أمر ببناء قلعة قاقون قرب الرملة لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد كملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي وصل فيه إلى بلاد الشام جمادى الآخرة 665هـ/ آذار 1267م، وحول كنيستها إلى جامع، وعمرت بمن قطنها⁽²⁾.

وعندما وصل السلطان إلى غزة في أثناء مسيره ورد عليه رسل الصليبيين ومعهم الهدايا وجماعة من أسرى المسلمين، هديةً له تعبيراً عن حسن نواياهم، راغبين في كسب وده، وموادعته، فكسا الأسرى وأطلق سراحهم وأحسن للرسول،⁽³⁾ وفي صدف عُقدت سلسلة من المعاهدات والهدن مع البيوت الصليبية المختلفة، لكن قبل هذه المعاهدات قام السلطان بغارات خاطفة على عكا رداً على غاراتهم على الشقيف ومشغرا، أول غارة كانت في 2 نيسان 1267م، حيث وصل متتكرراً وهو يرفع رايات الداوية والاسبتارية فقتل أكثر من خمسمائة صليبي وأسر وخرب ورجع إلى صدف. وفي 16 نيسان ظهر للمرة الثانية أمام عكا، ومعه حوالي ثلاثة آلاف فارس نشرهم في سهل عكا، وكان قبل ذلك بيوم قد خرج الصليبيون للإغارة على بعض قرى المسلمين، حول القرين، وفي أثناء عودتهم رأهم المسلمين فانقضوا عليهم وقتلوا حوالي 400 فارس منهم، بالإضافة إلى عدد من الأسرى، ثم عاد السلطان من صدف إلى عكا مرة ثالثة، فدمر الطواحين (طاحون للاسبتار) وأتلف البساتين والحدائق والكروم التي كانت حول عكا وعاد⁽⁴⁾.

هذه الأعمال، أرجفت الصليبيين، فورد عليه أثناء إقامته في صدف رسل من مختلف القوى الصليبية في بلاد الشام تلتمس الموادة والهدنة لخشيتهم بأن يقوم بالانتفاض على معاقلهم بعد أن أفزعتهم تلك الانتصارات التي حققها في الأعوام السابقة.

وفي صدف عُقدت المعاهدات التالية:

-
- (1) ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص280. النويري: نهاية الأرب، 30، 137.
- (2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص275. المقرئزي: السلوك، 557/1. بيبيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص33.
- (3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص280.
- (4) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص67 - 70. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص281-282. العيني: عقد الجمان، 8/2-9.

- عقد السلطان معاهدة مع رسل ملكة بيروت "إيزابيلا دي ابلين" وكان قد طردهم قبل عام؛ لأن أخوها كان قد غدر بتجار مسلمين يتاجرون مع قبرص، فأسرههم عندما لجأوا إلى ميناء بيروت، ولم ينتظم الصلح حتى تم التعهد بإطلاق التجار ورد أموالهم ومراكبهم.
- عقد معاهدة مع رسل أمير صور "فيليب دي مونتفرت"، بعد أن اعترف فيها أمير صور بحق السلطان في تبنين وهونين، كما تعهد بدفع غرامة قدرها 15 ألف دينار، تعويضاً عن غلام للسلطان كانوا قد قتلوه، كما قاموا بإطلاق أسرى مسلمين مغاربة كانوا لديهم، ومدة الهدنة عشر سنوات.
- جدد الهدنة مع رسل الملك هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى؛ لكنه لم يطلق سراح ولده ليون المأسور في القاهرة.
- عقد الصلح مع الاسبتارية في حصني الأكراد والمرقب، وأبطل بموجبه ما كان يأخذه من الاسبتارية من قطيعة عن بلاد الدعوة - أي الدعوة الاسماعيلية - وحماه وشيزر وأفامية وأبو قبيس، ومدة الهدنة أحد عشر سنة تقريباً، وفسخ الهدنة حق للسلطان متى شاء.
- اتفق مع الصليبيين على تقديم نصف صيدا للسلطان وهم الشقيف.⁽¹⁾

وبفراغ السلطان من تعمير صدد وعقد هذه المهادنات عاد أدراجه إلى القاهرة في أوائل سنة 666هـ/ 1268م.

في الحقيقة إن رحلة السلطان هذه إلى بلاد الشام تسفر عن إستراتيجية ذكية وخطة محكمة قد وضعها السلطان الظاهر تهدف إلى خرق صفوف الصليبيين بعد أن دب الرعب بينهم وأظهر لهم مدى قوته، وبهذه المهادنات يكون قد ربط المعازل التي لا يفكر بالاستيلاء عليها بمعاهدات تحول بينها وبين تقديم المساعدات للمعازل التي تنصدر قائمة مخططاته العسكرية، وأكبر دليل على هذا أنه رفض تجديد المعاهدة مع يافا عندما قدم عليه رسل أمير يافا الجديد وهو في صدد،

⁽¹⁾ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 281-384. العيني: عقد الجمان، 8/2-9. المقرئزي: السلوك، 559/1.

واحتج على أميرها وقال له: "الذي كان معي صلحاً قد مات"⁽¹⁾، لأن يافا كما سيتبين كانت هي المعقل المستهدف بالدرجة الأولى، وخاصة بعد أن أصبحت معقلاً وحيداً يحيط به المعازل الإسلامية من كل جانب، بالإضافة إلى أن السلطان لم يُلزم نفسه كثيراً - كما سيتبين لاحقاً - بهذه المعاهدات عندما يكون نقضها مفيداً وتساهم في تحرير البلاد، وفي الحقيقة هم السباقون في هذا المجال، فهم لم يراعوا العهود في مواقف كثيرة، فلا أمان لمن يخفر الأمان.

4- حملة سنة 666هـ / 1268م:

• تحرير يافا، جمادى الآخرة 666هـ / آذار 1268م:

حتى سنة 645هـ/1247م كانت عسقلان هي آخر نقطة للصليبيين جنوباً، لكن حدث في هذه السنة أن حررت عسقلان،⁽²⁾ وغدت منذ ذلك الوقت يافا هي الموقع الأكثر حصانة للصليبيين جنوباً وهي آخر نقطة لهم، كما كانت قاعدة مهمة من أجل الإغارة على الأراضي الإسلامية.⁽³⁾

لكن بتحرير قيسارية وأرسوف قبل ثلاثة أعوام أصبحت يافا معزولة عن باقي الصليبيين والخطر يتهددها من كافة الجهات، وقد عبر البابا أوربان الرابع عن قلقه على مستقبل يافا ضمن المحيط الإسلامي، فخصص لها جزء كبير من الضريبة السنوية التي كان يتم جمعها في أوروبا من أجل الدفاع عن الشرق اللاتيني، وأمر بتقوية دفاعاتها وترميم قلعتها وجعلها جاهزة للدفاع عن نفسها.⁽⁴⁾

كان الهدف الرئيس لهذه الحملة هو تحرير أنطاكية، لكن على ما يبدو أن السلطان أراد أن يُنهي أعماله في جنوب فلسطين قبل أن ينقل المعركة إلى شمال بلاد الشام، ناهيك عن أن أهل يافا كانوا "يحملون الميرة إلى عكا، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا، وأقاموا في يافا حانة، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسباباً ليست في هدنة"؛ لذلك عزم السلطان على تحريرها، لذا عندما خرج من القاهرة أرسل إلى نائب دمشق يأمره بتجهيز الجيش الشامي والخروج إلى قلعة الشقيف ومحاصرتها ليشغلها عن تقديم المساعدة ليافا، ثم توجه هو إلى العوجا لمهاجمة

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 293.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 5/ 378. المقرئزي: السلوك، 1/ 328.

(3) كريستوفر ماريشال: فن الحرب، ص 210.

(4) كريستوفر ماريشال: فن الحرب، ص 120.

مدينة يافا، وفي أثناء وجوده هناك وفد عليه رسل صاحب يافا يطلبون الهدنة، فأمر السلطان باعتقالهم، ثم شرع من فوره بحصارها، وافتتحها عنوة في نفس اليوم 20 جمادى الآخرة / 7 آذار فالتجأ أهلها إلى القلعة، فحاصرها السلطان إلى أن تسلمها صلحاً في اليوم المذكور، ودخل السلطان إلى المدينة بعد حصار دام اثنتي عشرة ساعة، وسمح لأهلها بالخروج وأعطاهم الأمان، وعرضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، وركبوا البحر إلى عكا، ثم شرع في هدم المدينة، وجمع بعد ذلك الأخشاب والرخام وأرسلها بحراً إلى القاهرة لبناء الجامع الظاهري.⁽¹⁾

• تحرير الشقيف:

كانت الشقيق (شقيف أرنون) عائدة للداوية⁽²⁾، وهي من أحسن المعامل وأحسنها⁽³⁾، كانت القلعة قائمة فوق موقع مثير مرتفع فوق نهر الليطاني وتتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع- حالياً جنوب لبنان-، وهذا الموقع محمي من الشرق بجرف جبلي شديد الانحدار ينزل إلى الليطاني مسافة تقدر ب300م، أما على الجانب الغربي فالمنحدرات أكثر لطفاً - تتحدر إلى قرية عرمون- لذلك قويت الدفاعات من هذه الجهة، ومن الشمال القلعة محمية بحوض(خندق مائي) واسع منحوت بالصخر، بالإضافة إلى هذه القلعة كانت هناك قلعة صغيرة أسفل منها تتصل معهما بطريق صخري ضيق من جهة الشرق.⁽⁴⁾

وكما ذكر سالفاً، فالسلطان لما خرج من القاهرة أرسل إلى العسكر الشامي بالتوجه إلى الشقيف، فنقلوا المجانيق إليها، ثم أرسل إليها عسكر مصري بقيادة الأمير بجكا العريزي لمضايقتها، ولما فرغ السلطان من هدم يافا قصد الشقيف، ونزل عليها في 19 رجب 666هـ / 4 نيسان 1268م بعد أن

(1) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص503-504. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص292-293، المقرئزي: السلوك، 1/564 - 565. ابن أيك الدوادار: كنز الدرر، ص124. العيني: عقد الجمان، 2/19. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، 76. ببيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 61-62. أبو الفداء: المختصر، 2/334. البرزالي: المقتفي، 1/174.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 76.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص295.

(4) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، تر: سهيل زكار، مطبوع ولكنه لم ينشر بعد، ص 66. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، تر: محمد وليد الجلال، مركز الدراسات العسكرية، دمشق 1982م، ص 80.

قدم عليه للمشاركة في الجهاد عدد كبير من الفقهاء والفقراء، ورمى القلعة بالمجانيق ثاني يوم وصوله⁽¹⁾.

كان أهل الشقيف قد أرسلوا إلى عكا بالمساعدة عندما نزل عليهم العسكر، فسير أهل عكا جوابهم إلى الشقيف، ولحسن حظ السلطان وقع الرسول بين يديه، وقرئت الرسالة، فكان مضمونها يحضهم على الصمود، وأن المسلمين غير قادرين على أخذها، فجدوا في أمرهم. فجلب السلطان أحد التراجمة وأمره أن يكتب بلغتهم على لسان أهل عكا إلى مقدم الشقيف يحذره من الوزير المقيم عنده، وأرسل في الوقت ذاته كتاب إلى الوزير نفسه يحذره من مقدم الشقيف، فدب الخلاف بينهم، وأخذت الفتنة تستعر في القلعة، في الوقت الذي شدد فيه السلطان الحصار عليها مستخدماً ستاً وعشرين منجنيقاً لقصفها، وكان للمدينة قلعتان، فأخلى الفرنج إحداهما وأحرقوها، فسيطر عليها السلطان، وشدد حصاره على الثانية، ونتيجة لذلك "سألوا الأمان على نفوسهم، وأنهم يأخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال، فأجاب السلطان إلى ذلك".⁽²⁾

دخل السلطان القلعة 29 رجب / 15 نيسان من السنة ذاتها، وأخرج النساء والأطفال إلى صور وسيّر معهم من يحفظهم، في حين قيّد الرجال وسلمهم للعسكر، ثم شرع في هدمها، إلا أنه عاد وولى الأمير سيف الدين بلبان الزيني عمارتها فيما بعد نظراً لأهميتها العسكرية.⁽³⁾

فتح الشقيف هذا آثار حفيظة ملكة بيروت، فخافت من المصير ذاته، لذا أرسلت إلى السلطان تفاوضه على استمرار الهدنة، ولكي تظهر مصداقيتهما، فقد توقفت عن المماطلة في تسليم التجار وأموالهم، وأعادتهم إلى السلطان، عندئذ أقر السلطان استمرار الهدنة.⁽¹⁾

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص296. ابن أبيك الدوادر: الدرّة الزكية، ص125. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، 506/1 وفيه يذكر أن السلطان نزل عليها في 18 رجب. العيني: عقد الجمان، 20/2.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص295-298. المقرئزي: السلوك، 565-566/1. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص125-126. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص506-507. العيني: عقد الجمان، 20/2-21.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص298-299. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص126. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 376/2-377. البرزالي: المقتفي، 1/175. ببيرس الدوادر: التحفة الملوكية، ص62. ببيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص36.

• تحرير أنطاكية، رمضان 666هـ/ أيار 1268م:

بتحرير يافا أصبحت جنوب بلاد الشام منطقة آمنة، وأصبح بإمكان الجيوش الإسلامية أن تتحرك بحرية بين مصر والشام، ويمكن عد تأمين الطرق بين مصر والشام من أهم أهداف العمليات العسكرية في جنوب بلاد الشام، ووفقَ الخطة التي سار عليها الظاهر بيبرس؛ وهي تجزئة الامتداد الصليبي إلى كيانات متباعدة تفصل بينها أراضي إسلامية محررة، توجه السلطان إلى أنطاكية لتحريرها، والسبب الأهم في التوجه إلى أنطاكية هو السبب الاقتصادي، ففي العام المنصرم جرد السلطان حملة إلى أرمينية الصغرى بعد أن رفضت طلبه بفتح معابر تجارية مع المماليك، فجرد ضدها حملة خربت مدنها،⁽²⁾ لكنها لم تحقق مكاسب تجارية، ولما فشل في الاستيلاء على ميناء إياس، سيّر هذه الحملة للسيطرة على أنطاكية لكي يستخدم ميناء السويدية كبديل عن ميناء إياس.

كانت أنطاكية مع طرابلس تحكمان من قبل بوهيمند السادس، وكان هذا الأخير يقيم آنذاك في طرابلس، وقد استخدم السلطان بيبرس التكتيك نفسه الذي استخدمه في تحرير صغد وقيسارية، إذ عمد إلى القيام بسلسلة من الغارات لاستنزاف قوى العدو وتدميرها ولتضليلهم عن وجهته الحقيقية،⁽³⁾ فبدأ بغارة ثقيلة ضد طرابلس، وخيم بالقرب منها، ثم هاجم النواحي المحيطة بها، فكانت غارة مدمرة، إذ قطع الجنود الأشجار وأحرقوا البيوت والكنائس، واستولوا على برج كان قد عصي فيه جماعة من الصليبيين، فضرب رقابهم، وأسر عدداً منهم وغنم غنائم كثيرة، وكل ذلك وأمير طرابلس قابع في مدينته فزعاً لا يحرك ساكناً.⁽⁴⁾ وبلا شك؛ هذه الغارة صرفت بوهيمند السادس حاكم أنطاكية أيضاً عن إبداء أي اهتمام بأحوال انطاكية ومقدراتها الدفاعية.⁽⁵⁾

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 299.

(2) انظر الفصل الرابع، ص

(3) شافع بن علي: حسن المناقب، ص 260-261.

(4) المقريزي: السلوك، 566/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 304-305. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، 507-508. البرزالي: المقتفي، 1/ 175. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 62. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 36. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 2/ 382. سمباط: تاريخ سمباط، 36/ 346.

(5) كريستوفر ماريشال: فن الحرب، ص 301.

ثم تحرك السلطان باتجاه حصن الأكراد، وكانت قد وصلت أنباء ما حل بالصليبيين في تلك الغارات إلى مسامح حاكمهما، فخشي أن يصيبه ما أصاب سابقه، فاستبق الأحداث وأرسل يعرض خدماته على السلطان، وأطلق سراح ثلاثمائة أسير مسلم كانوا في قبضته وذلك تعبيراً عن تودده، فلم يتعرض السلطان لبلاده.⁽¹⁾

سار السلطان إلى حمص، وفيها أبطل الخمرور والمنكرات، ثم تابع سيره إلى حماه ومنها إلى أفاميا، دون أن يطلع أحداً على وجهة سيره، وأثناء وجوده في حماه قام بتقسيم الجيش إلى ثلاث فرق لاجتياح المدينة على الشكل التالي:

- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار، ووجهها إلى ميناء أنطاكية (السويدية)، ومهمة هذه الفرقة إعاقة المساعدات الصليبية التي قد ترسل عن طريق البحر، وهو إجراء مهم لأن الأسطول المصري لا يمكنه الوصول إلى أنطاكية.
- فرقة بقيادة الأمير عز الدين أوغان وجهتها الدريساك، وهذه من أجل سد الممرات بين أرمينية وأنطاكية ومنع أي مساعدة تقدم من أرمينية لأنطاكية أثناء الحصار.
- فرقة ثالثة بقيادة السلطان نفسه، وقد نزل بها أولاً على أفامية، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها محاصراً في الأول من شهر رمضان سنة 666هـ/ 15 أيار 1268م، ثم وافته بعد ذلك الفرقتين السابقتين بعدما أحدثته من خراب وتدمير وقتل وأسر في منطقتي السويدية والدريساك.⁽²⁾ بلا شك عزلت هذه الغارات أنطاكية بالكامل.

كانت أنطاكية آنذاك "مدينة عظيمة مشهورة، مسافة سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً"⁽³⁾، أما قلعتها فلم تكن بتلك الحصانة، بل كانت متواضعة، فقد بنيت - وهي بالأصل بيزنطية - على على نتوء جبلي على جبل يسمى جبل

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 142/7. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص306. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص508. المقريزي: السلوك 566/1 - 567. البرزالي: المقتفي، 1/176. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 125.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص307. العيني: عقد الجمان، 21/2-22. المقريزي: السلوك، 567/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 382/2. النويري: نهاية الأرب، 30، ص305-306.

(3) العيني: عقد الجمان، 21/2.

حبيب النجار، وكانت مشرفة على المدينة البعيدة في الأسفل، وهي قائمة عند ذروة أسوار المدينة،⁽¹⁾ أما أميرها بوهيمند السادس فقد كان آنذاك في طرابلس، مركز إمارته الثاني، فتولى قيادة المدينة الكند اسطبل (سيمون مانسل)، وحدث أن كان سيمون هذا يقود جماعة من العسكر خارج المدينة لمنع المسلمين من مهاجمتها، فوقع في أسر القوات الإسلامية، فلما أحضر إلى السلطان، طلب من السلطان أن يطلق سراحه وبالمقابل يدخل المدينة ويحاول إقناع أهلها بالتسليم، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله، فسير كند اسطبل وأحضر ولده وجعله رهينة، ودخل البلد وتحدث وخرج معه جماعة من القسس والرهبان وأقاموا يترددون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة وخوف من صاحبهم الأمير بوهيمند،⁽²⁾ وعندما رأى السلطان عدم جدوى التفاوض معهم شرع في مهاجمة المدينة، وركز في هجومه على نقطة من أسوارها بالقرب من القلعة قبالة منحدر جبل سيلبيوس وذلك في محاولة لاقتحام المدينة منه، وأمام شدة الضربات انهارت المقاومة الصليبية، وتمكنت القوات الإسلامية من اعتلاء الأسوار من النقطة التي اختارها السلطان، وتدفقوا إلى داخل المدينة في يوم السبت 4 رمضان / 18 أيار من السنة نفسها، فلاذ من استطاع من سكانها إلى القلعة، وأحاط الأمراء بالأبواب لمنع المحاصرين من الخروج من المدينة، "وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن رجل في المدينة وكان بها فوق المئة ألف نفر".⁽³⁾

لجأ إلى القلعة حوالي ثمانية آلاف من المقاتلين الصليبيين سوى النساء والأطفال، ولما لم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم فقد أنفذوا إلى السلطان يطلبون "الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى" فأمنهم على ذلك وتسلم القلعة منهم في اليوم التالي في 5 رمضان 666هـ / 19 أيار 1268م، وخرجوا وهم يرتدون اللباس الأبيض وسجدوا جميعاً قائلين: احرمنا يرحمك الله، فرق

(1) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 112.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 308. ستيفن رنسيومان: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز

العريني، ط3، 1993م، ج3، ص558.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص308. النويري: نهاية الأرب، 30، 307.

لهم السلطان وأمر برفع السيف عنهم، ووجد السلطان أثناء تسلّم القلعة جماعة من الأسرى المسلمين الحلبيين فأطلق سراحهم.⁽¹⁾

كانت الغنائم لا تحصى لدرجة أن "قسمت النقود بالطاسات"،⁽²⁾ أما الأسرى فكانوا أكثر من

أربعين ألف أسير،⁽³⁾ ووزع الغلمان على الناس، فلم يبق إنسان إلا وله غلام، ووزعت النساء والبنات وكذلك الأطفال، فبيع الصغير بـ 12 درهماً، والجارية بخمسة دراهم،⁽⁴⁾ وبقي السلطان يومين وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قواته، أما نصيبه منها فقد رصده لبناء الجامع الذي أمر بتشيدده بالحسينية وصرفه لهذا العمل الجليل،⁽⁵⁾ ولم يسمح إلا لعدد قليل من أثرياء المدينة بافتداء أنفسهم بالمال، ومنهم الكند اسطبل "سيمون مانسيل"،⁽⁶⁾ وغادر المدينة بعد أمر بإحراق قلعتها.⁽⁷⁾

كل هذا وأمير أنطاكية بوهيمند السادس قابلاً في طرابلس، فكتب إليه السلطان الظاهر يبشره بفتح أنطاكية ساخراً منه، ومحتقراً إياه، فمن جملة ما كتبه: "وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 308-309. المقرئزي: السلوك، 567/1. ابن أيبك الدواداري: الدرّة الزكية، ص 126-127. العيني: عقد الجمان، 22/2-23. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 508-509، 513-514. البرزالي: المقتفي، 1/178. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 62-64. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 36-37. أبو الفداء: المختصر، 2/334. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 76. سمباط: تاريخ سمباط، 347.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 324.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/143. البرزالي: المقتفي، 1/178.

(4) المقرئزي: السلوك، 568/1. العيني: عقد الجمان، 29/2.

(5) العيني: عقد الجمان، 29/2. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 324.

(6) العيني: عقد الجمان، 28/2. ستيفن رنسيومان: الحروب الصليبية، 3/559.

(7) العيني: عقد الجمان، 29/2.

كنت بها فتكون إما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأُموات". (1)

على إثر هذا النصر، دب الرعب في قلوب الصليبيين في الحصون المجاورة، فهرعوا يستجدون الأمان من السلطان، فأمنهم وأرسل قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بيليك لتسلم حصونهم، وهي (دير كوكش - وهو من أمنع الحصون-، وشقيف كفردين، وشقيف كفر تلميس) فتسلمها في 11 رمضان،⁽²⁾ والسبب في هذا، هو أن هذه الحصون أصبحت منعزلة تماماً في المنطقة بعد سقوط أنطاكية، وأصبح أمر القضاء عليها سهلاً جداً، وهذه الحصون كان قد استولى عليها بوهيمند السادس صاحب أنطاكية وطرابلس عند اجتياح التتار بلاد الشام، وفي خطابه التهكمي السابق الذكر الذي أرسله ببيرس إلى بوهيمند أكد له ذلك،⁽³⁾ ولهذه الحصون أهمية عند السلطان، فقد "كانت شجا في حلقة، وغصة في صدره".⁽⁴⁾

ولما رأى الداوية في حصن بغراس⁽⁵⁾ ما حدث، اقتنعوا بأنه أضحى من المستحيل الاحتفاظ بقلاعهم، وحصونهم، فتركوا الحصن فارين منه، فأرسل السلطان في 13 رمضان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقي في قوة عسكرية واستولى على الحصن سالماً ووجد به الأمير كثيراً من المحاصيل والذخائر،⁽⁶⁾ كما تخلى الداوية عن حصن آخر هو حصن روج دي روسل Rousel، وهجروا منطقة أرسوز قرب تخوم أرمينية.⁽⁷⁾

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، 312 - 313.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 324 - 325. المقرئزي: السلوك، 570/1. البرزالي:

المقتفي، 1/ 178. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 127. ابن المغيزل، ذيل مفرج الكرب، ص 66.

(3) العيني: عقد الجمان، 2/ 27. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 312.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 324.

(5) مدينة على يمين القاصد من حلب إلى أنطاكية، الحموي: معجم البلدان، مادة بغداد. وحالياً تقع في لواء

اسكندرون على السفوح الشرقية للأمانوس. فينيز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 58.

(6) البرزالي: المقتفي، 1/ 187. ابن عبد الظاهر: الروض، 325-326. ببيرس الدوادار: التحفة

الملوكية، ص 64. أبو الفداء: المختصر، 2/ 334. العيني: عقد الجمان، 2/ 29.

(7) ينفرد الفارس الداوي في ذكر هذا الحصن، راجع كتابه: أعمال القبارصة، ص 76. رنسيان:

الحروب الصليبية، 3/ 560.

لهذين الحصنيين (بغراس وروج دي روسل) الواقعين في ممرات الأمانوس أهمية عظيمة، فسلسلة الأمانوس وعرة جداً، وكثيفة الغابات في كثير من المناطق، والممرت القليلة الموجودة فيها هي التي وصلت أنطاكية بأرمينية الصغرى، وبالتالي الإشراف على هذه الطرق والتحكم بها من خلال هذه القلاع له أهمية عظيمة في إنجاح أو إخفاق الحملات المملوكية المسيرة عبر الأمانوس إلى أنطاكية.

وعلى أثر ذلك تخوف بطريك قلعة القصير¹ أن يقوم السلطان بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتمس المواعدة على أن يتنازل له عن نصف البلاد التي تتبعه، فسمح له بالبقاء بها سبع سنوات على أنه من أتباعه، وكتب له هدنة بذلك.⁽²⁾

بهذه الحملة تبدلت أوضاع الصليبيين كلياً، فلم يبق بأيديهم سوى المنطقة الممتدة بين اللاذقية شمالاً وعتليت جنوباً، وباتت أرمينية الصغرى معزولة تماماً عن باقي الصليبيين، وأصبحت الطرق إليها مفتوحاً أمام الحملات، وهذا مهد للقضاء عليها، حيث بدأت تشهد منذ ذلك الوقت حملات مكثفة من قبل المماليك ولمدة قرن حتى تم القضاء عليها، زد على ذلك أصبح ميناء السويدية في يد المماليك.

5- حملة ولدي ملك أراغون 668هـ / 1269م:

أمام الهزائم التي حلت بصليبي الشرق، تحرك الأوربيون من جديد لتقديم المساعدات لهم أملاً في إنقاذ ما تبقى من معقل صليبية، لذا خرج جيمس الأول ملك أراغون على رأس أسطول كبير من برشلونة لمساعدة صليبي الشرق، وكان قد أرسل إلى أبغا بن هولكو خان مغول فارس بأنه قادم إليه من جهة سيس عاصمة مملكة أرمينية في سفن كثيرة لشن هجوم مشترك على السلطنة المملوكية، لكن هذا الأسطول تعرض لعاصفة أجبرت جيمس الأول على العودة إلى دياره مع القسم الأعظم من الأسطول، في حين تابع ولديه (فرناندو سانكز و بدرو فرنانديز) المسير مع

(1) قلعة حصينة من قلاع حلب. ابن تغري بردي: النجوم، 143/7، حاشية 3.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص325. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 143/7. البرزالي: المقتفي، 1/ 187. أما في النهج السديد فيذكر ابن أبي الفضائل أن السلطان صالح أهل القصير على المناصفة، 514/1.

من تبقى من الأسطول إلى عكا،⁽¹⁾ في هذا الوقت كانت الأخبار قد وصلت إلى الصليبيين بخروج حملة لمساعدتهم، ففرحوا وخرجوا ليخيموا خارج المدينة وتوجه فريق منهم لمهاجمة جينين وصفد،⁽²⁾ ولم يعلموا بخبر العاصفة وعودة معظم الأسطول، إلى أن وصل القائدان إلى عكا في محرم 668هـ/ ديسمبر 1269م⁽³⁾.

كان السلطان وقتذاك في الإسكندرية، فوصله خبر الحملة والتحالف المغولي الصليبي، ثم ورد خبر هجوم المغول على الساحل قرب حلب، واستيلائهم على بعض مواشي الأعراب في تلك المنطقة، فركب من فورهِ، ووصل دمشق في 7 ربيع الآخر 668هـ/ 4 كانون الأول 1269م وأثناء وجوده هناك ورده خبر هزيمة المغول.⁽⁴⁾

بانسحاب المغول هكذا، انتهى التعاون الصليبي المغولي، أما بالنسبة للحملة القادمة من الغرب؛ فإنها لم تحرك ساكناً، فقد تعلم الأميران سريعاً من الدروس التي وقعت أمامهم، والذي حدث أن الصليبيون توهموا بهذه العساكر التي قدمت إلى عكا أنهم يقدرُون فيها على مواجهة القوات الإسلامية خارج أسوار عكا، فخرجت الكتيبة الفرنسية⁽⁵⁾ الموجودة في عكا بغارة إلى القرين شمال عكا، وكان الجيش المملوكي يراقبهم، وعندما شعر قائد الكتيبة بالخطر آثر العودة، لكن نائبه أصر على البقاء، فوقع بالكمين الذي نصبه المماليك، حيث دار قتال عنيف قتل وأسر فيه

(1) رنسيان: الحروب الصليبية، 567/3. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص362.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 430/2. المقريري: السلوك، 585/1.

(3) رنسيان: الحروب الصليبية، 567/3.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص361-362. العيني: عقد الجمان، 57/2. النويري: نهاية الأرب، 170/30.

(5) كان القديس لويس قد رغب عند نهاية حملته أن يُسهم في الدفاع عن الأرض المقدسة، لذلك أرسل تجريدة من العساكر إلى هناك، عل أنه من المفترض أن يجري الإنفاق عليها من خزينة فرنسا، بقيت هذه القوات في الشرق إلى سقوط عكا، وشغلت دوراً مهماً في كثير من الوقائع آنذاك، وكان قادتها من الشخصيات المهمة في الشرق اللاتيني. انظر: كريستوفر ماريشال: فن الحرب، ص 116.

عدد كبير من الصليبيين،⁽¹⁾ وقد وصل السلطان بعد انتهاء الاشتباك، المهم أن هذا حدث على مرأى من ولدي جيمس الذين ما لبثا أن عادا إلى أراغون دون أن يحققا شيئاً.

وتجب الإشارة إلى نقطة مهمة هنا هو أن حامية صفد بالإضافة إلى قوات معسكرة في عين جالوت وهي التي تصدت لهذه التجريدة الصليبية، وهذا يعني أن صفد أن أصبحت تمارس دورها كقاعدة متقدمة ضد المواقع الصليبية على الساحل، وخطاً دفاعياً أولياً.

رجع السلطان إلى صفد ورؤوس القتلى مرفوعة على الرماح، ثم دخل دمشق في 26 شوال 668هـ / 1270م على هذا الحال، وخلع على الأمراء،⁽²⁾ وقصد السلطان الغارة على حصن المرقب؛ لكن منعه من ذلك الأمطار والثلوج، فرجع إلى حمص، وأقام فيها نحو عشرين يوماً، وكان في كل يوم يخرج إلى حصن الأكراد ويعود، وفي إحدى المرات اشتبك مع الصليبيين وقتل منهم جماعة،⁽³⁾ ولعل الهدف من هذه الغارات كان الاستكشاف تمهيداً لتحريرها، ثم عاد إلى دمشق ودخلها في 18 جمادى الآخرة، وفي هذه الأثناء وردت عليه أخبار تفيد بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد خرج على رأس حملة صليبية جديدة متجهاً إلى الشرق، فعاد أدراجه إلى القاهرة، فاهتم للأمر كثيراً، وأمر بتحسين الثغور وشحنها بالمقاتلين وخاصة الإسكندرية.⁽⁴⁾

بقي السلطان في مصر ستة شهور تقريباً في حالة استعداد يتقرب ظهور الحملة الصليبية، وجمّد لذلك نشاطه الحربي في الشام مؤقتاً، وأخيراً في محرم 669هـ / آب 1270م وصلته الأخبار بأن القديس لويس نزل على تونس، وهزم حاكمها، ثم بلغه موت ملك فرنسا وانسحاب جيوشه⁽⁵⁾.

6- حملة سنة 669هـ / 1271م:

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 363-364. العيني: عقد الجمان، 58/2. اليونيني: ذيل

مرآة الزمان، 431/2. رنسيان: الحروب الصليبية، 567/3.

(2) المقرئزي: السلوك، 585 / 1.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 431/2. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 143. العيني: عقد الجمان،

59/2. البرزالي: المقتفي، 1 / 204. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 44. بيبيرس الدوادر:

التحفة الملوكية، ص 68.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 370. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 431/2-432.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 374.

رأينا كيف أنهى المماليك الوجود الصليبي في جنوب فلسطين، ثم كيف نقلوا ميدان المعركة إلى الشمال وحرروا أنطاكية، ولهذا العمل الأخير - كما تقدم الحديث - فائدتين، الأولى عزل أرمينية الصغرى تمهيداً للقضاء عليها، والثاني تقطيع أوصال الصليبيين على ساحل بلاد الشام، وبشكل حتمي بات العمل المقبل ضد الإمارات الداخلية المتبقية؛ طرابلس وعكا.

أدرك السلطان صعوبة الانقضاض على هذه الإمارات بشكل مباشر، فعمد إلى الخطة التقليدية وهي تجريد هذه الإمارات من ممتلكاتها، وتعريضها لغارات تستنزف قواها العسكرية والاقتصادية، وحسب ما تبين فإن السلطان اختار إمارة طرابلس قبل عكا، لأنه كان قد دخل إلى عكا قبيل معركة عين جالوت،⁽¹⁾ وهناك اطلع عن كثب على تحصينات عكا الهائلة، فأرجأ العمل ضدها حتى يُنهي أمر باقي الإمارات والقلاع، ثم يتفرغ لعكا بعد أن تكون قد فعلت الغارات فعلتها فيها، وتكون قد فقدت المُعين لها من باقي الصليبيين.

علم السلطان الظاهر بما انتهت إليه حملة لويس التاسع على تونس، وبالتالي أصبح بإمكانه متابعة أعماله التحريرية في بلاد الشام، فخرج إليها في جمادى الآخرة سنة 669هـ/ كانون الأول 1270م على رأس حملة كبيرة، وكالعادة موه عن أهدافه الحقيقية بسلسلة من الغارات، بدأها بمهاجمة المناطق المحيطة بطرابلس حيث قتل وأسر عدداً من قواته وشعث المناطق المحيطة بها،⁽²⁾ ثم وصل بغاراته إلى صافيتا، كان في صافيتا برج شكّل البناء الرئيسي للدواية في كونتية طرابلس، وعكس بوضوح دوره كبيت للمحاربين الرهبان، يُعرف هذا بالبرج الأبيض، وهو أطول معقل صليبي متبقي حتى الآن، كان هذا البرج يتألف من حصنين خارجي بيضاوي مساحته 100*165، وداخلي ربما كان مستطيل الشكل.⁽³⁾ والإستيلاء على هذا البرج يأتي كخطوة أولية لتجريد طرابلس من دفاعاتها.

(1) الفارس الداوي، أعمال القبارصة، ص46.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص374-375. العيني: عقد الجمان، 70/2. المقرزي:

السلوك، 590/1.

(3) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 207-208.

حاصر السلطان هذا البرج وبعد أن أوشكت حاميته على الإستسلام ترك عليه بعض القوات وسار هو باتجاه حصن الأكراد، تمكنت هذه القوات من تحريره بالأمان وكان به حوالي 700 فارس داوي عدا النساء والأطفال، فعُفي عنهم وساروا جميعاً إلى طرطوس.⁽¹⁾

في هذا الوقت تمكن السلطان من تحرير بعض القلاع المجاورة لحصن الأكراد مثل المجدل وبتل خليفة، كما أرسل قواته لشن غارات على جبله واللاذقية والمرقب وعرقه ومرفية والقليعات والمجدل وطرطوس،⁽²⁾ وقد تسببت هذه الغارات بفوضى واضطراب في صفوف الصليبيين، كما أنها أضعفت المقاومة عندهم.⁽³⁾

• تحرير حصن الأكراد، 24 شعبان 669هـ / 7 نيسان 1271م:

لم يبق أمام السلطان إلا التوجه لتحقيق الهدف الذي قدم من أجله، وهو حصن الأكراد، حصن الاستبارية المشهور.

حصن الأكراد قلعة موجودة حالياً في شعاب جبال اللاذقية في وادي النضارة، يقوم هذا الحصن في موقع ممتاز فوق ذروة مرتفعة حوالي 300م وتحيط به من جميع جهاته مدرجات متوسطة الإنحدار.⁽⁴⁾

استخدم الصليبيون هذا الحصن من أجل الدفاع عن الجبهة الشرقية لكونتية طرابلس، ولإدارة عقاراتهم الكبيرة هناك، وقد تعرض لمحاولات عديدة لتحريره منذ أيام صلاح الدين، وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كان حصن الأكراد يشكل الحصن، أو المعقل الصليبي الوحيد المتوغل داخل الأراضي الإسلامية شرقاً.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص375. المقرئزي: السلوك، 590/1. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 532-533.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 444/2. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص528. البرزالي: المقتفين 1 / 227. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 70. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص151.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 150/7

(3) كريستوفر مارشال: فن الحرب، ص 301.

(4) فينيز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 76.

كانت الحامية الموجودة في داخله تتألف من حوالي ألفين مقاتل، تمكن هؤلاء من فرض السيطرة على المناطق المجاورة وفرض الجزية أحياناً على المسلمين المجاورين له في أراضي حماه وحمص، ومنه انطلقت الغارات على المناطق المجاورة، وفي مطلع القرن الثالث عشر زاره ملك هنغارية ووصفه بـ "مفتاح الأراضي الصليبية" (1).

توجّه السلطان إليه، وهناك اجتمع مع العساكر التي بثها للغارات على المناطق المجاورة، وبدأ حصاره في يوم الثلاثاء 19 رجب 669هـ / 21 شباط 1271م، وقدم لمساعدته صاحب حماه، وصاحب صهيون، وصاحب الدعوة الإسماعيلية نجم الدين، وفي آخر رجب تكامل نصب المجانيق حول الحصن (2).

على الأغلب جاء الهجوم المملوكي من الجهة الجنوبية (3) وكان للحصن ثلاثة أسوار، ركزت حولها المجانيق، وشرعت بقصفها حتى دمر السور الأول يوم الخميس 21 رجب / 5 آذار، والثاني يوم السبت 7 شعبان / 21 آذار، والثالث يوم الأحد 15 شعبان / 29 آذار، ودخلت العساكر البلد بالسيف (4).

بهذا العمل تمكن المماليك من خرق الدفاعات الخارجية، فتراجعت الحامية إلى الدفاعات الداخلية، فأعمل السلطان الحيلة لإجبارهم على الاستسلام، إذ كتب "كتاباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة يأمرهم بالتسليم"، وقد نجحت هذه الحيلة، فطلبوا الأمان من السلطان، فأمنهم وسمح لهم بالخروج، فتوجهوا إلى طرابلس، وتسلم المماليك الحصن في 24 شعبان / 7

(1) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 216-217.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 375-376. المقريزي: السلوك، 591/1، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 70. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 152. ابن تغري بردي: النجوم، 150/7-151.

(3) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 221.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 445/2. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 152. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة: 78/9، التحفة الملوكية، ص 70. البرزالي: المقتفي، 1/228. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 45. المقريزي: السلوك، 1/591. النويري: نهاية الأرب، 30/176. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 1/532.

نيسان، فأمر السلطان بعمارة البلد، وحول الكنيسة إلى جامع، وأقام فيه الجمعة، وولى فيها قاضياً ونائباً.⁽¹⁾

صحيح أن الحيلة لعبت دوراً أساسياً في تحرير الحصن، لكن في الحقيقة تحري الحصن بعد أن تمكن السلطان من خرق الدفاعات الخارجية ونصب المجانيق وآلات الحصار في داخله، باتت مسألة وقت فقط.

أثار سقوط حصن الأكراد هذا الخوف عند صاحب أنطربوس، فأرسل إلى السلطان طلباً بالمهادنة، وتعبيراً عن مصداقيته في ذلك، بعث إليه بمفاتيح مدينته، فصالحه السلطان على:

- استرجاع "بلدة" وجميع ما أخذه الداوية من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية (أيام الناصر صاحب حلب ودمشق).
- ترك جميع ما للداوية من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- يكون للسلطان نصف محاصيل أنطربوس.
- يعين السلطان نائباً عنه في أنطربوس.

وتم عقد الهدنة، وعقدت هدنة أخرى مشابهة مع صاحب المرقب، وهو مقدم بيت الاسبتارية، وهو الذي طلب من السلطان ذلك، فأجابته السلطان إلى طلبه وعقد معه الصلح على:⁽²⁾

- استرجاع جميع ما أخذه الاسبتار من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية.
- ترك جميع ما للاسبتار من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.
- تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان والاسبتار.
- لا تجدد أي عمارة بحصن المرقب.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 376-377. ابن تغري بردي: النجوم، 150/7-151. المقريزي: السلوك، 591/1. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 152. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، 528/1-529. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 85.

(2) عن هذا الصلح والذي قبله راجع: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 448/2. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 531. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 378-379. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 78/9. العيني: عقد الجمان، 72/2. البرزالي: المقتفي، 1/228، 230.

فتم توقيع الهدنة مع الداوية والاسبتارية في مستهل رمضان من تلك السنة ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

• تحرير حصن عكار⁽¹⁾ 29 رمضان 669هـ / 12 أيار 1272م

أراد السلطان أن يتابع السير في مخططه بتحطيم الدفاعات الشرقية لكونتية طرابلس، فبعد تحرير حصن الأكراد توجه فوراً إلى حصن عكار القائم على بعد 25 ميل إلى الشمال الشرقي من طرابلس، والذي شكل خط الدفاع الأمامي بوجه المسلمين عن طرابلس.

أقيمت قلعة عكار على جرف جبلي في النهاية الشمالية لجبال لبنان (جبل عكار)، على جانب فتحة حمص طرابلس، أقوى نقطة دفاع في هذا الحصن برج مساحته 13 متر مربع قائم فوق منحدرات تقع فوق صهريج ماء مصنوع يدوياً، هذا الجرف فصل القلعة عن بقية الجبل، أما بقية التحصينات فهي تساير الجرف.⁽²⁾

وكان على المسلمين من هذا الحصن - كما يقول ابن عبد الظاهر - " مضرة؛ لأنه في جبال صعبة المرتقى بعيدة المستقى، يهبط منه المتجرمة ويتحصنون به "،⁽³⁾ ويذكر النويري أن قيام صاحب طرابلس بتجديد عمارته حديثاً كانت هي السبب الذي جعل السلطان يقصده،⁽⁴⁾ فتوجه إليه السلطان بقواته في 17 رمضان 669هـ / 29 نيسان 1271م، ونصب عليه المجانيق، بعد أن عانى الأمرين من صعوبات جرها في هذه الشعاب الجبلية،⁽⁵⁾ ثم شرع في الهجوم يوم الاثنين 22 رمضان، فاستبسل سكانه بالمقاومة والدفاع عنه، فشدد السلطان من هجومه، " فلما رأى الذين فيه أمراً يعجزون عن احتماله وجيشاً لا طاقة لهم بقتاله، " طلبوا الأمان على أنفسهم من القتل وأن يمكنهم السلطان من التوجّه سالمين إلى طرابلس، فأجابهم وسمح لهم بالرحيل في 29 رمضان

(1) عكار: حصن مبني على جبل يسمى جبل عكار، وموقعه شمالي طرابلس، ويسمى هذا الحصن أيضاً باسم حصن ابن عكار.

(2) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 100-101. فينز: القلاع أيام الحروي الصليبية، ص 60.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 379-380.

(4) النويري: نهاية الأرب، 329/30.

(5) انظر نص الرسالة التي أرسلها السلطان إلى بوهيمند السابع صاحب طرابلس بعد فراغه من تحرير هذا الحصن. النويري: نهاية الأرب، 330-331 / 30.

669هـ، وبعد أن صلى به السلطان صلاة العيد، رحل عنه ونزل بمرج صافيتا، وكتب البشائر إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله عليه. (1)

كما كتب إلى أمير طرابلس بوهمند السادس، يخبره بهذا الفتح تحطيماً لمعنوياته وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولكو زعيم مغول فارس، وقد جاء في هذا الكتاب: "قد علم القومص بيمند - بوهيمند - جعله الله ممن ينظر لنفسه، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار،... وكتابتنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه (الله أكبر)، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من نذب السيوف إلى بكاء النوائح، وأطلقانهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى، يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده". (2)

وكان السلطان قد راسله قبل ذلك مشافهة على لسان رجل من فرقة الاستبائية، يقول فيها: "أين تروح مني والله لا بد أن آخذ قلبك وأشويه، وأنت تنتظر، وما ينفحك أبغا بن هلاوون"، فلما بلغه هذه الرسالة، أخذ يحترس على نفسه، ولم يعد يخرج للصيد خوفاً على نفسه من الإسماعيلية أن تغتاله بأمر من السلطان، وكان يحب الركوب للصيد، فامتنع عن ذلك، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، سير إليه غزلان مذبوحة وضبعاً حياً، وحمل ثلج ورسالة يقول فيها: "لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك". (3)

• الهدنة مع طرابلس:

(1) ببيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 79/9. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 448/2. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص380. البرزالي: المقتفي، 231/1. أبو الفداء: المختصر، 337/2. المقريزي: السلوك، 52/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 151-152.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص380-381. النويري: نهاية الأرب، 30، ص330-331.

(3) ابن أبيك: الدرة الذكية، ص 157 - 158.

كان السلطان قد أغار على طرابلس أكثر من مرة، مُحدثاً فيها الخراب والدمار، وزاد من ضعفها استيلاء السلطان على "حصن الأكراد وحصن عكار وصافيتا وحلبا والقليعات وبانياس وغيرها"، مما جعل حاكمها قابلاً في مدينته " في حبس؛ بل في رمس".⁽¹⁾

وبعد أن بعث له السلطان رسائل التهديد سار ونزل على طرابلس في الرابع من شوال لابساً عدة الحرب، هو وجميع العساكر، فأرسل له بوهيمند طالباً الصلح، ويتحدث ابن أبيك نقلاً عن والده الذي كان في الوفد المُرسَل من قبل السلطان إلى بوهيمند ليعرض عليهم شروط السلطان لعقد الصلح. وكانت شروط الظاهر بيبرس تتلخص في:

- أن يكون للسلطان نصف أعمال طرابلس، ويكون له فيها دار ووكالة وزكاة ونائب ومشد⁽²⁾ وديوان.
- أن يدفع صاحب طرابلس نفقات الجيش المملوكي من يوم خروجه.
- أن يعطي للسلطان مدينتي جبلة واللادقية مع خراجهما من يوم خروجهما من يد الملك الناصر يوسف - صاحب حلب ودمشق - إلى يوم تاريخه.⁽³⁾

رفض بوهيمند هذه المطالب، وحصّن طرابلس، وقرر القتال، فرد عليه السلطان بِنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها، ثم ترددت الرسل بين الطرفين وقدم بيبرس بعض التنازلات، وربما كان السبب في ذلك أنه سمع بقدم حملة إنكليزية إلى عكا يقودها الأمير الإنكليزي إدوارد،⁽⁴⁾ فضلاً عن قدوم الملك هيو الثالث ملك قبرص على رأس قوة بحرية أيضاً إلى عكا، فتم الاتفاق أخيراً على:

- أن تكون عرقة وجبيل⁽⁵⁾ وأعمالها للأمير بوهيمند.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص383.

(2) المُشدُّ: رئيس الورشة أو رئيس الجند الذي يراقبهم ويشد همتهم على العمل، وتسمى وظيفته الشادية. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص139.

(3) هذا البند من النجوم الزاهرة، إذ لم يرد عند ابن أبيك في الدرّة الزكية.

(4) المقرئزي: السلوك، 592/1.

(5) عند ابن تغري بردي: عرقة وجبلة، وهذا الثبت في المتن من: النهج السديد، ص536، والدرّة الزكية، ص159.

- أن تكون سواحل أنطرسوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحي مناصفة بين السلطان وبين فرقتي الداوية والاسبتارية.
- أن تعود بارين-بعرين- وحمص القديمة خاصة للسلطان الظاهر بعد أن كانت خاصة لهم.
- كما نصَّ الاتفاق على أن تكون عرقة وأعمالها وهي ست وخمسون قرية على شكل صدقة من السلطان لبوهيمند.

تردد بوهيمند في قبول ذلك، ثم قبله وعقد الاتفاق على أن مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام،⁽¹⁾ بعد ذلك دفع السلطان ثلاثة آلاف دينار مصرية لفك أسرى المسلمين، ثم عاد إلى حصن الأكراد.⁽²⁾

استغل بوهيمند هذه الهدنة وذهب من فوره إلى أبغا بن هولكو يطلب منه المساعدة في الهجوم على المماليك، ويذكر له ما فتحه السلطان من القلاع والحصون، فأثَّبه أبغا، ورفض طلبه قائلاً: "أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفّري عنه، وتملأ قلوب عساكري رعباً"، فعاد بوهيمند خائباً،⁽³⁾ في حين توجه السلطان الظاهر إلى حصن العليقة الواقع إلى الجنوب من صافيتا، فتسلمه في 11 شوال / أيار من السنة ذاتها، وكان تابع للإسماعيلية.⁽⁴⁾

• الحملة على قبرص سنة 669هـ/1271م:

بعد أن تسلم السلطان حصن العليقة توجه إلى دمشق، ومن هناك عزم المسير لتحرير حصن القرين المجاور لعكا وصفد، فانطلق إليه في منتصف شوال من ذلك العام، وليصرف نظر

(1) ابن أبيك: الدرّة الذكيّة، ص158-159. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 152/7. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 450/2. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص536.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص383.

(3) ابن أبيك: الدرّة الذكيّة، ص160. مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص537.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص384. المقرئزي: السلوك، 593/1.

الصليبيين عن حصن القرين إختار مناوشة قبرص لأن ملكها هيو الثالث كان قد قدم إلى عكا مؤخراً لتفقد شؤون مملكته،⁽¹⁾ فأرسل في هذا الشهر إلى مصر " بتفسير الشواني⁽²⁾ لقصد قبرص وشغل أصحابها حتى نفارق عكا"،⁽³⁾ وبالتالي فإن حملة قبرص هذه لاتعدوا أن تكون غارة لا تتجاوز مهمتها أن تكون السلب والنهب والتدمير وإجبار هيو على العودة إلى مقر مملكته.

تم تجهيز أسطول مؤلف من سبع عشرة شيناً، تولى قيادتها جمال الدين مكي بن حسون ومعه ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفسطاط، وشرف الدين علوس بن أبي المحبة بن علوي رئيس دار الصناعة بدمياط وشهاب الدين إبراهيم بن عبد السلام رئيس دار الصناعة بالإسكندرية.⁽⁴⁾

لجأ ابن حسون إلى الخديعة، إذا أقدم على طلاء السفن باللون الأسود، ورفع فوقها أعلاماً عليها صلبان، تشبهاً بالسفن الصليبية بغية الوصول إلى قبرص دون أن ينتبه إليهم القبارصة، فانطلقت السفن على هذه الشاكلة، ولكن عندما وصلت السفن إلى ميناء ليماسول ليلاً، تقدم المركب الأول للدخول إلى الميناء فاصطدم بالصخور، بالإضافة إلى ذلك هبت عليهم ريحاً عاتية أدت إلى تحطيم 11 سفينة عليها 1800 بحار وقعوا بالأسر، وعاد باقي الأسطول وعليه ناصر الدين وابن حسون.⁽⁵⁾

(1) البرزالي: المقتفي، 1/ 229. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 453/2.

(2) الشيني، أو شاني، أو شينة، أو شونة: هي السفينة الحربية الكبيرة، كانت تعد اهم القطع الحربية في الأسطول الإسلامي، وهيمن المراكب الحربية المستعملة غي المتوسط، ومن الشواني هناك أنواع متعددة، فمنها الغراب، والطريدة، والجفنة، والحراقة، وتحمل الشينة حوالي 150 مقاتل، ابراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر المماليك، دار المعارف، 1983م، ص 229.

(3) ابن عبدالظاهر: الروض، 386.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 154. المقريزي: السلوك، 1/ 593-594. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 453. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 386؛ ويقول أن السلطان كتب إلى مصر بذلك في شهر شوال، أثناء وجوده على طرابلس.

(5) بييرس الدودار: زبدة الفكرة، 9/ 80. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 86. النويري: نهاية الأرب، 30/ 178. المقريزي: السلوك، 1/ 593. ابن تغري بردي: النجوم، 7/ 154. البرزالي: المقتفي، 1/ 229. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 453-454.

وقد أظهر هيو ملك قبرص الاعتزاز والفخر والشماعة بما حدث للسفن الإسلامية، إذ أرسل إلى السلطان بيبرس رسالة يقول فيها: " إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك بمن فيها "، فكان جواب السلطان: " قل له لا تقرح بهذا، فما أخذتها بسيفك، ولو سلمت كانت أخذت جزيرتك بحول الله وقوته، وقد أخذت في سفرتي هذه أربعة عشر حصناً، ولاشك أن العين لها حق ". (1)

بالمقابل لم يهمل السلطان أمر الجهاد البحري، بل كتب إلى القاهرة بإنشاء عشرين شيناً وإحضار خمسة شواني كانت بقوص، جنوب مصر، لحماية البلاد من ناحية البحر الأحمر، وقد أكثر السلطان من الركوب في مصر لمباشرة عمل الشواني حتى تم بناء ضعفي ما انكسر. (2)

• تحرير حصن القرين⁽³⁾ 13 ذي القعدة 669هـ / 13 أيار 1271م:

اكتفى السلطان بما أنزله في حملته هذه بكونتية طرابلس من ضربات مميتة، وبعد أن عقد معها هدنة قرر أن يُنزل بعكا ما كان قد أنزله بطرابلس، فتوجّه بعد أن تسلم قلعة العليقة من الإسماعيلية - كما سلف - صوب حصن القرين.

وقع حصن أو قلعة القرين (Montfort) على بعد حوالي 16 كم إلى الشمال الشرقي من عكا، كان هذا ملكاً لفرسان التيوتون (الألمان)، وقد جرى بناءه في وقت متأخر (سنة 1228م/هـ) لكي يكون مقراً للصليبيين الألمان، ومع أربعينيات القرن الثالث عشر كانت القلعة تعمل كمركز إداري لفرسان التيوتون، وقد بني هذا الحصن على مستوى متواضع، إذ جرى إنشائه على حافة جرف صخري عند النهاية الشرقية للسلسلة الجبلية الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، وقد جرى الدفاع عنه بواسطة خندق محفور في الصخر يفصله عن الجبل المتاخم له، ويحميه برج قائم فوق قمة الصهريج، أما من الشمال والغرب فهناك سور،⁽⁴⁾ بناءه كان من الحجر

(1) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 162.

(2) ابن تغري بردي: النجوم، 154/7 - 155. النويري: نهاية الأرب، 178/30. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 389.

(3) حصن شمالي فلسطين فوق وادي القرن. محمد محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص 604-605.

(4) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 194-196. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 98.

الأصم، بين كل حجرين عمود حديد ملزوم بالرصاص،⁽¹⁾ كان هذا الحصن هو آخر الحصون بصفد، وبعد فتح حصن الأكراد وعكار؛ رأى السلطان ألا يترك هذه الحصون خلفه.⁽²⁾

وفي أثناء حصاره للقرين وصله خبر الشواني المدمرة في جزيرة قبرص، ووصله رسالة ملك قبرص الذي أظهر فيها الشماتة، فجد السلطان في حصار القرين، وشرع بمهاجمة الحصن وقصفه حتى استولى على ريبضه، وتحت شدة القصف والضربات العنيفة طلب الصليبيون الأمان، فأمنهم وأرسلهم إلى عكا، ودخلت قواته إلى الحصن في 13 ذي القعدة 669هـ/ 13 أيار 1271م، ثم أمر بهدمه، فأقاموا في هدمه اثني عشر يوماً، وفي حصاره خمسة عشر يوماً.⁽³⁾

كان السلطان الظاهر عندما قرأ رسالة ملك قبرص بخبر كسر الشواني، قال: " الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خذلت لي راية، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره"،⁽⁴⁾ ولما فتح السلطان حصن القرين كتب إلى هيو الثالث ملك قبرص قائلاً: " إلى حضرة الملك أوك دلزنيال - هيو لوزينان - جعله الله ممن يوفى الحق إلى أهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، وقد كان قد عرّفنا أن الهوء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب، وقد قالن وقلنا، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح، واتكلنا، وأين من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح؟!، وما النصر بالهوء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح، وفي يوم

(1) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص162. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7 / 153. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 542/1-543.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص385-386.

(3) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص162. مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص542-543. البرزالي: المقتفي، 1 / 233-234. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص385. بييرس الدوادار: التحفة الملوكية، 72. بييرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 46. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 452/2-453. المقرئزي: السلوك، 593/1.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص387. المقرئزي: السلوك، 594/1.

ننشئ عدة قطائع ولا تنشأ لكم من حصن قطعة، ونجهز مئة قلع⁽¹⁾ ولا يتجهز لكم في مئة سنة قلعة، وكل من أعطي مقدافاً قذف، وما كل من أعطي سيفاً أحسن الضرب به أو عرف.... فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخذنا بلادكم من سكان، وقد كسب وكسبنا، فترى أينما أغنم، ولو أن في الملك سكوتاً، كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم".⁽²⁾

وقبل أن يغادر السلطان إلى القاهرة دارت مفاوضات بينه وبين صاحب صور، انتهت المفاوضات إلى توقيع اتفاقية بينهم تنص على أن يكون للصليبيين عشرة مناطق فقط، وللسلطان خمس، يختارها هو من البلاد التابعة لصور، في حين تكون بقية البلاد مناصفة، فتم الاتفاق على هذا الأساس.⁽³⁾

عاد السلطان إلى القاهرة فوصلها في 12 ذي الحجة 669هـ وأقام بها حوالي شهر ونصف، ثم قرر العودة إلى دمشق لأسباب عديدة منها: ووصول أخبار تفيد بأن عيسى بن مهنا -أمير العربان- وغيره من الأمراء تغيرت نياتهم وعزموا على الانضمام إلى المغول، فغادر مصر في 27 محرم 670هـ، ووصل دمشق في 13 صفر 670هـ/ 20 أيلول 1271م⁽⁴⁾.

7- الحملة الإنكليزية (حملة ادوارد ولي عهد إنكلترا إلى عكا): 669هـ/ 1271م:

كان من المفترض أن يقوم بهذه الحملة هنري الثالث ملك إنكلترا إيفاءً بنذره الصليبي، إلا أن إنكلترا آنذاك كانت تعاني من أزمات حادة، فوجدت البابوية أن بقاء هنري الثالث في المملكة لحفظ

(1) القلع: هو شراع السفينة، وجمعها: قُلع. الأزهرى الهروي، محمد بن أحمد ت370هـ: تهذيب اللغة،

تح: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1، 2001م، ج1، ص166.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص387-388. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 80/9-81.

(3) العيني: عقد الجمان، 81/2. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص389. المقريزي: السلوك،

595/1.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص389، 391.

الاستقرار أفضل من توجهه إلى الأراضي المقدسة، فضلاً عن أنه أصبح رجلاً كهلاً،⁽¹⁾ وفي سنة 1268م أرسل البابا مبعوثه لتحليل هنري من نذره الصليبي مشروطاً إرسال ابنه ايدموند مكانه، مستبدين إرسال ادوارد لأنه ولي العهد المرتقب للعرش الإنكليزي، والموقف السياسي يتطلب وجوده هناك، إلا أن إصرار ادوارد على المسير نجح في النهاية، وأقنع البابا بالسماح له باتخاذ الصليب.⁽²⁾

بدأت الاستعدادات للحملة، وفي سنة 1269م سافر ادوارد إلى فرنسا للتشاور مع لويس التاسع حول موضوع الحملة، إذ تم الاتفاق على المسير معاً نحو الشرق في 25 آب 1270م انطلاقاً من ميناء ايجس مور AiguesMorte الواقع غرب مرسيليا.⁽³⁾

سار إدوارد من إنكلترا في آب 1270م مع قوة صليبية صغيرة قوامها ألف رجل وأسطول صغير مكون من 13 سفينة، ثم أُرِدِفَتِه إمدادات قادمة من أخوه أيدموند دوق لانكستر مع قوة من بريطانيا، وإمدادات من الأراضي المنخفضة بقيادة رئيس أساقفة لياج، إلا أنه فوجئ بمسير الملك الفرنسي إلى تونس، ثم علم بوفاته في 25 آب 1270 أمام سواحل تونس؛ لذا توجه إلى صقلية، حيث أمضى فصل الشتاء هناك مع شارل أنجو- ملك صقلية، وزوج خالة ادوارد-، وأثناء وجوده في صقلية مع بعض الأمراء قرر هؤلاء تأجيل الحملة ثلاث سنوات، لكنه رفض التخلي عن نذره الصليبي، وقرر المسير على الرغم من عودة بعض الأمراء المرافقين له، بينما أبحر هو إلى عكا فوصلها في 9 أيار 1271م.⁽⁴⁾

A study of public opinion and ، p. A.: Criticism of the Crusade،Throop⁽¹⁾

p. 81.، 1975، Philadelphia،Crusade propaganda

، 1988،Tyerman G: England and the Crusades 1095 – 1588 Chicago⁽²⁾

p.124.

رنسيما: الحروب الصليبية، 574-573/3.

op. cit. p. 127،Tyerman⁽³⁾

F.M: king ، king: The king hts.P 268.Powicke، England.. p 125،Tyerman⁽⁴⁾

p597.، 1977، Oxford، II،Henry III and The Lord Edward vol

ستيفن رنسيما: الحروب الصليبية، 574 – 573/3. زينب عبد القوي: الانجليز والحروب الصليبية،

ص212-204

بمجرد وصوله إلى سواحل عكا وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، فالتجار المسيحيين نشيطين في تبادلهم التجاري مع المماليك، ويمدونهم بالأخشاب والمعادن اللازمة لصناعة السفن، بالإضافة إلى مواد القار والقطران التي كانوا يستخدمونها في قتال الصليبيين، كما أن سفنهم كانت تنقل الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه المماليك في نظامهم وجيشهم، ولم تجد نفعاً صيحات الاحتجاج من جانبه، ولا أسلحة الحرمان الكنسي من جانب البابا، حتى أن الحاكم البندقي في عكا رفض اعتراضات ادوارد وطالبه بالتغاضي عن ذلك.⁽¹⁾

أمام هذا الموقف المتفكك، والقوة الصغيرة التي ترافقه، أدرك استحالة القيام بهجوم شامل ضد المسلمين مما اضطره إلى اعتماد طريقة الغارات القصيرة الأمد.

وجد ادوارد أن تحالفه مع المغول قد يُجدي نفعاً، لذا بادر بإرسال سفارة إلى أبغا في تبريز حول القيام بعمل مشترك ضد المسلمين، ولسوء حظه فإن أبغا كان مشغولاً في حروبه مع مغول القفقاق ومغول بخارى، وتحالفه مع ادوارد اقتصر على إرسال قوة صغيرة إلى شمال بلاد الشام عن طريق عينتاب بقيادة قائده صمغار قائد الجيوش المغولية في الأناضول، فقام هذا بغارة في 15 ربيع الأول 669هـ/ 21 تشرين الأول 1271م وصلوا بها إلى حارم، ولكنها سرعان ما عادت بمجرد تحرك السلطان بيبرس باتجاه حلب واستدعائه لقواته من مصر، وكانت هذه الغارة كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الإنجليزي.⁽²⁾

(1) Powicke.Op. cit. vol II. P.604-605.

زينب عبد القوي: الإنجليز والحروب الصليبية، ص213. رنسيان: الحروب الصليبية، 575/3.
(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 395-396. النويري: نهاية الأرب، 187/30. ابن أبيك:
الدرة الزكية، ص165. البرزالي: المقتفي، 243/1. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا
وأثرها على العالم الإسلامي، دار عين، القاهرة، ط1، 1997م، ص113. رنسيان: الحروب
الصليبية، 577/3.

Powicke: op. cit. vol II. P.601-602.

أما تحركات ادوارد، فيمكن إجمالها بغارتين، الأولى كانت في نهاية شهر تموز 1271م شنها باتجاه قرية تبعد ثلاث فراسخ عن عكا، وقد دمر القرية، وقتل بعض الرجال، وغنم منها، لكن بالمقابل فقد مات عدد من رجاله بسبب الحر والإنهاك ولسع النحل.⁽¹⁾

أما الغارة الثانية فكانت في تشرين الثاني 1271م، وتبدوا أهميتها والآمال التي علفت عليها من حجم القوات المشاركة، فقد شارك فيها على جانب الفرسان الإنكليز، كل من الداوية والاسبترية وفرسان عكا وقبرص، وكانت بالاتفاق مع المغول على أن يتحركوا سوياً؛ لكن المغول تراجعوا عندما تحرك السلطان إلى حلب، أما الصليبيون فقد هاجموا حصن قاقون، وحققوا نتائج أكثر من الغارة الأولى، وألحقوا أضراراً بالمسلمين، وغنموا غنائم كبيرة، وخوفاً من وصول العسكر إليهم عادوا مسرعين إلى عكا مع منهوباتهم. وفي هذه الغارة قتل أستاذ دار السلطان بيبيرس وبعض الأمراء.⁽²⁾

وفي أول تجربة عملية للتحالف المغولي الصليبي أثبت إخفاقه، ويعلق المؤرخ الإنكليزي (بويك powicke) على هذا التحالف بقوله: " إن حملة ادوارد لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة، ولم تكن مؤهلة بأي حال لاسترداد مدينة بيت المقدس، ولو أن أبغا كان حراً من خطر مغول التركستان وانضم لحملة ادوارد بكل قواته، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التي جعلهم لا يستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم المغولي"،⁽³⁾ في حين وصفها مؤرخ آخر بأنها مجرد غارة.⁽⁴⁾

أما بالنسبة للمقاومة التي أبدتها السلطان، فعندما علم بهجوم المغول على حارم أرسل إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف مقاتل، فوصل هذا إلى دمشق في 4 ربيع الآخر، بينما سار السلطان إلى حلب، ووجد قوة إلى مرعش بقيادة الأمير شمس الدين أستاذ دار، وقوة إلى حران والرها بقيادة الحاج طيبيرس الوزيري وعيسى بن مهنا، وقد نجح هؤلاء بقتل من كان من التتار

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، 86-87.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 396. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 87.

(3) Powicke, F.M: king Henry III, vol, II, p. 603.

(4) كريستوفر مارشال: فن الحرب، ص 270.

في حران، وتراجع المغول بمجرد سماعهم بقدوم السلطان إلى حلب،⁽¹⁾ وبالنسبة للفرنج المغيرين على قاقون، فوصلهم الأمير آقوش الشمسي بعسكر عين جالوت، فانهزموا، ولحقهم حتى استرجع بعض الأسرى "وقتل من رجالاتهم وعرقب من خيلهم".⁽²⁾

قبل الفراغ من الحديث عن الحملة لابد من الإشارة إلى أهمية حصن قاقون، هذا الحصن الذي رسم السلطان بعمارته عندما احتاج لمكان لإسكان الناس فيه بعدما حرر قيسارية وأرسوف وهدمهما،⁽³⁾ شكل هذا الحصن قاعدة متقدمة للمسلمين تجاه الأراضي الصليبية، وأدى وظائف إدارية ودفاعية مهمة، وكان هذا الحصن لابد منه في التصحي لأي غارة تخرج من عثليت.⁽⁴⁾

أدرك ادوارد استحالة تحقيق النصر على القوات الإسلامية، فأثر اللجوء إلى مفاوضة السلطان الظاهر لعقد هدنة تكفل لفرنجة الشرق البقاء في الوضع الراهن، وقد توسط في ذلك شارل أنجو ملك صقلية الذي كان على علاقة طيبة مع السلطان، ولم يصل ادوارد إلى ما يرضيه في الهدنة، لذلك لم يشارك في التوقيع على الهدنة التي عقدت في قيسارية ومدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها 21 رمضان 670هـ/22 أيار 1272م احتفظ بموجبها الصليبيون في عكا بممتلكاتهم التي بقيت بأيديهم في الساحل من عكا إلى صيدا وأن يسمح لهم باستخدام طريق الحج إلى الناصرة، كما كفلت لكونتية طرابلس الأمان.⁽⁵⁾

أما بالنسبة لادوارد فقد عقد الهدنة على أمل العودة مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة أكبر، ولقد أدرك السلطان ما كان يريده ادوارد، فقرر التخلص منه، فاعتمد على والي الرملة غرس الدين بن شاور الذي أرسل أحد الحشيشية إلى عكا على أنه مسيحي شرقي، وطعنه بخنجر

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 395 - 397. البرزالي: المقتفي، 1/ 243-244. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 467-468. النويري: نهاية الأرب، 30/ 187. المقريزي: السلوك، 600/1. بيبيرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص73.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 395 - 397. البرزالي: المقتفي، 1/ 244. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/ 468. النويري: نهاية الأرب، 30/ 188. المقريزي: السلوك، 600/1-601.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 275. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص33.

(4) كريستوفر مارشال: فن الحرب، ص 305-306.

(5) المقريزي: السلوك، 601/1. رنسيما: الحروب الصليبية، 3/ 578-579.

مسموم، إلا أن الطعنة لم تكن قاتلة، ولكن ربما كانت كافية لثنيه عن عزمه، فغادر عكا فور شفائه، ولم يعد إليها ثانية، ولا سيما بعد أن أصبح ملك لإنكلترا في 22 أيلول 1272م،⁽¹⁾ وكانت حملته هذه الأخيرة في العصور الوسطى.

8- تطور الأوضاع بعد عقد الهدنة مع ادوارد:

بعد هذه الاتفاقية ساد الهدوء بين الطرفين، ولم يقيم السلطان الظاهر بيبرس بأعمال عسكرية تُذكر ضد الصليبيين سوى استيلائه على حصن القصير، وهذا الحصن يقع بين حارم وأنطاكية، أهله أهل شر وفساد، وكان مضرّة على الفوعة،⁽²⁾ وكان السلطان لما فتح أنطاكية سنة 666هـ/ 1268م إليه رسل من هذا الحصن للمصالحة فصالحهم على مناصفته ومناصفة القلاع المجاورة له،⁽³⁾ لكنهم لم يلتزموا بالهدنة وأخلوا بها، وكانوا أدلاء للنتار، فعزم السلطان على أخذ الحصن وتم له ذلك في جمادى الأولى سنة 674هـ.⁽⁴⁾

أما أوضاع الصليبيين، فقد كانت غير مستقرة، وقد حاول الملك هيو الثالث ملك قبرص أثناء إقامته في عكا جاهداً لإزالة الخلافات المتجذرة بين الجماعات والهيئات الصليبية وإصلاح حال الفرنجة، إلا أن بذور الانحلال كانت أقوى، حتى هو نفسه بدأ يفقد السيطرة على الأمور في عكا، وأخفق في تحقيق هدفه، ولا سيما عندما وقف مقدم الداوية (وليم بوجيه) في وجهه،⁽⁵⁾ كما أنه فقد السيطرة على بيروت أكبر إقطاع له في الساحل الشامي عندما تزوجت أميرتها إيزابيلا من (هامو) أحد رفاق الأمير ادوارد، وقد كان (هامو) هذا لا يثق ب هيو الثالث، لذا جعل زوجته

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص401. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص88. رنسيما:
الحروب الصليبية، 3/579.

Powicke، F.M: king Henry III، vol، II، p.603.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص443.

(3) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص514.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص444. البرزالي: المقتفي، 1/344. ابن تغري بردي: النجوم،
165/7. ابن شداد (عز الدين محمد بن علي، ت684هـ): تاريخ الملك الظاهر، تح: أحمد حطيط،

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1983م، ص121.

(5) رنسيما: الحروب الصليبية، 3/589-590.

إيزابيلا وإقطاعها (بيروت) في حماية السلطان الظاهر بيبرس، فنرى عندما توفي هامو سنة 671هـ/1273م حاول الملك هيو نقل إيزابيلا إلى قبرص ليختار لها زوجاً من عنده؛⁽¹⁾ إلا أن السلطان الظاهر اعترض على ذلك بحكم حمايته، وكتب إلى هيو قائلاً: "هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ولا بد من حضورها، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلا أنا أحق ببلادها".⁽²⁾

إزاء هذا التهديد وعدم تأييد المحكمة العليا في عكا لما قام به الملك هيو، أضحي لزاماً عليه أن يعيد الأميرة إلى بيروت، حيث استقر حرس الممالك لحمايتها.⁽³⁾ وبتنا الآن أمام مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة بدأت فيها القوة الإسلامية تتحكم بشؤون الممالك الصليبية الداخلية، وبدأ الآن التحالف الصليبي، والاستتجاد الصليبي بالقوة الإسلامية ضد بعضهم البعض، بعد أن كان العكس قائماً منذ عقدين من الزمن.

غادر الملك هيو عائداً إلى قبرص سنة 675هـ/1276م دون أن يعين نائباً عنه يرعى شؤون مملكته في بلاد الشام، وأرسل إلى البابا غريغوري العاشر يشرح له سوء الأوضاع في المشرق، وتَعَدُّرُ إصلاح الأوضاع،⁽⁴⁾ وذلك كمسوغ لرحيله، فاستغل شارل أنجو ملك صقلية هذه الفرصة، وأعلن نفسه ملكاً لمملكة بيت المقدس كوريث للإمبراطور فردريك الثاني ملك صقلية، وقام بإرسال نائب عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير سنة 676هـ/1277م، وكانت الصدمة قوية على هيو الثالث الذي حاول استرداد مملكته الصليبية من جديد، فقصد صور على رأس قوة صليبية كبيرة سنة 678هـ/1279م، إلا أن محاولته باءت بالإخفاق، فارتد خاسراً وذلك بسبب وقوف فرسان

(1) رنسيان: الحروب الصليبية، 586/3.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 447.

(3) رنسيان: الحروب الصليبية، 587/3.

(4) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 94.

الداوية في سبيله، وحاول الكرة مرة أخرى سنة 682هـ/1283م، فأخفق، وتوفي في صور سنة 1284م دون أن يحقق أهدافه.⁽¹⁾

أما بالنسبة لإمارة طرابلس، فقد توفي حاكمها بوهيمند السادس سنة 1275م تاركاً ابناً قاصراً عمره 14 عاماً، عُرف باسم بوهيمند السابع ليخلفه على عرش إمارة طرابلس، وتم ذلك بعد خلافات حادة بين الصليبيين أنفسهم، وقام بوهيمند السابع وتقدم إلى السلطان بتجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع والده، فوافق السلطان على أن يدفع الأمير بوهيمند السابع مبلغاً قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة، ويرد إليه عشرين أسيراً، فقبل بوهيمند ذلك، وعقدت الهدنة بينهما في محرم 674هـ/1276م.⁽²⁾

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 94-95، 102-103. رنسيمان: الحروب الصليبية، 591/3-592.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 89. ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، ج 7، ص 40.

ثانياً- العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد المنصور قلاوون " 679-689هـ / 1280-1290م":

أعقب وفاة الظاهر بيبرس بعض الفتن، فلم تتمكن أسرته من الاحتفاظ بالعرش، إذ تم خلع ابنه سلامش سنة 678هـ/1279م بعد مدة قصيرة من خلع أخيه السعيد بركة، وتسلمن الأمير سيف الدين قلاوون الذي كان أتاكياً للعسكر في شهر رجب من ذلك العام، وقد نجح في تأسيس أسرة تعاقب سلاطينها على حكم السلطنة حتى سنة 784هـ/1382م .

واجه السلطان المنصور قلاوون كغيره من سلاطين المماليك معارضة داخلية لحكمه، تمثلت بخروج سنقر الأشقر نائب دمشق، معارضاً مبايعة قلاوون ومعلنأ استقلاله، وقد تلقب بالملك الكامل،⁽¹⁾ انضم إليه في التمرد بعض رؤساء القبائل مثل عيسى بن مهنا أمير العربان في البلاد الشرقية والشمالية، وأحمد بن حجي أمير العربان في البلاد القبلية، وأصبح تقريباً نصف المملكة بيده، وباتت الأمور خطيرة، فرأى السلطان قلاوون أن يتدارك الفتنة في مهدها قبل تطورها، فأرسل جيوشه بقياده الأمير علم الدين سنجر الحلبي والأمير بدر الدين بكتاش الفخري اللذان تمكنا من إنزال الهزيمة بسنقر الأشقر وقواته في صفر 679هـ/ بعد أن تخلى عنه العسكر الحموي والحلبي، وخامر عليه أكثر أفراد العسكر الشامي إذ تركوه وانضموا إلى العسكر المصري.⁽²⁾

سار الأمير سنقر الأشقر بهد هزيمته إلى الرحبة، وعندما امتنع أميرها موفق الدين خضر الرحبي من تسليمها له ويئس منه الأمير سنقر، كتب إلى أبغا بن هولكو حاكم مغول فارس يحثه على قصد بلاد الشام ويحسن له ذلك، ويعده بالمناصرة، وكذلك فعل عيسى بن مهنا أمير العربان.⁽³⁾

(1) المقرئزي: السلوك، 670/1. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 52/1. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ 122. ابن

الفرات: تاريخ ابن الفرات، 162/7.

(2) ابن حبيب: المصدر السالف، 57/1-58. المقرئزي: المصدر السالف، 676/1. النويري: نهاية

الأرب، 17/31-19. ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 236.

(3) النويري: نهاية الأرب، 31/ 20. المقرئزي: السلوك، 677/1. ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 237.

وفعلاً استغل ابغا بن هولكو هذا العرض لتحقيق مراده، إذ دفع بقوة عسكرية إلى شمال بلاد الشام في سنة 679هـ/1280م احتلت عينتاب وبغراس ودريساك وحلب لبعض الوقت، ثم انسحبت بعدما أحدثته فيها من تدمير وتخريب وكان مما عجل بانسحابها، تراجع الأمير سنقر الأشقر عن موقفه ووقفه إلى جانب السلطان قلاوون - وقد تقدم في الفصل الثاني الحديث بالتفصيل عن تمرد سنقر الأشقر - (1).

من الجانب الصليبي، حاول هؤلاء استغلال فرصة الاضطرابات التي واجهت السلطنة بسبب ثورة الأشقر، فكثر فسادهم، وامتد طمعهم إلى الأملاك الإسلامية؛ فجرد السلطان قوة عسكرية بقيادة الأمير علاء الدين البندقداري إلى الساحل الشامي لحفظ البلاد من الصليبيين، كما أذن في أواخر سنة 679هـ/1281م إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الأكراد بمهاجمة فرقة الاسبتارية في المرقب بعد أن استأذنه في ذلك، وكانت هذه الفرقة قد تعدت على أملاك المسلمين مستغلة الفوضى التي حدثت، إلا أن الطباخي لم ينجح في هجومه، ونال الصليبيون من القوات الإسلامية قتلاً وأسرًا ونهباً، ووصل عدد قتلى المسلمين في هذه الواقعة إلى مائتي فارس وراجل. (2)

أمام هذا الموقف وجد السلطان أنه لا بد من إعادة حساباته، والسير على نهج السلطان الظاهر بتفريق أعدائه دبلوماسياً، بشكل يحول دون حدوث تعاون صليبي صليبي، أو صليبي مغولي، بل أكثر من ذلك محاولة الاستفادة منهم، ففي سنة 680هـ/1281م كان السلطان قد غادر القاهرة باتجاه فلسطين، وعندما نزل منزلة الروحاء بالقرب من حيفا ورد عليه رسل الاسبتار من عكا يسألون تجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع السلطان بيبرس سنة 670هـ/1272م، وبعد مفاوضات عقد السلطان المنصور قلاوون هدنة معهم، وشملت الهدنة أيضاً قلعة المرقب وريض المرقب، وكانت مدتها إحدى عشرة سنة تقريباً أولها 12 محرم 680هـ/3 أيار 1281م، (3) وفي وقت

(1) ابن تغري بردي: النجوم، 298/7-299. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 185/7-186. العيني:

عقد الجمان، 254/2. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 134/9.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 195/7. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 135/9. ابن أبيك: الدرّة

الزكية، 239. البرزالي: المقتفي، 498/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 52/4. أبو الفداء:

المختصر، 346/2. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 97.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 137/9، 157. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 204/7-205.

لاحق عقد السلطان هدنة أخرى مع بوهيمند السابع صاحب طرابلس لمدة عشر سنوات تبدأ بـ 27 ربيع الأول 680هـ/16تموز 1281م.⁽¹⁾

بهذه الاتفاقيات تمكن السلطان من التفرغ كلياً للمغول وقتالهم، وبالفعل فقد تمت هزيمة المغول في موقعة حمص سنة 680هـ/1281م، وقد أدهش انتصاره في معركة حمص الصليبيين، فتقدمت الداوية في عكا والساحل وأنطربطوس بطلب عقد هدنة معه، فوافق على هذا الطلب وعقد معهم هدنة مدتها عشر سنين وعشرة أشهر تبدأ بـ 5 محرم 681هـ/15نيسان 1282م⁽²⁾، وأعقبها في السنة التالية عقد هدنة أخرى عامة مع حكام صيدا وعكا وعتليت وفرسان الداوية والاسبتارية فيها مدتها عشر سنين وعشر أشهر أولها 5 ربيع الأول 682هـ/ 3 حزيران 1283م⁽³⁾، ولم تذكر صور ولا بيروت في الهدنة.

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 205/7. المقرئزي: السلوك، 685/1. بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 157/9.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، وزارة الارشاد والثقافة، القاهرة، 1961م، ص20.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص34-43. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 262/7-270. بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 178/9.

قبل البدء في الحديث عن العمليات العسكرية للسلطان قلاوون ضد الصليبيين لابد من التنكير بأحوال الصليبيين في بلاد الشام والتي كانت قد تغيرت كلياً، فقد بدء المنصور قلاوون حكمه سنة 679هـ/1280م، والصليبيون في حالة لا يحسدون عليها، فقد أتعبتهم حروب الظاهر بيبرس التي شنّها ضدهم، كما أنهكتهم الصراعات الداخلية، ومعظم ما تبقى من أراضي تحت سيطرتهم؛ دخلت في مفاوضات مع المماليك، الذين شاطروهم منتجاتهم عن طريق المناصقات والمثالثات.

كما هو معلوم؛ بدء الظاهر بيبرس حكمه والصليبيون يسيطرون على الساحل الشامي بالكامل من خليج اسكندرونة حتى يافا، ويتصلون شمالاً مع مملكة أرمينية الصغرى عبر ممرات الأمانوس التي وقعت تحت سيطرتهم أيضاً، ولم يكن للمسلمين منفذاً على البحر المتوسط في تلك المناطق، والموانئ والتجارة الشامية كلها في يد الصليبيين، وقد انتهى حكمه بعد أن فقد الصليبيون نصف أراضيهم تقريباً، وتقدم المسلمون على حسابهم تقدماً كبيراً، ويمكن إجمال اعماله واختصارها بثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: هدفت تحرير جنوب فلسطين لتأمين حرية الحركة للقوات الإسلامية بين مصر والشام، وتمكنت حملتي 663هـ و664هـ من تنفيذ هذه الخطوة عندما حررت أرسوف وقيسارية وصفد.

الخطوة الثانية هدفت تحرير الشمال الشامي لقطع الاتصالات بين الصليبيين والأرمن، وكانت حملة 666هـ كفيلة بتحقيق هذا الهدف، إذ تمكنت من تحرير أنطاكية وبغراس أحد ممرات الأمانوس، وقبل ذلك كانت قد حررت يافا وبات الصليبيون منحصرين بين اللاذقية وعتليت.

الخطوة الثالثة هدفت ضرب الصليبيين في الوسط وتقطع أوصالهم بتحرير طرابلس، ولهذه الغاية سارت حملة سنة 669هـ، تمكنت من تحطيم الدفاعات الشرقية لكونتية طرابلس تمهيداً لاجتياحها، فحررت حصن الأكراد، وعكار، وصافيتا، والقرين،...لكن القدر لم يمهل السلطان بيبرس إذ توفي قبل تحرير طرابلس، فتابع المهمة مكانه السلطان قلاوون.

1- تحرير حصن المرقب، 684هـ/1285م:

بعد أن ضعفت جبهة المغول أخذ السلطان المنصور يتحين الفرص للانقضاض على معقل الصليبيين، فكان أول أعماله فتح حصن المرقب القريب من بانياس، وكان فيه الاستبارية الذين زاد بغيتهم وعدوانهم وكثر فسادهم، وضايقوا أهل البلاد المجاورة، ولم يقفوا عند الأيمان التي حلفوها على الهدنة⁽¹⁾، لذا لم يجد السلطان بُدأً من تحريره، فتحرك على رأس جيش من القاهرة إلى دمشق فوصلها في 22 محرم 684هـ/1285م وبعد استكمال تجهيزاته تحرك بسرية تامة من دمشق دون أن يعلم أحد بوجهته، وقد نازله في 10 صفر/7 نيسان من السنة ذاتها، وبعد أن اكتمل حصاره ونصب المجانيق عليه، بدأ بقصفه من جميع الجهات.⁽²⁾

وقع حصن المرقب فوق هضبة معزولة، شكلها مثلثي، وارتفاعها 360م، وتشرف على البحر المتوسط، كانت ملكاً للاستبارية بحق الشراء، وكونت مركزاً إدارياً لأراضي واسعة تجمعت وتعاظمت لتشكل إمارة مستقلة.

تحكمت هذه القلعة بالطرق الساحلية إلى الشمال والجنوب منها، وكانت من القوة ما مكنها من فرض الجزية على جيرانها المسلمين حتى سقوط حصن الأكراد سنة 1271م، عندما أصبح المسلمون على مقربة منها، وتقسّم القلعة إلى قسمين؛ القلعة الأساسية، والربض، فصل بينهما خندق، والأسوار المدعمة باثني عشر برج تسير حافة الهضبة من كافة الجهات، وفي سنة 1212هـ/وصفها رحالة ألماني قائلاً: " هي القلعة الأقوى في جميع هذه البلاد، وهي تواجه عدداً كبيراً من القلاع، هي قلاع شيخ الجبل (الإسماعيلية) وقلاع سلطان حلب، وقد وضعت حداً لطغيانهم إلى حد أنها تستطيع أن تجمع جزية سنوية "،⁽³⁾ أما ابن عبد الظاهر فوصف حصنها بأنه " أعجز الملوك ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه، فكيف النزول عليه".⁽⁴⁾

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص77. بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص200.

(2) المقرئزي: السلوك، 1/727-728. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص268. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص

84. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/314-315.

(3) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، 237-240. فينز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص71.

(4) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص77.

إلى جانب هذه المنعة، أظهر الصليبيون فيه مقاومة شديدة ، لكن هذا لم يثنِ عزم السلطان على اقتحام الحصن، فشدد ضرباته حتى أجبر الصليبيين بداخله على الاستسلام، وطلب الأمان بعد أن تمكنت النقوب من أسوار القلعة، فأمنهم السلطان، وسمح لهم بمغادرة الحصن يحملون ما يشاؤون إلا السلاح، فغادروا الحصن بأموالهم الخاصة إلى أنطربوس في حماية عسكرية من السلطان ثم اتجهوا إلى طرابلس، ودخل السلطان القلعة في 19 ربيع الأول/25 أيار من السنة ذاتها.⁽¹⁾

ونظر لمنعة حصن المرقب وأهميته العسكرية، حرص السلطان على تسلمه سالماً دون تدمير، ورتب فيه ألف رجل من فرق الجيش وعدداً من الأمراء أصحاب الطبلخانات وخمسين من المماليك البحرية، فضلاً عن أربعمئة من أرباب الصنائع، كما زوده بأصناف عديدة من الأسلحة وأوقف على عمارته أوقافاً.⁽²⁾

2- تدمير حصن مرقية:

بالقرب من المرقب، وتحديداً شمال طربوس بعشرة أميال عند نبع يسمى نبع حسان، وقعت مدينة مرقية التابعة للداوية، كانت هذه قد أُخليت على إثر فتح حصن الأكراد سنة 669هـ، ثم عاد إليها صاحبها (بارثلميو) بعد وفاة الملك الظاهر سنة 776هـ، وعمر قبالتها في البحر برج بين أنطربوس والمرقب بمساعدة كونت طرابلس واسبتارية المرقب، وذكر ابن عبد الظاهر أن هذا البرج " داء دخيل، لا يحصل راحة ولا أمن بوجوده وبقائه"،⁽³⁾ ويقول ابن أبيك أنه برج عظيم لا يُرام، لا تصله النشاب ولا حجر المنجنيق.⁽⁴⁾

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص79-80. أبو الفداء: المختصر، 355/2. ابن

الفرات: تاريخ ابن الفرات، 17/7-18. ببيرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص201. العيني: عقد

الجمان، 338/2. البرزالي: المقتفي، 63/2. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص107.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص80-81.

(3) تشریف الأيام والعصور، ص87.

(4) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص271. النجوم الزاهرة، 316/7.

وعندما أدرك السلطان عدم إمكانية حصاره لافتقاره (أي السلطان) إلى مراكب حربية ذلك الحين ليحاصره ويقطع الميرة عنه، لجأ إلى الحيلة للتخلص منه، فأرسل إلى أمير طرابلس يطلب منه هدم هذا الحصن لأنه ساعد في بنائه، وإلا فإن السلطان سيجتاح إمارته إن لم ينفذ الهدم، وكان مما قال له: "إن العساكر قد تفرقت وما بقي إلا أنت، وهذا البرج أنت الذي عمرته في الحقيقة، ولولا إعانتك لما بني، وأنت المؤاخذ به، فإما أن يهدم، وإلا أخذنا قبالتة من بلادك ما لا ينفك في الدفع عنه صاحب مرقية، وتندم حيث لا ينفع الندم"،⁽¹⁾ فلم يسع أمير طرابلس إلا الإذعان، فتوسط لدى صاحب هذا الحصن مقابل جملة من المال، كما عوضه بعادة ضياع من إمارته بدلاً منه، فهدمه مرغماً، وقد أرسل السلطان مائة حجار للمشاركة في الهدم نكاية بالصلبيين، وهدم حصن مرقية "حجراً حجراً".⁽²⁾

روع هذا الحدث جموع الصليبيين في بلاد الشام، فتسابقوا لعقد الاتفاقيات مع السلطان، فكان أن تقدمت أميرة بيروت بطلب عقد الهدنة مع السلطان، فطالبها بدفع مبلغ تسعين ألف درهم مقابل ذلك، فتم الاتفاق على أن تدفع ثلاثين ألف درهم مباشرة، ويتم دفع ما تبقى في غضون ثلاثة أشهر،⁽³⁾ وكذلك تقدمت الأميرة مرغريب أميرة صور بطلب عقد هدنة، فوافقها السلطان المنصور مقابل تنازلها عن نصف دخل إمارتها السنوي وتعهدا بعدم تجديد تحصيناتها، وعلى هذا الأساس تم عقد الهدنة معها لمدة عشر سنين أولها 14 جمادى الأولى 684هـ / 18 تموز 1285م.⁽⁴⁾

• عودة ملكية بيت المقدس إلى هنري الثاني ملك قبرص:

في كانون الثاني 1285م توفي الملك شارل أنجو الكبير، ملك صقلية، ولم يكن ابنه شارل الثاني ملك نابولي يهيمه ما يجري في المشرق، لذا فقد أرسل الاستبارية في عكا إلى الملك هنري الثاني ملك قبرص - الذي جرى تنويجه سنة 1285م بعد وفاة أخوه جون الأول - ينصحونه باسترداد ملك أبيه في مملكة بيت المقدس "عكا" لذا فقد أرسل هنري الثاني - التواق لاسترداد مملكة

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 89.

(2) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 89. ابن أبيك: الدررة الزكية، ص 271. النجوم الزاهرة، 317/7.

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 89-90. ابن تغري بردي: النجوم، 316/7.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 103.

بيت المقدس_ مبعوثاً عنه إلى عكا ليُجري مفاوضات مع مختلف الهيئات الصليبية للاعتراف به ملكاً على بيت المقدس، وكان يرغب هنري نفسه بالقدوم إلى صور، إلا أن علاقته السيئة بالداوية منعتة من ذلك.

وصل المبعوث إلى عكا وأقام في مقر الاسبتارية في عكا، وتحدث عدة مرات مع مقدم الداوية وليم أوف بيجو، وفي النهاية تمكنوا من الوصول إلى اتفاق لحل لخلافاتهم، وتم توقيع معاهدة بذلك، غير أن أودو بويليشين Odo Poliechien النائب عن ملك صقلية في مملكة بيت المقدس رفض أن يتخلى عن نيابته.

وفي السنة نفسها 1286/هـ685م وصل هنري الثاني ملك قبرص إلى عكا ومع قوة كبيرة من الفرسان، مع خيالة، ورجالة، وأسطول من السفن الرائعة ليضع حداً لرفض أودو بويليشين الذي كان قد شحن القلعة بالسلاح والرجال، وأندرت الأحوال بحوث صدام عنيف بين الطرفين لولا تدخل كل من مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية ومقدم التيوتون الذين رأوا أن المأساة وشيكة الوقوع، فذهبوا إلى ملك قبرص هنري الثاني وتحدثوا معه، ثم ذهبوا إلى أودو - نائب ملك صقلية- وتحدثوا معه أيضاً، وأخيراً اضطر أودو إلى الإذعان والموافقة، وجرى تتويج هنري ملكاً على القدس في كاتدرائية صور في 15 آب من ذلك العام وتكون بذلك قد عادت مملكة بيت المقدس إلى ملوك قبرص، وقبل أن يغادرها هنري الثاني إلى قبرص ترك خاله اللورد "بلدوين اوف إيبيلين" نائباً عنه في عكا (1).

3- تحرير اللاذقية- 686هـ/ 1287م:

كانت اللاذقية تشكل الحدود الشمالية للصليبيين، ويأتي تحريرها تماشياً مع السياق الذي انتهجه السلطان قلاوون في تحرير المناطق الشمالية (المرقب ومرقية).

(1) الفارس الداوي: أعمال القيارصة ص107-110. وكان هذا شاهد عيان، وهو الذي كتب نص الاتفاق الذي حدث بين الداوية ومبعوث ملك قبرص. أيضاً راجع: رنسيان: الحروب الصليبية، 671-669/3.

قبل تحرير اللاذقية، أمر السلطان القوات المرسله لهذه المهمة بقيادة نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي بالتوجه لإخضاع حصن صهيون حيث يقيم الأمير سنقر الأشقر، وكان هذا الأخير قد امتنع عن الحضور لمساعدة السلطان عند حصاره لحصن المرقب سنة 684هـ/1285م واكتفى بإرسال ولده مما أغضب السلطان قلاوون الذي قام باحتجاز ولده وحمله معه إلى الديار المصرية، ومما أثار حفيظة السلطان ضده أيضاً أنه كان يشن الغارات على البلاد التي حوله، وخرج عما تم عليه الاتفاق وأبدى نوعاً من الشقاق مما أوجب إخضاعه،⁽¹⁾ وفعلاً حاصر طرنطاي الحصن ونصب عليه المجانيق، بعد أن امتنع الأشقر عن الخروج وتسليم الحصن، وعندما أشرف على أخذه عنوه، أرسل سنقر الأشقر في طلب الأمان والأيمان، فحلف له طرنطاي أن السلطان لا يضر له سوءاً، فنزل الأشقر إلى الأمير حسام الدين طرنطاي وسلمه الحصن، وقام هذا الأخير ورتب فيه نائباً من قبل السلطان في صفر سنة 686هـ/1287م.⁽²⁾

وقع حصن صهيون إلى الشرق تماماً من اللاذقية، ويمكن عد هذه العملية (إخراج سنقر الأشقر منه) عملية وقائية أراد السلطان من خلالها تأمين ظهر الجيش الذي سوف يهاجم اللاذقية، لأنه كما يبدو لم يكن يثق من إمكانية تقديم سنقر الأشقر المساعدة لهذا الجيش لو احتاجها.

ولما فرغ حسام الدين طرنطاي من أمر حصن صهيون، عدل إلى جهة اللاذقية ونقل إليها أدوات الحصار، وكانت في المدينة برج حصين على حد قول ابن عبد الظاهر حيث وصفه: "وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات، وآفة عليها من أكبر الآفات، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلب المسلمين، وذخيرة لأعداء الدين، وذلك أنه في وسط البحر، لا تسلك إليه طريق من بر ولا ينقب له سور"، ويضيف أبو الفداء أنه في البحر تحيط به المياه من جميع الجهات،⁽³⁾ وفي هذه السنة

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 48/8. المقرئزي: السلوك، 734/1. بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 207/9.

(2) بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 207/9. ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 148-150. المقرئزي: السلوك، 734/1-735. أبو الفداء: المختصر، 356/2-357. البرزالي: المقتفي، 103/2. النويري: نهاية الأرب، 23/31-24.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 151. أبو الفداء: المختصر، 357/2.

تهيأت الفرصة للسلطان بأن زلزالاً ضرب المنطقة في شهر صفر / آذار وتهدم معظم البرج الذي في وسط البحر، وكان ذلك من الأسباب التي سهلت فتحه.⁽¹⁾

استطاع حسام الدين نصب المجانيق على أمكنة ضيقة جداً قبالته ووسع الجسر الواصل إليه، وشرع في مهاجمته إلى أن تمكن من إحداث النقوب من جهة الأمكنة التي هدمتها الزلزلة، وكشفت المدينة من جهة البحر، فخاف من بداخلها ولم يقو على المقاومة، فطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير حسام الدين على أنفسهم وأموالهم على أن يخرجوا منه تاركين ما به من عدد وسلاح، فتركوه وتوجهوا إلى جهات عدة، وتسلمه الأمير حسام الدين في 5 ربيع الأول / 19 نيسان من السنة المذكورة.⁽²⁾

4- تحرير طرابلس، ربيع الآخر 688هـ / نيسان 1289م:

شغلت طرابلس مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية، فقد كانت مقر كونتية (إمارة)، أسسها ريموند أوف سانت جايل؛ كونت تولوز، أو ريموند الصنجيلي حسب التسمية العربية، كان هذا أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وظلت أسرته تتوارث حكم هذه الإمارة حتى سنة 583هـ/1187م حيث انتقل حكم طرابلس إلى حكام أنطاكية النورماندين.⁽³⁾

مدينة طرابلس تقع على الساحل اللبناني الشمالي، وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة هناك تلة عُرفت باسم تلة الحجاج، اختارها ريموند الصنجيلي هذا لبناء قلعة، استمرت بيد الصليبيين حتى تم تحريرها على يد المنصور قلاوون كما سيتبين، وما تزال حتى الآن القلعة تعرف باسم قلعة صنجيل، وحسب ما ذكر وليم الصوري؛ بنيت القلعة لغايات هجومية، وقد كانت محصنة بشكل جيد بموقعها الطبيعي ومهارة الذين شيدها، استخدمها ريموند الصنجيلي مقراً وقاعدة للعمليات العسكرية التي قام بها في المنطقة، وخاصة ضد مدينة طرابلس ذاتها التي ظلت تقاوم حتى أيام

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 151-152.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 152. أبو الفداء: المختصر، 357/2. رنسيان: الحروب الصليبية، 681/3.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 195/9.

ابنه برتراند سنة هـ/ 1109م، وانطلاقاً من هذه القلعة فرض ريموند الصنجيلي سيادته على لمناطق المجاورة، وأجبر سكان المنطقة على دفع الجزية له.⁽¹⁾

بقيت مدينة طرابلس نفسها بمنأى عن هجمات الدولة المملوكية بحكم المهادنات التي عقدت مع أمرائها، وفي ظل هذه المهادنات كان طرابلس آمنة من أي هجوم إسلامي مما جعلها تزدهم بالصلبيين الذين لجئوا إليها من المعازل الصليبية التي حررتها القوات الإسلامية، ولكن هذا لا يعني أن تتخلى السلطنة المملوكية عن تحرير طرابلس وطرد الصليبيين منها ومن بلاد الشام، إلا أنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتفاض عليها وإعادتها إلى الحضيرة الإسلامية.

خلال ذلك كانت الغارات - كما سلف - لا تتوقف على أنحاء طرابلس بغية إضعافها وتشعيب الأراضي حولها، وكمقدمة لاقتحامها كان السلطان الظاهر قد جردها من دفاعاته الشرقية والشمالية عندما حرر حصن الأكراد وعكار وعرقه والقليعات وحلبا، وفي هذا الوقت بدأت ظروف طرابلس الداخلية تساعد على تحقيق المشروع المملوكي الهادف إلى تحريرها، فقد حدث في 19 تشرين الأول 1287م أن مات الأمير بوهيمند السابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس، ولم يكن هناك ولد يخلفه،⁽²⁾ وبالتالي فإن أخته لوسي - التي كانت قد تزوجت من نارجوت أوف توسي Narjot of Toucy أمير البحر السابق عند شارل أنجو- هي وريثه الشرعي، وهذه كانت غائبة عن المدينة، ولم يشأ قادة المدينة استدعائها، فقام فرسان أنطاكية وطرابلس وعرضوا على أم الأمير المتوفى- وهي أخت ملك أرمينية الصغرى- تعيين حاكم لطرابلس، فأرادت تعيين أسقف طرطوس (السير بارتلميو الجبيلي Bartholomew of Jubail) المنبوذ من قبلهم، فعارضوا ذلك، وأسسوا في طرابلس كومونه، أي حكم بلد مستقل - مجلس بلدي- بزعامة بارثولوميو ايمبرياكو لحكم كونتية طرابلس، وهذا الأخير من أسرة حكام جبيل الأسرة الجنوبية المشهورة

(1) وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار نوبليس، ط1، 1990م، 511/3.

جاك دي فتري (أسقف عكا وبطربرك القدس والنائب البابوي في فرنسا وألمانيا): تاريخ القدس، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 140/34-141.

(2) الفارس الداوي: أعمال القيصرية، ص122. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص287-281.

(Embriacos)، فقام بمراسلة جمهورية جنوة ليحصلوا منها على الدعم مقابل امتيازات، فأرسلت جنوة أحد أفراد أسرة زكاريا (Zaccaria) المشهورة، واسمه (بينيدتو) مع عدد من السفن.

في هذه الآونة عندما وصل خبر وفاة بوهيمند السابع إلى أبوليا قام الأدميرال نارجوت بإرسال زوجته لوسي إلى عكا وأخبرها بأن تعتمد على فرسان القديس يوحنا "الاسبتارية" الذين استقبلوها إحدى قلاعهم خارج طرابلس، وقدموا لها كل دعم، في حين رفض أهالي طرابلس حكمها بسبب ما لاقوه من جور أيام حكم أخيها وأبيها، وجعلوا دخولها إلى طرابلس مشروطاً بأن تقسم بالحفاظ على هذه الكومونه ودعمه، وكانت الكومونه قد عقدت ميثاق مع جمهورية جنوة أصبحت بموجبها طرابلس تحت حماية جنوة، وقد حصلت جنوة مقابل ذلك على شوارع وأسواق عديدة في طرابلس، وكانت جنوة تتوق لعقد مثل هذه الاتفاقية نظراً للمكاسب التجارية التي ستحققها من طرابلس.

تعاطف أهل طرابلس مع لوسي، فكتبوا لها قائلين أنها إذا ما رضيت بمطالبهم، وثبتت ما أعطي إلى الجنوبيين، إنهم سوف يستقبلونها، وأمام تهديدات زكاريا تنازلت لوسي، ثم عقد اجتماع في صور بين السيدة لوسي ومبعوث جنوة السيد زكاريا، وتم التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين، يتضمن موافقة الجنوبية على إعلانها أميرة على طرابلس مقابل موافقتها على جميع ما حصلت عليه جنوة، وموافقتها على صلاحيات كومونة طرابلس المؤسسة حديثاً، ثم ذهب الجميع إلى طرابلس.⁽¹⁾

نستنتج من هذا أن طرابلس خرجت من حكم النورمانديين ووقعت فعلياً تحت سيطرة جنوة ممثلة بمندوبها (بينيدتو زكاريا)، وقد حولتها إلى مركز لتجارتها، وهذا يعني أن طرابلس ورثت عداوات جنوة التقليدية المتمثلة بباقي الفئات التجارية كالبنادقة والبيازنة وغيرهم، ومن الطبيعي ألا يُرضي هذا الاتفاق كل الأطراف الصليبية، حتى أنه لم يُرضِ بارثولوميو ايمبرياكو، لذلك قام أحد هذه الأطراف بمراسلة السلطان يحذره ويستدعيه لمهاجمة طرابلس. ويذكر ابن تغري بردي واليونيني أن بارثولوميو هذا هو الذي راسل السلطان قلاوون ودعاه لمهاجمة طرابلس، على أن

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص122-126، وهو شاهد عيان على هذه الأحداث. رنسيان: الحروب الصليبية، 681/3-683.

تكون المدينة مناصفة بينهما،⁽¹⁾ أما الفارس الداوي الذي كان شاهد عيان؛ فذكر أنه يعرف الرسولين الذين تم ارسالهم إلى السلطان، ولكنه رفض تسميتهم.⁽²⁾

على كل حال؛ الذي قام بعملية المراسلة هو من أعداء جنوة، لأن كل التغيرات التي حدثت في طرابلس كانت لصالح الجنوبية، وإن لم يكن بارثولوميو هو المراسل للسلطان، فلا يعدوا أن يكون البنادقة أو البيازنة هم الذين راسلوا السلطان.

قابل المنصور قلاوون هذان الشخصان، وأظهر له خطر وجود الجنوبية في طرابلس على السلطنة المملوكية سياسياً وتجارياً، فطرابلس بإمكاناتها الذاتية من دون جنوة تستطيع أن تسليح عشر إلى خمس عشرة سفينة، لكن الآن والجنوبيون في طرابلس سوف يكونوا قادرين على تسليح ثلاثين سفينة، وسوف يتحكمون بالبحر كما يشاؤون، ولهذا آثاره السلبية على التجارة المملوكية.⁽³⁾

هذا ما أثار مخاوف السلطان وجعله يتحين الفرص للانقضاض على طرابلس التي كانت تربطه معها هدنة، وأثناء ذلك وصلت رسالة من الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام تفيد بأن الصليبيين بطرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وأسروا عدداً منهم في أواخر سنة 687هـ/1288م، الأمر الذي أعطاه المسوغ لمهاجمة مدينة طرابلس، فشرع في تجهيز قواته وإعدادها وتحرك على رأس الجيش في منتصف المحرم 688هـ/ شباط 1289م.⁽⁴⁾

- المسير إلى طرابلس:

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، مخطوطة جامعة ييل في أمريكا، تحت رقم H 139-140، ج 11، ورقة 3-و. ابن تغري بردي: النجوم، 320/7-321.

(2) الفارس الداوي: أعمال القيارصة ص 126.

(3) الفارس الداوي: أعمال القيارصة ص 126.

(4) ربما تكون هذه حجة ولم يحصل أي اعتداء.

راجع: المقريزي: السلوك، 746/1. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 80/8. ببيرس الدوادار: زبدة الفكرة، 214/9. النويري: نهاية الأرب، 47-46/31.

كالعادة أخفى المماليك وجهة الحملة للإستفادة من عنصر المفاجأة، لكن مقدم الداوية علم بنيّة السلطان قلاوون عن طريق الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير السلاح؛ الذي كان معتاداً على إخبار مقدم الداوية بالقضايا التي كانت تهم الصليبيين مقابل هدايا وأموال يرسلها إليه مقدم الداوية كل عام.⁽¹⁾

قام هذا بإخبار أهل طرابلس، فبدأت الاستعدادات للدفاع عن طرابلس، ووصلت المساعدات من قبرص وعلى رأسها عموري أخو ملك قبرص، والداوية، والاسبتارية، والبيازنة، والبنادقة؛ على الرغم من العداء القائم بينهم، بالإضافة إلى عدد كبير من فرسان وسيرجنديّة ملك فرنسا، وكان هناك الكثير من شعب البلاد، وكانت المدينة مليئة بالرجال والفرسان.⁽²⁾

في وقت كتب فيه السلطان إلى جميع النواب بالممالك الشامية والحصون الإسلامية يأمرهم بتجهيز العساكر والمنجنيقات، ثم وصلوا إلى مشارف طرابلس وبدأوا بمنازلتها في مستهل ربيع الأول/ 17 آذار 1289م، كان الحصار يتركز بشكل كبير على الجهة الشرقية نظراً لكون المدينة محاطة من بقية الجهات بالبحر"وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل".⁽³⁾

ركز السلطان هجومه على الأماكن الضعيفة من المدينة وبلغ عدد المنجنيقات حوالي تسعة عشر منجنيقاً، معظمها كان على الجهة الشرقية كما ذكر،⁽⁴⁾ فهاجم برج الأسقف في الركن الجنوبي الشرقي، وقصفته آلات الحصار بشكل متواصل، حتى أنه تصدع تماماً، ومثل هذا برج الاسبتارية الممتد إلى البحر الذي كان جيداً ومتيناً، وقد خرق بشكل جيد حتى بات بإمكان حصان أن يمر من خلاله، وكان لدى السلطان عدد كبير من الرماة، ففي كل مكان قد وزع السلطان

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة ص127.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص127-128.

(3) أبو الفداء: المختصر، 358/2.المقريزي: السلوك، 746/1. ببيرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص214-215. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 80/8. النويري: نهاية الأرب، 47/31. الفارس الداوي: أعمال القبارصة ص128.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 80/8. ببيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 215/9. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص289-290.

حوالي عشرين من الرماة بشكل لم يسمح لأحد من رماة الصليبيين على التجراً على إظهار نفسه ليرمي بالقوس، لأنه لو حاول فعل ذلك لأصيب على الفور.⁽¹⁾

لذلك باتت المدينة في حالة سيئة كثيراً، وفي وسط هذا كله قام البنادقة الذين كانوا هناك في غليونين بالتجمع للهرب إلى أرمينية بعد أن رأوا المدينة على وشك السقوط، وعندما رآهم بعض المدافعين سارعوا أيضاً إلى الفرار معهم، الأمر الذي أدى إلى ارباك المدافعين عن المدينة، ونتج عن ذلك أن غادر الأمير عموري ومعه عدد كبير من قادة الصليبيين المدينة هارين إلى قبرص.⁽²⁾

استغل السلطان قلاوون هذا الخلل بعد أن أدرك أن من بقي بالمدينة لا يقوى على الدفاع عنها، فضغط عليها بشدة، ووجدت قواته طريقاً إلى الداخل عبر السور الشرقي المهدم، واستولوا عليها في 4 ربيع الآخر 688هـ/26 نيسان 1289م، فبادر الصليبيون بالهرب إلى جزيرة بمحاذاة طرابلس قريبة من الساحل، وتبعهم المسلمون فقتلوا وجرحوا وأسروا عدد كبير منهم.⁽³⁾

كان المؤرخ أبو الفداء صاحب المختصر أحد المشاركين في حصار طرابلس مع أبيه وعمه الملك المظفر صاحب حماة، وبعد أخذ المدينة يقول: "وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة، وفيها كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة، وإلى الكنيسة التي فيها، عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء والصغار، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب، عَبرَتْ إليها في مركب فوجدتها ملاء من القتلى، بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى".⁽⁴⁾

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 128-129.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارص ص 129. رنسيما: الحروب الصليبية، 687/3. التدمري، عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس، ص 585.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة 3 و. الفارس الداوي: أعمال القبارصة 129. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 80/8؛ ويذكر اسم الجزيرة بـ "جزيرة النخلة"، وربما المقصود هو جزيرة أرواد. بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 215/9. ابن تغري بردي، النجوم، 321/7.

(4) المختصر 23/4

ورد في بعض المصادر أنه لما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس أمر في البداية بالإبقاء عليها وإنزال الجيش فيها، ثم أشير عليه بأن هدمها أولى من بقائها وخاصة بعد أن تهدمت أسوارها وأبراجها وتصدعت معظم منازلها بفعل الرمي من المنجنوقات أثناء الحصار، فوافق على هدمها، فهدمت، وأحرقت، وحُرب سورها، ثم أمر السلطان ببناء مدينة جديدة بجوار النهر (نهر قاديشا) حول حصن صنجيل على تلة الحجاج بعيداً عن شاطئ البحر خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية مستقبلاً،⁽¹⁾ ولكن على كما يبدو فإن المدينة لم تدمر بالكامل، وظل هناك بعض الأبنية، فالجامع الكبير الموجود حالياً في طرابلس كان بالأصل الكاتدرائية التي بناها الصليبيون تم تحويلها إلى مسجد وعمل له مأذنة.

5- تحرير أنفة والبترون وجبيل:

وبالسيطرة على طرابلس أخلى الصليبيون أنفة⁽²⁾ الواقعة بين طرابلس وجبيل، وكان بها إحدى القلاع البارونية،⁽³⁾ فأمر السلطان بتخريبها، كما أخلى الصليبيون حصن البترون الواقع جنوب طرابلس فاستلمته القوات الإسلامية.⁽⁴⁾

وبعد الفراغ من طرابلس توجه الجيش إلى مدينة جبيل التي تقع عند النهاية الجنوبية لكونتية طرابلس، وهي عبارة عن ميناء قديم، استولى عليها ريموند الصنجيلي سنة 1102م، وفيما بعد قام ابنه برتراند بتسليمها لأسرة امبرياكو الجنوبية (Embriacos)، وكان فيها قلعة حصينة، فاستولت عليها القوات الإسلامية، ثم قام السلطان بإقرار بارتولوميو امبرياكو (صاحب جبيل) عليها

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة 3 و. المقريزي: السلوك، 747/1-748. النويري: نهاية الأرب، 48/31. بيبيرس الدودار: زبدة الفكرة، ص 215. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 130. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص 289-290.

(2) أنفة: بلدة وحصن صغير على الساحل اللبناني، إلى الجنوب من طرابلس، شرق جبيل وبيروت. مراصد الإطلاع: 126/1.

(3) هيوغ كندي: القلاع الصليبية، ص 99.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة 3 و+ظ. ابن تغري بردي: النجوم، 321/7-322. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 81. النويري: نهاية الأرب، 48/31. ويضيف بيبيرس الدودار أنه تسلم بيروت وجبله وما حولها من حصون. انظر: زبدة الفكرة، 215/9.

على سبيل الإقطاع، وجاء ذلك مشروطاً بتبعيته وخضوعه للسلطان، كما تعهد صاحبها بدفع معظم أموالها للسلطان قلاوون،⁽¹⁾ وهذا الإجراء يزيد من مصداقية رواية اليونيني بأن الذي راسل السلطان يدعوه لمهاجمة طرابلس هو بارتولوميو هذا.

كما أبقى السلطان للأميرة لوسي أخت بوهيمند السابع صاحبة طرابلس على قرينتين من قرى طرابلس.⁽²⁾

في الواقع إن استيلاء السلطان قلاوون على طرابلس يعد إنجازاً عظيماً في مشروع تصفية الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي، يضاف إلى تلك الإنجازات الرائعة التي حققها الظاهر بيبرس قبله، فلقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لإمارة صليبية في الشرق الإسلامي استمرت حوالي قرنين من الزمن، لذا فقد أحدث سقوطها في أيدي المسلمين دويماً هائلاً خفقت له قلوب المسلمين بعد أن أرسلت البشائر بذلك الفتح العظيم إلى كافة البلاد الإسلامية، فسرَّ الناس بذلك سروراً عظيماً، وتبارى الشعراء في وصفه.

6- الاستعداد لفتح عكا:

على أثر تحرير طرابلس، وبعض الحصون المحيطة بها، غدا موقف الصليبيين في بلاد الشام حرجاً للغاية، وخاصة بعد أن أخفقت المساعي لإرسال حملة من أوروبا لإنقاذ الوضع، فالعرض الذي تقدم به أرغون، خان مغول فارس، للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين لم يلق رداً من البابوية،⁽³⁾ شأنه شأن صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي توج في عكا ملكاً على القدس سنة 685هـ/أرسل إلى الغرب الأوروبي مستجداً بهم لإنقاذ ما تبقى للصليبيين من مراكز في بلاد الشام.⁽⁴⁾

(1) المقريزي: السلوك، 747/1-748. النويري: نهاية الأرب، 49/31. تاريخ ابن الفرات، 81/8. رنسيان: الحروب الصليبية، 687/3.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة 3 و. النويري: نهاية الأرب، 48/31.

(3) عن سفارات أرغون للبابوية، انظر: عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص118 وما بعد.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 81/8. المقريزي: السلوك، 753/1-754. زكار: فلسطين في العهد المملوكي، الموسوعة الفلسطينية، 2/553-554. رنسيان: الحروب الصليبية، 689/3.

وبالنسبة لنداءات البابا المتكررة لإنقاذ ما تبقى من أراضي صليبية في بلاد الشام؛ فلم تلق رداً من قبل ملوك أوروبا، لأن أوروبا آنذاك كانت غارقة في مشاكلها الداخلية، ومن استجاب للبابا كان من الرعاع والمتعطلين عن العمل من عامة أهالي إيطاليا، تم تجهيزهم وإرسالهم إلى عكا على ظهر سفن عائدة للبندقية، كما تم تسليح هذه السفن بشكل جيد من قبل البنادقة، تولى قيادتها ابن دوق البندقية،⁽¹⁾ وربما خوف البنادقة من ضياع عكا - مقر تجارتهم الرئيس - هو الذي دفعهم لتجهيز هذه الحملة وقيادتها.

في الواقع إن هذه الحملة كانت سبب ذهاب عكا من أيدي الصليبيين، فقد وصلت الحملة إلى عكا في وقت كانت فيه الهدنة بينها وبين السلطان قلاوون معقودة، ومُحافظاً عليها بشكل جيد بين الفريقين،⁽²⁾ وكانت هذه الحملة تضم أشخاصاً في غاية الرعونة، فما إن وطأت أقدامهم أرض عكا حتى عبّروا عن حماسهم الديني وهمجيتهم بارتكابهم جرائم فظيعة ضد المسلمين في عكا، ويروي هذه الحادثة عدد من المؤرخين، أحدهم مسلم نقلها عن والده، وآخر فارس من الداوية كان حاضراً آنذاك، فقد نقل ابن أبيك عن والده مباشرة تفاصيل هذه الحادثة فقال: " ورد فقير من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقرة، وهو مكان مبارك، فوجد فيه جماعة فقراء، فلما كان وقت الأذان، أذنا خفية ولم يفتحوا للمسجد طاقات، فأنكر عليهم ذلك الفقير، فقالوا: إنها بلد كفر ونخشى الفرنج، فقال الفقير: الآن طاب الجهاد في سبيل الله، يا فقراء، أما قرأتكم قوله تعالى: "وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه"،⁽³⁾ ثم إن الفقير صبر إلى أذان الظهر، وفتح طاقات المسجد، وعلى علوه، وأعلن بالأذان، وكان قد ورد عكا أفرنج من داخل البحر غنم، ليس من أهلها، فلما سمعوا الأذان إجهار، لعب فيهم الشيطان، ووثبوا من فورهم، فقتلوا ذلك الفقير وطرطشوا دمه في حيطان المسجد مع ثلاثة فقراء أُخر، ثم خرجوا، وعادوا لا يلتقوا مسلم في البلد إلا أوقعوا به القتل، فلما بلغ السلطان ذلك تجهز واهتم لأخذها بمعونة الله تعالى".⁽⁴⁾

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 131.

(2) انفرد الفارس الداوي دون غيره بكر هدنة توصل إليها هنري ملك قبرص بعد سقوط طرابلس مع المماليك باسم مملكة بيت المقدس - أي قبرص والأراضي الصليبية في الساحل الشامي - مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام، انظر، الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 130.

(3) سورة الأحزاب الآية رقم 37

(4) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 301.

وينقل هذه الحادثة أيضاً الفارس الداوي جيرارد أوف مونتريل وقد كان موجوداً في عكا آنذاك، فقال: " عند وصول هؤلاء الناس إلى عكا، كانت الهدنة قد عقدت ما بين الملك والسلطان مُحافظ عليها بشكل جيد بين الفريقين، ووصل فقراء مسلمون إلى عكا يحملون بضائع لبيعها، كما اعتادوا أن يفعلوا، وحدث في أحد الأيام أن الصليبيون الذين قدموا ليعملوا صالحاً، ولتسليح أنفسهم للتفريج عن مدينة عكا، تسببوا بدمارها، لأنهم اندفعوا في أحد الأيام خلال عكا، ووضعوا فقراء الفلاحين الذين جلبوا سلعاً ليبيعوها في عكا وضعوهم طعمة للسيف، وكان هؤلاء مسلمين من القرى حول عكا، وقتلوا أيضاً عدداً من الملتحين السريان الذين كانوا من أتباع الكنيسة الإغريقية، فقد قتلوهم بسبب لحاهم ظانين أنهم مسلمين".⁽¹⁾

الأمر الذي أذهل أهل عكا، وخشوا عاقبة ما فعله الصليبيون الجدد، فأرسلوا إلى السلطان قلاوون يعتذرون عما حدث، وفي الواقع لم يكن السلطان بحاجة إلى اعتذارهم، بل وجد الفرصة سانحة والأحداث مواتية لاستكمال مشروعه في تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، فهو كان حريصاً على ترقب عمل صليبي من شأنه أن يخل بشروط الهدنة المعقودة مع عكا ليتسنى له مهاجمتها، يشاركه في ذلك جموع المسلمين المتعطشة للجهاد والتي سارعت بإحضار قمصان الفلاحين الذين قتلوا وهي مزرجة بالدم، فثارت همة السلطان وأقسم على الانتقام.⁽²⁾

أقدم الصليبيون على تقديم الاعتذارات، وقاموا بأخذ جماعة من المسلمين وألبسوهم زي الفرنج وشنقوهم وكتبوا إلى السلطان الملك المنصور بأن الذين اقترفوا الذنب هم جماعة من الغرب الفرنج وتم شنقهم حفظاً للهدنة.⁽³⁾

لم يُرض هذا العمل السلطان قلاوون، الذي خبر مكرهم وخداعهم، ورفض بشدة اعتذاراتهم "ولا سمعها منهم، وتوكل على ربه وآذن الأعداء بحربه"،⁽⁴⁾ ووكّل الأمير شمس الدين سنقر الأعرس بالذهاب إلى الغابات القريبة من جبال عكار وبعطيك لقطع الأخشاب اللازمة لأدوات

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 131.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 131.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 177. البرزالي: المقتفي، 201/2.

(4) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص 177.

الحصار،⁽¹⁾ وقال بأن هذه الآلات سوف تُرسل إلى مصر، إلا أن أهالي عكا عن طريق أمير السلاح بدر الدين بكتاش الفخري؛ الذي قام بإخبار مقدم الداوية،⁽²⁾ ومهما يكن من الأمر، فإن السلطان المنصور قلاوون ما كاد ينهي تجهيزاته الحربية ويغادر القاهرة على رأس جيشه حتى وافته المنية مسموماً بظاهر القاهرة في مخيمه الذي أقامه بمسجد التبر،⁽³⁾ أول منزلة في الطريق إلى الشام من القاهرة على مقربة من المطرية، في 6 ذي القعدة 689هـ/10 تشرين الثاني 1291م،⁽⁴⁾ ليتولى السلطنة من بعده ابنه الأشرف خليل.

ثالثاً: العمليات العسكرية المملوكية في مشرق البحر المتوسط ضد الصليبيين في عهد الأشرف خليل "689-693هـ/1290-1293م".

1- تحرير عكا، 690هـ/1291م:

لم تُغير وفاة السلطان قلاوون من موقف المماليك في عزمهم على تحرير عكا وطرد بقايا الصليبيين، والأثر الوحيد الذي أحدثته هذه الوفاة، هو تأخير الحملة بضعة أشهر فقط، وذلك بسبب أن الأشرف خليل بن قلاوون الذي كُف من قبل والده؛ قبيل وفاته بمتابعة تنفيذ المهمة بالاستيلاء على عكا وأن ينتقم لدماء المسلمين، قد انشغل في بداية حكمه في ترتيب أمور السلطنة

(1) المقرئزي: السلوك، 1/ 754. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 93. وقد ذكر ابن أيبك أن السلطان كلف الأمير عز الدين الأفرم بهذه المهمة، الدرّة الزكية، ص 300. أما الفارس الداوي فقد ذكر أن الأمير طقصور المنصور هو المكلف من قبل السلطان بهذه المهمة. أعمال القبارصة، ص 132.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 132،

(3) مسجد التبر خارج القاهرة قريباً من المطرية، عرف قديماً بمسجد البئر و مسجد الجميزة، وتسميه السنة مسجد التبن وهو خطأ، بناه أحد الأمراء في عهد كافور الإخشيدي، انظر، المقرئزي، الخطط، 3/ 566.

(4) ابن عبد الظاهر: تشرّيف الأيام، ص 178، المقرئزي: السلوك، 1/ 755، ابن تغري بردي: النجوم 7/ 325.

لكي يستتب الحكم له، لذا قام باعتقال الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ثم أمر بقتله، - وحسب ما جاء في المصادر الإسلامية- لأنه لم يكن على وفاق معه؛ وكان يخشى غدره، أما الفارس الداوي فقد ذكر صراحةً أن طرنطاي دس السم للسلطان قلاوون، وأن الأشرف أقدم على قتله بموجب تنفيذاً لأوامر أبيه قبيل وفاته، لأنه كان يعلم أن طرنطاي دس له السم،⁽¹⁾ وفوض نيابة السلطنة للأمير بيدرا المنصوري، وأجرى بعض الترتيبات الإدارية والعسكرية، ثم شرع في تجهيز نفسه للمسير إلى عكا، والمُلاحظ أن الجيش المملوكي لم يعد إلى ثكناته في القاهرة وإنما بقي في معسكره خارج القاهرة، ومن هناك تابع المسير نحو عكا.⁽²⁾

في البداية عندما سمع صليبيو عكا بوفاة المنصور قلاوون، فرحوا كثيراً، واعتقدوا بأنهم قد أنقذوا، ولكن السلطان الأشرف خليل فاجأهم بإرسال رسالة إلى مقدم الداوية، ورد نصها عند الفارس الداوي، وهو الذي قام بترجمتها من العربية إلى الفرنسية، ومضمونها: أن السلطان قاصد عكا بجيشه هذا، وعلى أهل عكا ألا يرسلوا أية رسل أو هدايا لأن السلطان لن يتراجع عن موقفه،⁽³⁾ وقد اطلع معظمهم قادة صليبيي عكا على فحوى هذه الرسالة، وهي بادرة جديدة من نوعها أن يقوم السلطان بإخبار الصليبيين عن نواياه العسكرية تجاههم، وربما هذا كان بسبب ضخامة الحملة، وعلمه بعدم استطاعة الصليبيين في التصدي لها، وأن الاستيلاء على عكا هي مسألة وقت.

على الرغم من أن فحوى الرسالة كان واضحاً، حاول قادتهم التوسل إلى السلطان أو ثنيه عن عزمه بمهاجمة عكا، أو تأخيره على الأقل ليتسنى لهم الاستعداد لمواجهته، فأعدوا وفداً ليذهبوا إلى السلطان، مع بعض الهدايا، وقد طلب هؤلاء من السلطان العفو، معتذرين له عما جرى،

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 133.

(2) النويري: نهاية الأرب، 180/31-185. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/ 99-100. المقريزي:

السلوك، 763/1، 762، 757. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 133.

(3) أعمال القبارصة، ص 135.

والتمسوا منه وضع ما يراه من شروط جديدة لاستمرار الهدنة التي كانوا قد عقدها مع والده السلطان قلاوون، فلم يقبل منهم ما اعتدروا به، ورد عليهم رداً صارماً وألقاهم بالسجن.⁽¹⁾

كان السلطان قد أصدر أوامره لنوابه في بلاد الشام باتخاذ الأهبة، وإعداد المجانيق وآلات الحصار، وتجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر والآلات إلى أسوار عكا، ودعا الأهالي إلى الاستنفار للمشاركة في الحملة العسكرية، وموافاته على أبواب عكا، فقد كانت الاستعدادات ضخمة جداً، ولاسيما المجانيق وآلات الحصار، وقد تحدث عنها النويري وغيره من المؤرخين بإسهاب،⁽²⁾ ومن المفيد - لرسم صورة واضحة- ذكر روايات أشخاص شاركوا في الحملة، فأبي الفداء كان أحد أمراء الحملة، وتحدث عن معاناته في جمع مواد الحصار، فذكر أنه توجه مع العسكر الحموي صحبة ابن عمه المظفر صاحب حماه إلى حصن الأكراد " وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مائة عجل، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة، لأنني كنت إذ ذاك أمير عشرة،.....، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع مع غيرها".⁽³⁾

أما عن تجربة المؤرخ بيبيرس الدوادر، فذكر أنه كان آنذاك: " بالكرك، فلما بلغني أمر هذه الغزاة ووردت عليّ مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات، فجهزت من الزردخانات المانعة، والآلات النافعة، والرجال المجتهدين، والرماة، والحجارين، والغزاة، والنجارين، وتوجهت لملاقة السلطان فوافيته وقد وصل غزة...".⁽⁴⁾

• الوضع داخل عكا:

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة ص134. المقريزي: السلوك، 362/1. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 110/8-114. ابن حبيب: تذكرة النبيه/ 1/ 137-139.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31/ 195-198. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 111/8. المقريزي: السلوك، 763/1. بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/ 226. البرزالي: المقتفي، 224-223/2.

(3) المختصر، 360-359/2.

(4) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 226/9.

بالنسبة للوضع في داخلها، فقد قدم رحالة ألماني وصفاً دقيقاً لعكا من الداخل، فكان مما قاله: " تقوم مدينة عكا المجيدة على شاطئ البحر، وقد بنيت بحجارة منحوتة مربعة، حجمها أكبر من المعتاد مع أبراج عالية وفائقة الحصانة والقوة، ولا يبعد كل برج عن البرج الآخر أكثر من مسافة رمية سهم، وذلك على طول محيط الأسوار كلها، ويقوم كل باب من أبواب المدينة بين برجين، والأسوار هناك عظيمة إلى حد يمكن لعريتين أن تمر إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، ومن جهة اليابسة المدينة محاطة بأسوار متميزة وبخندق عميق جداً، وهو مجهز بشكل موائم بغطاسين وعمال ومدافعين وبوسائط موائمة للحراسة،...ولقد قام في زاوية كل شارع برج فائق القوة، محاط بباب حديدي وبأسوار حديدية، وسكن جميع النبلاء في قلاع حصينة وفي قصور على طول الطرف الخارجي للمدينة".⁽¹⁾

كان يسكن بالمدينة " ملك القدس وإخوانه، مع عدد كبير من نبلاء الأسرة، وأمراء الجليل، وأمراء أنطاكية، والقائد الرئيسي لملك فرنسا، ودوق قيسارية، وصاحب صور، وصاحب طبرية، وصاحب بيسان، وصاحب أرسوف، وصاحب فوس Vaus، ونبلاء تل الصافية،... وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر بالجمال والإبداع والاختراع"، وسكن هناك أيضاً من أجل قتال المسلمين: مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، ومقدم التوتون، ومقدم رهبان طائفة القديس توماس أوف كانتر بري،⁽²⁾ ومقدم فرسان طائفة القديس لعازر،⁽³⁾ وكل واحد من هؤلاء كان مع فرسان مسلحين لقتال المسلمين، كلهم سكنوا مدينة عكا حيث كانت هناك مقر قياداتهم، ناهيك عن التجار الذين احتشدوا

(1) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 39/ 303.

(2) منظمة عسكرية دينية، تأسست في عكا أثناء الحملة الثالثة، وكانت تنظيمياً انكليزياً خالصاً، كانت مهمتها تأمين طقوس دفن الموتى والدفاع عن الأرض المقدسة، ساهمت في الدفاع عن عكا، وبعد سقوطها نقلوا مركز نشاطهم إلى نيقوسيا في قبرص. انظر: إ.ج.كنغ: رهبان تحت السلاح، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 254/34-255.

(3) فرسان القديس لازاروس أو لعازر، منظمة عسكرية دينية تأسست في القدس، كان هذا تنظيم للعاية بالمجدوميين، نقله إلى فرنسا لويس التاسع، ومن هناك انتشر في كافة أنحاء فرنسا. انظر: إ.ج.كنغ: رهبان تحت السلاح، 250/34-251.

هناك من جميع أمم الأرض من بيازنة، وجنوبيين، ولومبارد، وغيرهم من الشعوب الأخرى الذين جلبوا إلى المدينة كل شيء كان موجود في العالم ونُظر إليه على أنه رائع أو غريب.⁽¹⁾

في الحقيقة هذا المزيج لم يكن متجانساً، وكل واحد منهم شكل كومونة مستقلة، وكل واحد من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر الجهة التي يمثلها دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد جهودهم ضد الخطر المنتظر.⁽²⁾

أما بالنسبة لتحصينات المدينة كانت قوية، فهي محاطة بسورين مزدوجين من جهاتها البرية - فالمدينة كانت قائمة على شبه جزيرة - بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية مع أكثر من اثني عشر برجاً على امتداد السورين الداخلي والخارجي.⁽³⁾

أدرك المماليك منذ بداية حكمهم قوة عكا، وأنه بسبب منعها يتعذر عليهم تحريرها بحصار حملة واحدة، يتعذر عليهم ذلك سواء من ناحية الإمكانيات العسكرية، أو من ناحية الوقت، فعكا محصنة بشكل قوي، وتحريرها قد يستغرق معهم مدة طويلة، وهم في حالة حرب على جبهات عدة، ولا يمكن شغل الجيش مدة طويلة على جبهة واحدة، لذا فالحل الأفضل لهذا مشاكل إنهاك المقاومة الصليبية بالتدرج عن طريق توجيه سلسلة من حملات الإغارة ضده أثناء القيام بعمليات عسكرية على الساحل، وهذه الغارات غالباً ما كانت مدمرة تستهدف التحصينات الدفاعية أو تستهدف الامدادات الغذائية (البساتين والمحاصيل...).

جرى تنفيذ هذه الاستراتيجية بدقة ضد عكا، ففي سبيل اضعافها تعرضت لعدد من الغارات أيام حكم الظاهر بيبرس، كان أول تلك الغارات سنة هـ/1263م حيث نفذ الأمير طيبرس الوزيري

(1) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، 39/ 303-305.

(2) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، 39/ 304. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة

الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 9، 2010م، 2/ 384.

(3) رنسيما: الحروب الصليبية، 3/ 697.

ثم الأمير بدر الدين الأيدمرى ثلاث غارات، ثم قام السلطان بنفسه بشن غارة مدمرة ضدها، دمر فيها أحد الأبراج الصليبية، وأحرق الأشجار المجاورة لها، وقتل وأسر عدداً منهم⁽¹⁾.

تم كُرر الهجوم سنة 1265/هـ وكان جزء من تكتيك لتضليل الصليبيين أثناء حصاره لقيسارية، فأرسل الأمير شهاب الدين القيمري بغارة إلى محيطها أسر خلالها بعض الصليبيين⁽²⁾.

تم شن السلطان بيبرس بنفسه غارة عليها سنة 1266/هـ قبيل تحرير صفد⁽³⁾ وفي سنة 1267/هـ تعرضت عكا لأكثر من غارة، الأولى كانت في 2 نيسان بقيادة السلطان بيبرس، قتل فيها أكثر من 500 صليبي، وخرب الأراضي التي حولها، والثانية في 16 نيسان وكانت بقيادته أيضاً قتل فيها حوالي 400 صليبي، ثم عاد إليها مرة ثالثة ودمر طاحون للاستتارية، وأتلف البساتين والكروم التي كانت حولها، ثم عاد إلى صفد⁽⁴⁾.

وبلاشك؛ فإن هذه الغارات أضعفت مملكة عكا كثيراً، وبعد التخلص من باقي المعاقى الكبيرة جاء دور عكا.

• الحصار:

وصل السلطان إلى عكا في 27 جمادى الآخرة 690/هـ 5 نيسان 1291م، وقام بنصب خيام العسكر ملاصقة لبعضها، "وعلى هذا تغطى السهل أمام عكا كله بالخيام،... وقد مكثوا ثمانية أيام في عكا دون عمل أي شيء سوى بعض المصادمات بين قواتنا وقواتهم، حيث قتل فيها عدد قليل من على الطرفين"⁽⁵⁾.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 157-162. أبو الفداء: المختصر، 327/2. ابن واصل: مفرج

الكروب، 6/365. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 58/9. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 50.

(2) المقريزي: السلوك، 527/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، 229.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 253. النويري: نهاية الأرب، 30/384-385. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/337.

(4) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 67-70. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 281-282. العيني:

عقد الجمان، 2/8-9.

(5) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 135-136. البرزالي: المقتفي، 2/225.

وتروي بعض المصادر أنه عندما فرض الأشرف خليل حصاره على مدينة عكا قام مقدم الداوية وعقد اجتماعاً خاصاً مع رهبانه " حول إيجاد طريقة يمكن بها إعادة السلام"، ولما قابل مقدم الداوية السلطان حول هذا الموضوع، وافق السلطان "وبات من الممكن إعادة العمل بالهدنة المخروقة شريطة أن يدفع كل إنسان في عكا بنساً بندقياً واحداً" لكن أهالي عكا رفضوا.⁽¹⁾

قبول هذه الرواية يبقى أمراً مستبعداً، لأنه من غير المنطقي أن يعود السلطان إلى القاهرة بعد أن بذل جهداً كبيراً استتفر لأجله معظم امكانيات السلطنة المادية والعسكرية مقابل حفنة من المال، ناهيك أن السلطان وغيره على دراية تامة بالوضع الممزق الذي تعيشه القوات الصليبية داخل عكا، لذلك كان قد أرسل مسبقاً للصليبيين عدم قبوله أي عذر، وأنه لن يستقبل أية رسل قادمة من عندهم-كما ورد سالفاً-.

وعلى كل حال بدأت القوات بعمليات الهجوم بعد حصار استمر ثمانية أيام، جلبوا آلات الحصار ووضعوها، وبلغ وزن الحجارة التي رموها كل واحد منها قنطاراً،⁽²⁾ وكان من بين هذه المجانيق واحد اسمه (غضبان) وقد نصب أمام محلة الداوية، وكان اسم المنجنيق الذي تولى الرماية على محلة البيازنة (المنصوري) - وقد تحدث عنه أبو الفداء كما سلف -، بالإضافة إلى منجنيق آخر ضخماً جداً تولى الرماية على محلة الاسبتارية، وخصص منجنيق رابع ضخم للرماية على البرج الملعون، وكان هذا البرج مملوكاً من قبل الملك هنري الثاني.⁽³⁾

بدأ الهجوم بالتزامن مع إجراءات عسكرية حكيمة، إذ توجه الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير على رأس قوة عسكرية إلى صور، ومن وراء ذلك يحقق هدفين، الأول: مضايقة صور بشكل يمنعها من إرسال المساعدات إلى عكا المحاصرة، والثاني: منع صليبي عكا الفارين من

(1) لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، 39/307-308.

(2) البرزالي: المقتفي، 2/232. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 5/8. والقنطار هناك خلاف حاد حول وزنه، وقد اختلف مقداره من عصر إلى آخر، وقد تراوح ما بين 5 كغ حتى 201 كغ، أما القنطار الشرعي حسب الفقه الإسلامي فهو 1220 أوقية، أي 244 كغ. انظر: حميد السيد رمضان: الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، دار الملاح، دمشق، 2000م، ص 86-88.

(3) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 135-136.

عكا التوجه إلى صور إذا ما حلت بهم الهزيمة، وهذا الهدف الثاني يبقى صور ضعيفة ويسهل القضاء عليها فيما بعد السيطرة على عكا.(1)

ولما كانت الأرض التي يقف عليها الجيش الإسلامي سهلية مكشوفة قاموا بعمل سواتر(2) وحواجز دفاعية ترابية وصناعية (مصنوعة من اللباد) لتأمين حماية الجند والمعدات الحربية من القذائف التي قد تنطلق من المدينة.(3)

واتخذ السلطان مركز قيادته في الجزء الجنوبي من الأسوار قبالة برج المندوب البابولي، في حين كانت قيادة الصليبيين قد تركزت بالقرب من باب القديس أنطوان.(4)

ولتوضيح كيف تمت عملية الإقتحام، سيتم الحديث عن ثلاث مراحل، المرحلة الأولى: هي محاولة التغلب على عائق الخنادق وطمعها، من أجل أن يتمكن اللغامين(5) والحجارين والآلات قريبة المدى من الإقتراب إلى الأسوار.

شرح المسلمون بمهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق وقذفها بالحجارة الثقيلة وقذور النفط المشتعلة، في الوقت الذي كانت فيه عكا تتلقى رشقات كثيفة من السهام الفعالة من قبل الرماة الكامنين وراء الستائر الترابية والصناعية وحواجز دفاعية كبيرة، وكان لها أثر كبير في

(1) البرزالي: المقتفي، 233/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/8.

(2) الستائر من أهم المعدات الحربية، استخدمها المسلمون في حروبهم، وهي مصنوعة من الجلود واللباد والمبللة بالخل والشب والنظرون، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط، وكانت تستخدم لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب والسفن من قذائف النفط، ومنها ما يستخدم أيضاً في وقاية الجنود الذين يُستعان بهم في جر المنجنيقات وما شابهها، انظر، ابن واصل: مفرج الكروب 303/2 الحاشية، المقرئزي: السلوك 102/1، 764 الحواشي.

(3) المقرئزي: السلوك 764/1.

(4) رنسيما: الحروب الصليبية، 698/3.

(5) عملية اللغم: أثناء الحصار كان يتم حفر أنفاق تحت الأرض توصل اللغامين والحجارين إلى تحت السور أو البرج المراد تهديمه، ثم يقوم الحجارين، وبطريقة ماهرة، بنزع بعض الأحجار الإستنادية التي يؤدي زوالها إلى تهديم السور أو البرج، ويوضع محلها أعمدة من الخشب، وبعد أن ينتهي الحجارين من مهمتهم يتم وضع في الأنفاق براميل من الدهون والنقوط، ثم يتم إشعالها بشكل يؤدي إلى احتراق أعمدة الخشب، وبالتالي انهيار البرج أو السور.

إضعاف الصليبيين، في وقت كانت فيه وحدات المجاهدين المكلفة بردم الخنادق تتقدم بين الفينة والأخرى لردم مواضع يمكن من خلالها الوصول إلى الأسوار مستخدمين مخالي الخيل المعبأة بالتراب لإلقائها مع ما تيسر من الأخشاب مع مواد أخرى في تلك المواضع المنتخبة، وعبر هذه المواضع تمكنت الوحدات الهندسية الإسلامية من الوصول إلى الأسوار لنقبتها وإحداث ثغرات يمكن من خلالها اقتحام المدينة عندما تحين ساعة ذلك.⁽¹⁾

كانت رشقات السهام تأتي من قبل جنود يقفون خلف الحواجز الدفاعية والستائر الحاجبة، وفي كل ليلة تتقدم هذه الحواجز والستائر نحو الأمام إلى أن أصبحوا على حافة الخندق.⁽²⁾

لم تكن هناك ساعة من النهار من دون قتال، فالجيش المملوكي كان مقسماً إلى ثلاث أو أربع فئات أو مجموعات، تتناوب في حصار عكا، فعندما تشعر مجموعة بالتعب كانت مجموعة أخرى تأخذ مكانهم.⁽³⁾

المرحلة الثانية: مرحلة زرع الألغام تحت الأسوار والأبراج ونقب الأسوار لكي يتسنى لهم إجتياح المدينة، وفي هذه المرحلة اشتد القتال على الأسوار من الشمال حتى الجنوب، وكان أقواه عند الزاوية الشمالية الشرقية (البرج الملعون):

في هذه المرحلة من مراحل القتال تمكن المسلمون من الوصول إلى حافة الخندق وإقامة السواتر التي أصبحت كالجدران، ما من منجنيق يمكن أن يؤذيه، وقد قصفه الصليبيون بآلاتهم المتوسطة دون أثر، وأحضر المسلمون بعد ذلك آلات تسمى الجمال السود Carabohas، وهي عبارة عن آلة صغيرة تعمل باليد، وهي اختراع تركي، مع درجة عالية من الرمايات، أوقعت أضراراً بالصليبيين أكثر من الآلات الكبيرة، ففي المكان الذي ترمي فيه الجمال السود ما من واحد تجرأ على الخروج إلى العراء، قد وضع المسلمون أمام هذه الآلات حواجز قوية إلى حد أن ما من واحد كان يمكنه أن يرمي أو أن يقصف الجمال السود، وأثناء ذلك كان يقوم المسلمون بعملية التلغيم، فقد قام الأمير سنجر الشجاعي بتلغيم البرج الملعون أو برج الملك، كما أنه قام بتلغيم أحد الأسوار

(1) بيبيرس الدودار: زبدة الفكرة، 228/9. المقريري: السلوك، 764/1.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص136.

(3) الفارس الداوي: المصدر نفسه، ص137، لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة،

الذي عرف باسم سور الملك وضغطوا بشدة عليه، فقام الصليبيون وألقوا فيه النار وجعلوه يتهاوى كي لا يستفيد المسلمون منه، كما لغم المسلمون برج آخر. (1)

وفي المقابل؛ كانت المقاومة الصليبية شرسة جداً، إذ " أظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمخاطرة، فلم يغلقوا للمدينة باباً، ولا أسدلوها دونها حجاباً، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحاطت بها العساكر المحمدية، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة، وسهاماً كالبوارق البارقة، وضويقت أشد المضايقة، وهم مع ذلك يظهرون الجلد، ولا يغلقون أبواب البلد، ويهاجمون العسكر ليلاً ونهاراً، ويقاتلون قتالاً مدراراً". (2)

• هجوم الداوية:

في هذه المرحلة قرر الصليبيون القيام بعمل معاكس والانقضاض على القوات الإسلامية بغارات سريعة، فخرج في إحدى الليالي مقدم الداوية ورجاله مع فرسان آخرين وانطلقوا من محلة الداوية التي امتدت من طرف البحر حتى باب القديس لعازر، وهدفهم إحراق السواتر الخشبية في المنجنيق المنصوري، لأن هذا الهجوم استهدف تجمع العسكر الحموي القائم برأس اليمين؛ بحيث كان البحر عن يمينهم وعكا أمامهم، ولكن الذي كان من المفترض عليه أن يرمي النفوط كان خائفاً عندما رماها فلم تصل إليهم ووقعت على الأرض، وأثناء تحرك الصليبيين بين خيام المسلمين تعرقلت أرجل خيولهم بأطناب الخيم ووقعت، فقتلهم المسلمون، وأخفقت خطتهم وعاد مقدم الداوية ورجاله إلى عكا، وكان صاحب حماة في ذلك الجانب وقد جمع عساكره حوله ووجه ضربة إلى الصليبيين على شاطئ البحر بزخات من النشاب فجرح بعضاً من رجالهم. (3)

أيضاً قام الصليبيون بمحاولة أخرى لمهاجمة المسلمين، فتقرر الخروج في أحد الليالي من باب القديس أنطون وأن ينقضوا فجأة على المسلمين، إلا أن المسلمين قد علموا مسبقاً بخططهم

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 137-138.

(2) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 227/9. لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، 308/39.

(3) أبو الفداء: المختصر، 2/360. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 137-138.

وأناروا المنطقة بالمشاعل، حتى أصبح الليل وكأنه نهار، وزحفوا على الصليبيين بقوة وبشدة متناهية، ورموهم بالنشاب وكان السماء تمطر نشاباً وأصابوهم بجروح وعادوا إلى عكا خائبين.⁽¹⁾

ومع إخفاق المحاولات الصليبية بالهجوم على المسلمين، توقفوا عن الهجوم واكتفوا بالدفاع والتحصن داخل الأسوار.

المرحلة الثالثة: مرحلة نعب الأسوار واجتياح المدينة، والإشتباك مع الصليبيين وجهاً لوجه داخل المدينة:

قام المسلمون بتلغيم البرج الجديد الذي يعرف باسم برج الملك بشكل مربع، حيث تهاوت واجهته كومة واحدة في الخندق، ولتمهيده للمسير عليه قام المسلمون بصنع أكياس من قماش القنب ومأؤها بالرمل وحملوها فوق الخيول وجلبوها إلى المسلمين الذين كانوا وراء السواتر عند تلك النقطة وعند حلول الليل وضعوا هذه الأكياس فوق الحجارة ومهدوها وجعلوها مثل الطريق، وفي اليوم التالي (الأربعاء) عند وقت صلاة العشاء وصلوا عبر هذا الطريق من الأكياس إلى البرج واستولى المسلمون على ما تبقى من البرج حيث كان لا يزال القيو سالماً، وعندما سقط هذا البرج دب الهلع في قلوب الصليبيين، وبدأوا بإرسال أولادهم ونسائهم إلى السفن في يوم الخميس، لكن البحر كان هائجاً، فنزلوا من السفن وعادوا إلى البيوت.⁽²⁾

ومع التخبط في قيادات الصليبيين، وانهايار معنوياتهم، قرر السلطان الأشرف اقتحام المدينة، وتم اختيار الوقت قبيل شروق شمس يوم الجمعة 17 جمادى الآخرة 690هـ/ 18 أيار 1291م، وقبيل الفجر بدأت الطبول تقرر بأصوات عالية وبشدة متناهية، ومع قرع الطبول والكوسات، قام المسلمون بالحملة على عكا من جميع الجهات، وكان المكان الذي دخلوا فيه أولاً هو البرج الملعون الذي كانوا قد استدلوا عليه من قبل (3).

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 139.

(2) الفارس الداوي: المصدر نفسه، 140-142.

(3) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 309، المقرّبي: السلوك 1/765، النويري: نهاية الأرب، 198/31. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 142.

أما بالنسبة لعملية اقتحام عكا، فإن الفارس الداوي كان آنذاك في عكا، وقد تحدث عن عملية الاقتحام قائلاً: " وصل في المقدمة رجال يحملون ترسة كبيرة وطويلة، ووصل بعدهم رجال يرمون بالنفوط، ووصل بعدهم رجال يرمون بالمزاريق، ويرمون بسهام مُرَيَّشة، وكانت رماياتهم كثيفة حتى بدت كأنها مطر يتساقط من السماء، وسلك المسلمون طريقين، بسبب أنهم كانوا بين سوري المدينة، يعني أن نقول بين الأسوار الأولى والخنادق، التي عرفت باسم الخط الدفاعي الأول، وبين الأسوار الداخلية الكبيرة والخنادق الفعلية للمدينة، ودخل بعضهم من خلال البرج الكبير الذي عرف باسم البرج الملعون، وتحركوا باتجاه سان رومانو⁽¹⁾ حيث كانت الآلات الكبيرة التابعة للبيازنة، وتابع الآخرون تقدمهم ماضين إلى باب القديس أنطون".⁽²⁾

ويلاحظ أن السلطان الأشرف لم يركز في هجومه على الأسوار الممتدة بين دفاعات الداوية شمالاً وحتى باب القديس أنطون، لأن هذه الأسوار كانت تتحصن في أبراجها قوات الداوية والاسبتارية، أقوى الفرق الصليبية، فبهذه العملية يكون الأشرف قد شل حركة هذه القوات بأنه قام بتثبيتها في مكانها مقابل القوات الإسلامية التي استمرت في حصارها ومناوشتها، وركز هجومه على قطاع محدود يمكنه من اقتحام المدينة دون أن يحدث هناك توحيد للقوى الصليبية في الدفاع.

وصل المسلمون إلى الداخل، وبدأ الإشتباك المباشر مع الداوية والاسبتارية على مقربة من باب القديس أنطون، إلا أن القوة الإسلامية كانت طاحنة، فبدأ " الأمر وكأنهما رميًا - أي مقدمي الداوية والاسبتارية - نفسيهما ضد جدار من صخر"، وفي تلك الواقعة أصيب مقدم الداوية بجروح مات على إثرها.⁽³⁾

أمام هذا الحدث أصاب الناس الذعر والخوف، وأخذوا يتخلون عن مراكزهم ويفرون، فالمسلمون كانوا قد دخلوا من خلال البرج الملعون " وذهبوا مباشرة إلى سان رومانو، وأحرقوا منجنيق البيازنة الكبير، وذهبوا نازلين مباشر نحو دير [الفرسان التيوتون] الألمان، واستولوا على دير القديس ليوناردو، وجعلوا كل من تصدى لهم طعمة للسيف، وهاجم مسلمون آخرون برج النائب البابوي الذي كان على طرف البحر، من طرف البحر حتى قاعدة البرج، ثم وصلت أعداد

(1) يرجح وقوعها في الزاوية مباشرة وراء البرج الملعون الذي كان كما يبدو في السور الداخلي.

(2) وهذا يعني أنهم تابعوا الزحف بين السورين. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 143.

(3) الفارس الداوي: المصدر نفسه، ص 143-144.

كبيرة من الخيالة المسلمين ودخلت" بعد مقاومة عنيفة، وعندما رأى هنري ملك قبرص هذه المأساة قام بالفرار مع مقدم الاسبتارية على ظهر غليونيهما، إلا أن مقدم الاسبتارية متى أوف كليرمونت عاد إلى القتال وقاتل مع فرسانه حتى مات.(1)

أما بالنسبة لأهالي عكا، فقد انسحب قسم كبير منهم إلى قبرص حاملين ثروتهم وأموالهم، وتحصن الباقي في الأبراج التي كانت بمثابة قلاع، وكان أشهرها مجمع الداوية الذي استمر مقاوماً لمدة عشرة أيام بعد سقوط المدينة، ثم تم اجتياحه وقتل فرسانه.(2)

يذكر بعض المؤرخين أن قتل هؤلاء كان إنتقاماً للمسلمين الذين قتلوا على يد الصليبيين في عكا سنة 587هـ/1191م،(3) عندما أمر ريتشارد بقتل حوالي ثلاثة آلاف مسلم.(4)

وبهذا يكون قد تم الاستيلاء على عكا بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً،(5) يُضاف إليها عشرة أيام مدة حصار حصن الداوية والحصون الداخلية،(6) وقبل أن يغادرها الأشرف خليل إلى دمشق أمر بها فهدمت إلى الأرض (ودكت دكا)،(7) وربما كان باعته على هذا العمل ألا تتكرر حادثة استعادة عكا كما حصل أيام صلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة، وليقطع الأمل عند الصليبيين باستخدامها كرأس حربة فيما لو حاولوا إعادة وجودهم.

• تنمة السيطرة على ما تبقى من معاقل للصليبيين والتطهير الشامل:

صور، صيدا، بيروت، حيفا، جبيل، عثليت

(1) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 150.

(2) أبو الفداء: المختصر، 360/2. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 147-152. لودولف: وصف الأرض المقدسة، 312/39. البرزالي: المقتفي، 232/2-233. المقرئزي: السلوك، 765/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8-6/8. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 91.

(3) أبو الفداء: المختصر، 360/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/8.

(4) أمبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 345/1-346.

(5) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 112/8. المقرئزي: السلوك 765/1.

(6) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، 228/9. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 150،

(7) أبو الفداء: المختصر، 360 /2، النويري: نهاية الأرب، 200/31. المقرئزي: السلوك 765/1.

نجحت الخطة التي وضعها السلطان الأشرف خليل ضد الصليبيين في صور لعزلها عن الصراع في عكا، ولمنع الصليبيين الفارين من عكا في الالتجاء إلى صور، فقد استفاد على ما يبدو من خطأ الناصر صلاح الدين رحمه الله عقب معركة حطين وسقوط القدس وعكا، وحال دون وقوع المسلمين بالفخ مرة ثانية،⁽¹⁾ وكما توقع السلطان فإن السفن المنهزمة من عكا توجهت إلى ميناء صور، لكن القوات الإسلامية تمكنت في الحيلولة دون دخول هذه السفن إلى صور، ونجحت قوات الأمير علم الدين سنجر الصوابي في مضايقة صور، فأدرك صاحبها (آدم أوف كافران Caffran) صعوبة موقفه عندما رأى السفن المحملة تغادر عكا، فقام ومعه باقي الفرسان والناس الأثرياء بمهاجرة مدينة صور،⁽²⁾ ولم يبق في المدينة إلا الفقراء والضعفاء الذين آثروا عدم المقاومة وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة، فأجابهم الأمير علم الدين وسمح لهم بالرحيل ودخل صور في اليوم التالي من السيطرة على عكا.⁽³⁾

تابع السلطان تصفية المعازل الصليبية المتبقية في بلاد الشام، وكانت المحطة الثانية بعد صور مدينة صيدا التي كانت عائدة للداوية،⁽⁴⁾ أمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بالتوجه على رأس قوة عسكرية إلى صيدا، وقام بمحاصرة القلعة القائمة على البحر بواسطة آلات

(1) فصلاح الدين رحمه الله بعد أن حرر القدس و عكا وغيرهما من المدن سنة 583هـ/1187م ، سمح للصليبيين باللجوء إلى صور، فتجمع بها أعداد كبيرة منهم، وتحصنوا بها، وبالتالي عجز عن السيطرة عليها، وشكل هؤلاء دعم للحملة الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد، وحمل ابن الأثير صلاح الدين مسؤولية ما حدث للمسلمين من متاعب عقب ذلك، وعزا ذلك إلى إفراط صلاح الدين في التسامح مع خصومه الصليبيين .الكامل في التاريخ، 9/ 181، 187، 200-201. وذكر سبط ابن الجوزي أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين بتسيير الصليبيين إلى صور وأنه كان من الواجب عرضهم على الإسلام، فإن أسلموا وإلا ضربت رقابهم، مرآة الزمان، 322/21.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 149.

(3) أبو الفداء: المختصر، 361/2. البرزالي: المقتفي، 232-233/2. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 113/8. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 92. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 8/8. المقرئ: السلوك، 765/1.

(4) و كان الداوية قد اشتروها من يولييان صاحب صيدا سنة 1260م. انظر، الفارس الداوي: المصدر السابق، ص 26.

الحصار، وضايق أهلها، هنا عقد "ثيوبولد غودين"⁽¹⁾ اجتماعاً تشاورياً مع رهبانه الفرسان قرر خلاله الذهاب إلى قبرص لتجهيز قوة من هناك، والعودة لفك الحصار، وفعلاً ذهب إلى قبرص وطال انتظار الصليبيين دون جدوى، وقام أصدقاؤهم في قبرص بإرسال رسالة لهم بالتخلي عن المقاومة لأن المقدم لم يظهر أي علامة للعودة إلى صيدا، في الوقت الذي أخذ فيه المسلمون إقامة رصيف بين الشاطئ والقلعة للوصول إليها، وغادر الصليبيون المدينة في إحدى الليالي دون إصدار أي ضجة تاركين المدينة ليستولي عليها المسلمون بقيادة سنجر الشجاعي في 15 رجب/14 تموز من السنة ذاتها.⁽²⁾

وعندما كان الأمير سنجر الشجاعي محاصراً لمدينة صيدا أرسل رجال بيروت رسالة إليه يسألونه عن نواياه نحوهم ويطلبون الأمان فأخبرهم بأنهم في هدنة جيدة مع السلطان وأنه سيتتركهم بأمان، بالمقابل عليهم الاحتفال من أجل استيلاء السلطان على صيدا وأن عليهم عندما يمر بهم في طريق العودة إلى دمشق أن يخرجوا للتقابل معه،⁽³⁾ وهذا ما حدث " فلما وصل سنجر الشجاعي إلى بيروت تلقاه صاحبها وخیالته أحسن ملتقى ونزل في القلعة وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحریمهم وأتقالهم إلى القلعة، ففعلوا وظنوه شفقة عليهم، فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب"،⁽⁴⁾ ثم جهز سنجر الشجاعي، بعض الأمراء إلى جبيل فحربوا سورها وقلعتها وأبقوا على أهلها، وكانوا جنوبية، ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء، أما أهل بيروت؛ فقد جهزهم إلى دمشق، ومنها سيروا إلى مصر بأجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما حملوا إلى

(1) عند وفاة مقدم الداوية في عكا قام "ثيوبولد غودين" القائد الأعلى للداوية بالفرار إلى مدينة صيدا وتمركز في القلعة على البحر، وتم اختياره مقدماً للداوية من قبل الفرسان الرهبان الذين جاؤوا معه. الفارس الداوي: المصدر السابق، ص152.

(2) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص152-153. أبو الفداء: المختصر، 361/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 8/8، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: 121/8.

(3) الفارس الداوي: المصدر السابق، ص153.

(4) صالح بن يحيى (ت840هـ/1436م) تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، دار المشرق، بيروت، 1969م، ص23. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: 121/8.

مصر أطلقهم السلطان وقال أمني باقي عليكم، وخيرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم".⁽¹⁾

واستمرت القوات الإسلامية بالسيطرة على المعقل الصليبية التي أخذت تتهاوى الواحدة تلو الأخرى بأيديهم، فسقطت حيفا وجبيل أثناء دخول الشجاعي إلى بيروت،⁽²⁾ وعندما رأى اللذين في عثليت "قلعة الحجاج" خلو الساحل من الصليبيين، أدركوا بوضوح أن ليس لديهم القدرة على الدفاع فأحرقوا حواصلهم وهربوا في البحر، وكذلك فعل أهل طرطوس، وتم ذلك في مدة لم تتجاوز منتصف شعبان/ منتصف آب من السنة ذاتها.⁽³⁾

وفي محرم سنة 702هـ/ انطلقت البحرية المملوكية من مصر نحو جزيرة أرواد المقابلة لمدينة طرسوس، وكان قد تحصن فيها الصليبيون بعد تحرير الساحل الشامي، وأخذوا يعتدون على المترددين على الساحل، فتم تحريرها.⁽⁴⁾

عمليات القرصنة الصليبية في الحوض الشرقي للمتوسط في القرن الثامن الهجري/

الرابع عشر:

لم تنته الحروب الصليبية بتحرير عكا، والذي انتهى هو الاحتلال الصليبي للساحل الشامي فقط، وإنما بقيت الحروب الصليبية مستمرة في المشرق؛ وفي المغرب أيضاً، ففي الأندلس كانت حرب الاسترداد الإسبانية على أشدها، وفي المشرق استمرت الحروب الصليبية مع المماليك ومن بعدهم العثمانيون، والذي ساعد على استمرارها؛ الكيانات الصليبية التي أوجدتها ظروف الحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط (قبرص وأرمينية الصغرى).

(1) صالح بن يحيى: المصدر نفسه، ص23.

(2) صالح بن يحيى: المصدر نفسه، ص 23-24. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 10/8.

(3) ابن تغري بردي: المصدر السابق، 10/8. أبو الفداء: المختصر، 361/2. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 231/9. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 312.

(4) أبو الفداء: المختصر، 387/2. البرزالي: المقنفي، 200/3. النويري: نهاية الأرب، 19/32. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص80.

شكلت قبرص؛ التي أصبحت بعد تحرير عكا "أقصى الشرق بالنسبة للبلدان المسيحية"،⁽¹⁾ أهم قواعد ومركز انطلاق العمليات العسكرية الصليبية ضد المسلمين في مشرق البحر المتوسط.

امتلكت جزيرة قبرص موقعاً مهماً في وسط الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فالمساحة من قبرص إلى جميع البلدان المحيطة بها ليست أكثر من سفر يوم واحد في البحر،⁽²⁾ وقد عدّها ابن خرداذبة من أعظم جزائر بحر الروم.⁽³⁾

في مطلع الحروب الصليبية لم يكن للجزيرة أهمية كبيرة أيام الحملتين الأولى والثانية، لأنهما كانتا حملتان بريتان، فضلاً عن أن الجزيرة كانت تابعة للبيزنطيين، ولكن مع الحملة الثالثة تبدل الوضع كلياً، فعندما انطلق ريتشارد قلب الأسد بأسطوله يريد عكا قام باحتلال الجزيرة قبل احتلاله لعكا،⁽⁴⁾ وبالتالي انتهت السيادة البيزنطية على الجزيرة لتبدأ السيادة الصليبية، وفي ظل هذه السيادة بدأت الجزيرة مرحلة جديدة من تاريخها، غدت فيها قاعدة للصليبيين القادمين من الغرب، وللأساطيل الأوربية، ومركزاً مهماً لتمويل الصليبيين في الشام، ومنطلقاً لكثير من الغارات والحملات الصليبية، واختصر ابن الأثير ذلك بقولها أنها أصبحت "قوة للفرنج".⁽⁵⁾

بعد مدة قام ريتشارد ببيع الجزيرة للداوية، ولما أدرك هؤلاء أن ليس لهم المقدرة على حكم الجزيرة، وأنها سوف تخرج من أيديهم، طالبوا ريتشارد بحل الصفقة، فقام ريتشارد ببيعها ثانية لغي لوزينان، وقد تم ذلك كله قبل رحيل ريتشارد عن عكا سنة 1192م.⁽⁶⁾

(1) لودولف: وصف الأرض المقدسة، 296/39.

(2) لودولف: المصدر السالف، 298/39.

(3) ابن خرداذبة:

(4) تحدث أمبرويز في قصيدته (صليبية ريتشارد قلب الأسد) بالتفصيل عند احتلال قبرص من قبل ريتشارد، انظر قصيدته في الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، 156-115/ 1/32.

أيضا Hill(G): A History of Cyprus, 3vols, Cambridge.1940-1948.p.317-320

Norgate, (K): Richard the Lion Heart, London, 1924.p.141-148

(5) ابن الأثير: الكامل، 42/12.

(6) ماكارياس: مرويات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، ص 17-18.

حكم غي لوزينان الجزيرة باسم ريتشارد، ولما خلفه أخوه عموري سنة 1194م، سعى إلى الاستقلال، فتوجه بنظره إلى الإمبراطور هنري السادس، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وفي سنة 1197م قام هنري السادس هذا بإرسال اثنين من رجاله قاموا بتقديم التاج لعموري لوزينان بوجود المندوب البابوي، وبذلك أصبح عموري ملكاً على قبرص.⁽¹⁾

شغلت قبرص دوراً مهماً في الحملات الصليبية الخامسة والسابعة، كنقطة تجمع قبيل الانطلاق نحو السواحل الإسلامية، لكن الوضع تغير تماماً بعد سقوط عكا سنة 690هـ/1291م، أصبحت فيه قبرص حجر الدومينو بالنسبة للحروب الصليبية، ولم يعد دورها ثانوياً، فعندما سقطت عكا انتقل إلى قبرص الأمراء والنبلاء الصليبيون مع ثرواتهم واستقروا فيها،⁽²⁾ وبذلك انتقل مركز الثقل الصليبي إلى قبرص التي حملت - تحت حكم آل لوزينان - لواء الحروب الصليبية في مشرق البحر المتوسط باقي سنوات العصور الوسطى، وملوكها هم الوحيدون الذين وضعوا الفكرة الصليبية موضع التنفيذ، وأصبحت هي واجهة أوروبا المقابلة للسلطة المملوكية، ومن قبرص انطلق فرسان الاسبتارية إلى رودس فانتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية سنة 1308م، واتخذوها مقراً لهم،⁽³⁾ وبالتالي بات التنسيق بين الجزيرتين قوياً جداً.

ولما فشلت أوربا في تجريد حملة عسكرية ضد المماليك بعد سقوط عكا، لجأت البابوية إلى فكرة الحرب الاقتصادية كوسيلة لإضعاف السلطنة المملوكية التي احتكرت التجارة بين الشرق والغرب، وجنت من وراء ذلك مزابح خيالية، وفي سبيل ذلك صدرت قرارات الحرمان البابوية، وبدأت سفنها تراقب السواحل لمراقبة تنفيذ هذه القرارات.⁽⁴⁾

وهناك نقطة مهمة، هو أن قبرص أصبحت مقر التجارة الأوربية في مشرق البحر المتوسط، فقد نقلت الجاليات الأوربية نشاطها من شاطئ بلاد الشام إلى قبرص، وبات على كل سفينة أوربية قادمة من الغرب أن تقف بالجزيرة لتقوم بعمليات التبادل التجاري هناك مع التجار المسلمين، لأن

(1) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 294.

(2) لودولف: وصف الأرض المقدسة، 296/39

(3) لودولف المصدر نفسه، 287/39 استقر فرسان الدولة الاسبتارية - بعد رحيلهم من عكا - في قبرص في مدينة

ليماسول. لودولف، 293/39.

(4) الفصل الخامس سيتناول الحديث عن هذه الإجراءات

قرارات الحرمان منعت الصليبيين من التوجه إلى الشواطئ المملوكية للمتاجرة معها، وقد وصف مؤرخ قبرص ليونتيوس ماكارياس هذه العملية بشكل دقيق، فقال: " وكان هناك ثراء عظيم، وسادة أغنياء، كثيراً.... وكانت الثروات التي امتلكوها تتجاوز قدرتي على الوصف، لأن سفن التجار المسيحيين التي قدمت من الغرب لم تغامر في القيام بأعمالها في أي مكان آخر باستثناء قبرص، وعملت تجارة سورية في قبرص، ولهذا كانت أوامر وقرارات تحريم البابا الأكثر قداسة، مع التهديد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي من أجل إمكانية ذهاب الأرباح إلى القبارصة المساكين،...ولأن سورية قريبة من فيماغوستا، اعتاد الناس على إرسال سفنهم لنقل بضائعهم إلى فيماغوستا،... وعندما كانت سفن البندقية وجنوا وفلورنسا وبيزا وقطلونيا وجميع الغرب تصل، كانوا يجدون التوابل هناك، فيحملون سفنهم بكل ما احتاجوه، ثم يأخذون طريقهم عائدين إلى الغرب"،⁽¹⁾ وعلى هذا فقد غدا الشعب القبرصي - على قول لودولف- أغنى شعوب العالم على الإطلاق.⁽²⁾

وقد علق أحد المؤرخين بأن الملوك القبارصة كانوا واعين بشكل جيد لأسباب الازدهار، وأنهم قد دُعموا بواسطة الحظر البابوي النشط على التجارة المسيحية مع الموانئ السورية والمصرية، حيث استخدموا قوتهم البحرية التي جرى تطويرها لاعتقال الخارقين للحظر.⁽³⁾

بدأت الأوضاع بالتحول وتسير على عكس مصالح قبرص مع أواخر ثلاثينيات القرن الرابع عشر، عندما أخذت طرق التجارة تؤثر الإسكندرية من جديد، والحظر البابوي خرق بواسطة نظام الإجازات، وذلك عندما بدأ البابا بمنح إجازات لبعض التجار الأوربيين لممارسة التجارة بشكل محدود مع المماليك، لكن مع ذلك استمر ميناء فيماغوستا يستحوذ القسم الأكبر من التجار لبعض العقود، ولاسيما بعد سقوط أياس بيد المماليك سنة 737هـ/1337م.⁽⁴⁾

وفي سبيل حماية التفوق الاقتصادي القبرصي؛ والتخلص من المنافسة الاقتصادية المملوكية بعد إخفاق قرارات الحظر البابوية، قام آل لوزينان حكام قبرص بدور كبير في عمليات القرصنة التي انتهجتها القوات الصليبية آنذاك ضد الموانئ والسفن الإسلامية، وخاصة في عهد بطرس

(1) ماكارياس: مروييات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، ص 56-57.

(2) لودولف: المصدر السابق، 295-296.

(3) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 307

(4) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 307.

الأول الذي تدهورت في عهده تجارة فيماغوستا، ورأى ملكها أن الحل هو شن عمليات عسكرية على شواطئ أسيا الصغرى والشواطئ المملوكية، وكان أخطرها على الإطلاق هو هجومه على الإسكندرية سنة 767هـ/1365م.

• هجوم القبارصة على الإسكندرية سنة 767 هـ/1365م:

اعتلى عرش قبرص الملك بطرس الأول سنة هـ/1359م بعد وفاة أبيه هيو الرابع،⁽¹⁾ فاستهل عهده بسلسلة من الغارات الناجحة التي قادها بنفسه ضد التركمان في سواحل أسيا الصغرى الجنوبية، وانتهت باستيلائه على قلعة جورهيغوس وأضاليا، وفرض الطاعة والجزية على عدد من ملوك التركمان،⁽²⁾ هذا الانتصار دفعه لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الأكثر أهمية، وبدأ يعد العدة لهجوم كبير أخذ سمة الحملات الصليبية، إذ قام بجولة في أوربا، استمرت ثلاثة أعوام تقريبا (1362 - 1365)م، زار فيها القوى الرئيسية هناك مثل البابوية، والبندقية، وجنوة، وفرنسا، وانكلترا، وألمانيا، بالإضافة إلى جماعة فرسان الإسبتارية الموجودين في رودس، حصل فيها على مجموعة كبيرة من الوعود، مع بعض المساعدات، وتجمع لديه في رودس 156 سفينة.⁽³⁾

في رودس جرى تحديد وجهة الحملة، وقبل ذلك كانت وجهتها مجهولة، واكتفى بطرس بالقول بأنها حملة ضد المسلمين، وفي مطلع شهر أكتوبر أثناء وجوده في رودس أعلن عن وجهة الحملة، ومَنَعَ أي سفينة من الإبحار نحو الشواطئ المملوكية حتى لا يعلم المماليك بخبر هذه الحملة.⁽⁴⁾

والسؤال هنا: لماذا اختار بطرس الأول الإسكندرية هدفا لحمته دون غيرها؟

(1) ماكارياس: المصدر السابق ، ص 56.

(2) ماكارياس: المصدر السابق ، ص 66 وما بعد + الفصل الثالث ص ...

(3) ماكارياس: المصدر السابق، ص 98. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، تر: سهيل زكار، دار

التكوين، دمشق، 58-95.

(4) ماكارياس ، المصدر نفسه، ص 98.

انفرد المؤرخ السكندري (محمد بن قاسم النويري) بتقديم جملة من الأسباب التي دفعت بطرس للهجوم على الإسكندرية، أول هذه الأسباب : الظلم الذي نزل بالمسيحيين سنة 1355/هـ755 م، عندما قام السلطان الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون بطردهم من دواوين الحكومة، وفرض عليهم لباس خاص ليعرفوا به، والسبب الثاني هو رفض السلطان لطلب تقدم به الملك بطرس الأول يطلب فيه السماح له بأن يتسلم التاج بمدينة صور، كعادة ملوك بيت المقدس قبل سقوط عكا، فرفض السلطان طلبه، والسبب الثالث: هو تعرض بعض البنادقة للقتل على يد "عوام المسلمين في الإسكندرية"، بالإضافة إلى عدد من الأسباب التي يذكرها النويري؛ والتي تتعلق بمعرفة بطرس الأول، من خلال بعض الأحداث، خلو الساحل المصري من وسائل الدفاع بشكل أطمعه في التوجه لضرب الإسكندرية.⁽¹⁾

هذه الأسباب التي قدمها النويري، وعلى أهميتها فهي لا تشكل الدوافع والأسباب الرئيسية للحملة على الإسكندرية، فقد سلف الحديث عن انتعاش قبرص اقتصادياً بعد أن تجمع فيها الصليبيون عقب تحرير عكا، وعن محاولات البابوية لمنع التجارة مع المماليك، حيث قَدّمت لهم أراضي أرمينية الصغرى كبديل عن المماليك،⁽²⁾ لكن الأوربيون استمروا في تجارتهم مع المماليك ولا سيما بعد أن خرجت آياس من قبضة الأرمين ووضعت آياس تحت السيطرة المملوكية سنة 1347/هـ648م،⁽³⁾

كانت الإسكندرية هي المركز التجاري الرئيس للمماليك في البحر المتوسط، وهي أهم المراكز التي تنتهي إليها البضائع القادمة من الشرق في طريقها إلى أوربا، أما قبرص فقد اقتصر دورها التجاري كوسيط بين هذه المراكز والتجار الأوربيون؛ الذين غالباً ما فضلوا الاتجاه نحو المراكز المملوكية مباشرة.

بلا شك، شكلت الإسكندرية منافساً خطيراً لقبرص، وبالتالي يمكن أن يكون شل الحركة التجارية بالمدينة؛ وضرب اقتصاد السلطنة المملوكية، هو السبب الرئيس لهذه الحملة، ويفسر ذلك

(1) النويري (محمد بن قاسم، ت:775هـ): الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة

الإسكندرية، تح: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ص 28-38.

(2) مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، 17/38

(3) انظر الفصل الرابع

أن بطرس هذا عندما فشلت حملته على الإسكندرية توجه نحو آسيا الصغرى في محاولة لانتزاع إياس من المماليك ، كما قام بسلسلة من الغارات على الموانئ الشامية، وطبعاً هجوماً القبارصة على الإسكندرية أثار غضب البنادقة والجنوية وغيرهم من الأمم التجارية الأوربية، وفيما بعد عمل هؤلاء جاهداً لعقد اتفاق بين القبارصة والمماليك لإزالة آثار الهجوم القبرصي ولكي تعود التجارة كما كانت.⁽¹⁾

ويمكن تسجيل عامل آخر شجع على ضرب الإسكندرية، هو تخفيف الضغط عن أرمينية الصغرى، فمن المعروف أن بطرس الأول أصبح له وجود قوي في سواحل آسيا الصغرى، على مقربة من الأرمن، وامتلك هناك عدداً من القلاع التي لم تكن بمأمن من هجمات المماليك وحلفائهم التركمان، وهجومه على الإسكندرية قد يشغل المماليك عما هو خارج مملكتهم.

جهّز بطرس الأول حملته وقد حاول جاهداً إخفاء خبرها، ولكن على قول المقرئزي فإن خبر الحملة وصل إلى الإسكندرية قبل عدة أشهر، ولكن السلطنة المملوكية لم تهتم لأمرها،⁽²⁾ وعندما أرسل نائب الإسكندرية للأمير يلغا الخاصكي - وكان هو المسير لأمر المملكة -⁽³⁾ يطلب منه إمدادات لتحسين المدينة، كان جواب الخاصكي إن "القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية".⁽⁴⁾

انطلقت الحملة من رودس إلى إحدى جزر خلقيدونية، ومن هناك سارت باتجاه الإسكندرية،⁽⁵⁾ فوصلت مشارفها ورآها أهل الإسكندرية يوم الخميس 21 المحرم/ 9 تشرين ولم يكن سكان الإسكندرية؛ ولا حتى حكومتها يتوقعون هجوماً صليبياً مفاجئاً، فلم يكن له ما يبرره من مجريات في الأحداث السياسية، لذا ظن "أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة، ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جاري عادتهم كل سنة"،⁽⁶⁾ إلا أن السفن - وعلى غير العادة - لم تدخل الميناء،

(1) ماكارياس: المصدر السالف، ص 101 وما بعد.

(2) المقرئزي: السلوك، 105/3.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 24/11.

(4) النويري: الإمام، ص 36.

(5) ماخارياس: المصدر السابق، ص 98. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص 113.

(6) النويري: الإمام، ص 42.

فأوجس الناس خيفة، وهنا أدرك جنغرا حقيقة الموقف، فسارع إلى إغلاق أبواب المدينة، كما بدأ بشحن القلاع بالرجال والرماة، واستدعى العريان المجاورين للدفاع عن المدينة.⁽¹⁾

في يوم الجمعة 22 محرم/10 تشرين الأول نزل الصليبيون على الساحل، وبدأوا بهجومهم الكاسح، لم يكن بالمدينة قوة كافية، فتولى الأهالي والعريان والمغاربة الموجودون هناك، مع أهل الربط والخانقاوات الدفاع عن المدينة،⁽²⁾ ويقدر ماكارياس القوة التي خرجت للتصدي للقبارصة بعشرة آلاف مابين خيالة ورجالة،⁽³⁾ واستنسلوا في الدفاع عن المدينة، لكن كان يعوزهم التنظيم والتأهيل، فأخفقوا أمام شدة الهجوم القبرصي، وبعد هزيمتهم خارج الأسوار ، تمكن تمكن القبارصة من اجتياح المدينة بعد ظهر يوم الجمعة.⁽⁴⁾

هرب الأهالي من المدينة، ومن بقي فيها جرت بحقهم مجزرة عظيمة،⁽⁵⁾ أما بطرس الأول فتجول في المدينة التي -على قول ماكارياس- هي المدينة الأقوى بين جميع المدن التي امتلكها المسلمون على ساحل البحر،⁽⁶⁾ وانتشر جنوده في المدينة طولاً وعرضاً، ينهبون ويقتلون يأسرون ويسلبون، بكل حقد وسادية مدة ستة أيام تقريباً، وفعّلوا فيها ما يضيق به الوصف، فلم يفرقوا في أعمالهم الوحشية بين المسلمين وغيرهم، بل حتى المحلات التابعة للجاليات الأوربية تعرضت للنهب من قبلهم.⁽⁷⁾

وصل الخبر إلى القاهرة في يوم السبت في 23 محرم/ 11 تشرين الأول، ولأول وهلة كذب الأمير يلبغا الخاصكي الخبر، وظن أنه مكيدة، لكن عندما رأى اللاجئين قد وصلوا إلى القاهرة أمر

(1) المقرئزي: السلوك، 105/3. النويري: الإمام، ص42.

(2) النويري: الإمام، ص 44-45. المقرئزي: السلوك، 3 / 105-106. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/29.

(3) ماكارياس: المصدر السابق ، ص 99

(4) ماكارياس: المصدر السابق ، ص 99، ويتحدث النويري عن الخلاف بين المغاربة الذين طالبو بالتحصن في المدينة داخل الأسوار ، وبين أهل الربط الذين كانوا على ربطهم، فنزلت بهم الهزيمة وتهدمت ربطهم وبيوتهم. الإمام، ص 45-47.

(5) النويري: الإمام، ص48-58.

(6) ماكارياس: المصدر السابق، ص 99. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص 154.

(7) النويري: الإمام، ص 56. المقرئزي: السلوك، 3/106-107. ماكارياس: مرويات، ص 99-100.

الجيش بالإسراع إلى الإسكندرية،⁽¹⁾ ولما كان النيل في فيضانه ركبوا الطريق البري عبر الصحراء، مما أصر وصولهم إلى الإسكندرية حتى يوم الخميس 28 محرم / 16 تشرين الأول، في وقت كانت سفن الصليبيين قد امتلأت بالأسلاب والأسرى الذين بلغ تعدادهم خمسة آلاف أسير تقريباً، وقد تجهزت للمسير.⁽²⁾

كان قرار الجلاء عن المدينة قد اتخذ بعد عقد مجلس عسكري للتشاور بين القادة الصليبيين، الذين أيدوا بأغلبية ساحقة الانسحاب، لأن المكوث بالمدينة - على حد قول ماكارياس - ليس مفيداً على الإطلاق،⁽³⁾ لأنهم أدركوا استحالة الاحتفاظ بالمدينة، وكما يقول النويري، فإن بطرس الأول دخل الإسكندرية لصا وخرج منها لصا.⁽⁴⁾

• هجوم القبارصة على سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى:

على الرغم من الضربة القاسية التي تلقتها الإسكندرية من القبارصة، إلا أن بطرس الأول أخفق في تحقيق أهدافه على كافة المستويات، فهو لم يتمكن من الاحتفاظ بالمدينة، ومعظم ما سلبه منها حرم القبارصة منه وأرسله على شكل هدايا لملوك أوربا،⁽⁵⁾ واقتصادياً فقد استمرت التجارة في الإسكندرية التي نالت من الاهتمام بعد الاجتياح أضعاف ما كان قبله.⁽⁶⁾

ولما أخفق بطرس الأول في ضرب أكبر الموانئ والمنافذ التجارية المملوكية، قرر التوجه إلى موانئ أقل أهمية، وأصغر، بشكل يمكنه من تحقيق هدفه بدقة أكبر، فاختار لحملة التالية ميناء طرابلس على الساحل الشامي.

(1) المقرئزي: السلوك، 104/3-105.

(2) النويري: الإمام، ص 60. المقرئزي: السلوك، 107/3. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 29/11.

(3) ماكارياس: المصدر السابق، ص 100. غليوم دي ماخوت: الاستيلاء على الإسكندرية، ص 155-165.

(4) النويري: الإمام، ص 87.

(5) النويري: الإمام، ص 91.

(6) النويري: المصدر نفسه، ص 201. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 30/11.

كان ميناء طرابلس إلى حدٍ ما هو أكبر الموانئ الشامية بعد ميناء بيروت، وكان هو فرضة تجارة حلب على المتوسط،⁽¹⁾ لذا تم اختياره كهدف لحملة سنة 769هـ/ 1367م، وقبل الحديث عن هذه الحملة لابد من الإشارة إلى حملة خرجت قبل سنة، مؤلفة من الأسطول القبرصي مع أسطول رودس، وعدد سفنها حوالي 230 سفينة، وسبب خروج هذه الحملة هو اعتقال تجار أوريبيين في ميناء بيروت، ولما خرجت هذه الحملة تعرضت لعاصفة قوية ردت قسم من السفن، والتي فيها ملك قبرص إلى جزيرته، في حين تمكنت 14 سفينة من الوصول إلى طرابلس والبقاء فيها مدة 15 يوماً، ولما تأخر وصول باقي الأسطول عادت هذه السفن إلى قبرص.⁽²⁾

بعد هذه الحملة ظهرت بوادر للصلح بين الطرفين، لكن سرعان ما تبدلت الظروف عندما هاجم التركمان في آسيا الصغرى قلعة جورهيغوس التابعة لملك قبرص بأمر من المماليك، بالإضافة إلى حدوث اضطرابات في السلطنة المملوكية على إثر تمرد يلغا الخاصكي، وتأخر رد المماليك على رسل القبارصة بشأن الصلح،⁽³⁾ فسارع القبارصة وبمساعدة الروادسة إلى جمع أسطول مكون من حوالي 150 سفينة للهجوم على طرابلس.⁽⁴⁾

يقول ابن كثير بأن بطرس الأول اغتر بما أصاب في الإسكندرية، "واعتقد أن كل بيضاء شحمة، وأن كل حمراء لحمة"،⁽⁵⁾ لذا جهز حملته هذه وخرج من قبرص في صفر 769هـ/ أيلول 1367م، وكان على علم من خلال بعض جواسيسه أن نائبها غير موجود فيها وأن العسكر متفرقة، فتمكن من دخولها، وبدأ القبارصة عمليات السلب والنهب على جاري عاداتهم، لكنهم وقعوا

(1) هايد: تاريخ التجارة، 3/ 335، 337.

(2) ماكارياس: مرويات، ص 110-111. النويري: الإمام، ص 169.

(3) ماكارياس: مرويات، ص 112-114، 118-119.

(4) قدر النويري عددها بـ 150 سفينة، في حين قدر غيره عددها بـ 130 سفينة. النويري: الإمام، ص 170،

المقريزي: السلوك، 3/ 149. ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص 424.

(5) ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص 424.

بكمين نصبه لهم المسلمين في بساتين القصب بين المدينة والساحل، فأنزلوا بهم ضربة قاسية وقتلوا منهم حوالي ألفين مقاتل.⁽¹⁾

انسحبت الحملة القبرصية من طرابلس على هذه الهزيمة وتوجهت شمالاً صوب طرطوس، فتمكنوا من دخولها بهد أن فر منها أهلها، فأقام بها يوم وليلة، وهناك عثروا على مواد أولية لتجهيز السفن، مثل القطران، والمسامير، والأخشاب، ومجاديف، وحبال الجر، فأحرقوها ورموا المسامر في البحر، ثم ساروا إلى بانياس، فأحرقوا بعض بيوتها، ومنها إلى جبلة، لكن الريح أبعدتهم عنها، فاتجهوا شمالاً إلى اللاذقية، وبسبب حصانة مينائها ومثانة سلاسلها لم يتمكنوا من دخولها، بل خسروا ثلاثة سفن، ومنها توجهوا إلى أياس.⁽²⁾

وقعت إياس على الشاطئ الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وكانت الميناء الرئيس لمملكة أرمينية الصغرى، وهو في ذلك الوقت كانت تحت السيطرة المملوكية بعد أن تنازل لهم عنها الأرمن بموجب معاهدة 737هـ/⁽³⁾، كان لهذا الميناء قلعتان، خارجية وداخلية، فتمكن القبارصة من الاستيلاء على القلعة الخارجية ومحاصرة الداخلية، في الوقت الذي وصل فيه الأمير منجك السيفي في طريقه من طرسوس إلى طرابلس بعد أن رسم له بنيابتها، ولما وجد القبارصة محاصرين المدينة بدأ بمناوشتهم، وانزل بهم ضربات قاسية إلى أن وصلتته القوات الحلبية وعلى رأسها الأمير منكلي بغا نائب حلب حيث تمكنوا من رد القبارصة وإعادتهم " خائبين خاسرين أعظم خيبة من خيبتهم من طرابلس ".⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن كثير: الاجتهاد، ص 424-425. ماكارياس: مرويات، ص 121-122. النويري: الإمام، ص 173 وما بعد. المقرئزي: السلوك، 3/149.

⁽²⁾ النويري: الإمام، ص 181-184، 198. ماكارياس: مرويات، ص 122-123.

⁽³⁾ مؤرخ مجهول: عصر سلاطين المماليك، ص 194. اليوسفي: نزهة الناظر، ص 402-403. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 10. ولكن النويري ذكر أنه كان مناصفة بين الأرمن والمماليك، الإمام، ص 186-187.

⁽⁴⁾ ابن كثير: الاجتهاد، ص 426. وقد ألف ابن كثير هذه الرسالة بطلب من الأمير منجك السيفي عندما أصبح نائب دمشق، وسبب ذلك أن هذا الأمير عندما كان يناوش القبارصة عند أياس طلب المساعدة من المسلمين هناك فلم يجبه أحد، فأراد أن يكتب للناس في فضل الجهاد، ويرغبهم فيه.

في سنة هـ/1369م قتل بطرس الأول على يد أمراءه، وخلفه ابنه بطرس الثاني،⁽¹⁾ وقد استقبل هذا عهده بحملة هاجم فيها السواحل الشامية ابتداءً بصيدا، وبعد اشتباكه مع المسلمين هناك تركها واتجه شمالاً إلى بيروت، لكن ميناءها الضيق والحراسة الشديدة لم تمكنه من دخولها، فاتجه شمالاً إلى اللاذقية مروراً بجبيل، والبترون، وطرطوس، وهو ينهب ويسلب ويحرق، ثم أبحر إلى أياس فلم يتمكن من دخولها، فتركها إلى أضاليا ومنها إلى قبرص.⁽²⁾

• الصلح بين القبارصة والمماليك:

استمرت المفاوضات والسفارات تتردد بين الطرفين حوالي أربعة سنوات دون التوصل لنتيجة، والذي قام بمهمة المفاوضات وبذل الجهود الكبيرة هم البنادقة والجنوية والقطلانين، والسبب في ذلك أن تجارتهم تعطلت على اثر هذه الحملة، ولم يتم توقيع الصلح حتى أيام بطرس الثاني سنة 772هـ/1370م، حيث نص الصلح على إطلاق سراح أسرى الطرفين.⁽³⁾

في الحقيقة لم تستمر العلاقات الودية بين الطرفين طويلاً، ففي سنة 775هـ/1373م وقعت جزيرة قبرص تحت سيطرة جنوا على اثر حرب حدثت بين الجنوية والبنادقة، وقف فيها القبارصة إلى جانب البنادقة، وبعد سنة تم توقيع اتفاقية بين الطرفين نصت على بقاء ميناء فيماجوستا تحت السيطرة الجنوية مقابل سحب قواتها من باقي أنحاء الجزيرة.⁽⁴⁾

هذا كان يعني ببساطة هيمنة جنوا على الحركة التجارية في قبرص، مما حدا بالأمم التجارية المنافسة لجنوا إلى ترك المتاجرة مع قبرص والتوجه الكلي نحو الموانئ المملوكية كما حدث مع البندقية التي أصدرت أوامرها لتجارها بترك المتاجرة مع قبرص والتوجه بدلاً عنها إلى بيروت.⁽⁵⁾

وعن حصار اياس انظر، ماكارياس: مرويات، ص 123. النويري: الإمام، ص 192. المقريري: السلوك، ص 150.

(1) ماكارياس: مرويات، ص 165-168. النويري: الإمام، ص 190-191.

(2) ماكارياس: مرويات، ص 170-171.

(3) النويري: الإمام، ص 274-275. ماكارياس: المصدر السالف، ص 174-182. المقريري: السلوك، ص 189/3.

(4) ماكارياس: المصدر السالف، ص 190 وما بعد.

(5) Mos Latrie: Hist. de chypre. II. p363 – 364.

هذا أثر سلباً على العلاقات بين قوى المتوسط، فكثرت الغارات وعمليات ضد السواحل المملوكية، ففي سنة 780هـ/1378م هاجمت عشرة مراكب حربية مدينة طرابلس ولكن تم التصدي لها من قبل نائبها يلغا الناصري،⁽¹⁾ ثم كرر الهجوم سنة 785هـ/1383م ففي جمادى الآخرة نازل الجنوبية ميناء بيروت، فتم التصدي لهم وأسر 16 مركب من مراكبهم، فانسبوا نحو صيدا، وكان أهلها قد خرجوا منه مع أموالهم، فنزل الجنوبية إليها ونهبوا بعض الأمتعة من زيت وصابون وحرقوا السوق ثم انسحبوا، وعادوا في شهر شعبان لمهاجمة ميناء بيروت، فقتلوا من أهلها 15 شخصاً ثم انسحبوا.⁽²⁾

(¹) المقرئزي: السلوك، 3/335. ابن حجر: إنباء الغمر، 1/174. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 2/382.

(²) ابن حجر: إنباء الغمر، 1/274. ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص 31. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/1/335.

الفصل الثالث

النشاط السياسي والعسكري لمملكة إرمينية الصغرى في مشرق البحر المتوسط منذ
منتصف القرن السابع الهجري حتى سقوطها بيد المماليك
658-776هـ / 1260-1375م

- أولاً- ظهور مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا وعلاقتها مع جيرانها.
- ثانياً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس.
- ثالثاً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور قلاوون.
- رابعاً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الأشرف خليل.
- خامساً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور لاجين.
- سادساً - المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الناصر محمد.
- سابعاً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عصر أسرة الناصر محمد.

أولاً- ظهور مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا وعلاقتها مع جيرانها:

في نهاية القرن السادس ومطلع السابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شهد العالم في مشرق البحر المتوسط مولد مملكة - صليبية - جديدة فُدر لها أن تشغل دوراً مهماً في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى، هذه المملكة هي "مملكة إرمينية الصغرى"، وسميت بذلك للتمييز بينها وبين إرمينية القديمة المعروفة باسم إرمينية الكبرى، والتي تقع بين المرتفعات المركزية للهضبة الأناضولية غرباً، وهضبة أذربيجان والشاطئ الجنوبي لبحر قزوين من الشرق والجنوب الشرقي، أما من الشمال والشمال الغربي فيحدها البلاد الواقعة على سواحل البحر الأسود (جانيق ولازستان)، وتتوزع حدودها الجنوبية على سلسلة جبال طوروس من الجنوب الغربي، والسهل الشمالي الغربي لبلاد الجزيرة (البلاد الواقعة في حوض دجلة الأعلى والزاب الأعلى) من الجنوب الشرقي.⁽¹⁾

أما إرمينية الصغرى فقد قامت في إقليم قيليقيا "كيليكيا"، أي الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، بين جبال الأمانوس شرقاً، وجبال طوروس في الشمال والشرق، أما من ناحية الجنوب فيحدها البحر المتوسط بساحله الممتد من مدينة طرسوس إلى جنوب اسكندرونة من الجنوب الغربي، أما من الجنوب الشرقي فيحدها بغراس، وتبلغ مساحتها حوالي 40،000 كم²، بطول 400 كم من الشرق إلى الغرب، ويعرض 100 كم من الشمال إلى الجنوب، يتألف إقليم كيليكيا من جزئين، كيليكيا السهلية، وكيليكيا الجبلية، ومن أنهارها سيحون وجيحون، ومن أهم مدنه طوسوس،⁽²⁾ وأياس،⁽³⁾ ... الخ.⁽⁴⁾

تبوأ كيليكيا مكانة مهمة على مر العصور نظراً لموقعها الجغرافي، وعندما ظهر العرب المسلمون على مسرح الأحداث أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي؛ بعد أن تمكنوا من

(1) الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، ص31، مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، دار نوبل، دمشق، ص68-69. ومن أهم المصادر التي سوف يعتمد البحث عليها هي:

Recueil Historiens des Croisades Documents Armeni ns. Paris. 186-1906

وسيرمز له بـ R.H.C.Doc.Arm.

(2) مدينة على ساحل البحر من ناحية الروم. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 249.

(3) أياس وهو حصن على شاطئ البحر وهو فرضة سيس. ابن شداد: الأعلق 164/2/1.

(4) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص81-82. مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص223

فتح بلاد الشام والجزيرة، والقضاء على الامبراطورية الفارسية، أصبحوا وجهاً لوجه مع الإمبراطورية البيزنطية كمنافس قوي للسيطرة على كيليكيا، ولم ينته القرن الأول الهجري إلا وكيليكيا تحت السيطرة الإسلامية، فشغلت - فيما بعد - المنطقة الحدودية المتنازع عليها بين المسلمين والبيزنطيين، أو فيما عرف باسم الثغور،⁽¹⁾ وهذه الثغور الفاصلة بين المسلمين والبيزنطيين تقسم إلى جزرية - وهي الشمالية الشرقية - وشامية، وهي الجنوبية الغربية، وكانت مدن كيليكيا - مثل أذنة،⁽²⁾ والمصيصة،⁽³⁾ وطرسوس، وعين زربة،⁽⁴⁾ - أهم الثغور الشامية والتي امتدت على شكل خط طويل من القلاع يمتد بشكل مائل من ملطية على الفرات الأعلى حتى طرسوس على المتوسط، وكانت السيادة عليها تتبادل بين المسلمين والبيزنطيين تبعاً للتفوق العسكري.⁽⁵⁾

استمرت السيادة الإسلامية على المنطقة حتى القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي، في هذا القرن خرجت كيليكيا من أيدي المسلمين لصالح الامبراطورية البيزنطية، فالتفكك الذي بدأ يدب في جسم الخلافة العباسية آنذاك قابله نهضة قوية من الجانب البيزنطي، ظهر بشكل واضح عندما قام الإمبراطور البيزنطي نفقور فوكاس (348 - 359هـ / 958 - 969م) بشن حملات عسكرية على الثغور الإسلامية تمكن فيها من احتلال المصيصة، وطرسوس، ومرعش،⁽⁶⁾ وغيرها من مدن مدن كيليكيا مُنهيًا بذلك السيادة الإسلامية عليها ومنها تقدم إلى أنطاكية فاحتلها، ثم وضع حلب بعد اجتياحها سنة 351هـ / 962م تحت الحماية البيزنطية.⁽⁷⁾

(1) الثغر هو كل موضع قريب من أرض العدو. القلقشندي: صبح الأعشى، 6/131.

(2) مدينة تقع على نهر يحان إلى الغرب منه. ابن شداد: الأعلام، 1/151/2.

(3) المصيصة تشتمل على مدينتان بينهما نهر جيحان، المصيصة على غربه وعلى شرقه كقربيا، ولهذا كانت تسمى بغداد الصغيرة، ابن شداد: الأعلام، 1/144/2.

(4) بلدة تقع بين سيس وتل حمدون شمال نهر جيحان، وجيحان بينه وبين تل حمدون، وهي في الجنوب بميل إلى الغرب عن سيس، وتسمى ناروزا، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 251.

(5) فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966م، 3 أجزاء، 1/132 وما بعدها. صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، 1984، ص 20-21.

(6) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، الحموي: معجم البلدان، مادة مرسى.

(7) ابن العديم (الصاحب كمال الدين بن عمر بن أحمد، ت: 660هـ): زبدة الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق-القاهرة، ط1، 1997، 1/130-132. ابن الأثير: الكامل في التاريخ،

1- مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا:

يرجع الوجود الأرمني في كيليكيا إلى ما قبل الميلاد، إلى أيام الملك ديكران الثاني الكبير (94-55 ق.م.)،⁽¹⁾ تمكن هذا الملك الأرمني؛ الذي سماه شيشرون بملك آسيا العظيم، من بناء إمبراطورية أرمنية امتدت من شواطئ بحر قزوين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن القوقاز شمالاً إلى فلسطين جنوباً، وكانت كيليكيا أحد أجزائها الجنوبية الغربية،⁽²⁾ وبحكم خضوع كيليكيا للأرمن فقد سكنها بعض موظفي الدولة والتجار ورجال الجيش الأرمني واستوطنوها، ولقد تزايدت أعدادهم بشكل سمح لهم أن يعينوا أسقفاً لمدينة طرسوس وآخر لمدينة أنطاكية في القرن العاشر الميلادي،⁽³⁾ قبل حدوث الهجرات الكبرى.

فقدت إرمينية الكبرى استقلالها عام 437هـ/ 1045م لصالح الإمبراطورية البيزنطية،⁽⁴⁾ وبالتالي أصبح البيزنطيون والسلاجقة وجهاً لوجه، وياتت المواجهة بين الطرفين أمراً لا بد منه، ونتج عن هذه المواجهة سقوط آني⁽⁵⁾ عاصمة إرمينية بيد ألب أرسلان سلطان السلاجقة عام

3-2/7. صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم خلال القرن الرابع الهجري، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، 1984، ص 154 وما بعد

Vasiliev: Histore of the Byzantine

Empire. 2volm, Madison, 1952, Vol.1.P, 408-409.

(1) أحد ملوك الأسرة الأرداشيسية التي أسسها أرداشيس الأول الذي أعلن استقلال بلاده عن الحكم السلوقي وأسس دولة باسم إرمينية الكبرى، بقيت أسرته تحكمها من 189 ق.م-1م، وكان ديكران الثاني ثالث حكامها. انظر: مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 46-149.

(2) مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 149-152.

(3) Sirarpie Der Neressian: The Armenians, Norwich, 1972.p.44.

الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، ص 55.

(4) متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم ينشر بعد، ص 106-108. فايز اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة إرمينية، دار الفكر، الاسكندرية، 1987 م، ص 7.

(5) عاصمة إرمينية الكبرى، تقع على الشاطئ الأيمن من نهر آخوريان، كانت قلعة حصينة وتم اختيارها عاصمة لإرمينية في عصر أسرة بجراط، في أيام حاكمها آشوط الثالث (348-367هـ/959-977م)،

456هـ/ 1064 م،⁽¹⁾ وتوسّع السلاجقة في شرقي آسيا الصغرى بشكل أفضى إلى هجرات إرمينية ضخمة ازدادت وتيرتها عقب موقعة ملاذكرد 463هـ/ 1071م، حيث تلقى فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة على يد السلاجقة، وأسر فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع.⁽²⁾

بهذه الهزيمة كسب السلاجقة بلاد الأناضول الغربية وإرمينية وكبادوكيا، وذهبت هذه الغارات بالحياة القومية والسياسية والفكرية ومظاهر الحضارة الإرمينية، وبدأت الهجرات الإرمينية تصل تباعاً إلى غرب الفرات تقادياً لاعتداءات السلاجقة، حيث وجدوا في كيليكيا المنيعة ملاذاً آمناً عند اخوانهم الأرمن الذين سبقوهم إليها قبل قرون عديدة⁽³⁾ وبلغوا من الكثرة والقوة ما سمح لهم بإنشاء إمارة عام 1080م تحولت بعد قرن ونيف إلى مملكة.

في كيليكيا ظهرت عائلتان من الأرمن ظللتا تتنافسان للاستئثار بالسلطة هما أسرة الهيثوميين وأسرة الروبيين.

- أ- أسرة الروبيين التي أسسها الأمير روبين الأول (473 - 489هـ/ 1080 - 1095م) في قلعة بارتزيرت وسيطر على بعض القلاع والتلال في الشمال الغربي من كيليكيا.
- ب- أسرة الهيثوميين أو أسرة بابيرونيان التي أسسها أوشرين الأول الذي نزع من إرمينية إلى كيليكيا حوالي سنة 466هـ/ 1073م حيث انتزع قلعة لامبرون من المسلمين في غرب كيليكيا وأقام بها إمارته.

أصبحت عام 383هـ/ 993م مقراً لبطاركة الأرمن، ثم خضعت لسيطرة السلاجقة عام 437هـ/ 1045م. انظر: فايز اسكندر: المرجع السابق، ص 8-9.

- (1) متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص 147-150. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 98/8.
- (2) سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله، ت: 654هـ): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة العالمية، دمشق، ط1، 2013م، 231/19-239. ابن القلانسي (حمزة بن أسد، ت: 555هـ): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار إحسان، دمشق، 1983م، ص 167. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 8/109-110. متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص 186.
- (3) الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، ص 59. سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة إرمينية الصغرى، مقال منشور في الموسم الثقافي 1967-1968م للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص 136 - 137. مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 223. أديب السيد: إرمينية، ص 213 - 214.

وفي الحقيقة ان تاريخ إرمينية الصغرى منذ بدايته حتى نهايته مرتبط بالصراع الداخلي بين هذين البيتين، كما أن وجود الأسرة الهيثومية في القسم الغربي من كيليكيا جعلهم أكثر ارتباطاً مع بيزنطة، في حين أن وجود آل روبين في القسم الشرقي جعلهم أكثر ارتباطاً مع القوى التي ظهرت هناك، أي الصليبيين ثم المغول..⁽¹⁾

وفي عهد ليون الثاني (582 - 616هـ/1186 - 1219 م) ثامن حكام الأسرة الروبينية التي أسسها روبين تطورت الإمارة إلى مملكة عندما أرسل كل من البابا سليستان الثالث (587 - 595هـ/1191 - 1198 م) والإمبراطور هنري السادس (586 - 594هـ/1190 - 1197 م) مندوبين عنهما يحملان التاج الملكي حيث جرى تتويج ليون الثاني ملكاً في كاتدرائية القديسة صوفيا في مدينة طرسوس في 6 يناير 1198م / 24 صفر 590هـ،⁽²⁾ وتبع ذلك تحقيق الوحدة بين الامارتين (امارة الهيثوميين وامارة الروبانيين)، ثم انتقل الحكم من الروبانيين إلى الهيثوميين، فقد كان ليون الثاني مؤسس الملكية الأرمنية آخر حكام أسرة الروبانيين، لأن بعد وفاته لم يترك خليف له الا ابنته الصغيرة ايزابيلا بنت الخمس سنوات، فتم تزويجها من هيثوم الأول بن قسطنطين الوكيل الملكي للأرمن (بعد خلافات مع حكام أنطاكية)، ويزواجها من هيثوم انتقل الحكم من أسرة الروبانيين التي أسسها روبين الأول إلى أسرة الهيثوميين حكام لامبرون التي أسسها أوشرين الأول، كان ذلك عام 1226م.⁽³⁾

2- طبيعة العلاقات بين إرمينية الصغرى وجيرانها:⁽⁴⁾

(1) سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية، ص 140 - 141. ستيفن رنسيان: الحروب الصليبية، ج 1، ص 197.

(2) سمباط: تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الجزء 36 من الموسوعة الشاملة، ص 304. نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة من ليون إلى القصر (1274-1580م)، تر: سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص 287-288.

(3) مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 231 - 232. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 271. المدور: الأرمن عبر التاريخ ص 235. سمباط: تاريخ سمباط، 36 / 320 - 324.

(4) لا بد من الإشارة ولو بأسطر قليلة عن طبيعة علاقة هذه المملكة مع جيرانها وعن تحالفاتها ومصالحها في المنطقة، وليس الهدف هنا هو تتبع العلاقات بالتفصيل لأن ذلك يشكل خروجاً عن الموضوع، بالإضافة إلى أنه يحتاج إلى دراسة طويلة، وسنكتفي هنا بالإشارة المختصرة لتوضيح الصورة.

أ- مع الصليبيين:

شكل قيام مملكة إرمينية الصغرى في كيليكيا أحد النتائج التي تمخضت عنها الحروب الصليبية، شأنها في ذلك شأن قيام مملكة صليبية أخرى في قبرص تحت حكم أسرة لوزينان الفرنسية، لكن سبق قيام هذه المملكة - التي نالت المباركة من قبل الغرب الأوروبي - مرحلة حافلة من العلاقات مع الصليبيين في الشرق.

فمع قدوم الحملة الصليبية الأولى وأثناء مرورها في الأناضول وجد الصليبيون في الأرمن حليفاً طبيعياً لهم ضد السلاجقة؛ وحتى البيزنطيين، حيث قدم الأرمن الكثير من الخدمات للجيش الصليبية المنهكة بعد رحلتها الطويلة في هضبة الأناضول ومرتفعات طوروس،⁽¹⁾ وبالنسبة لمدينة أنطاكية فقد تم الاستيلاء عليها بمساعدة الأرمن.⁽²⁾

لم تستمر طويلاً العلاقة الطيبة بين الأرمن والصليبيين، فسرعان ما اصطدم الحليفان ببعضهما عندما بدأ التوسع الصليبي على حساب الأرمن، ففي عام 492هـ/ 1098م انتقلت ملكية مدينة الرها إلى الأمير الصليبي بلدوين دي بوج بعد مقتل حاكمها طوروس الأرمني،⁽³⁾ وفي عام 498هـ/ 1104م أجبر تاتول الأرمني Tatul حاكم مرعش على تركها للأمير الصليبي جوسلين الأول كورتتاي،⁽⁴⁾ وحتى عام 512هـ/ 1118م تمكن الأمير الصليبي بلدوين دي بوج من الاستيلاء على مساحات واسعة من الممتلكات الإرمينية خارج كيليكيا، ولذا فقد الأرمن الثقة بالصليبيين.⁽⁵⁾

(1) متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص 239.

(2) وذلك بعد أن قام فيروز الأرمني حارس برج الأختين في الجنوب الغربي من أنطاكية بفتح البرج لبوهيمند سرا ليدخل منه الصليبيون ويسيطرون على أنطاكية عام 1098م. ابن العديم: زبدة الحلب، 348/1. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 186/8. وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، 314/2. مؤلف مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، 130-125/6. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، 491/19.

(3) متى الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص 240-242. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، 269-264/2، 375.

(4) متى الرهاوي: المصدر السالف، ص 250.

(5) رنسيما: الحروب الصليبية، 211-210/2.

كثرت الاعتداءات الصليبية على جيرانهم الأرمن، حتى أنه بعد وفاة الملك الأرمني ليون الثاني سنة هـ/1220م اجتاح جيش إنطاكية إرمينية الصغرى، وتحت قوة السلاح تزوجت إيزابيلا بنت ليون الثاني المتوفي؛ ووريثته الوحيدة، من فيليب الأنطاكي بن أمير انطاكية وكونت طرابلس، وبموجب هذا الزواج أصبح فيليب هذا ملكاً على الأرمن في كيليكيا خلال (1222-1225م)، تسلط فيها على الأرمن، وتمادى في تصرفاته الرعناء، وحاول فرض العادات اللاتينية عليهم، فثار عليه أمراء الأرمن؛ واعتقلوه، ثم زوجوا إيزابيلا من هيثوم الأول بن الوكيل الملكي للأرمن، (وهو من الأسرة الهيثومية حكام لامبرون)، المهم أن هذا الإجراء عمق الخلاف بين الأرمن والصليبيين في أنطاكية، وبقيت الخلافات بينهم حتى سنة هـ/1250م، واستمر الحال على هذا المنوال حتى قدوم لويس التاسع ملك فرنسا إلى بلاد الشام بعد فشل حملته في دمياط، حيث سعى لإزالة الخلافات بين الطرفين، وتكللت جهوده بالنجاح عندما تزوج بوهيمند السادس حاكم أنطاكية 649 - 667 هـ/ 1251 - 1268م من سييلا ابنة هيثوم الأول ملك إرمينية الصغرى عام 652 هـ/ 1254 م.⁽¹⁾

ب- مع المغول:

اعتلى هيثوم الأول عرش مملكة إرمينية الصغرى عام 624 هـ/ 1226م بعد اضطرابات دامت سبع سنوات عقب وفاة ليون الثاني مؤسس الملكية الأرمنية، ولتجاوز العقبات والمخاطر المحيطة بهيثوم ولاسيما بعد أن ساءت العلاقة مع جيرانه صليبيي أنطاكية، بات عليه البحث عن حليف جديد، وهناك حقيقة يجب ذكرها؛ هو أن مملكة إرمينية الصغرى وخلال تاريخها الذي امتد قرابة مئتي عام كانت دائمة الحرص على التمسك بحليف خارجي يبسط عليها الحماية، لأنها كانت

(1) كان من المقرر أن تتزوج إيزابيلا من ابن ملك المجر؛ لكن هذا لم يحضر بعد وفاة الملك ليون، سمباط: تاريخ سمباط، ص 320-326. ذيل تاريخ هرقل: تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، مطبوع ولم ينشر بعد، 1995/58. محمود سعيد عمران: المغول والأوروبيون والصليبيون، دار المعرفة، الإسكندرية، 2004م، ص72. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 235.

عاجزة عن الاستمرار بحياتها وسط "أسد المغول ونمر المماليك وذئب الأتراك وأفعى قراصنة البحر".⁽¹⁾

وجد هيثوم الأول ضالته عند المغول، ورأى بهم قوة لا يمكن مجاراتها، ولا سبيل لمقاومتها بعد الهزيمة المنكرة التي أنزلوها بسلاجقة الروم في معركة كوساداغ بالقرب من أرزنجان سنة 641هـ / 1243 م،⁽²⁾ عندئذ قرر هيثوم الأول التقرب اليهم بعد أن أصبح سلاجقة الروم خاضعين، فأرسل في سنة 645هـ / 1247 م سفارة إلى خان المغول كيوك خان (639 - 647هـ / 1246 - 1248 م) واختار لهذه المهمة أخوه سمباط، أعلن هذا الأخير أمام الخان خضوع الأرمن للمغول، وكان قد حمل معه الجزية، فتم استقباله بشكل جيد، ورد وهو محمل بالهدايا مع إعفاء الأرمن من الجزية.⁽³⁾

توفي كيوك خان عام 647هـ / 1248 م، واعتلى عرش المغول بعده منكوخان، فقرر هيثوم الأول أن يقوم برحلة إلى البلاط المغولي لتقديم فروض الولاء والطاعة والحصول على الحماية المغولية، وفعلاً خرج في سنة هـ / 1253 م من بلاده باتجاه الشرق لزيارة منكوخان، وعندما وصل جرى استقباله بحفاوة وابتهاج.⁽⁴⁾

حقق الملك الأرمني في هذه الزيارة ما يصبوا إليه كل ملوك الغرب الأوروبي، حيث تقدم هيثوم الأول للخان المغولي منكوخان بسبعة مطالب هي:

- يعتنق الخان وشعبه المسيحية ليسود السلام بين التتار والمسيحيين.

(1) هذا ما ذكره ماركوبولو واصفاً وضع المملكة وسط المخاطر المحدقة بها. انظر، وليم مارسدن: رحلات ماركوبولو، تر: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994، _____، ولقد كرر سانوتو هذه المقولة في كتابه الأسرار، 92/38.

(2) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 405-407. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 287، كوساداغ تعني الجبل الأمرد. تاريخ مختصر الدول، ص 251-252.

(3) سمباط المؤرخ المشهور الذي وضع تاريخاً لمملكة إرمينية الصغرى، مات عام 674هـ / 1276 م، وعن هذه السفارة انظر بالتفصيل: غريغوري أوف أكانك: المصدر السالف، ص 408-409.

Hayton، La Flor des Estoires de La Terre D'orient، in (R.H.C.Doc.Arm.) vol.2.p.163

(4) سمباط: تاريخ سمباط، ص 325-326. غريغوري أوف أكانك: المصدر السالف، ص 414.

- يرد المغول كل الأراضي التي فتحوها من البلاد المسيحية.
- مساهمة المغول في تحرير الأراضي المقدسة من المسلمين وردها إلى المسيحيين.
- مسير المغول إلى العراق لتدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية.
- حصول الأرمن على المساعدة المغولية فور طلبها.
- أن يرد المغول كل الأراضي التي سيطروا عليها وهي بالأصل للأرمن، أو الأراضي الأرمنية التي استولى عليها المسلمون أيضا.
- وأخيرا أن يكون لهيثوم الحق في الاحتفاظ بكل ما يغنمه من أراضي المسلمين دون أن يعارضه التتار في ذلك.⁽¹⁾

وحسب رواية المؤرخ الأرمني هايتون في كتابه زهرة تواريخ الشرق فان منكوخان استجاب لكل طلبات هيثوم الأول.⁽²⁾

وبعد ذلك أصبح الأرمن أقوى حلفاء المغول في المنطقة، وسار خلفاء هيثوم على مسيره، وشارك الجيش الأرمني بكل العمليات التي قام بها الجيش المغولي ضد المسلمين منذ سقوط بغداد، وقد ترك هذا العمل أثر سيء في قلوب المسلمين، بشكل جعل العمري يصف الأرمن بأنهم "أخبث عدو الاسلام".⁽³⁾

(1) Hayton: La flor. P.163 – 165

(2) Hayton: Ibid، P.167

وفي ثلاثينيات القرن الرابع عشر زار الرحالة الألماني لودولف بلاد الشام ومصر وتحدث عن هذه الزيارة، وقال أن هيثوم الأول طلب خمسة مطالب؛ هي: 1- أن يغدوا الإمبراطور وشعبه كله مسيحيون، 2- أن يكون هناك سلام دائم بين المغول والأرمن، 3- أن يقوم بتدمير مساجد (محمد) جميعها وان يكرسه على (شرف الرب)، 4- أن يساعده على استرداد الأرض المقدسة، 5- أن يقوم بحصار بغداد وتدميرها وأن يزيل الخليفة من الوجود، ويقول لودولف أن الإمبراطور استجاب لكل هذه المطالب عن رغبة وطواعية، ونفذها كلها باستثناء البند الرابع لم ينفذه بسبب وفاته. انظر: لودولف فون سوخم: وصف الأرض المقدسة، 39/ 326-327.

(3) التعريف بالمصطلح الشريف، ص82.

لقد ظهر التقارب المغولي الأرمني بشكل واضح خلال العمليات العسكرية التي نفذها الجيش المغولي بقيادة هولأكو في بلاد الشام والعراق؛ حيث كان العنصر الأرمني أو المشاركة الأرمنية بارزة وواضحة، منذ حصار المغول لبغداد،⁽¹⁾ بل أكثر من ذلك، وحسب ما ذكر مؤرخي الأرمن، فإن الحملة المغولية على حلب تم إقرارها بعد لقاء ضم هولأكو وهيثوم الأول، أشار فيه هيثوم على هولأكو بالتوجه نحو حلب لأنها المفتاح الرئيسي لبلاد الشام.⁽²⁾

تقدم هولأكو على رأس جيش كبير لحصار حلب يعاونه الأرمن،⁽³⁾ وبعد حصار دام سبعة أيام دخلها المغول والأرمن في 9 صفر 658هـ/ 25 كانون الثاني 1260 م، حيث ارتكبت مجازر رهيبة بحق أهالي حلب، وتم أسر ما يقارب مئة ألف من النساء والصبيان،⁽⁴⁾ ومن حلب تقدم الجيش المغولي إلى دمشق بمشاركة كل من هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية، كونت طرابلس، فتمكنوا من دخولها، وفي دمشق أظهر الأرمن والصليبيون؛ وحتى المسيحيون المحليون، حقداً وكراهية بحق المسلمين، ونقلوا عن المؤرخ الصليبي الفارسي الداوي، فان بوهيمند السادس أمير أنطاكية وملك الأرمن أظهروا كراهيتهم للمسلمين وحولوا بعض المساجد إلى إسطبلات للأكاديش والحمير، ورشوا على جدرانها الخمور، ولوثوها بلحم الخنزير المملح والطازج

(1) سمباط: تاريخ سمباط، 327/36. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 417. لودولف: وصف الأرض المقدسة، ج 39 من الموسوعة، ص 327.

(2) Hayton، La Flor. P.170 – 171

سمباط: المصدر السالف، 331/36.

ليست المشورة الأرمنية السبب الرئيس لاجتياح المغول لبلاد الشام، وإنما اجتياح بلاد الشام كان ضمن الخطة المرسومة لحملة هولأكو من قبل أخيه الخان الأعظم منكو. انظر، رشيد الدين: جامع التواريخ، 234/1/2، 237-236.

(3) سمباط: تاريخ سمباط، ص 331.

(4) المقرئزي: السلوك، 422/1. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، 157.

"وحيثما كان قد أمر رجاله باقتراف عمل تدنيس واحد، عملوا عشرة"⁽¹⁾ ناهيك عن مشاركتهم في معركة عين جالوت إلى جانب المغول.⁽²⁾

من خلال هذا العرض الموجز يتضح، وبشكل جلي، حجم المساهمة الأرمنية في الاجتياح المغولي لبلاد الشام والعراق، وقد ولدّ هذا عند المسلمين احتقان، كلّف الأرمن ثمناً باهظاً فيما بعد.

ج - مع المسلمين:

وجود الأرمن في كيليكيا بشكل رسمي " كيان سياسي " إمارة أو مملكة؛ لم ينل رضا المسلمين الذين كانوا يعدون هذه الأرض جزء من أملاكهم، ويؤكد ذلك الجزية التي كان يدفعها الأرمن للسلاجقة، فيذكر العمري أن طاعتهم كانت لملوك سلاجقة الروم، "وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاني (جمع شحنة) على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة "أي السلجوقية" فطمع هذا اللعين " أي صاحب إرمينية الصغرى".....، واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها".⁽³⁾ ويصر المؤرخون المسلمون على عدم الاعتراف بمملكة إرمينية، ويظهر إصرارهم هذا في استخدامهم لكلمة "متملك" بدلا من "ملك" عندما يريدون التحدث عن صاحب إرمينية الصغرى، بمعنى أنه امتلك البلاد قهرا من أصحابها الشرعيين.⁽⁴⁾

على الرغم من هذه النظرة إلا أن المصالح السياسية شغلت دورها في تحسين العلاقات في حقبة معينة، ففي سنة 564هـ/ 1168م توفي الأمير طوروس الأكبر بن ليون بن قسطنطين بن روبين، وكان قبل وفاته قد أبعده أخوه مليح بعد أن كشف خيانتته، وقد التجأ الأخير إلى نور الدين

(1) الفارس الداوي : أعمال القبارصة، ص 43، وكان بوهيمند السادس قد تزوج في عام 1254م من سبيلا ابنة هيثوم الأول كما ورد سالفاً. وعن تسلط المسيحيين على المسلمين في دمشق آنذاك. انظر، المقرئزي: السلوك، 425/1.

(2) سمباط: تاريخ سمباط، 327/36. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 417.

(3) التعريف بالمصطلح الشريف، ص 80-81.

(4) يقول القلقشندي في ذلك: (وانما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين، ثم وثب رئيس الأرمن ... فتملكها من أيدي المسلمين) ، صبح الأعشى، وسييس هي أعظم مدن إرمينية الصغرى وأشهرها وهي العاصمة. صبح الأعشى، _____

في حلب ودخل في خدمته،⁽¹⁾ ولدى وفاة طوروس رغب أخوه مليح بالحكم لأنه أحق من ولي العهد " توماس بن روبين"، ومن أجل ذلك حصل على مساعدات من قبل نور الدين محمود، وتمكن بها من اغتصاب السلطة في كيليكيا، وبقي حاكماً عليها خمس سنوات (1170 - 1175م)⁽²⁾

خلال هذه الحقبة كانت العلاقات جيدة بين الطرفين، إلا أن مقتله سنة هـ/ 1175م على يد أعيان الأرمن⁽³⁾ حطم التحالف الإسلامي الأرمني الذي شكل انحرافاً عن المسار الطبيعي للعلاقة بشكل عام، وازدادت العلاقات سوءاً أيام حكم ليون الثاني (582 - 616هـ/ 1186 - 1219م)، إذ أقدم هذا على مهاجمة جيرانه التركمان الذين استجدوا بصلاح الدين، فلم يسع صلاح الدين إلا مهاجمة إرمينية الصغرى، وبث الغارات هنا وهناك بشكل أجبر ليون الثاني على طلب الصلح، فاستقر الصلح عام 576هـ/ 1180م ودخل فيه كل من أمراء الجزيرة وأربل وكيفا وميفارقين....⁽⁴⁾ وحتى في هذه المرة لم يكن الصلح سوى حلاً مؤقتاً، ومن بعده كثرت الاشتباكات بين الطرفين،⁽⁵⁾

(1) سمباط: تاريخ سمباط، ص 285.

ويقول ابن الأثير: بان مليح كان "ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها"، ووجد كل طرف ضالته بالآخر، فنور الدين عندما قيل له في معنى استخدامه قال: "أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكري"، في حين كان مليح يتقوى بنور الدين على البيزنطيين ومعارضيه. انظر، الكامل في التاريخ، 9/119.

(2) سمباط: تاريخ سمباط، 36/285، 287، 289.

(3) سمباط، تاريخ سمباط، 36/289.

(4) ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1957م، ص 98-100.

ابن شاهنشاه الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر، ت: 617هـ): مضمرة الحقائق وسر الخلائق، تح: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 2007م، ص 68.

(5) على سبيل المثال:

في سنة 598هـ/ 1201م هاجمت قوات ركن الدين سليمان شاه الثاني إرمينية الصغرى وتمكن ليون الثاني من التصدي لهم. انظر: سمباط، تاريخ سمباط، ص 297، الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، 1960م، ص 642 - 643.

في سنة 603هـ/ 1206م هاجم الظاهر غازي صاحب حلب إرمينية الصغرى وأجبر ليون الثاني على عقد هدنة لمدة ثمان سنوات، ابن واصل: مفرج الكروب، 3/170-171.

وقد يطول الحديث عنها، والقصد من الإشارة إلى بعضها هو التدليل على أن الطابع العدائي كان يسود العلاقات بين الطرفين، وقد ورثت السلطنة المملوكية هذا العداء، لكنها ملكت مجالاً أوسع من الحكومات الإسلامية التي سلفتها للتحرك ضد الأرمن، وخاصة بعد طرد الصليبيين من بلاد الشام، وبعد هدوء الجبهة الشرقية بإسلام المغول، وفيما يلي سيتم الحديث بالتفصيل عن التحركات الأرمنية والمملوكية ضد بعضها.

ثانياً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الظاهر بيبرس:

ما بدر من مواقف عدائية من قِبَل إرمينية الصغرى تجاه سلطنة المماليك الناشئة جعل قلوب المماليك تمتلئ غيظاً على كيليكيا ومملكتها، وأخذوا يتحينون الفرص لتأديب الأرمن، وقد توفرت الفرصة بعد سحق الجيوش المغولية وطردها إلى ما بعد الفرات، كما أن انشغال المغول بحروبهم الداخلية أعطى المماليك فرصة أخرى للتحرك بحرية ضد الصليبيين والأرمن، وبات الآن على الأرمن أن يستعدوا لضربات مملوكية مميتة.

يمكن تسجيل أو رصد أول عملية احتكاك مباشر بين المماليك والأرمن في سنة 660هـ/ 1261م عندما قامت الجيوش الأرمنية مدعومة بمشاة من أنطاكية بالهجوم على الفوعة وسرمين،⁽¹⁾ لكن نائب حلب علاء الدين الشهابي تصدى لهم وأسر منهم جماعة أرسلوا إلى مصر وهناك تم توسيطهم،⁽²⁾ ويمكن أن تكون هذه الغارة محاولة للانتقام من المماليك الذين ضايقوا إمارة أنطاكية

أعقب ذلك هجوم من قبل كيخسرو الأول سلطان سلاجقة الروم بمشاركة الظاهر غازي صاحب حلب على إرمينية الصغرى انتهى الهجوم بفتح قلاع إرمينية. ابن وصل: مفرج الكروب، 187/3.

(1) الفوعة مدينة من أعمال حلب تقع غرب مدينة حلب، انظر: البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق تاريخ 739 هجري) : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992، ج3، ص 1074 وسرمين أيضاً من أعمال حلب على منتصف الطريق بين المعرة وحلب. انظر: البغدادي: المصدر نفسه، ج2، ص710. وكانت الفوعة سابقاً تابعة لسرمين. انظر، ابن شداد (محمد بن إبراهيم) : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، 1991م، 49/2/2.

(2) ابن أبيك: الدرر الزكية، ص9. المقرئزي: السلوك، 476/1.

بكثره غاراتهم عليها،⁽¹⁾ ومدينة أنطاكية هي مهمة للأرمن لأنها تشكل عمقا عسكريا لها في بلاد الشام، كما أن سقوطها يجعل الأرمن منعزلين عن باقي الصليبيين في الساحل.

تكررت الغارة الأرمنية على أراضي المماليك، ففي صفر 661هـ/ كانون الأول 1262م قاد هيثوم ملك الأرمن بنفسه حملة عسكرية وصلت إلى الفوعة والعمق⁽²⁾ ومعرة مصرين⁽³⁾ وعدد من القرى في تلك المنطقة، وعندما وصل إلى سرمين اصطدم بقوة مملوكية كان قد اختبأ عناصرها في دار الدعوة الإسماعيلية، وتمكن أحد أفرادها من طعن هيثوم ورميه عن جواده " فانفل عزم أصحابه بعده وولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد"⁽⁴⁾

1- الحملة الأرمنية سنة 662هـ/ 1264م:

في سنة 661هـ/1263م قام هيثوم الأول بجولة دبلوماسية، زار خلالها أنطاكية ثم زار هولانكو، وفي طريق العودة من عند هولانكو عرج على سلاجقة الروم، وكان بصحبته وفد مغولي ضم قضاة أرسلهم هولانكو لعقد صلح بين الأرمن وسلاجقة الروم، وفعلاً نتيجة هذه الوساطة؛ وبعد اجتماع ضم الطرفين في مدينة هرقله غرب الفرات اتفق الطرفان وتحالفا،⁽⁵⁾ ويقول ابن بهادر أنه بهذا الصلح اتفقت مصالح الأرمن مع الروم والمغول على قصد البلاد الشامية،⁽⁶⁾ وإلى جانب هذه القوى الثلاث تطوعت أيضا قوى من بني كلاب⁽⁷⁾ وصل عددها إلى ألف فارس،⁽⁸⁾ قرر الملك هيثوم الزحف بهم جميعاً على بلاد الشام.

(1) أغار المماليك على أنطاكية عام 659 هـ وأحدثوا فيها خرابا، ثم كرروا الهجوم عام 660 هـ. انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص113، 132.

(2) العمق: سهل غرب حلب، انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص41.

(3) بليدة وكورة بنواحي حلب بينهما خمسة فراسخ، ياقوت: معجم البلدان، مادة معرة.

(4) ابن أبيك: الدرر الزكية، ص94 - 95، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 531/1، ابن واصل: مفرج الكروب، 6/378.

أما سمباط فيقول بأن الملك الأرمني لم يصب بأي أذى، وإنما الإصابات تلقاها مرافقيه. تاريخ سمباط، 36/339-338.

(5) سمباط: تاريخ سمباط36/337-338. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص191 - 192.

(6) ابن بهادر: فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، ج1، ورقة 106.

(7) بنو كلاب من أعراب حلب، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى.

(8) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص192.

وردت الأخبار للمماليك بأن الملك الأرمني جمع هذه القوة في هرقله ثم نزل على قلعة سرفندكار،⁽¹⁾ فأرسل السلطان إلى حماه وحمص بضرورة خروج عساكرهما إلى حلب لقتال الأرمن، وفعلا خرجت العساكر وأغارت على قوات الأرمن التي وصلت إلى عينتاب، فقتلوا منهم حوالي ثلاثين جندياً وأسروا أحد أمرائهم، وأخذوا لهم مائة جمل.⁽²⁾

استمر هيثوم الأول في عناده ولم يقبل الهزيمة، وعمد إلى طلب المساعدة من المغول المقيمين في آسيا الصغرى، فأمدوه بسبعمائة فارس، وطلب مدد آخر من أنطاكية، فأمدوه بمائة وخمسين فارساً، اجتمعت القوة وقررت المسير لمحاربة المماليك، وعند وصولهم على مقربة من حارم كثر تساقط الثلوج بشكل منعهم من متابعة المسير. وكانت النتائج مخزية إذ مات مئة وعشرون فارساً أرمنياً وثلاثون مغولياً وستة من خيالة أنطاكية وجماعة من رجالهم.⁽³⁾

تابع هيثوم الأول في إعداد الجيوش سراً لمهاجمة المماليك، ففي جمادى الآخرة 662هـ/ نيسان 1264م تم إلقاء القبض على جاسوسين من المغول، قدموا معلومات ثمينة تقول بأن هيثوم عمد إلى خدعة حربية عندما "فصل ألف قباء تنكري وألف سراقوج"⁽⁴⁾ ألبسهما أصحابه ليهرب أنهم نجدة من التتار"⁽⁵⁾ والهدف من هذه العملية هو تثبيط همة الجنود المماليك عندما يوهمهم بأن هؤلاء هم المغول، فسارع السلطان للمبادرة بالهجوم على إرمينية الصغرى، فأرسل عساكر من دمشق وحماه وحمص بقيادة الأمير حسام الدين العينتابي، فأغاروا على مرزيان، وقتلوا عدداً من

(1) سرفندكار قلعة حصينة بالقرب من جيحان من البر الجنوبي، وهي في الشرق من تل حمدون، كما أنها في الشرق والجنوب من عين زرية، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 257.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 192، النويري: نهاية الأرب، 260/30، العينبي: عقد الجمان، 384/1. المقريزي: السلوك، 510/1.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 192 - 193، النويري: نهاية الأرب، 260/30، سمباط: المصدر السابق، 339.

(4) مفردها سراقوج وهي قلنسوة لها شكل مخروطي طويل بحافة مقلوبة إلى الأعلى وهي تمثل الزي التنكري المميز، انظر: ماير، الملابس المملوكية، ص 56.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 196، المقريزي: السلوك، 511/1.

الأرمن، وأسروا البعض، وتوالت الغارات المملوكية بشكل أجبرت الأرمن على التراجع، وتفرق جمع هيثوم. (1)

ينفرد المؤرخ الأرمني سمباط بذكر حملة مملوكية انطلقت إلى كيليكيا سنة 663هـ/ 1265م بقيادة الأمير عز الدين أوغان المعروف بسم الموت لتخريب بلاد الأرمن، ولكن الحملة بعد أن وصلت إلى النهر الأسود أحد فروع الفرات أقامت هناك أربعة أيام ثم عادت بعد أن علم الأمير المملوكي من خلال جواسيسه ما هو عليه الجيش الأرمني من قوة واستعداد، فعاد إلى مصر. (2)

2- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة 664 هـ / 1266 م:

لم يُقدم السلطان الظاهر على أي عمل عسكري خارج حدود السلطنة قبل أن يرتب أمورها الداخلية، فحتى ذلك الوقت كانت معظم العمليات المملوكية هي تصدي للغارات الإرمينية، أو القيام بغارات بسيطة ليشغل الأرمن عن تقديم المساعدة للصليبي بلاد الشام، وقبيل هجومه على إرمينية الصغرى قام بسلسلة من العمليات العسكرية النوعية ضد الكيانات الصليبية أفقدتهم وأكسبته نقاط ومراكز حساسة منحته حرية التحرك في المنطقة، فقد حرر قيسارية وأرسوف في حملة 663هـ، وفي السنة التالية حرر حلبا وعرقا والقلبيات (هذه المناطق الثلاث الأخيرة تتحكم بالطريق بين حمص وطرابلس)، كما هاجم عثليت وصور وعكا والشقيف والأهم من هذا كله أنه حرر صفد. (3)

كان لتحرير صفد أهمية خاصة، فقد جعلها السلطان الظاهر مقر نيابة جديدة، (4) وكانت مهمتها متابعة أمر الصليبيين على الساحل، كما أنه بتحرير صفد ومن قبلها أرسوف وقيسارية تم تأمين خطوط المواصلات بين مصر والشام وسهلت مهمة الإمدادات العسكرية لتتفرغ دمشق بعد ذلك لمتابعة أمر المغول، أما حلب فقد كانت مهمتها الرئيسية هي مراقبة أنطاكية وأرمن كيليكيا، وبالتالي؛ وأمام ازدياد الخطر الأرمني بات من الضروري القيام بعمل عسكري حاسم ضدهم، وخاصة أن أبغاخان مغول فارس - الذي تسلم مهامه في رمضان 663هـ/ 1265م بعد وفاة والده

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص196، المقريزي: السلوك، 511/1، النويري: نهاية الأرب، 30/ 261.

(2) سمباط: تاريخ سمباط، 36/ 341.

(3) راجع الفصل الثالث.

(4) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 44. سهيل زكار: تاريخ صفد، دار التكوين، دمشق، ص3. فلسطين

في العهد المملوكي، الموسوعة الفلسطينية، 2/ 556.

هولاكو⁽¹⁾ - كان منهما في حروبه ضد بركة خان حاكم القبيلة الذهبية،⁽²⁾ وبالتالي فإنه لا يستطيع تقديم المساعدة لحلفائه الأرمن.

أراد السلطان اغتنام الفرصة، فلما انتهى من أمر صفد ورتب العساكر فيها، رسم بالألا تدخل العساكر دمشق وإنما تبقى على استنفارها من أجل المسير إلى كيليكيا،⁽³⁾ ورتب على قيادة الحملة الملك المنصور صاحب حماة وفي خدمته الأمير سيف الدين قلاوون والأمير عز الدين أوغان المعروف باسم الموت، وسارت الحملة باتجاه كيليكيا في مطلع ذي القعدة 663هـ/ آب 1266 م.⁽⁴⁾

قبل مسير الحملة؛ وفي أثناء محاصرة السلطان لصفد، كانت رسل هيثوم قد وصلت إلى السلطان الظاهر تقترح عليه توقيع معاهدة سلام بينهم، يقول ابن تغري بردي بأن السلطان لم يقبلهم ولا سمع رسالتهم،⁽⁵⁾ في حين أن ابن العبري يقول بأن السلطان أرسل إلى هيثوم الأول يعرض عليه أن "يدخل في طاعته، ويحمل الجزية، ويمكّن الناس من مشترى الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد من بلده، وهم أيضا يخرجونه إلى الشام ويتاجرون ويبيعون ويشترون"، لكن هيثوم رفض مطالبه خوفاً من المغول.⁽⁶⁾

يمكن أن تكون رواية ابن العبري هي الأكثر قبولاً لعدة أسباب:

-
- (1) رشيد الدين: جامع التواريخ، 3/2/2.
 - (2) رشيد الدين: جامع التواريخ، 13/2/2 وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 410/2، 434-435. برتولد شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي، ترجمة: أحمد عيسى، دار حسان، دمشق، 1982م، ص 58. حسن الأمين: المغول بين الوثنية والنصرانية والاسلام، دار التعارف، بيروت، 1993م، ص 218.
 - (3) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، 269.
 - (4) أبو الفداء: المختصر، 333/2. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 269. ابن أبيك، الدرّة الزكية، ص 118. المقريزي: السلوك، 549/1. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 343/2. ابن المغيزل: مفرج الكروب، ص 61. ويختلف المؤرخون في أي يوم سارت الحملة في الثالث من ذي القعدة، أم في الخامس منه.
 - (5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 139/7.
 - (6) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 285، تاريخ الزمان، ص 324-325.

أولاً: إرمينية الصغرى كما هو معلوم فرضت حصاراً اقتصادياً على السلطنة المملوكية، وبات المماليك بحاجة ماسة إلى متنفس اقتصادي، لذلك سارع بيبرس بطلب فتح منافذ تجارية مع الأرمن، ولما رفضوا سير حملته ضدهم

ثانياً: الجيش المملوكي كان لتوه قد خرج من معركة استنزفت جهداً كبيراً من قواته؛ وهي تحرير صفد وعدد من المدن والقلاع الأخرى؛ لذا هو ليس مضطراً لخوض معركة جديدة إذا كان بإمكانه الحصول على مكاسب جيدة عن طريق المفاوضات، وخاصة أن بعض عساكره - ربما كرهاً للقتال - بدأوا بالتسلل إلى دمشق بعد أن منعهم من الدخول إليها وأخرجهم مكتفين بالحبال.⁽¹⁾

والرواية الأرمينية قريبة جداً من رواية ابن العبري، فقد ذكر سمباط أنه بعد تحقيق المماليك إنجازات ضخمة؛ أرسل السلطان بيبرس إلى هيثوم يعرض عليه الصلح، مقابل تسليم بعض القلاع والحصون الحدودية، لكن هيثوم رفض عرضه لسببين؛ الأول: هو خوفه من المغول، فمعظم هذه القلاع كان قد تسلمها منهم، والثاني: تجنب الوقوع تحت سيطرة السلطان لأنه (عبد بن عبد)، ومع ذلك يقول سمباط بأن الملك الأرميني استمر في إرسال الهدايا الثمينة والرسائل تودداً للسلطان، إلا أن السلطان بقي مصراً ورفض كل شيء دون القلاع الحدودية.⁽²⁾

يُستنتج أن الشروط كانت تعجيزية، فرفضها ملك الأرمن، وسارت الحملة المملوكية باتجاه كيليكيا، ولما تحقق هيثوم من خبرها أسرع بالخروج لطلب النجدة من المغول المقيمين عند سلاجقة الروم، لكنهم رفضوا تقديم المساعدات ما لم يتلقوا الأوامر من أباقا خان.⁽³⁾

وصلت القوات المملوكية إلى الدريساك،⁽⁴⁾ وهي على السفح الشرقي لجبال الأمانوس،⁽⁵⁾ وتُشكل الدريساك أحد الممرين الجنوبيين إلى إرمينية الصغرى، في حين تشكل بغراس الممر

(1) المقريزي: السلوك، 549/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، 269.

(2) سمباط: تاريخ سمباط، 36/342-343. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 427. ولا يذكر مطالب بيبرس، بل يقول أنها مطالب تافهة، ورد عليه هيثوم بألفاظ مهينة.

(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 285، تاريخ الزمان، ص 325.

(4) تقع إلى الشمال الشرقي من بغراس ويمر فيها النهر الأسود. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 260.

(5) أو جبال اللكام، انظر، ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 419/2/1.

الثاني،⁽¹⁾ ومن الدريساك دخلوا الدريند⁽²⁾ "الطريق" المؤدي إلى سيس عاصمة إرمينية الصغرى، وقد وجدوا سلسلة من التحصينات على شكل أبراج أقامها هيثوم الأول على رؤوس الجبال، تمكن المماليك من السيطرة عليها وهدمها وقتل بعض من كان بها، في حين هرب الباقي.⁽³⁾

في ذلك الوقت كان الملك هيثوم الأول غائباً عند المغول يستجدي مساعدتهم،⁽⁴⁾ فتولى قيادة إرمينية الصغرى قسطنطين أخو هيثوم بالإضافة إلى ولدي هيثوم؛ طوروس وليون، وفي معركة دارت رحاها قرب سرفندكار في 23 آب انكسر الأرمن وقتل طوروس ابن هيثوم الأول، واعتقل ابنه الآخر ليون، كما اعتقلوا باسيل ابن أخ هيثوم، وعلى اثرها اجتاح المماليك كيليكيا وعاثوا فيها قتلاً وسلباً.⁽⁵⁾

بعد تحطيم الجيش الأرمني تحرك المماليك شرقاً وغرباً في إرمينية الصغرى وبحرية تامة، ومن تتبع تحركات الجيش المملوكي يمكن ملاحظة المهمة الاقتصادية التي كُلفت بها هذه الحملة، فبعد احتلال العاصمة سيس تحركت القوات المملوكية على محورين، حيث اتجهت فرقة لضرب القلاع الشرقية التي تقع على طرق المواصلات والتجارة مع المغول، فنزلت هذه الفرقة على تل حمدون،⁽⁶⁾ ثم تابعوا المسير على حموص⁽¹⁾ وأحرقوها، ثم هاجموا قلعة العامودين،⁽²⁾ فاستسلم

(1) بغراس تقع أيضاً على لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية خمسة فراسخ على يمين القاصد من أنطاكية إلى حلب، انظر، ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 411/2/1.

(2) الدريند لفظ فارسي جمعه دريندات ومعناه الطرق والمعابر الضيقة، **محيط المحيط**، والمقصود به هنا الطرق المؤدية إلى سيس، وقد ورد وصفه عند ابن أبي الفضائل بأن باب الدريند الذي بسيس يعرف بالدروب، النهج السديد، 231/2.

(3) ابن أبيك الدواداري: الدرّة الزكية، ص 118، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 344/2. ابن عبد الظاهر، الروض الظاهر، ص 270. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 342/2/1. أبو الفداء: المختصر، 333/2.

(4) سمباط: تاريخ سمباط، 343/36. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 428.

(5) ابن عبد الظاهر في الروض الزاهر، ص 270. سمباط: تاريخ سمباط، 343/36-344. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 428-429. أبو الفداء: المختصر، 333/2. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 325، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 343، ويذكر أن الذي أسر مع ليون هو ابن أخت هيثوم وليس ابن أخيه،

(6) تل حمدون قلعة على تل عال بالقرب من نهر جيجان إلى الجنوب منه، يقع على نقطة التقاء الطريق من مرعش بالطريق من إسكندرون. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 251.

جندها وبلغ عددهم حوالي ألفين ومائتا نفر من المغول والأرمن، وجماعة من الداوية، تم التخلص منهم، وأحرقت القلعة بما فيها من حواصل وذخائر، ثم عادوا إلى سيس ودخلوها، أما المحور الثاني فكانت وجهته الموانئ والمدن الساحلية، فقد توجه الأمير قلاوون إلى أياس وطرسوس، وفي طريقه ساق على المصيصة وأذنة، فقتل وأحرق وهدم قلعة الثنيات التابعة للداوية والتي تقع على شاطئ البحر بين أياس والمصيصة، في هذا الوقت كان القائد العام للحملة الملك المنصور مقيم في العاصمة سيس وقد أرسل الأمير عز الدين أوغان في فرقة إلى بلاد سلاجقة الروم.⁽³⁾

عاد الملك الأرمني هيثوم الأول بعد أن نجح بجلب مساعدة مغولية، لكنه وصل متأخراً، إذ وجد البلاد في حال يرثى لها، أما العساكر التي قدمت معه بدلاً من أن تساعدته اشتغلت بنهب ما تركه المسلمون وراءهم.⁽⁴⁾

قبل الفراغ من الحديث عن هذه الحملة، تجب الإشارة إلى أهميتها في تحييد إرمينية الصغرى وإبعادها عن الصراع المملوكي الصليبي، ففي العام التالي توجه المماليك إلى أنطاكية وحرروها ولم يتدخل الأرمن.

لم يقتصر الأمر على ما تقدم ذكره بل توالى النكبات على مملكة إرمينية الصغرى وتعرضت لضربات مميتة يمكن إجمالها في ثلاث نقاط:

الأولى: هي سقوط أنطاكية كبرى الكيانات الصليبية في الساحل الشامي عام 666هـ/1268م وما لحقه من سقوط عدد من القلاع والحصون المجاورة وأشهرها حصن بغراس التابع للداوية والذي يقع شمال شرق أنطاكية، وبالتالي فقد فقدت إمكانية الاتصال مع صليبي بلاد الشام، بعد أن أحاط بها المماليك من جهة الجنوب.

-
- (1) حصن شرق تل حمدون القريب من نهر جيجان، أبو الفداء تقويم البلدان، ص251.
 - (2) قلعة حصينة شاهقة تقع على مقربة من نهر سيحان عند مخاضه العلوي: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص263.
 - (3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص285 - 286، وتاريخ الزمان، ص325، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص269 - 271، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، 344 - 347، المقرئزي: السلوك، 551/1-552، ابن أيبك: الدرر الزكية، ص118، ابن المغيزل: ذيل مفرج الكرب، ص61، أبو الفداء: المختصر، 333/2، النويري، نهاية الأرب، 290/30-292، سمباط: تاريخ سمباط، 344/36.
 - (4) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص325.

الثانية: هي قضية إطلاق سراح ليون بن هيثوم من سجون المماليك، وقد كلفهم هذا الأمر الكثير، فبعد إلحاح شديد من قبل هيثوم وافق السلطان الظاهر على إطلاق سراحه مقابل عدة مطالب، أولها كان إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر الذي كان في أسر المغول منذ عام 1260م عندما دخلوا حلب، كما طالبه بإعادة القلاع التي أخذها الأرمن من المسلمين وهي بهسنا،⁽¹⁾ والدريساك، وشيخ الحديد،⁽²⁾ ورعبان،⁽³⁾ ومرزيان.⁽⁴⁾

تمكن هيثوم من استحضار سنقر الأشقر من سجون المغول إلى كيليكيا وكتب بذلك إلى السلطان ولكنه غير رأيه بخصوص تسليم القلاع، فكتب له السلطان "إذا كنت قسوت على ولدك وولي عهدك أنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني، ونحن خلف كتابنا، ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر".⁽⁵⁾

أمام هذا وتحت تأثير عاطفة الأبوة أذعن هيثوم الأول للأوامر، وتقرر الصلح على إطلاق سراح سنقر الأشقر وتسليم القلاع مقابل إطلاق سراح ليون ابن ملك الأرمن وابن أخيه وغلماهما، وبعد إجراءات عديدة يطول شرحها نُفذ الاتفاق في شوال سنة 666هـ/ حزيران 1268 م، وسلمت القلاع باستثناء بهسنا.⁽⁶⁾

(1) مدينة حصينة بالقرب من مرعش وسميساط، وهي من أعمال حلب، سيطر عليها المغول بعد احتلالهم لحلب، ثم سيطر عليها الأرمن إلى أن حررها بيبرس سنة 666هـ، وهي إلى الشمال والغرب من عينتاب. ابن شداد: الأعلام 116/2/1-118. الحموي: معجم البلدان، مادة بهسنا. أبو الفداء: تقويم البلدان، 265.

(2) حصن شيخ الحديد في الراج الشرقي من أعمال حلب، الدر المنتخب، يقول البغدادي في مرصد الإطلاع الشيحة قرية من قرى حلب يقال لها شيخ الحديد. 2/ 824.

(3) مدينة في الثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة من العواصم، الحموي: معجم البلدان، مادة رعبان.

(4) أبو الفداء: المختصر، 2/ 335. المقرئ: السلوك، 1/ 568-569. وزاد ابن عبدالظاهر على هذه المناطق "الزرب"، الروض الزاهر، ص328. أما مؤرخو الأرمن، سمباط وغيغوري أوف أكانك فلم يأتيها على ذكر هذه الحصون، وجعل إطلاق سراح سنقر الأشقر هو الشرط الوحيد لإطلاق سراح ليون بن هيثوم، تاريخ سمباط، 36/345. تاريخ أمة الرماة، ص434-435.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص328.

(6) البرزالي: المقتفي، 1/ 179. يذكر اليونيني أن بهسنا لم تُسلم بناءً على وعد كان قد قطعه سنقر الأشقر لهيثوم الأول بعد أن سأله هيثوم في ذلك، انظر، ذيل مرآة الزمان، 2/ 384-386. ابن شداد: الأعلام

إذا كان سقوط إنطاكية قد أدى إلى إحاطة المماليك بإرمينية الصغرى من جهة الجنوب الشرقي وقطع الاتصال براً مع الصليبيين؛ فإن تسليم هذه القلاع يعني أيضاً إحاطة المماليك لها من جهة الشرق وإعاقة الاتصال مع المغول، وبذلك اكتملت حلقة الحصار المملوكي لكيليكيا، وبضربة واحدة خسر هيثوم ما كسبه بضربات عديدة، وتحطمت مغنوياته بشكل جعله يتنازل عن العرش لابنه ليون.⁽¹⁾

الثالثة: واكتملت المصائب على إرمينية الصغرى عندما تعرضت لزلزال عام 670هـ/ 1269م دمر عدداً من قلاعها وأهلك سكانها.⁽²⁾

تنازل هيثوم الأول عن العرش لابنه ليون سنة 668هـ/ 1269م، وبعد سنة توفي الملك هيثوم الأول، وفي مطلع سنة هـ/ 1271م تم تنصيب ليون بشكل رسمي ملكاً على كيليكيا في كنيسة القديسة صوفيا بطرسوس، ثم قام هذا بزيارة إلى أبغا خان مغول فارس، حيث استقبله وسلمه " أمراً يقضي بأن يحكم مكان أبيه"،⁽³⁾ وبسبب الوضع السيئ لإرمينية الصغرى أراد أبغا مساعدة ليون، فقرر دعمه بعشرين ألف رجل، على أن يأخذ ليون عدداً منهم معه، ثم يتبعه أبغا بالباقي في زيارة لكيليكيا، لكن هذا لم يقم بالزيارة، ولا قدم له بقية الجنود.⁽⁴⁾

أتاح انشغال المماليك بحروب عديدة على جبهات الصليبيين والمغول فرصة للملك ليون ليعيد بها إعمار بلاده، فأعاد بناء أياس حتى غدت مرة أخرى من أهم المراكز التجارية في الحوض الشرقي للمتوسط،⁽⁵⁾ وقد مر بها ماركوبولو في سنة هـ/ 1271م فوجد فيها حركة تجارية نشطة،

الخطيرة، 119/2/1. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان الظاهر لم يسلم ليون لأبيه إلا بعد فراغه من أمر أنطاكية، وفي هذا حنكة سياسية، وذلك لردع هيثوم عن تقديم المساعدة لصليبي أنطاكية.

(1) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 327 - 328

(2) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 327، ويقول أنه قتل حوالي ثمانية آلاف، أما في كتابه تاريخ مختصر الدول، ص 286، فيقول أنه قتل حوالي مئة ألف من الناس غير الدواب. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 77. سمباط: تاريخ سمباط، 348/36.

(3) سمباط: تاريخ سمباط، 348/36-349. غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص 435، 438. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 374. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 327-328.

(4) سمباط: تاريخ سمباط، 349/36-350.

(5) هايد: تاريخ التجارة، 310/2.

يقصدها تجار جنوى والبندقية وغيرهما ويتم فيها تبادل سلع الشرق بسلع الغرب⁽¹⁾ ويمكن القول بأن هذا الغنى جعلها محط أنظار المماليك.

3- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة 673هـ/1275م:

في سنة 672هـ/1274م كان قد كثر فساد أهل كينوك⁽²⁾ وتعددهم على التجار، ولم تنفع رسائل السلطان الظاهر لملك الأرمن لكف أذاهم، فلم يجد بدا من إرسال قوة بقيادة الأمير حسام الدين العينتابي حيث وصلها في شهر محرم، فسيطر عليها وقتل رجالها وخربها ثم أتم غارته على أطراف طرسوس⁽³⁾.

لم تُجد نفعا هذه الحملة إذ أن الملك الأرمني قطع الهدايا المقررة عليه، وخالف الشروط المتفق عليها: بأن لا يحدد بناء قلعة ولا حصن، وامتنع عن تزويد السلطان بالأخبار الصحيحة، كما تم الاتفاق بين الطرفين، عندما تم إطلاق سراحه، وصار يُلبس الأرمن السراقوجات ليوهم بأنهم الجيش المغولي ويهاجم بها القوافل، فأرسل له السلطان يعلمه بعزمه على غزو بلاده⁽⁴⁾.

ربما تكون هذه الأسباب كفيلا لأن تجعل سلطنة المماليك تسير حملة ضد الأرمن في كيليكيا، ولكن هذه الحملة كانت قد خرجت لمهاجمة المغول في آسيا الصغرى، وقد تم الحديث سالفاً عن الدعوات التي أرسلها البرواناة وزير السلطان السلجوقي سنة 672هـ/1274م للسلطان الظاهر للقدوم إلى آسيا الصغرى لطرد المغول منها، وعندما خرج السلطان في السنة التالية؛ أي 673هـ/1275م، كانت قد تحسنت أحوال سلاجقة الروم، وخف التسلط المغولي عليهم⁽⁵⁾ فتدارك البرواناه أمره وكتب إلى السلطان يقول له: "اقصد هذه السنة سيس، وفي العام الآتي أملكك

(1) ماركوبولو: رحلة ماركوبولو، 44/1.

(2) تقع بين ملطية وسميساط ومرعش، وهي قلعة الحدث التي بناها سيف الدولة الحمداني، أما بلغة الارمن فهي كينوك، انظر، ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 173/2/1. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص417.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص417. المقريزي: السلوك، 608/1. النويري: نهاية الأرب، 337-335/30.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص432، النويري: نهاية الأرب، 337/30.

(5) انظر الفصل الثاني، ص

البلاد"،⁽¹⁾ فلقي هذا الأمر قبولاً عند السلطان، ومن ثم سار إلى أرمينيا الصغرى لمعاقبة الأرمن
لأمور - ذكرت آنفاً- أوجبت نقض الهدنة التي بينهم.

أما ابن العبري فقدم مسوغاً آخر، هو: قيام الأرمن باعتقال ثلاثون رجلاً من فقراء العرب
كانوا قد قصدوا أطراف سورية لزيارة قبر الخليفة المأمون، فالتبس الأمر على الأرمن وظنوا أنهم
جواسيس فاعتقلوهم، وأخفقت الوفود بفك أسرهم، كما أنه تم الفتك بخمسمائة فارس من الجيش
المصري بعد أن حاول فك أسرهم، مما استدعى قدوم ثمانية آلاف من الجيش اجتاحت البلاد.⁽²⁾

مهما كانت المسوغات والدوافع، أشرف الظاهر بيبرس شخصياً على إعداد الحملة وقادها
بنفسه، حيث خرج في 3 شعبان 673هـ/ 2 شباط 1275م فوصل دمشق في 29 شعبان / 28
شباط، وبعد أن التحق به عسكر الشام غادرها إلى حماة في 7 رمضان / 16 آذار حيث انضم
إليه صاحبها الملك المنصور محمد.⁽³⁾

ولكي يتجنب السلطان هجوم مغولي مفاجئ جهز فرقة بقيادة عيسى بن مهنا أمير العرب،
والأمير حسام الدين العينتابي، وأمرهما بالتوجه شرقاً باتجاه البيرة ليشغلا المغول في تلك الجهة،
وقد وصلوا إلى رأس العين وحصلوا على غنائم كبيرة بعد أن هرب المغول أمامهم.⁽⁴⁾

سار السلطان باتجاه الشمال وقد حمل معه ثلاثين مركباً مفككة على ظهور البغال حيث
تجمع في كيليكيا ليعبر بها نهر جيحان والنهر الأسود، وبعد أن مهد الطريق من قبل الأميرين عز
الدين الأقرم ومبارز الدين الطوري، وصلوا إلى النهر الأسود وتم عبوره والتوجه إلى المصيصة
الواقعة على نهر جيحان، فاستولى عليها الجيش المملوكي وفتك بأهلها، وغنم منها ما لا يحصى
عدد من الجاموس والبقر والغنم.⁽⁵⁾

(1) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص107، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص177 - 178 .

(2) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 331.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض، ص433، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 106، 177، النويري: نهاية
الأرب، 337/30-338. أبو الفداء: المختصر، 340/2. البرزالي: المقتفي، 325/1.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض، ص433، 436.

(5) المقريزي: السلوك، 617/1. ابن عبد الظاهر: الروض، ص434، العيني: عقد الجمان، 131/2-134،
النويري: نهاية الأرب، 338/30

وفي 29 رمضان / 21 آذار دخل السلطان سبسي، حيث أمضى فيها عيد الفطر، وتم تخريب المدينة ونهبها، ودمر قصر (التكفور) ملك إرمينية ومناظره وبساتينه،⁽¹⁾ وفي أثناء ذلك سارت كتبية إلى حدود سلاجقة الروم ثم عادت محملة بأسرى من المغول بينهم نساء وأطفال، وسيقت الغنائم إلى السلطان، كما تم إرسال الأميرين جمال الدين المحمدي وعز الدين الدمياطي إلى طرسوس وعادا بنحو ثلاثمائة رأس من الخيول والبغال،⁽²⁾ كما أرسل السلطان إلى الشاطيء قوة عسكرية بقيادة الأميرين مبارز الدين الطوري وعز الدين كرجي فانتصرا على الأرمن في موضع لم يرد ذكره، ووجدوا مراكب، فدخلوها وأخذوا ما هو موجود فيها وقتلوا من بها، كما وصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة البرزين، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى أذنة وكثر القتل في تلك المناطق، وإلى أياس سير السلطان جيشا بقيادة الأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين أيتمش السعدي، وفي أياس سارع بعض أهلها إلى نقل بضائعهم إلى المراكب، إلا أن المماليك أحرقوا بعضها، وغرق حوالي ألفين ممن نجا من المذبحة.

عاد السلطان من سبسي إلى المصيصة فأحرقها، وفي طريق عودته هاجم تل حمدون وقلعة النقيرة وعات فيها فسادا، ومن هناك عاد إلى أنطاكية مع باقي الأمراء وقد " غنموا ما لا يحصى كثره، وطرحت الغنائم بمرج أنطاكية فملأته طولاً وعرضاً".⁽³⁾

أما الملك ليون فقد لجأ إلى بعض القلاع التي كانت في مأمن من ضربات المماليك ومعه قوة صغيرة⁽⁴⁾.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض، ص435، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص431. النويري: نهاية الأرب، 339/30. المقرئزي: السلوك، 618/1.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض، ص435 تضيف المصادر الأرمنية أن المماليك أحرقوا كاتدرائية القديس صوفيا وكذلك البلاط الملكي في طرسوس، وسلبوا الخزينة الملكية وقتلوا ما يقارب من عشرين ألف نسمة وأسروا عشرة آلاف، انظر، Hayton: La Flor، 181 – 180. P.

(3) أفاضت المصادر في الحديث عن هذه الحملة، ومن أهمها: ابن عبد الظاهر: الروض، ص434 – 436، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 88/3، النويري: نهاية الأرب، 339/30-340. المقرئزي: السلوك، 617/1-618، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص177، ابن أبي الفضل: النهج السديد، 2/ 226، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص231 – 232. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 106. البرزالي: المقتفي، 325/1.

(4) ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص80.

وصل الظاهر بيبرس دمشق في منتصف ذي الحجة 673 هـ وبالتالي تكون الحملة قد استغرقت معه من خروجه حتى عودته قرابة ثلاثة أشهر، وهي حملة خاطفة وسريعة لكنها كانت مدمرة وأوضحت مدى عجز الأرمن والمغول عن التصدي للمماليك.

4- حملة الملك السعيد بركة خان على إرمينية الصغرى سنة 677هـ / 1279 م:

توفي السلطان الظاهر بيبرس وخلفه في الحكم ابنه الملك السعيد بركة خان، وكان عهده الذي استمر سنتين وشهرين تقريباً خلوا من انجازات عسكرية، غير أنه سير في سنة 677هـ/ 1279م حملة إلى قلعة الروم⁽¹⁾ وأخرى إلى سيبس⁽²⁾.

السبب الرئيسي لهذه الحملة كما يذكر معظم المؤرخون هو محاولة السلطان التخلص من أمراء وقادة أبيه الذين كانوا نافذين جداً في شؤون الدولة، أما هو فقد "مالت به الأهواء وتقلبت به الآراء، وقدم الأصاغر، وأقصى الأكابر، ... فكان يميل إلى أقرانه ومعاصري أسنانه، يسمع أقوالهم، ويبسط آمالهم، وحسنوا له إبعاد الأمراء الكبار،"،⁽³⁾ ونزولاً عند مشورتهم بدأ - أثناء وجوده في دمشق سنة 677هـ - بتفريق العساكر للغارات، وكان "القصدي بتفريقهم التمكن من التدبير عليهم"⁽⁴⁾، والأمراء المعنيون بالأمر يعلمون بنوايا السلطان، لذا فقد ساروا "وفي نفوسهم من ذلك إحن"⁽⁵⁾.

(1) قلعة الروم قلعة صليبية من أقوى القلاع التي بنيت في كونتية الرها مطلع القرن 12م، وأصبحت فيما بعد تشكل أهم القلاع على الحدود الشرقية لمملكة إرمينية الصغرى، فهي تقع بالقرب من نهر الفرات على أنف جبل شديد الانحدار غربي الرها وشمال شرق عينتاب، كما تطل على مجرى نهر الفرات، في عام 1292 استولى عليها الأشرف خليل وياتت تعرف باسم قلعة المسلمين، ظلت قائمة حتى عام 1839م حيث قصفها إبراهيم باشا وهدم معظم منشآتها. انظر: الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1985م، ج9، ص257.

(2) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 108/9-109، بيبرس المنصوري (نائب السلطنة في مصر، ت: 725هـ): مختار الأخبار، تج: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م، ص66.

(3) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص104.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 109/9.النويري، نهاية الأرب، 386/30.

(5) المقريزي: السلوك، 650/1، النويري، نهاية الأرب، 386/30.

فسير الأمير بدر الدين بيسرى إلى قلعة الروم في عشرة آلاف فارس يرافقه الأمير حسام الدين العينتابي على رأس عسكر الشام، قبل البدء بالأعمال العسكرية حاولوا مفاوضة الجاثليق حاكم المدينة لتسليم القلعة مقابل الأمان، لكنه رفض التسليم، فاحتلوا المدينة وظلوا فيها خمسة أيام ينهبون ويعيثون ويحرقون ثم رحلوا عنها بعد أن عجزوا عن فتح القلعة.⁽¹⁾

أردف السلطان القوة الموجودة مع بيسرى وحسام الدين العينتابي بفرقة على رأسها الأمير سيف الدين قلاوون، وأمرهم بالتوجه إلى سيس، فدخل الجميع أراضي إرمينية الصغرى وأقاموا فيها خمسة عشر يوماً كسبوا فيها غنائم كثيرة، وقضوا عشرة أيام في عين زربة فألحقوا بها وبأهلها أضراراً جسيمة، ثم عادوا.⁽²⁾

لم تحقق هذه الحملة نتائج مهمة، وذلك أمر طبيعي، فهي لم ترسل بغرض الجهاد، كما أن القائمين على أمرها ساروا فيها على مضض، فاقتصرت آثارها على التدمير والتخريب ولم يفتحوا حصون ولا قلاع ولا مدن.

ثالثاً - المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور قلاوون:

1- معركة حمص سنة 680هـ / 1281م ودور الأرمن فيها:

(1) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 338 - 339، ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 1/348، النويري: نهاية الأرب، 30/385، ابن أبيك: الدرر الزكية، ص 225، المقرئ: السلوك، 1/652.

(2) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، 1 / 2 / ص 348 - 349 ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 339، النويري: نهاية الأرب، 30/385. قرطاي الغري الخزنداري (ت بعد 708 هـ / 1309 م) : تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة المصرية، صيدا - بيروت، ط 1، 2005م، 4 / 257.

تتاول الفصل الثاني الحديث بالتفصيل عن معركة حمص،⁽¹⁾ وقد كانت المشاركة الأرمينية فيها قوية، إذ بلغ تعداد الجيش المغولي فيها ثمانين ألفاً، منهم خمسون ألف مغولي والباقي أرمن وكرج وفرنج وروم.⁽²⁾

كانت الفرقة الإرمينية تحت قيادة ملكهم ليون الثاني، وكان ليون هذا أحد قادة الميمنة المغولية التي كسرت الميسرة المملوكية،⁽³⁾ حتى أن بعض شهود المعركة يرجع الفضل في كسرة الميسرة المملوكية لليون الثاني ملك إرمينية،⁽⁴⁾ ولكن انتصاره لم يكتمل، إذ أنه بعد كسر الميمنة وملاحقتها إلى أبواب حمص عاد إلى ساحة المعركة ليجد نفسه منقطعاً ومعزولاً عن باقي الجيش المغولي الذي ولى الأدبار، منهزماً فكان عليه أن يجد طريقاً باتجاه الشمال إلى مملكته، وفي أثناء مسيره باتجاه الشمال وقع في كمين أعده له التركمان والأكراد بقيادة الأمير شجاع الدين السناني "فقتلهم وأسروهم عن آخرهم، بحيث لم يفلت منهم العشرين".⁽⁵⁾

أعطى هذا الانتصار المماليك فرصة طيبة للتحرك بحرية ضد الصليبيين والأرمن لأنه أسكت الجبهة الشرقية وشغل المغول بإصلاح أحوالهم، إلا أن الصليبيون تداركوا الموقف وسارعوا بعقد الاتفاقيات مع السلطان ولم يبق في الساحة إلا الأرمن، وقد امتلأت قلوب المماليك غيظاً عليهم، وتوافرت الظروف للانتقام منهم على دعمهم المغول، وخاصة بعد أن تولى حكم مغول فارس في سنة 1282م الخان أحمد تكودار، والذي أعلن إسلامه وأرسل إلى السلطان قلاوون

(1) راجع الفصل الثاني.

(2) المقرئزي: السلوك، 692/1، النويري: نهاية الأرب، 31/31. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/ 213.

(3) دي كانسي: أخبار من سورية، ص 25-26. ابن العبري: تاريخ الزمان، 342.

D'ohsson: Histoire des Mongols. P524.

(4) دي كانسي: أخبار من سورية، ص 27-28.

(5) المقرئزي: السلوك، 698/1، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/221-222. ويذكر الداوي الصوري في أعمال القبارصة أن الذين أفلتوا من الكمين كانوا فقط ثلاثين جندياً مع ملك إرمينية، انظر: ص 98، في حين أن دي كانسي ذكر سبب هلاك الأرمن هو ما لا قوة من مشقة أثناء المسير وموت رجالهم وخيولهم بسبب العطش، دي كانسي: أخبار من سورية، ص 27 - 28.

يعلمه برغبته في ترك الخصومات القديمة مع المماليك،⁽¹⁾ وأعقب ذلك مشاكل داخلية عند المغول نتجت عن معارضة أرغون بن أبغا لعمه تكودار ومطالبته بالعرش.⁽²⁾

استغل المماليك الموقف الدولي؛ فرسم السلطان قلاوون في سنة 682هـ/ إلى نائب حلب شمس الدين قراسنقر بشن "الغارات إلى بلاد سيس نكاية في حق صاحبها ليفون، لما ارتكبه من العدوان على جامعها بالإحراق، وغير ذلك، فركب العسكر إليها".⁽³⁾

وللغاية ذاتها جرد السلطان قلاوون عسكر من مصر ودمشق توجها للإغارة على إرمينية الصغرى في صفر 682هـ/ أيار 1283م فوصلوا إلى آياس، وهناك قتلوا من أهلها جماعة، ونهبوا وخربوا، ثم غادروها، وفي أثناء عودتهم اصطدموا بقوة من الجيش الأرمني على أبواب اسكندرونة، فانتصروا عليهم ولحقهم الجيش المملوكي إلى تل حمدون ونهر جيحان، ثم عادت العساكر المملوكية محملة بالغنائم.⁽⁴⁾

2- الهدنة بين المماليك وإرمينية الصغرى سنة 684هـ/1285م:

أمام الهزائم المتتالية أدرك الملك ليون الثاني عجزه عن تحمل الهجوم أو العداء المملوكي بمفرده بعيدا عن المساعدة المغولية، والتي اتضح له أنها قد تكون مستحيلة في ظل الظروف التي كانت تمر بها الإيلخانية، ناهيك عن أن المملكة فقدت منذ سنة 666هـ/1268م الغطاء أو الحماية الجزئية التي كانت توفرها لها إمارة أنطاكية الصليبية، ومن ناحية ثانية؛ اتضح أن السلطان قلاوون لن يتنازل أو يتراجع عن مشاريعه العسكرية، لذا قرر الملك الأرمني أن يتفادى - ولو بشكل مؤقت - خطر المماليك، وأن يشتري ودهم ريثما تتعافى المملكة وحلفائها مما نزل بهم، وفعلا تم التوصل - بعد وساطة مقدم الداوية- إلى عقد هدنة بين الطرفين مدتها إحدى عشرة سنة

(1) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، ج9/167. وللاستزادة عد إلى الفصل الثاني، ص...

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/2/96. عباس اقبال: تاريخ المغول، ص238-242.

(3) وقد أحرق جامع حلب عندما دخلت القوات المغولية والأرمنية إليها في 20 جمادى الآخرة 679 هـ. انظر:

المقريزي: السلوك، 1/682. ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص30-31. بيبيرس الدوادر: زبدة

الفكرة، 9/179. النويري: نهاية الأرب، 31/39. أما ابن أبيك فيقول أنهم أخذوا المنبر معهم إلى بلادهم،

الذرة الزكية، ص238. ولكن الذهبي يقول أنهم أحرقوه، تاريخ دول الإسلام، حوادث 671-680، ص50.

(4) بيبيرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/179-180. النويري: نهاية الأرب، 31/39. المقريزي: السلوك،

617/1. ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص30 - 32.

تقريباً أولها يوم الخميس 2 ربيع الآخر 684هـ/7 يونيو 1285 م، نصت على أن تدفع مملكة إرمينية الصغرى للسلطنة المملوكية جزية سنوية مقدارها ألف درهم من الفضة، كما تضمنت تسهيل حركة التجارة القادمة من مختلف الجهات إلى أراضي السلطنة المملوكية عن طريق أراضي إرمينية الصغرى، و نصت على إطلاق سراح الأسرى من قبل الطرفين، وأن يعيد كل طرف من هرب إليه من الطرف الآخر، لكن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام، ونصت الهدنة على عدم السماح لهم ببناء قلاع جديدة، والتزام الحياد، أي الامتناع عن مساعدة أعداء المماليك وخاصة المغول، وورد فيها أنه يحق للمماليك شراء الرقيق من كيليكيا، وعلى الملك ليون تأمين خمسين رأساً من الخيول والبغال وعشرة آلاف تطبيقاً⁽¹⁾ حديد بمساميرها.⁽²⁾

لقد كانت شروط الهدنة قاسية على الأرمن، ومريحة للمماليك، إذ حقق فيها السلطان بسهولة ما لا يمكن تحقيقه من خلال المعارك، وأهم بنودها تأمين الطرق التجارية، وضمان حيادية الأرمن في الحروب المملوكية - المغولية - الصليبية، ناهيك عن تأمين الحديد والبغال والخيول التي يحتاجها الجيش المملوكي في حروبه، بالإضافة إلى القطيعة السنوية، وقد علق ابن عبد الظاهر على هذه الهدنة بأنه "لو فتحت وعمرت سيس لما فضل عن كلفها هذا القدر".⁽³⁾

انتهى حكم ليون الثاني بعقد هدنة مع المماليك، كما حدث من قبل مع والده هيثوم الأول، واعتلى العرش من بعده ابنه هيثوم الثاني (688 - 701هـ/ 1289 - 1307 م) فاستقبل حكمه بسيطرة السلطان قلاوون على طرابلس، ولم يبق للصليبيين في المنطقة سوى عكا، فشعر الأرمن بالخطر، وازداد الخوف من المماليك أن يمتد نفوذهم نحو الشمال، لذا أرسل الملك الجديد هيثوم الثاني وفداً إلى السلطان قلاوون وهو بطرابلس "يسألون مراحم السلطان، ويطلبون مرضيه"⁽⁴⁾، فطالبهم بالاستمرار في تقديم القطيعة السنوية، كما طالب بتسليم بهسنا ومرعش.⁽⁵⁾

(1) جمعها تطاييق، وهي لوح من الحديد أو النحاس، وهي حذو للخيل.

(2) ورد نص الهدنة بالكامل عند ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص92 وما بعد، القلقشندي: صبح الأعشى، 7/14-19.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص93.

(4) النويري: نهاية الأرب، 163/31. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 81/8.

(5) النويري: نهاية الأرب، 163/ 31، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 81/ 8.

لقيت مطالب السلطان قلاوون قبولاً فيما يتعلق بالقطيعة، لكنهم اعتذروا عن تسليم مرعش وبهسنا متذرعين بخوفهم من المغول، وقدموا عوضهما مبلغاً كبيراً من المال، فقبل السلطان.⁽¹⁾

وقعت كل من مرعش وبهسنا في شرقي كيليكيا، على طرق المواصلات والتجارة، وشكلتا؛ مع عدد من القلاع، أهم الثغور بالنسبة لإرمينية الصغرى، كما كانتا تتحكما بطرق المواصلات القادمة من الشمال نحو بلاد الشام وبالعكس، وأيضاً بين المغول الأيلخانيين والأرمن،⁽²⁾ لذا لم يكن المغول ولا الأرمن ليرضوا بسيطرة المماليك عليهما، لأن ذلك يعني ببساطة سيطرة المماليك على طرق المواصلات بين الأيلخانيين والأرمن وحتى سلاجقة الروم، وبالتالي فقدان الممر الرئيسي الذي يربط الأرمن بحماتهم المغول، لذا فالرفض هو الجواب الطبيعي.

رابعاً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الأشرف خليل:

تقلد الأشرف خليل الحكم بعد والده في ذي القعدة 689هـ/ تشرين الثاني 1290م،⁽³⁾ وفي مطلع عهده تمكن من تحرير عكا في 17 جمادى الآخرة / 18 مايو 1291م وبذلك فقدت إرمينية

(1) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، 531/2، النويري: نهاية الأرب، 163/31، ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص99، المقرئزي: السلوك، 748/1.

(2) Stewart Angus: The Assassination of king Hetum II: The Conversion of The Ilkans and The Armenias، in JRAS، series 3، 15، 1، (April، 2005) P.47

كان هناك عدد من الطرق التجارية تمر عبر كيليكيا، أولها طريق من بلاد الشام عابراً البلاد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي باتجاه القسطنطينية، ويتقاطع معه طريق آخر قادم من منتصف مجرى الفرات الأعلى عبر مرعش، وهناك طريق ثالث بدأ يعمل منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي و ينطلق من ميناء أياس باتجاه طرابزون على البحر الأسود أو باتجاه سيواس أو تبريز ومن هناك إلى آسيا الوسطى والصين. انظر:

Mutafian Claude، Le Royaume armenien de cilicie XIIe – XIVe Sie'cle. Paris، CNRS editions. 2001، P119.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 136/1. ابن أبيك: الدرّة الزكية، 303. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص91.

الصغرى حلفائها في بلاد الشام، وأصبح الأرمن وجها لوجه مع المماليك، فبمجرد سقوط عكا وتوابعها أرسل الأشرف خليل إلى الملك هيثوم الثاني يخبره بفتح عكا وتوابعها، ومذكراً إياه بقوة المماليك، كما يخبره بضرورة الالتزام بدفع القطيعة المقررة عليه - إذ يبدو من الرسالة أن الأرمن توقفوا عن دفع القطيعة سنتين - والحضور لمقابلته، وإلا سيلقى نفس المصير الذي لقيه أهل عكا عكا. (1)

1-فتح قلعة الروم سنة 691هـ / 1292 م:

أدرك الملك الأرمني هيثوم الثاني مدى ازدياد الخطر المملوكي عليه بعد تخلصهم من صليبي الشام، لذا أرسل إلى البابا نيقولا الرابع (687 - 691هـ / 1288 - 1292م) بعد سقوط عكا يطلب المساعدة، ويبدو أن البابا حاول إثارة الرأي العام بهذا الموضوع، وأوعز إلى الداوية والاسبتارية بمساعدة الأرمن،⁽²⁾ لكن دون جدوى.

أما بالنسبة للمماليك؛ فبعد تنظيف الساحل الشامي من الصليبيين، ويعد الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة هذا الأمر، خطب الخليفة العباسي في القاهرة خطبة بليغة حث فيها على الجهاد وأمر بالنفير،⁽³⁾ ويبدو أن الخطبة أثرت بالسلطان مما جعله يقرر المسير إلى بلاد الشام استعداداً لمهاجمة قلعة الروم، فكتب إلى نائب حلب وإلى نائب دمشق بالاستعداد لحصارها.⁽⁴⁾

والسؤال هنا لماذا اختار المماليك في هجومهم هذا قلعة الروم بالذات. ؟

تأتي عملية الاستيلاء على قلعة الروم ضمن خطة المماليك في توسيع حدودهم شمالاً وحمايتها، وضمن هذا الإطار يجب عليهم السيطرة على قلعة الروم أكثر القلاع والثغور الإرمينية خطراً على الحدود الشمالية للسلطنة، فقد اتخذها المغول والأرمن قاعدة لشن هجماتهم على نيابة

(1) ابن أبيك: الدرة الزكية، 320 - 321. زيتير سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص8.

(2) Luttrell, A.T. " The Hospitallers Interventions in The Cilician Armenia: 1291 - 1375، in the Cilician kingdom of Armenia، edited by T.S.R Boase، Edinburgh & London، Scottish Academic Press. 1978. P 121.

(3) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص 6-14. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 1/116. البرزالي: المقتفي، 2/273. النويري: نهاية الأرب، 31/225.

(4) العييني: عقد الجمان، 3/110-111.

حلب ولقطع الطريق على المسلمين وعابري السبيل المترددين من تحتها،⁽¹⁾ حيث كان للمغول مجموعة من العسكر مستنفرين فيها،⁽²⁾ ناهيك عن أنه لم يبق في أطراف المملكة شيء خارج عن يد السلطان سواها،⁽³⁾ كما كانت مقراً لجائليق الأرمن،⁽⁴⁾ وعن المشاكل التي كانت تثيرها هذه القلعة لسلطنة المماليك يكفي بأن نذكر بما قاله عنها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي - الذي كان له النصيب الأوفر في تحريرها - فقال: "كانت هذه القلعة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق، والغلة في الصدر، والخسوف الطارئ على طلعة البدر، لا تخلو من غل تضره، في لين تظهره، وغدر تستره، في عذر تورده وتصدره، وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار، وموادعة التتار، وممالاتهم على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى في الزي والحال، يمدنوهم بالهدايا والألطف، ويدلونهم على عورات الأطراف، وهم يتقون بمسالمة الأيام، ويدعون أن قلعتهم لم تزل من الحوادث في زمام ويغترون بها ... وهو حصن صاعد،... لا يطاء إليه السالك إلا على المحاجر، ولا تتطره العيون حتى تبلغ القلوب الحناجر".⁽⁵⁾

سار السلطان خارجاً من مصر إلى الشام على رأس العسكر المصري في 8 ربيع الآخر / 28 آذار، فوصل إلى دمشق في 6 جمادى الأولى، ثم غادرها في 16 جمادى الأولى باتجاه حلب بعد أن اجتمعت عنده العساكر المصرية والشامية، فوصل حلب في 28 جمادى الأولى، ومنها خرج باتجاه قلعة الروم في 4 جمادى الآخرة فوصلها في يوم الثلاثاء 8 جمادى الآخرة وفيها وقع الحصار على القلعة.⁽⁶⁾

(1) بيبرس الدودار: التحفة الملوكية، ص130، زبدة الفكرة، 235/9. سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص49.

(2) العييني: عقد الجمان: 110/3.

(3) بيبرس الدودار، التحفة الملوكية، ص130، العييني: عقد الجمان، 111/3.

(4) المقريزي: السلوك، 778/1. أبو الفداء: المختصر، 362/2.

(5) ابن الجزري (محمد بن ابراهيم، ت: 699 هـ)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، 1998م، 106/1. النويري: نهاية الأرب، 234/31، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 1/ 139 - 140.

(6) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص323. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 387/2-388. العييني: عقد الجمان، 112/3-113. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 141/8. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 101/1.

تطلب الاستيلاء على القلعة استعدادات ضخمة، لأنها "من أحصن القلاع وأعظمها في الارتفاع والامتاع، ولا يتوصل إليها إلا من طريق صعبة المرتقى كثيرة العقاب والصوى، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلاً لوعورة مسالكها وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات يجري من تحتها، ولا منزلة لمن ينزلها إلا في لحفها"،⁽¹⁾ لذا فقد ضمت الحملة أكثر من أربعين منجنيقاً،⁽²⁾ ومجموعة من النقايبين والزراقين والحجارين والجَرَخِيَّة والعُدَد الوافرة وآلات الحرب،⁽³⁾ فنزلت عليها العساكر، "واكتظ الزحام، وتضايقت الخيام، وشرع في الحصار، ورمي بالحجار، والاهتمام بالنقوب، والاجتهاد بالأبدان والقلوب".⁽⁴⁾

استمر الحصار ثلاثة وثلاثون يوماً،⁽⁵⁾ يذكر العيني أن القوات المملوكية في أول عشرين يوم لم تتل من القلعة شيئاً، ثم أجمعوا على نقب أسوار الحصن لكنهم أخفقوا أيضاً بسبب صلابة أحجارها،⁽⁶⁾ وأخيراً تمكنوا من دخولها بعدما تحيل الأمير سنجر الشجاعي في عمل سلسلة علقها على أسوار الحصن، وطرفها في الأرض، فكان الجند يتمسكون بها ويصعدون فيها حتى تمكنوا من دخول القلعة.⁽⁷⁾

أما عن الأرمن فقد سارع هيثم الثاني بطلب النجدات من حلفائه التتار، لكنهم لم يتمكنوا من إنقاذه؛ لأن القوات على قول رشيد الدين وصلت بعد فوات الأوان، أما بيبرس الدوادار فذكر أنها وصلت قبل فتح القلعة، لكنها اضطرت للعودة بعد أن أدركت أنه لا قبل لها بمواجهة الجيش المملوكي.⁽⁸⁾

(1) ابن أبيك: الدرة الزكية، ص323.

(2) الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 1/109. أما النويري فذكر أن المجانيق كانت عشرون فقط، نهاية الأرب، 226/31. في حين يحصيها ابن أبي الفضائل ب 44 منجنيق، النهج السديد، 2/389. أما العيني فذكر أن عددها كان 23 منجنيق، عقد الجمان، 3/113.

(3) البرزالي: المقتفي، 2/276. بيبرس: الدوادار: زبدة الفكرة، 9/236.

(4) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/236.

(5) البرزالي: المقتفي، 2/276. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/389. المقريزي: السلوك، 1/778.

(6) العيني: عقد الجمان، 3/113.

(7) النويري: نهاية الأرب، 226/31، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، 9/236. المقريزي: السلوك، 1/778، ابن

الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/136.

(8) رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/178 - 179. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/237.

سقطت قلعة الروم يوم السبت 11 رجب 691هـ/ 16 يونيو 1292 م وعلى قول معظم المؤرخين، فإن المماليك استباحوها، فقتلوا من بها من المقاتلة، وسبيت النساء، واقتادوا عددا كبيرا من الأسرى، أما أبو الفداء فذكر - وكان مشاركاً في عملية الفتح - أن الأرمن طلبوا الأمان قبيل فتح القلعة، فأمنوا على أرواحهم فقط؛ وعلى أن يكونوا أسرى، ولم يأت على ذكر عمليات القتل، أمر السلطان بعد ذلك بتغيير اسمها لتصبح قلعة المسلمين، وكلف الأمير الشجاعي نائب دمشق بعمارتها، وتحصين قلعتها، وترتيب ما يعود على مصلحتها،⁽¹⁾ لتصبح القلعة بعد ذلك مركزاً متقدماً لرصد تحركات المغول والأرمن وأيضا للتحرك ضدهم.

جدد فتح قلعة الروم الآمال بالتخلص من إرمينية الصغرى، وحتى من المغول، وبدا ذلك واضحا في رسائل الأشرف خليل، ومنها تلك التي أرسلها إلى قاضي قضاة دمشق يخبره بما فتح الله عليه، وأن باب الفرات فُتح "بكسر أقفال هذه القلعة ... وما يكون بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق ..."⁽²⁾ أما المغول فقد تخوفوا من هذا الفتح، لذا أرسل كيخاتو خان مغول فارس إلى الأشرف خليل وفداً يحمل رسالة تهدد المماليك بأخذ حلب، فرد عليه الأشرف بأنه سيأخذ منه بغداد.⁽³⁾

2- الهدنة بين الأرمن والمماليك سنة 692هـ/ 1293م:

كان على السلطان أن يستثمر هذا الانتصار، ويغتزم الفرص بعد أن خسر الأرمن أقوى قلاعهم الشرقية، والتي تقع على طرق المواصلات بينهم وبين المغول، كما أنها تقع على الطريق الداخل إلى بلاد الشام، وبالتالي لا بد من الاستيلاء على باقي القلاع، ولاسيما بهسنا التي كانت لا تقل أهمية عن قلعة الروم، والتي ما برح المماليك يطالبون بها.

وواتته الفرصة عندما قدمت الرسائل من نائب حلب تفيد بهجوم الأرمن على بعض التجار وأخذ أموالهم وأسره، وأنه حينما تمت المطالبة بهم أنكر الأرمن وجودهم عندهم،⁽⁴⁾ لذا خرج السلطان الأشرف من مصر إلى دمشق، فوصلها في 9 جمادى الآخرة سنة 692هـ/ 17

(1) ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 323. البرزالي: المقتفي، 2/282. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/236. أبو

الفداء: المختصر، 2/363. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 366. المقرئزي: السلوك، 1/778.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31/231، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8/138.

(3) المقرئزي: السلوك، 1/786.

(4) العييني: عقد الجمان، 3/149.

أيار 1293م، وأمر بتجهيز العساكر لغزو إرمينية الصغرى،⁽¹⁾ لكن الملك الأرمني تمكن من تدارك الموقف وأرسل رسله على عجل إلى دمشق "يسألون مراحم السلطان وعواطفه، ويبدلون له الرغائب"،⁽²⁾ وقد قبل السلطان التراجع عن حملته مقابل تسليم الأرمن قلاع: بهسنا ومرعش وتل حمدون، وفعلاً نزل الأرمن عند رغبة السلطان، وسلموه القلاع المذكورة، والتي تسلمها هو الأمير سيف الدين طوغان والي دمشق.⁽³⁾

رضي الأرمن بالتخلي عن بهسنا بعدما رفضوا ذلك من قبل وذلك لأن الموقف تغير بعد أن سقطت قلعة الروم، وبات سقوط بهسنا وشيكا، لذا دفعوا أذى المماليك عن أنفسهم، ووفروا على أنفسهم الأرواح والخراب، أما بالنسبة للمسلمين فإن فتح بهسنا كان له صدى كبير لأنها من "أحسن قلاعهم وأحصنها، وبها ضياع كثيرة تزرع، وهي في فم الدريند وباب حلب".⁽⁴⁾

❖ الأوضاع في سلطنة المماليك ومملكة إرمينية الصغرى:

اغتيال السلطان الأشرف خليل سنة 693هـ / 1293 م،⁽⁵⁾ ودخلت البلاد من بعده في فوضى سياسية - لسنا بصدد ذكره حالياً - ولكن يمكن تسجيل النقاط التالية كمؤشر على التخبط الذي مرت به السلطنة:

فبعد صراع طويل؛ تعددت أطرافه، تم تنصيب الناصر محمد بن قلاوون ابن التسع سنوات سلطاناً على البلاد في 16 محرم 693 هـ،⁽⁶⁾ إلا أن سلطنته لم تستمر أكثر من عام، فقد عُزل في

(1) ابن أبيك: الدرة الزكية، ص340، المقرئزي: السلوك، 1/ 784، ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 557.

(2) النويري: نهاية الأرب، 1/ 249.

(3) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 8/ 155-156، النويري: نهاية الأرب، 31/ 520، المقرئزي: السلوك، 1/ 784، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 1/ 149 - 150.

(4) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 557 - 558. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 5/ 782-783.

(5) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 167. ابن أبيك: الدرة الزكية، ص345 وما بعد.

(6) النويري: نهاية الأرب، 31 / 267. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 169. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 98.

في 11 محرم 694 هـ،⁽¹⁾ واعتلى العرش مكانه الأمير زين الدين كتبغا المنصوري؛ الذي كان نائب السلطنة، واستمر في حكمه حتى عُزل في صفر 696 هـ (2).

عُزل السلطان كتبغا من قبل نائب السلطنة حسام الدين لاجين المنصوري، الذي تسلطن مكانه في 17 محرم 696 هـ، استمر في سلطنته حتى ربيع الآخر 698 هـ/ حيث قتل، وأعيد مكانه الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً للمرة الثانية.⁽³⁾

أما في إرمينية الصغرى، فلم تكن الحال أفضل من سلطنة المماليك، بل الصراعات السياسية كانت على أشدها، ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

كان قد توفي الملك ليون الثاني عام 1289م، وخلف أربعة أولاد هم: هيثوم الثاني، وطوروس، وسمباط، وقسطنطين، فال الحكم إلى هيثوم الثاني، وعلى إثر سقوط قلعة الروم على يد الأشرف خليل عام 1292م، تنازل هيثوم الثاني عن الحكم لأخيه طوروس؛ واعتزل في أحد الأديرة.

نتيجة لسوء الأوضاع؛ وبعد إلحاح من طوروس نفسه، وبقية الأمراء الأرمن؛ عاد هيثوم الثاني إلى الحكم، وبدأ يعمل بجد لإعادة تقوية المملكة، فتطلب ذلك زيارة لخان المغول، كما قام بزيارة إلى الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، وسبب الزيارة الأخيرة؛ هو أن ميخائيل باليولوجس الوصي على عرش الإمبراطورية تقدم للزواج من ريتا أخت هيثوم الثاني، فوجد هذا الأخير أن الفرصة مناسبة لتقوية العلاقات مع البيزنطيين، فقام بزيارتهم عام 1295م.

(1) النويري: نهاية الأرب 31 / 281. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1 / 175. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 101.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31 / 282، 311 - 312، المقريزي: السلوك، 1 / 806، 819 - 820. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1 / 178، 193. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 104، 101.

(3) النويري: نهاية الأرب، 31 / 357، 370، المقريزي: السلوك، 1 / 865، 872. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1 / 194، 212. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 104، 110.

أثناء غياب هيثوم الثاني في القسطنطينية، قام أخوه سمباط بالتمرد واعتلى عرش المملكة، وقام بقتل أخيه طوروس، ولما عاد هيثوم الثاني من القسطنطينية قبض عليه، وسمل إحدى عينيه وأودعه السجن.⁽¹⁾

في أيام سمباط هذا أرسل المماليك حملة -سيتم الحديث عنها -، وعلى إثر فشل الملك سمباط في التصدي لها، وأثناء وجودها في إرمينية الصغرى، قام أخوه قسطنطين بعزله واعتلاء العرش مكانه، ثم دخل في مفاوضات مع المماليك لإجلاء قواتهم عن إرمينية الصغرى.⁽²⁾

(1) أبو الفداء: المختصر، 2/ 373-374.

(2) أبو الفداء: المختصر، 2/ 373-374. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 237-239. سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص 168.

خامساً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد المنصور لاجين.

1- الحملة على إرمينية الصغرى سنة 697هـ/ 1298 م:

في عهد السلطان المنصور لاجين (696 - 698هـ/ 1296 - 1298م) خرجت حملة عسكرية إلى إرمينية الصغرى، وقد ضمت عدداً كبيراً من الأمراء، أشهرهم الأمير بدر الدين بكتاش المعروف بأمير سلاح؛ وهو مقدم الحملة، والأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة في دمشق، والأمير ألبكي الظاهري نائب صفد، والملك محمود صاحب حماه، وعندما وصلت الحملة إلى حلب أدركها الأمير سنجر الدواداري أحد مقدمي العساكر المصرية - قادمًا من مصر - فالتحق بها،⁽¹⁾ ووصلت الحملة إلى كيليكيا في رجب من ذلك العام بعد أن توقفت مرتين، في دمشق ثم حلب.⁽²⁾

أما عن سبب هذه الحملة، فيذكر المقرئزي أن اضطراب الأوضاع عند المغول الأيلخانيين شجع السلطنة "على أخذ سيس ما دام الخلف بين المغول"،⁽³⁾ في حين يذكر بعض المؤرخين أن منكوتر نائب السلطان لاجين - مصدر القلاقل والفتن والذي كان السبب في قتل السلطان - قد حسّن للسلطان تجريد العساكر إلى سيس،⁽⁴⁾ سعياً منه للتخلص من الأمراء وإبعادهم عن القاهرة.⁽⁵⁾

ويمكن تسجيل أمر آخر كان محفزاً للمماليك للقيام بعمل عسكري ضد إرمينية الصغرى، ألا وهو التحركات الدبلوماسية التي قام بها هيثوم الثاني مع المغول والبيزنطيين في محاولة لتقوية المملكة بالتحالف معهم، كما أنه كان قد أرسل إلى ادوارد ملك إنكلترا أكثر من مرة يُطلعه على أحوال المملكة السيئة ويطلب المساعدة،⁽⁶⁾ وبما أن هناك حالة من الفوضى السياسية تسيطر على الوضع في إرمينية الصغرى، وجد السلطان لاجين أن الوضع مناسب لتسديد الضربة لها.

(1) أبو الفداء: المختصر، 2/ 372، وكان قد شارك في هذه الحملة، النويري: نهاية الأرب، 31 / 337 - 338. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 1/ 202.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31 / 337 - 338، المقرئزي: السلوك، 1 / 838.

(3) المقرئزي: السلوك، 1 / 837. العيني: عقد الجمان، 3 / 386.

(4) بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 106. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2 / 437.

(5) تناول الفصل الثاني الحديث عن الخلافات بين الأمراء والسلطان لاجين بسبب نائبه المسيطر على الحكم، وكيف أدى ذلك إلى عزله وقتله.

(6) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 200.

انطلقت الحملة من حلب باتجاه الشمال الغربي، فلما نزلت العمق افتقرت إلى فرقتين، إحداهما كانت بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش؛ وقد توجهت من بغراس -أحد الممرات الجبلية - إلى باب إسكندرونة حيث نزلوا تل حمدون، والثانية كانت بقيادة الملك المظفر صاحب حماة توجهت إلى نهر جيحان، وكان دخولهم جميعاً إلى دريند سيس في يوم الخميس 4 رجب 697هـ/ 17 نيسان 1298 م.⁽¹⁾

داخل أراضي إرمينية الصغرى وقع القادة العسكريون في خلاف حول طبيعة الأعمال العسكرية التي سيجري تنفيذها في أراضي الأرمن، فكان هناك رأي يقول بحصار القلاع وفتحها، ويمثله الأمير بكتاش، في حين عارضه الأمير سنجر الدواداري وطالب بالإغارة فقط، وادعى لنفسه القيادة على الجيوش كلها.⁽²⁾

نزل الأمير بكتاش أمام رغبة الدواداري ولم يشأ خلق منازعات وانشقاقات تُريك الحملة، وتنفيذا لرغبة الدواداري قام الملك المظفر صاحب حماة والدواداري بالإغارة على مدينة سيس، وأغار الأمير بكتاش على عين زرية، ثم اجتمعت الطائفتان على أذنة، وبعد أن قتلوا من ظفروا به من الأرمن وأخذوا الغنائم عادوا عن طريق أذنة ثم المصيصة ثم بغراس إلى مرج أنطاكية ومن هناك إلى جسر الحديد بأرض الروج⁽³⁾ يريدون العودة إلى مصر،⁽⁴⁾ لكن هذا لم يحصل.

كان الأمير بكتاش قد كتب إلى نائب حلب الأمير بلبان الطباخي يخبره بأمر الدواداري عندما نازع بكتاش في التقدمة على عسكر وفرض رأيه بعمل الإغارة فقط، وطلب بكتاش من نائب حلب أن يُطلع السلطان بذلك، وفعلاً تم ذلك، وفي أثناء وجود العساكر بأرض الروج يريدون العودة إلى مصر ورد كتاب السلطان " بالإنكار على الدواداري في تقدّمه على الأمير بكتاش وكونه اقتصر على الغارة... وأن التقدّم على سائر العسكر للأمير بكتاش، وأن العساكر لا ترجع إلا

(1) النويري: نهاية الأرب، 31 / 338. أبو الفداء: المختصر، 2 / 372. المقريزي: السلوك، 1 / 838. Howorth: History of the Mangols. Part III، P. 430.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31 / 339، المقريزي: السلوك، 1 / 838 - 839. Howorth: History of the Mangols. Part III، P. 431 - 432.

(3) الروج قرية غرب حلب، بينها وبين معرة النعمان، ياقوت، معجم البلدان.
(4) أبو الفداء: المختصر، 2 / 372. المقريزي: السلوك، 1 / 839. ابن أبيك: الدرّة الزكية، ص 369. النويري: النويري: نهاية الأرب، 31 / 339 - 340 (ويذكر عين زرية باسم ناورزه).

بعد فتح تل حمدون وعلى ما يبدو فإن الأرمن أعادوا احتلالها مع بهسنا-، وان عادت من غير فتحها فلا إقطاع لهم بالديار المصرية".⁽¹⁾

وبذلك تقرر على الحملة العودة مرة أخرى إلى كيليكيا لتستأنف نشاطها وفق الخطة التي طرحها بكتاش مسبقاً، وهي منازل القلاع وتحريرها، فعرجت من الروج إلى حلب حيث أقامت بها ثمانية أيام تزودت خلالها بما تحتاجه، ثم عادت الحملة في 3 رمضان / 20 حزيران ودخلت كيليكيا مجدداً من ممر بغراس.⁽²⁾

تحدث أبو الفداء - وكان مشاركاً في الحملة - أنه نزل في 9 رمضان على قلعة حموص مع بدر الدين بكتاش والمظفر صاحب حماه،⁽³⁾ في حين جُردت فرقة إلى أياس لمحاصرتها بقيادة الأمير كجكن والأمير بهاء الدين قرا أرسلان، إلا أن الفرقة تعرضت لهزيمة على يد فرق من الأرمن كمنت لهم في البساتين، بالمقابل تسلم الأمير بكتاش تل حمدون في 7 رمضان / 18 حزيران بعد أن وجدها خالية من أهلها الذين نزحوا إلى قلعة نجيمة⁽⁴⁾ في هذا الوقت كانت هناك قوات مرسله من نائب حلب الطباخي قد تمكنت من السيطرة على مرعش في 10 رمضان / 21 حزيران.⁽⁵⁾

وأثناء وجود الجيش في كيليكيا وصل كتاب آخر من السلطان لاجين، تضمن أنه علم بأمر تل حمدون وأنها أخذت من دون قتال، وانتقل من بها إلى قلعة نجيمة، ويأمرهم بمنازل قلعة نجيمة إلى أن تُفتح، فعاد المماليك إلى قلعة نجيمة - وكانوا قد حاصروها قبل ذلك - وفرضوا عليها

(1) المقرئزي: السلوك، 1 / 839.

(2) النويري: نهاية الأرب، 31 / 340. أبو الفداء: المختصر، 2 / 372.

(3) أبو الفداء: المختصر، 2 / 372-373.

(4) تعرف أيضاً باسم قلعة نجم أو نجمة، وهي إلى الجنوب من نهر جيحون بقدر مرحلة، وشرق سيس بقدر مرحلتين، وإلى الشرق من نجيمة يقع حصن حموص. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 249-250.

ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص473.

(5) النويري: نهاية الأرب، 31 / 340، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، تح: حمزة عباس، الإمارات، 1 / 13-14.

14. المقرئزي: السلوك، 1 / 839. البرزالي: المقتفي، 2 / 553. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص106.

ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 1 / 391.

حصاراً عنيفاً دام واحداً وأربعون يوماً إلى أن طالبت حاميتها الأمان والاستسلام فأمنت، وسقطت القلعة بيد المماليك في ذي القعدة 697 هجري / آب 1298م.⁽¹⁾

كان هناك قسم من الجيش منازلًا لقلعة حموص، وعلى وصف أبو الفداء المشارك في حصارها مع العسكر الحموي، كان قد اجتمع فيها خلق كثير من الأرمن، ولما اشتد الحال بهم، تقدم ملكهم قسطنطين - بعد أن عزل أخوه سمباط - بطلب الصلح، وقدم نفسه على أنه نائب السلطان في كيليكيا، فتقرر الصلح أن يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والأرمن، وأن يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحون من الحصون والبلاد للمماليك،⁽²⁾ بلغ عدد الحصون جنوب نهر جيحان حوالي أحد عشر حصناً، أهمها حموص، وتل حمدون، والنقير، وكويرا، حجر شغلان، ومرعش، وسرفندكار، ويعلق أبو الفداء أنها "حصون منيعة ما ترام" ويؤكد ابن الجزري بأنها "في غاية ما يكون من الشدة والحصانة"، وعلى خلاف ما ورد عند أبي الفداء وابن الجزري يذكر بيبرس المنصوري و ابن أبي الفضائل أنها "فُلِيَعَاتٍ لَطِيْفَةٌ لَا تَقِي بَبْعُضٍ مَا كَانَ مَقْرَرًا عَلَى صَاحِبِ سَيْسٍ، فَانَ الَّذِي كَانَ مَقْرَرًا عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسَ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَضْلاً حَجْرًا وَعِدَّةً مِنَ الْبِغَالِ وَتَطَابِيقِ الْبِغَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَحْمَلُ مِنْ جِهَتِهِ وَكَانَ تَحْتَ الذِّمَّةِ وَيَبْذُلُ الطَّاعَةَ وَالْخِدْمَةَ، فَلَمَّا فَتَحُوا هَذِهِ الْأَمَاكِنَ الْحَقِيرَةَ قَطَعَ ذَلِكَ الْمَقْرَرُ".⁽³⁾

سُلمت قيادة هذه الحصون إلى الأمير أسندمر الكرجي أحد أمراء دمشق، وعين نائباً عليها، استمر فيها حتى سير غازان باتجاه الشام عام 699 هـ، فتركها وعادت إلى الأرمن،⁽⁴⁾ وبالتالي فإن الفائدة بالنسبة للمماليك من هذه الحملة لم تكن ذات قيمة.

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، طبعة الإمارات، 1/ 15، النويري: نهاية الأرب، 31/ 340 - 341، المقريزي: السلوك، 1/ 839 - 841.

(2) أبو الفداء: المختصر، 2/ 373-374، المقريزي: السلوك، 1/ 841.

(3) أبو الفداء: المختصر، 2/ 374، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 1/ 392، ابن أبي الفضائل، النهج السديد، 2/ 438 - 439. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 106.

(4) المقريزي: السلوك، 1/ 841، 886، أبو الفداء: المختصر، 2/ 374. بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 106.

سادساً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عهد الناصر محمد.

1- دور الأرمن في حملات غازان على بلاد الشام:

استقبل الناصر محمد بن قلاوون ولايته الثانية بهجوم كاسح قاده غازان خان مغول فارس على بلاد الشام سنة 699هـ / 1299 م، كان من نتيجته انهزام المماليك في معركة وادي الخزندار على مقربة من سلمية بين حماة وحمص، وعلى إثرها دخل المغول دمشق واستباحوها.⁽¹⁾

لقد كان للأرمن حضور قوي في هذا الهجوم، حتى أن المؤرخ الأرمني المجهول الذي أكمل تاريخ سمباط يذكر بأن غازان قَدِمَ إلى بلاد الشام واجتاحها بتأثير من هيثوم الثاني،⁽²⁾ الذي شارك بهذه الحملة بخمسة آلاف فارس كان هو على رأسها،⁽³⁾ وبعد رحيل غازان عن دمشق انطلق المغول والأرمن يذهبون ويخربون، فنهبوا الصالحية، وسبب نهبها على ما يقول المقرئزي أن: "متملك سيس بذل فيها مالاً عظيماً، وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده، فتعصب الأمير قبجق⁽⁴⁾ ولم يمكنه من المدينة ورسم له بالصالحية، فتسلمها متملك سيسى وأحرق المساجد والمدارس، وسبى وقتل وأخرب الصالحية، فبلغ عدة من قتل وأسر منها تسعة آلاف وتسعمائة نفس"،⁽⁵⁾ ناهيك عن أن الحصون والقلاع التي أخذها المماليك على إثر حملة عام 697هـ / 1298 م، والتي تقع جنوب نهر جيحون وعددها أحد عشر حصناً - حسب الاتفاق الذي تم

(1) انظر الفصل الثاني.

(2) Le Connetable Sempad Chronique du Royaume de la petite Armenie. Ed.R.H.C. - Doc.Arm.I, Paris, 1869 - 1906, p.657.

(3) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 290.

(4) كان الأمير قبجق قد فر من حكم لاجين ولجأ مع بعض الأمراء إلى غازان، وحسنوا له غزو بلاد الشام، فلما غزاها عينه نائباً عنه فيها، ثم خلع غازان وأعلن ولاءه للسلطان الناصر محمد، انظر، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص 107، 114.

(5) المقرئزي: السلوك، 1 / 892. ابن الفرات: وذكر العيني كلام مشابه، فقال: (إن صاحب سيس كان في قلبه حزازات من فعل المسلمين في بلاده التي أخذت منهم، وضياعه التي خربت.....، ولما اتفق من نصره غازان ما اتفق، حضر صاحب سيس قدام غازان، وسأله أن يمكنه من الدخول من الباب الشرقي والخروج من باب الجابية، ويضع السيف بين البابين ويشتقي من المسلمين ويقيم بألف ألف دينار، فوقف قفجق في طريقه....) ومنعه من ذلك. عقد الجمان، 4 / 48.

التوصل اليه وقد سبق ذكره - أعادها غازان كلها للأرمن بعد أن تركها حاكمها المملوكي أسندمر الكرجي على اثر حملة غازان.⁽¹⁾

رحل غازان عن بلاد الشام في 23 جمادى الأولى 699هـ/ 14 شباط 1300 م، وترك قسماً من الجيش بقيادة قطلوشاه وسرعان ما لحق به قطلوشاه، وبقي في بلاد الشام نائبه الأمير قبجق الذي خلع غازان وأعلن الطاعة للسلطان الناصر محمد، وعندما علم غازان بذلك غضب وقاد جيوشه عائداً إلى بلاد الشام حيث عبر نهر الفرات في شتاء 700هـ/ 1301 م، وبعد غارات نفذها في نواحي حلب، اضطر للعودة بسبب سوء المناخ وكثرة الأمطار والثلوج فكان رجوعه إلى بلاده في جمادى الآخرة من ذلك العام.⁽²⁾

و في هذا الهجوم الذي طال شيزر، وأفاميه، وكفرطاب، وسرمين، والمعرة، وجبل السماق؛ شارك الأرمن،⁽³⁾ حيث كثر السلب والنهب، "ورخصت الأسرى من المسلمين، حتى بيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم، واشترى الأرمن منهم خلقاً كثيراً، وسيروا في المركب إلى بلاد الفرنج".⁽⁴⁾

على إثر انسحاب غازان قرر المماليك توجيه ضربة للأرمن، ولاسيما بعد أن منع ملكها الحمل - الضريبة السنوية التي كانت مفروضة عليهم - وخرج عن طاعة المماليك بانتمائه لغازان ومشاركته في الهجوم على بلاد الشام،⁽⁵⁾ فرسم السلطان بخروج العسكر للغارة على إرمينية الصغرى، فخرج الأمير بكتاش أمير سلاح، والأمير أيبك الخزندار عام 701هـ/ 1302م على رأس جيش لمهاجمة إرمينية الصغرى، وأثناء مسيرهم انضم إليهم نائب حماه، فوصلوا إرمينية

(1) المقريزي: السلوك، 1/ 902. أبو الفداء: المختصر، 2/ 383-384. ابن الفرات:

Le Connetable Sempad: P.656 - 657

(2) انظر: الفصل الثاني.

(3) Hayton، La flor. P198 - 199

ويذكر أن المشاركة الأرمنية كانت بقيادة الملك الأرمني هيثوم الثاني.

(4) النويري: نهاية الأرب، 31/ 415. المقريزي: السلوك، 1/ 908-909. بييرس الدوادر: زبدة الفكرة،

306/9. ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 2/ 541 - 542.

(5) المقريزي: السلوك، 1/ 922. العييني: عقد الجمان، 4/ 183.

الصغرى في 7 شوال وانتشروا فيها فأحرقوا المزروعات ونهبوا ما قدروا عليه، وأسروا عدداً من الأرمن، ثم عادوا؛ فوصلوا حلب في 19 شوال / 16 تموز ومنها ساروا إلى دمشق.⁽¹⁾

لقد كانت هذه الغارة سريعة ومدمرة، لم تستقر في كيليكيا أكثر من خمسة عشر يوماً، وهذا أمر طبيعي، إذ أن مهمتها كانت الإغارة وتخريب الزرع فقط، مع عدم التوغل إلى الداخل إلا إذا كان هناك فرصة،⁽²⁾ وذلك لأن خطر المغول مازال ماثلاً أمام المماليك.

حاول غازان للمرة الأخيرة غزو بلاد الشام عام 702هـ / 1203م وحشد جيشاً قوياً من أجل ذلك، وللمرة الثالثة تكون المساهمة الأرمنية في غزو بلاد الشام واضحة جلية، فكان على قيادة الجيش المغولي قطلوشاه، وإلى جانبه ملك إرمينية الصغرى،⁽³⁾ وفي هذه المرة كان النصر حليف المماليك، إذ نزلت هزيمة نكراء بالجيش المغولي في معركة شقحب (مرج الصفر) في رمضان من ذلك العام.⁽⁴⁾

وكانت هذه الحملة الثالثة التي أرسلها غازان آخر الحملات المغولية الكبرى التي قام بها مغول فارس على بلاد الشام، فبعدها خفت حدة العداء بين مغول فارس والمماليك.

ففي شوال 703هـ / أيار 1304م مات غازان وخلفه خدابندا (خريندا) الذي شهد عهده هدوءاً نسبياً على جبهة المماليك، ثم خلفه ابنه أبوسعيد سنة 716هـ / 1316م الذي سار على سياسة مصادقة المماليك إذ عقد معهم صلحاً سنة 720هـ / 1320م شكل نقطة تحول كبرى في تاريخ العلاقات المغولية – المملوكية، وبعد وفاة أبوسعيد عام 736هـ / 1335م، دخلت دولة مغول

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص923، يذكر أن الحملة كانت في شهر شوال. أبوالفداء: المختصر، 386/2، يذكر أن الحملة كانت في شهر ذي القعدة. العيني: عقد الجمان، 4 / 183-184، ويذكر أن نائب حلب وحمص أيضاً شاركوا في الحملة. ابن حبيب: تذكرة النبوة، 1/239. بيبيرس المنصوري: مختار الأخبار، ص120، ويذكر أن الحملة كانت في المحرم 702هـ.

(2) العيني: عقد الجمان، 4 / 183-184.

(3) Hayton، La flor. P200 – 201.

بيبيرس الدودار: زبدة الفكرة، 9 / 335، النويري: نهاية الأرب، 32 / 29.

(4) المقريزي: السلوك، 1 / 936 – 937، أبو الفداء: المختصر 2 / 387، بيبيرس الدودار: زبدة الفكرة، 9 / 337.

فارس في مشاكل داخلية وصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة بشكل عطل الجبهة الغربية لهم بشكل كامل.

2- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة 703هـ / 1304 م:

بعدما تخلص المماليك من الخطر المغولي عقب إنزال هزيمة ساحقة بهم في شقحب، أصبح الطريق إلى كيليكيا مفتوحاً أمام جيوش المماليك، والمسوخ لهذه الحملة هو ما أظهره الأرمن في حملات غازان من عمليات تخريب وقتل وسبي ونهب، ناهيك عن رغبة المماليك في استعادة قلاعهم التي فقدوها لصالح الأرمن بعد هجوم غازان الأول، بالإضافة إلى أن ملك الأرمن - كما مر سابقاً - أوقف إرسال الضريبة السنوية المترتبة عليه، ولهذه الأسباب أمر السلطان بإعداد حملة كبيرة لمهاجمة إرمينية الصغرى.

انطلقت من مصر في 20 رمضان 703هـ / 26 نيسان 1304 م (1)، وقبل دخولها إرمينية الصغرى افتقرت إلى فرقتين، سارت إحدهما نحو قلعة الروم (قلعة المسلمين) وملطية⁽²⁾ بقيادة الأمير قفجق، والثانية بقيادة الأمير قراسنقر؛ ثم دخلوا الدريندات،⁽³⁾ فأغاروا ونهبوا وقتلوا وأسروا من ظفروا به، ثم اجتمعوا على تل حمدون وحاصروها، حتى استسلمت، وفتحت بالأمان في 13 ذي القعدة من ذلك العام / 17 حزيران (4)، وانتهت الحملة بانتصار هائل، فقد جددت الاتفاقية التي وقعت سنة 697هـ/1298م والتي نصت على أن يكون للمماليك الأراضي التي تقع جنوب نهر جيحان إلى حلب، وللأرمن ما يقع شماله، وبالتالي فإن ذلك يعني أن القلاع الأحد عشر التي فقدتها المماليك على اثر هجوم غازان سنة 699هـ/1299م عادت لهم كما طالب المماليك الأرمن

(1) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 3/ 597 - 598، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص110، المقريزي: السلوك، 1/ 949.

(2) ملطية: مدينة شمالي حلب، أعالي نهر الفرات، الحموي: معجم البلدان.

(3) الدريند كما ذكر سابقاً لفظ فارسي معناه الطرق والمعابر الضيقة، وتطلق الدريند على المضائق والطرق

والمعابر الواقعة شمال البيرة والنهر الأزرق، الحموي: معجم البلدان، القلقشندي: صبح الأعشى، 4/ 364

(4) النويري: نهاية الأرب، 32/ 75، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص111، ابن أبي الفضائل: النهج السديد 3/ 599، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، طبعة الإمارات، 2/ 768. البرزالي: المقتفي، 3/ 259.

بأن "يعجلوا بحمل سنتين" من القطيعة التي كانت مقررة عليهم، ثم عاد الجنود وهم "سالمين غانمين".⁽¹⁾

على اثر هذه الهزيمة تنازل هيثوم الثاني عن الحكم سنة 704هـ/ 1305م لابن أخيه ليون الرابع، لكنه بقي يقوم بدور المرشد للملك الجديد الذي كان عمره 16 سنة، وقد انتهت حياة هؤلاء الاثني عشر قتلا على يد برلغي أحد أمراء المغول الذي كان مكلفا بحمل القطيعة التي كان يقدمها الأرمن لمغول فارس، وفي عام 707هـ/ 1307م حضر إليه برلغوا، وكان مسلماً حسناً، وأراد أن يبني مسجداً في سيس، مما أغضب هيثوم، وحمله ذلك على أن يكتب لخربندا إيلخان مغول فارس بأن برلغي هذا متواطئ مع المماليك، الأمر الذي جعل خربند يستدعي برلغي فوراً، وعندما علم برلغي بمكيدة هيثوم، دبر مقتله ومقتل ليو الرابع.⁽²⁾

استقبل هذا الأخير حكمه بأن "أخر حمل المال المقرر عليه، وقطع القطيعة، فاقتضى الحال مقابله بما يغض طرفه ويرغم أنفه"،⁽³⁾ فما كان من نائب حلب الأمير قراسنقر المنصوري إلا أن جرد عسكراً من حلب في ذي الحجة 704هـ/ 1305م بقيادة الأمير سيف الدين قشتمر ويساعده عدد من أمراء حلب، فشنوا الغارة على الأرمن،⁽⁴⁾ فسلموا مدينة طرسوس، وجعلوا المملكة في حالة لم تشهدا من قبل،⁽⁵⁾ فاستنجد الأرمن بقوات مغولية كانت متواجدة على أطراف بلاد

(1) ابن حبيب: تذكرة البنية، 1/ 257. المقرئزي: السلوك، 1/ 949. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 28-29. العيني: عقد الجمان، 4/ 300-302. ابن أبي الفصائل: النهج السديد، 3/ 599. البرزالي: المقتفي، 3/ 259. أبو الفداء: المختصر، 2/ 391. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص111، ويذكر أن الاتفاق طالب الأرمن بحمل جميع ما هو عندهم متأخر من الضرائب عن تلك السنين المقدمة أي منذ قدوم غازان، وليس لسنتين فقط كما يذكر ابن أبي الفصائل.

(2) المقرئزي: السلوك، 2/ 38. أبو الفداء: المختصر، 2/ 384-394. أما بييرس الدوادار يذكر أنه أراد أن يبني مدرسة لها منئذنة وليس مسجد، زبدة الفكرة، 9/ 364. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص240. Hayton: La Flor. P.209.

(3) بييرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ 351. العيني: عقد الجمان، 4/ 381، المقرئزي: السلوك، 2/ 16.

(4) بييرس الدوادار: زبدة الفكرة، 9/ 351. التحفة الملوكية، ص177، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص131، المقرئزي: السلوك، 2/ 16. العيني: عقد الجمان، 4/ 381. أبو الفداء: المختصر، 2/ 392.

Howorth: History of the Mangot's III P550

(5) Hayton: La Flor، P.205

سلاجقة الروم مقابل الأموال، وبلغ تعدادهم حوالي ستة آلاف، كمنوا للمماليك وفاجأوهم قرب أياس، فتمكن المغول والأرمن منهم، فقتلوا وأسروا غالبهم، واختفى من سلم في الجبال "ولم يصل إلى حلب منهم إلا القليل عرايا بغير خيل".⁽¹⁾

وعندما صلت أخبار الهزيمة إلى مسامع السلطان، رسم بخروج الأمراء وهم الأمير بكتاش الفخري، والأمير بيبرس الدوادر - المؤرخ - والأمير أقوش الموصلية قتال السبع، فخرجوا على رأس أربعة آلاف مقاتل في منتصف شهر شعبان 705 هـ،⁽²⁾ في هذه الأثناء، "استشعر صاحب سيس الخور، وتحقق وقوعه في الغرر، وأيقن أنه من السطوات الشريفة على خطر"،⁽³⁾ ويات عليه أن يتدارك الموقف، فبادر بإرسال رسله إلى نائب حلب "يبدل الطاعة ويذكر الإنابة والقيام بما عليه من القطيعة ويسأل الصفح والإعفاء والمسامحة"،⁽⁴⁾ واعتذر مما نزل بالمماليك، وأن هذا القتال لم يكن منه وإنما من المغول، كما وعده بإحضار الأمراء المأسورين، وعلى هذه المراسلات تقرر عودة الأمير بكتاش ومن معه من الأمراء من غزة إلى مصر، "إذ حصل الغنى عن العناء".⁽⁵⁾

وفعلاً التزم الملك الأرمني بما وعد، إذ وصلت رسله في صيف سنة 706 هـ/ 1306م تحمل "دراهم سلطانية ستمائة ألف درهم وقماش ونعال للخيل ومسامير وغيره تكملة أربعين حملاً ومائتي وسبعين أسيراً من المسلمين".⁽⁶⁾

ويقول بأن الملك هيثوم الثاني عندما سمع بأخبار هذا الهجوم ترك ديره الذي كان ملازمه ووقف إلى جانب الملك ليون الرابع الذي كان صغيراً.

(1) أبو الفداء: المختصر، 2/392. بن أبي الفضائل: النهج السديد، 3/617. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، طبعة

الإمارات، 2/841. بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/351. التحفة الملوكية، ص177.

(2) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/352.

(3) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/351، العيني: عقد الجمال، 4/382.

(4) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/351

(5) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، 9/351، المقريزي: السلوك، 2/17. النويري: نهاية الأرب، 32/96.

Howorth: History of the Mongols, Part, III, P.556..

(6) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، 3/622، ابن أبيك: الدر الفاخر، ص146. البرزالي: المقتي، 3/317.

النويري: نهاية الأرب، 32/121.

اعتلى عرش إرمينية الصغرى بعد مقتل ليون الرابع الملك أوشين الأول (708 - 720هـ/ 1308 - 1320م) (1)، وكان مدركاً لحجم الخطر المملوكي في ظل غياب المساعدة المغولية والأوروبية، لذا فقد التزم بدفع ما هو مترتب عليه للممالك والتزم الطاعة في مطلع عهده، ففي سنة 708هـ/ 1308م "وصلت رسل صاحب سيس بالقطيعة المقررة عليه، ووصل في جملة ذلك طشت وإبريق ذهب مرصع بالجوهر"، (2) وتكرر في المصادر ذكر وصول القطيعة في عام 710هـ/ 1310م مع عدد من الهدايا وكتاب يتضمن التهنئة بعودة السلطان الناصر محمد إلى منصب السلطنة للمرة الثالثة. (3)

لكن هذا ما لبث أن عاد إلى إتباع سياسة سلفه في التمسك بأهداب التحالف مع المغول، وبناء أحلام عريضة على المساعدة المغولية، فعندما شرع خربندا إيلخان مغول فارس بمهاجمة بلاد الشام سنة 712هـ/ 1312م بادر الملك أوشين بالانخراط بصفوف الجيش المغولي، فقد "جهز الأخشاب والحواصل، وحمل البغال والمسامير والسلاسل" من أجل مساعدة خربندا في حصار مدينة الرحبة الذي بدأ في مستهل شهر رمضان من ذلك العام، كما "أحضر شيئاً كثيراً من التقادام للملك خربنده من الأموال على البغال والأكاديش، ومائة ألف تطبيقة ثقال بمساميرها، وجملة عظيمة من الأغنام والأبقار، وقمح وشعير على ثلاثين ألف حمار، ...، وسبق عسكره بسبعة أيام، ثم حضر عسكره خمسة عشر مقدم، ...، وصحبة كل ملعون منهم خمسين ملعون من الأرمن

(1) بعد مقتل هيثوم الثاني وليو الرابع على الحال التي ذكرناها سابقاً اعتلى العرش إرمينية الصغرى أوشين الأول ابن ليون الثالث وهو الأخ الرابع لهيثوم الثاني، توج في كاتدرائية سانت صوفيا سنة 708هـ/ 1308م. انظر: المدور، الأرمن عبر التاريخ، ص 240.

Le Conne'table Sempad، P.665.

(2) النويري: نهاية الأرب، 32 / 137. العيني: عقد الجمان، 5 / 10.

(3) المقريزي: السلوك، 2 / 86، وكان السلطان الناصر قد عزل للمرة الثانية في سنة 708 هـ ثم أعيد في شهر شوال سنة 709 هـ. انظر: الملطي (عبد الباسط بن خليل بن شاهين، ت: 844هـ): نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، تح: محمد كمال الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م، ص 86-87.

تحت سنجق الصليب⁽¹⁾ لكن حصار الرحبة فشل وعاد المغول إلى بلادهم في 26 رمضان من ذلك العام.⁽²⁾

3- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة 720هـ / 1320 م:

انحرف أوشين عن مساره وأظهر عدم التزامه بالاتفاق عندما انخرط مع المغول في الهجوم على قلعة الرحبة، مما أثار سخط المماليك، لكن ردهم تأخر، مما أطمع أوشين بشكل جعله يمتنع عن إرسال القطيعة سنة 720هـ / 1320م بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية في بلاده.⁽³⁾

كان عدم إرسال القطيعة السنوية أحد الأسباب التي ذكرها المؤرخون لإرسال هذه الحملة،⁽⁴⁾ وذكر آخرين سبباً آخر لهذه الحملة، هو رفض الملك أوشين لطلب السلطان الناصر بإعادة القلاع التي أحدثها المسلمون أيام السلطان المنصور لاجين.⁽⁵⁾

في الحقيقة لم تكن هذه الأسباب الوحيدة لإرسال الحملة، فالمماليك كانوا قد عقدوا هدنة مع مغول فارس في ذلك العام، وعلى أرض الواقع كانت هذه الهدنة قد أنهت الصراع المغولي المملوكي، وبالتالي فالمماليك تفرغوا كلياً للأمرن الذين لم يعودوا يتمتعون بالحماية المغولية كما كان من قبل.

خرجت العساكر من دمشق، والمقدم عليهم الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، كما جرد عسكر الساحل، والعسكر الصفدي، والعساكر الحلبية، وأمراء الطبليخانات الذين بحماه، والمقدم على هؤلاء جميعاً هو الأمير شهاب الدين قرطاي نائب طرابلس.⁽⁶⁾

دخلت الحملة أراضي إرمينية الصغرى في أواسط شهر ربيع الآخر سنة 720هـ / 1320م وأثناء اقتحامهم لنهر جيجان غرق عدد كبير من العسكر لأنه كان زائداً، وبعد أن قطعوا جيجان

(1) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص253-255.

(2) النويري: نهاية الأرب، 32/ 200. أبو الفداء: المختصر، 413/2. البرزالي: المقتفي، 84-83/4. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 45/2. ابن أبيك: الدر الفاخر، ص253-255.

(3) Le Connetable Sempad، P.666 – 667.

(4) المقرئزي: السلوك، 2/ 203،

(5) النويري: نهاية الأرب، 32/ 323.

(6) النويري: نهاية الأرب، 32/ 322، أبو الفداء: المختصر، 434/ 2. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2/ 106.

المذكور ساروا ونازلوا قلعة سيس، "وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور، وغنموا منها، وأتلفوا البلاد والزراعات، وساقوا المواشي، وكانت شيئاً كثيراً، وأقاموا ينهبون ويخربون، ثم عادوا وقطعوا نهر جيحان وكان قد انحط فلم ينضر أحد به، ووصلوا إلى بغراس في نهار السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر المذكور ثم ساروا إلى حلب"،⁽¹⁾ وزادت المصادر الأرمنية أنه بعد نهب العاصمة سيس، توجه المماليك إلى ميناء أياس، وهناك شن عليهم الجيش الأرمني هجوماً أجبر المماليك على الانسحاب،⁽²⁾ أما ابن حبيب فذكر أنه في هذا العام كان هناك أكثر من غارة على أراضي مملكة إرمينية الصغرى، الغارة الأولى كانت على سيس واستمرت سبعة عشر يوماً، وسببها أن الملك الأرمني رجع عن تسليم القلاع جنوب نهر جيحان، وبعد عودتهم إلى حلب من هذه الغارة، أعادوا الغارات " مرة بعد أخرى حسب المرسوم السلطاني حيث غدروا وفجروا وتمسكوا بعضا العصيان وكفروا".⁽³⁾

كان الملك أوشين مريضاً عند دخول العسكر المصري إلى بلاده، فتضاعف مرضه جراء ذلك ومات، وخلفه ابنه ليون الخامس (720 - 743هـ / 1320 - 1342 م)، وكان قاصراً، فتم تعيين وصياً عليه.⁽⁴⁾

4- الحملة المملوكية على إرمينية الصغرى سنة 722هـ / 1322 م:

استغل السلطان الناصر محمد صغر سن الملك الجديد، وقرر إرسال حملة إلى إرمينية الصغرى بحجة أن الأرمن طردوا "من كان بها من قبل السلطان" أي عماله،⁽⁵⁾ شارك في الحملة

(1) أبو الفداء: المختصر، 2/ 434-435 النويري: نهاية الأرب، 32/ 323، البرزالي، المقتفي، 4/ 422. المقرئزي: السلوك، 208/2.

(2) Le Conne'table Sempad. P.666 - 667.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2/ 106-107.

(4) أبو الفداء: المختصر، 2/ 436. المدور الأرمن عبر التاريخ، 240-241.

Howarth: History of Mongols، Part 3، p.602.

الوصي عليه هو أوشين بايلي، وهو على الأغلب خاله، ولكن بعض المصادر تذكر أنه شقيق خالته زوجة أبيه. (5) ذكر ابن إياس في حوادث سنة 720 هـ أن العساكر عندما دخلت سيس أقاموا في تلك البلاد نائباً عن السلطان هناك، وفي حوادث سنة 721 هـ، يذكر أنه بعد عودة العساكر عاد الأرمن إلى قلعة أياس وطردوا من كان بها من قبل السلطان، وعندما علم السلطان بذلك عين لهم تجريدة ثقيلة. ابن إياس: بدائع الزهور، 451/1 - 452.

بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية، وغالب عسكر حماه وحلب، والمقدم عليهم إما نائب حلب أو نائب الكرك على خلاف بين المؤرخين.⁽¹⁾

نزلت الحملة على مدينة أياس، فملكوها، ثم ملكوا قلعتها بعد حصار وقتال عنيف، وغنموا منها غنائم كبيرة،⁽²⁾ وأقام العسكر في إرمينية الصغرى مدة وهم يهدمون الأبراج، فكان ذلك شاقاً لكثرة تحصينها، وبعد أن انتهوا من أمر أياس تفرقوا في أراضي كيليكيا "فأغاروا وقتلوا من الأرمن طائفة كبيرة، وأسروا جماعة منهم، وشعثوا وخربوا".⁽³⁾

وما إن عادت العساكر الإسلامية إلى بلادها حتى رجع الأرمن إلى أياس، فما كان من نائب حلب الأمير ألتنبغا إلا أن قام بهجوم سريع عليهم، قتل فيه منهم "نحو ألفي رجل وأسر ثلاثمائة، وغنم مالا جزيلا وعاد".⁽⁴⁾

5- الهدنة بين سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى سنة 723هـ/1323م:

أمام الضربات المملوكية بادرت مملكة إرمينية الصغرى بطلب الصلح في محاولة لتهدئة الأحوال مع المماليك، ففي سنة 723هـ/1323م وصلت بعثة من قبل ملك إرمينية الصغرى على

(1) أبو الفداء: المختصر، 2/ 438. المقريزي: السلوك، 2 / 229. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2/124. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/1/452.

(2) يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الواقعة فيما بين 721 أم 722، فقد ذكر كل من أبو الفداء، والنويري، وابن حبيب، ومؤرخ مجهول، أن فتح القلعة تم في 21 ربيع الآخر سنة 722 هـ. انظر: المختصر، 2/ 439، نهاية الأرب، 33 / 39. تذكرة النبيه، 2 / 124-125. عصر سلاطين المماليك، ص172. وهؤلاء جميعاً أقرب إلى تاريخ المعركة من الفريق الثاني.

أما المقريزي وابن إياس فقد ذكروا أن ذلك تم في 21 ربيع الآخر سنة 721 هـ. انظر: السلوك، 2 / 229. بدائع الزهور، 1 / 452 - 453، ولكن المقريزي يعود ليذكر حدثاً مشابهاً ضمن أحداث سنة 722 هـ في شهر جمادى الأولى بأن "العساكر نازلت أياس وأخذوها عنوة بعد حصار، وقتلوا أهلها وخربوها وعادوا على الأرمن فضموا وأسروا منهم كثيرا وتوجهوا عائدين"، السلوك، 2/237.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2 / 124-125.

(4) المقريزي: السلوك، 2 / 229.

رأسها قسطنطين بطريك الأرمن صحبته هدايا حسنة، وجواهر ثمينة، واعتذر للسلطان عما حدث، وسأله الصلح، فوافق السلطان، وتم التوصل إلى هدنة.⁽¹⁾

مفردات الهدنة كما ذكرها النويري هي على الشكل التالي:

- يحمل الأرمن إلى الخزانة السلطانية في كل عام ضريبة قدرها ألف ومائتي ألف درهم (مليون ومئتي ألف درهم) وما جرت به العادة من البغال المساقة إلى الإسطبلات، والنعال الحديد، وغير ذلك من التقادم.
- طلب الأرمن أن يسمح لهم السلطان بعمارة ثغر أياس؛ الذي دمره المماليك في حملتهم الأخيرة، ويكون للسلطنة المملوكية نصف ما يتحصل من أرباح الميناء، إلا أن السلطان أصر على أن يبذلوا له ثمانمائة ألف درهم كل سنة إذا أرادوا عمارة الثغر ولم يقبل بالمنصفة.
- وعلى الرغم من توسط أبو سعيد إيلخان مغول فارس - وكان بينه وبين السلطان صلح عقد عام 720 هـ - لهم عند السلطان، فإن الصلح تقرر على وضع القطيعة المذكورة مع عدم السماح لهم بعمارة ثغر أياس،⁽²⁾ إلا أن الشجاعي أكد أنه بعد الوساطة المغولية سمح لهم السلطان بعمارة ثغر أياس مقابل مائة ألف درهم كل سنة فوق القطيعة السنوية المتعارف عليها، وهذا ما أكده المقرئزي.⁽³⁾
- أما المصادر الأرمنية فقد ذكرت أن السلطان وافق على عقد هدنة مدتها خمس عشرة سنة اعتباراً من 723هـ/ 1323 م، وفي هذه الاتفاقية تعهد الأرمن بدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف فلورين⁽⁴⁾ بالإضافة إلى نصف دخل الضرائب التي تجمع من ميناء أياس.⁽¹⁾

(1) ابن أبيك: الدر الفاخر، ص308. المقرئزي: السلوك، 2/ 246. النويري، نهاية الأرب، 32/ 60.

(2) النويري: نهاية الأرب، 32/ 60.

(3) الشجاعي (شمس الدين) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، تح: بريارة شيفر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1978م، ص8، 11. المقرئزي: السلوك، 2/ 246.

(4) P.604.,Part 3,Howorth: History of The Mongols

(4) فلورين، أو فرننتي، أو فلوري: هو الدينار الذي تتعامل به فلورنسا، أما بالنسبة لسعر صرفه بالدرهم سيتم مقارنته بالدينار وسعر صرفه.

وعلى هذه الاتفاقية تحسنت العلاقات مدة من الزمن، ففي أحداث سنة 729 هـ ذكر أبو الفداء بأن السلطان الناصر أرسل إلى ليون بن أوشين (ليون الخامس) " تشريفاً وسيفاً وفرساً بسرجه ولجامه ... فلبس صاحب سيس الخلعة وشد السيف وقبل الأرض وركب الفرس وقويت نفسه بذلك " ذلك بعد أن قام الملك ليون الخامس بقتل الوصي عليه بتهمة إثارة الفتنة مع المماليك، وإرسال رأسه إلى السلطان.⁽²⁾

الدينار حسب رواية ابن تغري في النجوم الزاهرة (9 / 79) هبط سعر صرفه سنة 724 هـ من 25 درهم إلى 20 درهم، ويذكر المقرئزي في السلوك (2 / 261) أمراً مشابهاً في أحداث 725 هـ، وذلك يعني أن سعر صرفه قبل 724 هـ كان 25 درهم، والمعاهدة وقعت سنة 723 هـ. وزن الدينار المملوكي 25،4 جرام ذهب، ووزن الفلورين 3،45 جرام ذهب. انظر: حمود النجدي، النظام النقدي المملوكي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1993م، ص 507، وعليه: 20.29 هي سعر صرف الفلورين بالدرهم، 50.000 فلورين (حسب الرواية الأرمنية) \times 20.29 درهم (سعر الصرف آنذاك) = 1.145.000 درهم، وعلى هذا فالرواية الأرمنية توافق إلى حد كبير الرواية الإسلامية الواردة عند النويري في أن الجزية هي: 1.200.000 درهم. أضف إليها نصف دخل أياس.

(1) Le Conne'table Sempad، P. 668.

(2) أبو الفداء: المختصر، 2 / 449.

Howorth: History of The Mongols، Part 3، P.604. .

6- الحملة على إرمينية الصغرى والسيطرة على ميناء أياس سنة 737هـ / 1337 م:

لم تستمر الحال بين الطرفين على الهدوء والاستقرار، بل استجدت أمور عكرت صفو العلاقات، وحملت سلطنة المماليك على إرسال حملة مدمرة عام 737هـ / 1337م اجتاحت أراضي إرمينية الصغرى.

تعددت الأسباب التي وردت عند المؤرخين عن سبب إرسال هذه الحملة،

- ورد عند الشجاعي أنه في سنة 735هـ / قام الأرمن بأسر مملوكين من مماليك نائب حلب "فصدوا الواحد وقتلوا الآخر وأخفوا أمرهم" فبلغ الأمير أطنبغا (نائب حلب) ذلك، فعرف السلطان بما ينقض الإتفاقية التي بينهم من سنة 722هـ /، فأصدر السلطان أوامره لعسكر حلب؛ ولبعض أمراء التركمان الموالين له بشن الغارات على الأرمن، وخراب بلادهم وحريق زرعهم؛ فتم ذلك، وفي إحدى الغارات قُتل ابن عم الملك الأرمني، فرد هذا الأخير بأن قتل جماعة من المسلمين الأسرى عنده ونهب بعض التجار،⁽¹⁾ مما أوجب هذه الحملة.
- في حين ورد عند ابن الوردي وابن إياس سبب آخر لهذه الحملة، وهو أنه في سنة 735 هـ وردت الأخبار لنائب حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردهوا المسلمين منها، فخرج عسكر حلب وحاصر مدينة سيس، وأحرق الضياع التي حولها، وأخربوا أذنة وطرسوس، وأسروا نحو 240 من الأرمن، فرد الأرمن بأن أسروا المسلمين الموجودين في قلعة أياس بأحد الفنادق، ثم أحرقوا الفندق وهم فيه؛ فماتوا جميعاً، وكانوا نحو ألفين شخص ما بين رجال ونساء،⁽²⁾ مما أوجب هذه الحملة.
- ناهيك عما ورد عند كل من المقرئزي واليوسفي بأن "تكفور نقض الهدنة بقبضه على عدة مماليك وإرسالهم إلى مدينة أياس فلم يُعلم خبرهم، وقطع الحمل المقرر عليه"، وقد ربطا هذا السبب بجملة المشاكل التي وقعت في العراق بعد وفاة الإيلخان أبوسعيد سنة 736هـ /، فاستغلوا الفرصة لضرب الأرمن.⁽³⁾

(1) الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص 8 - 9.

(2) ابن الوردي (زين الدين عمر): تنمة المختصر في أخبار البشر، تح: احمد البدرابي، دار المعرفة، بيروت،

ط1، 1970م، 2 / 439. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/1 / 470 - 471.

(3) المقرئزي: السلوك، 2 / 418.

توفرت الأسباب والمسوغات لغزو مملكة إرمينية الصغرى، فتم تجهيز الحملة وكان أبرز مكوناتها: عسكر مصر والمقدم عليه الأمير أرقطاي، وعسكر دمشق والمقدم عليه الأمير قطلبغا الفخري، وعسكر طرابلس والمقدم عليه الأمير بهادر عبد الله، وعسكر حماه والمقدم عليه الأمير صارم الدين أزيك، وعسكر حلب والمقدم عليه هو نائب حلب الأمير علاء الدين ألتنبغا،⁽¹⁾ وكان السلطان قد كتب أيضاً إلى ابن قرمان⁽²⁾ أنه إذا عبر العسكر يُجرد من عنده عسكر للغارة على سيس، وقد كتب بذلك أيضاً إلى بعض أمراء التركمان الموالين له،⁽³⁾ وكان المقدم على جميع العسكر هو الأمير علاء الدين ألتنبغا نائب حلب.⁽⁴⁾

اجتمعت العساكر في حلب، وبعد عيد الفطر سنة 737هـ/ 1337م سارت باتجاه أراضي إرمينية الصغرى، إلى أن نزلوا باب إسكندرونة⁽⁵⁾ وهو أول بلاد إرمينية الصغرى وآخر أعمال المسلمين، فوجدوا أن آلات الحصار من مجانيق وزحافات وجسور الحديد والمراكب اللازمة لعبور نهر جيحان كلها جهزت من قبل الأمير مغلطاي العزي الذي سيره نائب حلب إلى هناك قبل قدوم العسكر بشهرين.⁽⁶⁾

في هذه الأوقات - وكما ذكر من قبل أن السلطان رسم للأمرء التركمان بالغارة على سيس - كان التركمان قد أغاروا على إرمينية الصغرى "فتركوها أوحش من بطن حمار"،⁽⁷⁾ فسارع ملك إرمينية ليون الخامس بإرسال رسله لنائب حلب يطلب منه أن يرفع الغارة عن بلاده؛ وجميع ما يرسم به نائب حلب يُحضره الملك ليون، لكن نائب حلب طرد رسله، فقام ليون وأركبهم البحر إلى

اليوسفي (موسى بن محمد، ت: 759 هـ) : نزهة الناظر في مسيرة الملك الناصر: ترجمة أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، 1986م، ص336.

(1) ابن الوردي: تنمة المختصر، 2/ 445. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2/ 378. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص4، 9. المقرئى: السلوك، 2/ 428.

(2) هو بدر الدين محمود بن قرمان حاكم الدولة القرمانية في آسيا الصغرى.

(3) الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 9.

(4) المقرئى: السلوك، 2/ 428. ابن الوردي: تنمة المختصر، 2/ 445.

(5) مدينة على المتوسط قريبة من أنطاكية تشكل (دريند) سيس، أي مدخل سيس، من جهة حلب تبعد عن بغراس 12 ميل. أبو الفداء: تقديم البلدان، ص 254 - 255.

(6) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 395 - 396.

(7) المقرئى: السلوك، 2/ 428.

مصر، ونزلوا دمياط ذاهبين إلى السلطان، لكنه لم يأذن لهم، لأنهم لم يدخلوا البيوت من أبوابها، فالمتعارف عليه هو أنه عليهم إخبار نائب دمشق قبل قدومهم ويكون مجيئهم عن طريقه، فعادوا إلى إرمينية ومن هناك قدموا إلى نائب دمشق يحملون الهدايا وكان آنذاك الأمير تتكز.⁽¹⁾

في هذا الوقت أرسل الأمير تتكز رسالتين: الأولى إلى السلطان يُعرفه بأمر الرسل، وأن الأرمن مستعدون لتسليم القلاع التي وراء نهر جيحان جميعها للسلطان، وأن يدفعوا الخراج، وأنه كتب لنائب حلب بوقف الغارة حتى مجيء مرسوم السلطان، الرسالة الثانية كانت لنائب حلب يطلب فيها منه إبطال الغارة ورد آلات الحصار إلى بغراس.⁽²⁾

❖ حصار أياس:

رد الأمير أطنبغا الآلات إلى بغراس، وسار بعسكره إلى مدينة أياس فوصلها في 12 شوال، وهنا بادر العسكر بالزحف على المدينة معارضين أوامره، وكانت المدينة محصنة، فهلك منهم عدد، ولذا فاضطر الأمير لأن يعمل لهم زحافتين وستارتين، فبدأ الزحف على المدينة، وكان يوم شاهده الله والملائكة، واتصل القتال، وما تضاحى النهار حتى وصلت الخيول والرجال بالزحافات والستائر قريب السور، ولكن بعدما قتل مماليك وجند وغلما ن كثير.⁽³⁾

وبعد عدة مراسلات استقر الحال على أن يقوم ملك إرمينية الصغرى بتسليم أياس وغيرها من القلاع،⁽⁴⁾ وأن يترك المماليك الغارة، ورد جميع ما أخذ من سيس، فنادوا بالعسكر من أخذ شيئا من من الكسب رده، فحضرت ناس كثير وبقيت جماعة أخفوا ما عندهم، فبدأت عمليات التفتيش على خيم العسكر لرد الأسرى وغيره من الكسب.⁽⁵⁾

(1) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 397. المقرئزي: السلوك، 2/ 428

(2) المقرئزي: السلوك، 2/ 429. اليوسفي: نزهة الناظر، ص 397 - 398. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 9. ابن الوردي: تنمة المختصر، 2/ 445.

(3) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 399.

(4) هي سبع قلاع: أياس الجوانية، وأياس البرانية، والهارونية، وكواره، وحمصية، ونجيمة، وسرفندكار. انظر، مؤرخ مجهول، عصر سلاطين المماليك، ص 194. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 3/ 940-941.

(5) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 402 - 403. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 10. المقرئزي: السلوك، 2/ 429.

وفعلا بدأت عمليات تسلم القلاع وكان المكلف بها الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، ثم رحل العسكر عن أياس بعدما أقاموا عليها اثنين وسبعين يوماً.⁽¹⁾

لقد كانت هذه الحملة ضربة مميتة لمملكة إرمينية الصغرى، تُرك فيها "ملك الأرمن جسداً بلا روح خائفاً على ما بقي بيده"،⁽²⁾ وأصبحت معظم إرمينية الصغرى في حالة تبعية فعلية للسلطان المملوكي، فعلى قول ملك إرمينية: إن هذه القلاع شكلت نصف أراضيه،⁽³⁾ وقام السلطان بإقطاع أراضي سيس لنائب حلب، ونائب دمشق، وغيرهما من أمراء الشام "وأمر فيها جماعة من التركمان والأجناد، فاستعملوا الأرمن في الفلاحة، ... وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب، ورتب فيها عسكر"، وأنعم السلطان على ملك إرمينية - الذي أصبح كأحد عماله - بأن أعفاه من الخراج لثلاثة أعوام، وهادنه لعشر سنوات.⁽⁴⁾

بعد هذه الضربة أصبح سقوط إرمينية الصغرى بيد المماليك أمراً بديهياً في ظل غياب الدور المغولي والأوربي، وأصبحت المسألة مسألة وقت، وتجب الإشارة إلى أن أكثر ضربة أوجعت الأرمن هي عملية الاستيلاء على أياس وهدم برجها المذكور باسم الأطلس،⁽⁵⁾ لأن ذلك يعني ضياع التجارة من أيدي الأرمن وانهيارهم اقتصادياً.

(1) المقرئزي: السلوك، 2 / 430. ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 3 / 940. ابن الوردي: تنمة المختصر، 445/2.

(2) ابن الوردي: تنمة المختصر، 2 / 445.

(3) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 3 / 941.

(4) المقرئزي: السلوك، 2 / 430.

(5) تحدث الشجاعي وغيره عن عملية هدم برج أطس البحري، الذي كانت تتم فيه أضخم العمليات التجارية في إرمينية الصغرى. انظر، الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص 11-12. المقرئزي: السلوك، 2 / 429-430.

سابعاً- المواجهات العسكرية بين المماليك والأرمن في عصر أسرة الناصر محمد بن قلاوون (741 - 776هـ / 1340 - 1375 م):

شكلت الحملة الأخيرة ضربة قوية لمملكة إرمينية الصغرى، بدأت تترنح من بعدها، إلى أن سقطت بشكل نهائي في يد المماليك عام 776هـ / 1375م بفعل عوامل عدة، أهمها:

1 - الفوضى السياسية بعد مقتل ليون الخامس:

كان ثمن التاج الملكي؛ الذي مُنح لليون الثاني عام 1198م من قبل البابا والإمبراطور هنري السادس؛ والذي تأسست بموجبه مملكة إرمينية الصغرى، إتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرمنية تحت السيادة البابوية، إلا أن الأساقفة الأرمن عارضوا فكرة الإتحاد هذه وقاوموها، في حين حاول ليون الثاني فرضها عليهم بالقوة وإقناعهم أن الإتحاد يمكن أن يكون شكلي، - لكن هذا لم يكن صحيحاً لأنه في أيام الملك هيثوم الأول تمت ترجمة قوانين أنطاكية إلى الأرمنية لكي تُستخدم في المملكة- وعليه فقد جرى تخزين الاضطرابات للمستقبل.

ففي نقاش دار عام 1261م بين نائب البابا وممثلين عن الكنيسة الأرمنية؛ أنكر رجال الدين الأرمن سيادة البابا على الكنيسة الأرمنية، وفي المقابل كان الملوك الأرمن يقرون بهذه السيادة ومحافظين عليها، فكانوا يلبنون مطالبها فيما يتعلق بالعقيدة والطقوس أملاً في الحصول على المساعدات، وخاصة في ظل غياب المساعدة المغولية.

هذا التعارض في وجهات النظر بين رجال الدين، ومن ورائهم عامة الشعب؛ الذين يفكرون بمبدأ عقائدي وديني، وبين الملوك الذين يفكرون بمبدأ سياسي، أفرز مشاكل ضخمة، فالبارونات الأرمن استثمروا مشاعر الشعب المعارضة للاتيين وتمكنوا من نسف سلطة التاج الملكي، وعليه فقد واجه الملوك (أوشين الأول 1307-1320م، وليون الخامس 1320-1341م، وغي لوزينان 1342-1344م) القتل على التوالي عندما تصدوا لرجال الدين وحاولوا جعل الكنيسة الأرمنية أقرب لروما.⁽¹⁾

انفجرت المشاكل بين التيارات المتعارضة بشكل علني وصاحب في أيام الملك ليون الخامس، ففي أيامه ظهر في إرمينية الصغرى راهب اسمه جان دي كوني، أسس نظام رهبنة قائم على التعاليم

(1) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 288 وما بعد.

الكاثوليكية، وتم تحريف اللغة الأرمنية لتصبح قريبة من اللغة اللاتينية، وقدم ليون الخامس الدعم لهذا التيار، في المقابل تصدى له تيار معارض بقيادة بطريك الأرمن أغوب الثاني، وكان للصراع بين التيارين آثاره السلبية على المجتمع والسياسة، فبعد أن عزل ليون الخامس البطريرك أغوب قام أتباعه باغتيال ليون الخامس في ربيع الأول 742هـ/ شباط 1341م، وقد وقف الشعب إلى جانبهم.⁽¹⁾

ب وفاة ليون الخامس إنتهى عصر حكم أسرة بابيرونيان الأرمنية، أو الأسرة الهيثومية؛ التي أسسها هيثوم الأول والتي كانت تحكم منذ عام 1226م، لينتقل الحكم إلى أسرة أجنبية - في نظر الأرمن - هي أسرة لوزينان الفرنسية، الأسرة الحاكمة في قبرص، فليون الخامس لم يترك وريثا للحكم، بل كان ولي عهده ابن عمته واسمه غي لوزينان وهو ابن عموري لوزينان، أخو الملك القبرصي هيو الثاني (الأب فرنسي والأم أرمنية).⁽²⁾

مع دخول هذه الأسرة إلى سدة الحكم تعمقت الهوة التي بدأت تظهر في أواخر أيام ليون الخامس، بين التيار المحافظ والتيار المؤيد للتوجه الغربي، وذلك لأن الملك الجديد انتهج سياسة توجه غربي، أصبح معظم معاونوه فرنسيين، وتطورت الأمور إلى أنه حاول فرض التبعية لكنيسة روما، فواجه مقاومة قوية من قبل بارونات الأرمن المحافظين، وانتهت حياته قتلا مع أخوه وعدد من أتباعه في رجب 745 هـ/ نوفمبر 1344م.⁽³⁾

إذاً دبت الفوضى في مملكة إرمينية الصغرى، وستظهر على إثرها مع كل عملية تنصيب أو خلع للملوك، مما شغلهم عن مواجهة العدو التقليدي المتمثل بالمماليك، فبعد فبعد موت الملك غي لوزينان هذا "المعروف بقسطنطين الأول سنة 1344م"، اغتصب العرش قسطنطين الثاني، وكان

(1)Brocardus: Directorium Ad Passagium Faciendum P487 – 490.

المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 241-242.

(2)Dardel, Jen, Chronique Arme'nie. ED.R.H.C. – Doc. Arm, II, Paris 1869 – 1906, P.21

رينيه كروسيه: الحروب الصليبية: ترجمة أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، ط1، 2002م. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 242.

(3)Dardel: Ibid, P.21.

رينيه كروسيه: الحروب الصليبية، ص130. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 242.

على حس سياسي كبير، فتخلّى عن العلاقات الغير مثمرة مع البابوية، وعمل على إرضاء الشعب باقصاء الحاشية الفرنسية اللاتينية عن مراكز الدولة الحساسة، وبعد وفاته سنة 1363م خلفه قسطنطين الثالث (1363-1373م) وكان وصوله لسدة الحكم نتاج صراع بين الحزب الوطني صاحب التوجه الشرقي، والحزب المعارض له صاحب التوجه الغربي، وكان من أنصار الشرقيين، وبعد وفاته توج ليون السادس ملكاً على إرمينية الصغرى وهو من أسرة لوزينان الفرنسية، وفي عهده سقطت إرمينية الصغرى بيد المماليك واقتيد هو أسيراً إلى القاهرة لمدة سبع سنوات.⁽¹⁾

2 - الأزمة الاقتصادية:

أيضاً شغل الجانب الاقتصادي دوراً كبيراً في انهيار إرمينية الصغرى، فالمملكة بدأت تفقد أهميتها التجارية بفعل عوامل عدة أهمها:

أ- فرض ضرائب باهظة عليها من قبل المماليك؛ انعكس سلباً على وضع التجارة فيها؛ لأنها اضطرت إلى رفع الجمرک المستوجب على البضائع المارة بها، مما جعل التجار يتوجهون إلى موانئ أخرى.⁽²⁾

ب- انعدام الأمن على الطريق التجاري القادم لإرمينية الصغرى من أراضي المغول، وذلك بعد وفاة أبوسعيد خان مغول فارس سنة 736هـ/ وما أعقبه من حروب داخلية وصراعات على السلطة⁽³⁾.

ج- سيطرة المماليك على ميناء أياس الحيوي سنة 737هـ/1337م.

في عام 684هـ/ 1285م تم توقيع هدنة بين الأرمن والمماليك بموجبها توجب على الأرمن دفع جزية سنوية مقدارها مليون درهم، ثم تمت مضاعفة المبلغ إلى مليون ومئتي ألف درهم في هدنة عام 723هـ/ 1323م مع نصف إيرادات جمرک ميناء أياس.⁽¹⁾

(1) المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص242-244. نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 292 وما بعد.

(2) هايد: تاريخ التجارة، 325/2-326.

(3) سعيد عاشور: سلطنة المماليك وإرمينية الصغرى، ص181. نقلاً عن:

. Dulaurier: Recherches sur la chronologie Armenienne, Tome P70

لمواجهة هذا الموقف اضطر ملوك إرمينية الصغرى إلى رفع الضرائب على التجار والأجانب، ناهيك عن أن غارات المماليك والتركمان تركت البلاد مدمرة ومنهكة اقتصاديا، فمدينة أياس؛ الميناء الرئيس في إرمينية الصغرى، ومصدر ثرائها، نهبت سنة 664هـ / 1266م،⁽²⁾ وسنة 673هـ / 1275م،⁽³⁾ وفي سنة 737هـ / 1337م هدمت الحملة المملوكية برجها التجاري الضخم (برج أطلس) أمام أعين الأرمن، ووضعت فيها الحاميات المملوكية، وأصبحت بشكل نهائي تحت السيطرة المملوكية،⁽⁴⁾ وفشلت كل المحاولات الأرمنية والقبرصية لاستعادتها، ففي سنة 748هـ / 1347م حاول الأرمن استعادتها، فتصدى لهم أميرها حسام الدين الشيباني وردهم خاسرين،⁽⁵⁾ ثم حاول ملك قبرص بطرس الأول الإستيلاء عليها سنة 769هـ / 1367م، لكن المماليك بقيادة الأمير منجك السيفي الذي كان في طريقه من طرسوس إلى طرابلس، والأمير منكلي بغا نائب حلب الذي قدم لفك الحصار عنها، تمكنوا من انزال هزيمة ساحقة ببطرس الأول،⁽⁶⁾ ثم كرر المحاولة ابنه بطرس الثاني سنة 771هـ / 1369م لكن بدون جدوى.⁽⁷⁾

شكلت أياس على مر التاريخ الأرمني المورد الرئيسي لمملكتهم في كيليكيا وبسقوطها أصيبت المستوطنات التجارية في إرمينية في الصميم، لتفقد المملكة المورد الرئيسي للدخل القومي، إذ واصلت إرمينية الصغرى حياتها بعد سقوط أياس بمشقة حتى تم تدميرها.⁽⁸⁾

3- إرمينية الصغرى بين المماليك، والتركمان، والقبارصة، وسقوطها بيد المماليك عام 776هـ / 1375 م:

(1) عن معاهدة 684هـ انظر، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 92. وعن معاهدة 723هـ انظر، النويري: نهاية الأرب، 60/32. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 8، 11. وقد سلف الحديث عن هذه المعاهدتين،

ص

(2) انظر حملة 664هـ، ص

(3) انظر حملة 673هـ، ص

(4) انظر حملة 737هـ، ص

(5) ابن الوردي: تنمة المختصر، 490/2-491. المقرئزي: السلوك، 726/2.

(6) ابن كثير: الاجتهاد، ص 426.

(7) ماكارياس: مرويات، ص 170-171.

(8) هايد: تاريخ التجارة، 328/2.

توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون عام 741هـ/ 1341 م⁽¹⁾ وخلف من بعده أسرة تداول أفرادها عرش السلطنة، وعلى الرغم من كثرة تبدل السلاطين إلا أن سياستهم تجاه إرمينية الصغرى ظلت واحدة، ففي عهد الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون 743 - 746 هـ⁽²⁾ امتنع ملك إرمينية الصغرى غي لوزينان عن دفع الجزية قائلاً "أنا لا أعطي جزية ولا هدية حتى تعاد إلينا البلاد المغصوبة"⁽³⁾، فرد عليه المماليك بإرسال عساكر حلب، وحماه، وطرابلس سنة 744هـ/ للإغارة على بلاده، حيث "أثروا في أهل سيس آثاراً قبيحة حتى أذعنوا لحمل الخراج"⁽⁴⁾ وهنا لا بد من الوقوف عند ما ذكره المقرئ في هذه الحملة، وهو أنه عندما خرجت هذه العساكر إلى سيس "لقيهم تركمان الطاعة"⁽⁵⁾، كما أن ابن الوردي أورد في حوادث سنة 744هـ/ 1343م غارات التركمان على سيس عدة مرات.⁽⁶⁾

من هم تركمان (الطاعة) وما هو دورهم في الصراع المملوكي - الأرمني على أراضي كيليكيا؟

على اثر انهيار دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بعد وفاة سلطانها علاء الدين الثالث سنة 1307م قام على أنقاضها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي عدد من الإمارات التركمانية، عرف بعضها باسم مؤسسها مثل (أيدين، وصاروخا، وقرمان) وعرف الآخر

(1) بوفاة الناصر محمد بن قلاوون بدأت مرحلة من الفوضى السياسية، كثر فيها تعيين وعزل السلاطين من سلالاته، وامتازت بتسلط الأمراء على شؤون الحكم، فبعد وفاته اعتلى السلطة ابنه المنصور أبو بكر، لم يستمر طويلاً، عزل وعين مكانه أخوه كجك عام 742 هـ استمر في الحكم خمسة أشهر لم يكن له من الأمر شيء، فجاء بعده أخوه أحمد، واستمر يحكم حوالي عام، حيث عزل عام 743 هـ وجاء من بعده أخيه الملك الصالح إسماعيل الذي استمر في الحكم حتى وفاته 746 هـ ليحكم من بعده الملك الكامل شعبان، انظر: المقرئ: السلوك، 2/ 551، 571، 593، 594، 619، ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 176 - 178، 181 - 182.

(2) ابن خليل: نزهة الأساطين، ص 98.

(3) ابن الوردي: تنمة المختصر، 2/ 479. المقرئ: السلوك، 2/ 650.

Chroniqe Arme'nie.، Jen،Dardel P22

(4) المقرئ: السلوك، 2/ 650. ابن الوردي: تنمة المختصر، 2/ 479.

(5) المقرئ: السلوك، 2/ 650.

(6) ابن الوردي: تنمة المختصرة،

باسم أشهر مدنها أو باسم عاصمتها مثل (مغيسيا، وفوكه)، واختلفت المصادر في تقدير عدد تلك الإمارات،⁽¹⁾ وذلك عائد إلى كثرة الصراعات بين تلك الإمارات، وسقوط بعضها، وقيام الآخر، مع استمرار هجرة التركمان وتأسيس الإمارات.

بعض هذه الإمارات كانت تربطه بسلطنة المماليك علاقات طيبة، مثل إمارة بني قرمان،⁽²⁾ جمعهم عدائهم المشترك لمملكة إرمينية الصغرى⁽³⁾ فغالبا ما كانوا يقومون بأعمال عسكرية مشتركة ضد الأرمن، وما قصده المقريزي بتركمان الطاعة؛ هم بني قرمان،⁽⁴⁾ لأنه "أهل هذه المملكة على موالات سلطان مصر ويميلون إليه في جهاد الأرمن".⁽⁵⁾

على هذا تبدل سلاجقة الروم حلفاء المغول والأرمن بإمارات تركمانية تدين بالولاء والطاعة للمماليك، ويكثون العداء لجيرانهم الأرمن، حتى أن المغول حلفاء الأرمن سابقاً تبدلت سياستهم بعد إسلامهم، بشكل جعل المؤرخ الايطالي الشهير مارينو سانوتو يعدهم آنذاك أعداء آخرين للأرمن مع المماليك وأتراك الأناضول وقراصنة البحر،⁽⁶⁾ وبذلك تكون قد ضاقت الحلقة على الأرمن، وبدأت مملكتهم تسير بخطى سريعة نحو الانحلال والزوال؛ وقد حاولوا الاستنجاد أكثر من مرة

(1) أفضل مصدر يتحدث عن هذه الإمارات هو مسالك الأبصار للعمري، وفي المصدر نفسه يقدم العمري روايتين عن عدد هذه الإمارات، في الأولى يقول أن عددهم عشر إمارات، وفي الثانية يذكر أن عددهم ستة عشر إمارة. **انظر: مسالك الأبصار.**

(2) تأسست هذه الإمارة في القرن السابع الهجري وعرفت باسم مؤسسها قرمان بن نوره صوفي، كانت تسيطر على سيواس وقونيه وقرمان وأرمناك ... الخ، انظر: القرمانى (أحمد بن يوسف بن أحمد): أخبار الدول وآثار الأول، دار عالم الكتب، بيروت، ص 292-293.

(3) يقول العمري في معرض حديثه عن الإمارات التركمانية، "فأما ملوكنا فأجل ما لديهم منهم، جماعة بني قرمان، لقرب ديارهم وتواصل أخبارهم، ولنكايتهم في مملك سييس وأهل بلاد الأرمن، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب، فمكاتباتنا إلى بني قرمان لا تكاد تنقطع (. التعريف بالمصطلح الشريف، ص 61.

(4) انظر: ابن الوردي في تنمة المختصر أثناء حديثه عن غارة عام 744 هـ التي سبق ذكرها، يقول: بأن التركمان اشتركوا في الغارة (فقتلوا ونهبوا وأسروا وشفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان) ، وفي هذا دليل على اشتراك بني قرمان في الغارة، 477/2.

(5) العمري: **مسالك الأبصار،**

(6) مارينو سانوتو: الأسرار، 92/38.

بالغرب الأوروبي، لكن دون فائدة، حتى أن المساعدات القبرصية التي كانت تأتي من حين لآخر لم تغن أبداً عن السقوط بيد المماليك.

حاول غي لوزينان التمرد، لكنه سرعان ما أذعن للأوامر، ودفع الخراج كما ذكر سالفاً، وبسبب الخلافات التي بدأت تدب في جسم المملكة قُتل غي لوزينان مع أخيه وعدد من أمرائه وفرسانه 746هـ / 1344 م.⁽¹⁾

بعد خلافات حادة اعتلى عرش المملكة قسطنطين الثاني (746 - 765هـ / 1344 - 1363 م)، وشهد عصره تقدماً ملحوظاً للترکمان والمماليك على حساب أراضي إرمينية الصغرى، ففي سنة 746هـ / 1346 م سيطر بني قرمان - بالحيلة - على قلعة كابان الأرمنية، وعندما حاول الجيش الأرمني استعادتها تعرض لهزيمة منكرة على يد بني دلغادر، ولكن بسبب الخلافات التي قامت بين التركمان ونائب حلب حول إقامة نائب فيها من قبل السلطان تمكن الأرمن من استعادتها عام 747هـ / 1346 م.⁽²⁾

وفي عام 761هـ / 1359 م كُلف نائب حلب الأمير بيدمر الخوارزمي من قبل السلطان الناصر حسن (755 - 762هـ / 1354 - 1361 م) بقيادة حملة إلى إرمينية الصغرى، وتمكن نائب حلب في هذه الحملة من فتح أذنة وطرسوس بالأمان، وفي طرسوس وجد عدد من أسرى المسلمين تم إطلاق سراحهم، كما تمت مصادرة أسلحة الأرمن وخيولهم، وتم الاستيلاء المصيصة وقلعتها بالقوة، ومنه انطلقوا نحو عدة حصون، فتمكنوا من فتحها، وقبل عودتهم عينوا الأمير علاء الدين الشيباني نائباً للسلطنة في طرسوس، وأخيه الأمير بهاء الدين داوود نائباً بأذنة، ثم رجعت العساكر مرتدين منصورين سالمين غانمين".⁽³⁾

(1)Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p.21.

المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص242.

(2) ابن الوردي: تنمة المختصر، 487/2.

ويقول عن قلعة كابان (جابان) أنها من أمنع قلاع سيسى مما يلي الروم.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2/ 230-231. وينكر أسماء القلاع التي تم تحريرها في هذه الغزوة وهي: (كلال، الجديدة، سنباط كلا، نمرون، دي ليفون). ابن خلدون: العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1999م، ج5، ص970. المقرئزي: السلوك، ج3، ق1، ص50. ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص177.

أمام قوة المماليك، وازدياد خطر التركمان، أسرع الأرمن بطلب المساعدة القبرصية، وعلى عكس هيو الرابع ملك قبرص؛ الذي رفض التدخل في شؤون الأرمن وزج نفسه بصراعاتهم مع المماليك والأتراك، كان ابنه بطرس الأول لوزينان (1359-1369م) الذي خلف أبيه سنة 761هـ/ 1359 م، قد رحب بطلب المساعدة الأرمنية "لأنه كان عظيم الرغبة في امتلاك أرض في تركيا"⁽¹⁾، فأرسل سفناً حربية بقيادة روبرت لوزينان أحد أقربائه، فسلمه الأرمن قلعة جورهيغوس (أو كوريكوس Corycus) الأرمنية في كانون الثاني 1360م، وأصبحت تابعة لملوك قبرص ووضعت بها حامية قبرصية.⁽²⁾

لم يكتف بطرس الأول بقلعة جورهيغوس، بل أخذ بالتوسع على حساب الإمارات التركمانية، فعلى اثر سيطرته على جورهيغوس بدأ التركمان في إمارات (العليا، والقرمان، ومنوقات) بتشكيل تحالف لمهاجمة القبارصة، ولما علم بطرس الأول بذلك جمع أسطول مكون من 119 سفينة وهاجمهم به، فتمكن من السيطرة على أضااليا، وفرض على أمراء العليا ومنوقات جزية سنوية، ورفع علم قبرص على بلادهم، مقابل إعطائهم الأمان.⁽³⁾

وفي هذا المجال يمكن أيضاً النظر إلى الحملة القبرصية التي قام بها بطرس الأول على الإسكندرية في سنة 767هـ/1365م، على أنها هدفت إلى ضرب السلطنة المملوكية، ولشغلها عن مضايقة الأرمن، لكن الحملة فشلت في تحقيق أي من أهدافها التي انطلقت من أجلها سوى عمليات السرقة والقتل.⁽⁴⁾

وللغاية نفسها - تخفيف الضغط عن الأرمن - قام القبارصة بعدة غارات على السواحل الشامية والتركية لضرب المماليك التركمان،⁽⁵⁾ كما قاموا بمهاجمة أياس سنة 769هـ/1367م، وسنة 771هـ/1369م، ولكن بدون فائدة.⁽⁶⁾

(1) ليونتوس ماكارياس: مرويوات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة (مطبوع لم يُنشر بعد)، ص 67-68.

(2) ماكارياس: مرويوات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، ص 68.

(3) ماكارياس: مرويوات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، ص 69-73.

(4) انظر الفصل السابق، ص

(5) ماكارياس: مرويوات تتعلق بأرض قبرص الحلوة، ص 82، 85، 103.

(6) ماكارياس: المصدر نفسه، ص 121-123،

بهذا العمل يكون قد أصبح للقبارصة موطناً قدم في إرمينية الصغرى، وهذا سوف يزيد الأمور تعقيداً، لأن الأسرة الفرنسية (أسرة لوزينان وهي الأسرة نفسها الحاكمة في قبرص) كانت قد فقدت حكمها في إرمينية الصغرى بعد اغتيال غي لوزينان في 1344م من قبل الأرمن، ومع قدوم أقربائهم حكام قبرص سوف تزداد قوتهم على حساب الحزب الأرمني الوطني المعارض لحكم أسرة أجنبية، وهذا ما حصل، فبعد وفاة قسطنطين الثاني عام 765هـ / 1363م حدثت حروب داخلية دامية في إرمينية الصغرى بين مؤيدي أسرة لوزينان وبين الوطنيين من الأرمن الرافضين للحكم الأجنبي، وبعد عامين من الصراع نجح الوطنيون الأرمن، وتم تنصيب قسطنطين الثالث ملكاً على إرمينية (767 - 774 هـ / 1365 - 1373 م).⁽¹⁾

انتهت حياة الملك قسطنطين الثالث قتلاً سنة 775هـ / 1373 م، وأعقب ذلك حالة من الفوضى السياسية التي عمت المملكة بين الحزبين المتنافسين، وانتهى الأمر بتولية ليون السادس عرش المملكة (775 - 776 هـ / 1374 - 1375 م) وهو من أسرة لوزينان الفرنسية.⁽²⁾

اعتلى العرش في وقت كانت فيه المملكة تلهف أنفاسها الأخيرة، فالخزينة خاوية، والدولة منقسمة على نفسها بين حزب معارض وآخر مؤيد، والجيش منهك من الضربات المملوكية والتركمانية، ناهيك عن أن معظم أراضي المملكة أصبحت بيد المماليك والتركمان، وبالرغم من امتلاك الحاكم الجديد شخصية قوية،⁽³⁾ فإن جميع مؤهلاته لم تُغن عن سقوط إرمينية الصغرى عندما قرر المماليك غزوها وإخضاعها نهائياً لسلطتهم.

Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p. 36.

(1) مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص243.

نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص293.

(2)Dardel، Jen، Chroniqe Arme'nie.p. 41-44.

مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص243. نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 293.

(3) مروان المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص243.

وفعلاً حدث ذلك في سنة 776هـ/ 1375م عندما أرسل السلطان الأشرف شعبان (764 - 778هـ/ 1363 - 1376م) نائبه في حلب للقيام بهذه المهمة،⁽¹⁾ وبعد حصار استمر قرابة شهرين، طلب على إثره ليون السادس الأمان في شهر ذي القعدة من سنة 776هـ/ 1375م وأرسل ليون هذا أسيراً إلى القاهرة "وصارت سيس مملكة مستقلة من ممالك الإسلام"،⁽²⁾ وعين السلطان الأمير يعقوب شاه نائباً عنه في سيس.⁽³⁾ وبذلك أسدل الستار على الوجود الأرمني في كيليكيا، وازدادت الحدود المملوكية عمقاً آسيا الصغرى، وأصبحت الدولة المهيمنة على الحوض الشرقي للمتوسط.

(1) يذكر المقرئزي بأن فتح سيس تم على يد نائب حلب الأمير أشقتمر، ويضيف ابن إياس بأن نائب الشام بيدر الخوارزمي كان موجوداً إلى جانب نائب حلب، السلوك: 3/ 237 - 238 بدائع الزهور، ج1، ق2، ص139.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص139. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 5/ 990.

(3) المقرئزي السلوك، ج3، ق1، ص238.

بقي ليون السادس أسيراً في القاهرة ولم يطلق سراحه إلا بعد سبع سنوات، فسافر إلى البلاطين الإنكليزي والفرنسي في محاولة لحشد حملة لاسترداد مملكته، لكن دون جدوى، ومات عام 1393م، فانتقل لقبه إلى ملوك أسرة لوزينان في قبرص. انظر، نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 293-294.

الفصل الرابع

زوال دولة المماليك الأولى وقيام الثانية والاجتياح التيموري لمشرق البحر المتوسط

784-808هـ / 1382-1405م

أولاً- قيام دولة المماليك الثانية.

ثانياً- اضطراب الأوضاع في بلاد الشام.

ثالثاً- أوضاع مشرق البحر المتوسط عشية قيام الدولة المملوكية الثانية.

رابعاً- الاجتياح التيموري لبلاد الشام واحتلال دمشق.

خامساً- الاجتياح التيموري لآسيا الصغرى وهزيمة الجيوش العثمانية في معركة أنقرة.

سادساً- نتائج الاجتياح التيموري على مشرق البحر المتوسط وعلى العالم الإسلامي.

تمهيد:

اعتاد المؤرخون على تقسيم عصر السلطنة المملوكية إلى حقبتين، يطلق على الأولى منهما؛ والتي امتدت من 648-784هـ/ 1250-1281 م، دولة المماليك الأولى، أو دولة المماليك البحرية، لأن سلاطينها كانوا من المماليك الذين اشتراهم بنو أيوب وأسكنوهم جزيرة الروضة في نهر النيل، أو دولة المماليك الأتراك، لأن معظم سلاطينها من الجنس التركي من بلاد القفجاق، ويطلق على الثانية؛ والتي امتدت من 784-923هـ/ 1382-1517م، دولة المماليك الثانية، أو دولة المماليك البرجية، لأن سلاطينها كانوا من المماليك الذين أسكنهم قلاوون أبراج القلعة على جبل المقطم أيام حكم المماليك البحرية، أو دولة المماليك الشركسية "الجراكسة" لأن معظم سلاطينها من الجنس الشركسي.⁽¹⁾

في سلطنة المماليك غالباً ما كان يتولى الحكم من له الغلبة من الأمراء، ومن هو الأول بين أقرانه، وكان امتلاك القوة، والعدد الأكبر من الأتباع والمماليك من المؤهلات الضرورية للحكم، فلم يكن هناك نظام ملكي أو وراثي واضح، إنما "الدنيا لمن غلب"، فكان يُقال أن مقام الأمراء بمماليكهم⁽²⁾، وفي حالة لم تتكرر، تمكن السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد من وضع قواعد وأسس لحكم وراثي استمر قرابة قرن، سيطرت فيه عائلة قلاوون على عرش السلطنة المملوكية، ولخدمة هذا المشروع لجأ السلطان المنصور قلاوون إلى استقدام عنصر جديد من المماليك من جنس الشركس⁽³⁾ ليكونوا سنداً لعائلته في الحكم، ولكي يضمن ولائهم؛ قام بعزلهم عن باقي المماليك وأسكنهم في أبراج القلعة فعرفوا بالمماليك البرجية،⁽⁴⁾ وسرعان ما غدا السلاطين من أسرة

(1) المقرئزي: المواعظ والاعتبار، 132/3. عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1964، 10/1-11. السيد الباز العريني: المماليك دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 55 - 63، 57 - 70 .

(2) المقرئزي: السلوك،

(3) الجراكسة أو الشركسية، عنصر قوقازي الجنس موطنهم المرتفعات الجبلية من بلاد قفجاق بين البحر الأسود وبحر قزوين . القلقشندي: صبح الأعشى، 4/ 472 . إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، 1960م، ص 8 .

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7/ 330. ابن إياس: بدائع الزهور، 362/1/1. المقرئزي: السلوك، 1/ 755 - 756، المواعظ والاعتبار، 132/3.

قلاوون ألعوبة بيد هؤلاء المماليك الذين تمكنوا من إحكام قبضتهم على شؤون الحكم لأنهم كانوا مقربين إلى السلطان وشكلوا بطانته والقوة التي يعتمد عليها، وقد استمر الأمر كذلك حتى تمكن البرجية من الإطاحة بأسيادهم واعتلاء عرش السلطنة فيما عرف بعد ذلك باسم دولة المماليك الثانية، أو دولة المماليك الشركاسة، أو البرجية (784-923هـ/1382-1517م).

وفي الحقيقة لا توجد تلك الفوارق والاختلافات الكبيرة بين الدولتين الأولى والثانية كما توحى التسمية، فالنظام السياسي، والمالي، والعسكري، والإداري، كله لم يتغير فيه شيء، فالجيش هو نفسه، ونظم الإدارة استمرت على ما هي، وشكلت الدولة الثانية امتداداً لكل مظاهر الدولة الأولى، وإنما الذي اختلف فقط هو جنس الفئة المملوكية التي تربعت على عرش السلطنة، وحتى هذه الميزة التي عدها المؤرخون فارقاً، لم تكن سمة مطلقة، ففي الدولة الثانية التي سميت بالدولة الشركسية، نسبة إلى سلاطينها الشركاسة، اعتلى العرش سلاطين من أصل رومي، كالسلطان خشقدم (865-872هـ/1)، والسلطان تمر بغا (ولي وعُزل سنة 872هـ/2)، وإنما المؤرخون المحدثون درجوا على استخدام هذا المصطلح لتسهيل الدراسة، وتناولوا كل دولة على حدة، مع أن عصر المماليك لم يمتد طويلاً كالدولة العباسية أو الدولة العثمانية.

أولاً: قيام دولة المماليك الثانية (784 - 923هـ/1382 - 1517م):

(1) ابن شاهين: نزهة الأساطين، ص140، ابن إياس: بدائع الزهور، 378/2.

(2) ابن شاهين: نزهة الأساطين، ص142، ابن إياس: بدائع الزهور، 467/2.

اعتلى السلطان المنصور قلاوون عرش السلطنة المملوكية سنة 678هـ/1279م، بعد عزله لسلامش بن السلطان بيبرس، وعُرف عنه ولعه بشراء المماليك كما يقول ابن إياس،⁽¹⁾ فهو أول من أقدم على شراء المماليك الشركاسة حتى بلغ عددهم أواخر حكمه حوالي 3700 مملوك،⁽²⁾ فقام بإسكانهم في أبراج القلعة معزولين عن باقي المماليك، وبالتالي ضمن ولائهم وأن يكونوا كما **قال:** "كالأسوار والحصون المانعة لي ولأولادي وللمسلمين".⁽³⁾

سار السلطان الأشرف خليل على سنة أبيه في الإكثار من شراء المماليك حتى بلغ عدد ما اشتراه منهم في مدة حكمه القصيرة (1289 - 1293م) حوالي ستة آلاف مملوك،⁽⁴⁾ واهتم كل من السلطان قلاوون وابنه الأشرف بالمماليك البرجية، ومنذ أيام قلاوون بدأت ترقيتهم المناصب المهمة، وتسليمهم المراكز الحساسة،⁽⁵⁾ حتى أصبح البرجية أو الشركاسة قوة لا يُستهان بها، ولهم ثقلهم في السلطنة، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في الاضطرابات التي أعقبت مقتل سيدهم الأشرف خليل سنة 693هـ/1293م، على يد بيدرا نائب السلطنة، إذ ثارت ثائرتهم ولم تهدأ إلا بعد أن قام أحدهم؛ وهو الأمير طنجي، بقتل بيدرا.⁽⁶⁾

مع تطور الأحداث أصبح العنصر الشركسي مسهم على الساحة السياسية، فدخلوا في صراع وتنافس كتكتل حزبي - إن صح التعبير - مع الطوائف المملوكية الأخرى، حتى تم لهم السيطرة على مقاليد الحكم على يد السلطان برقوق، وبتتبع سيرة برقوق تتوضح مراحل تأسيس الدولة المملوكية الثانية.

(1) بدائع الزهور، 361/1/1.

(2) المقرئزي: المواعظ والاعتبار، 132/3.

(3) المقرئزي: المصدر نفسه، 2/213.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، 378 /1/1.

(5) المقرئزي: المواعظ والاعتبار، 132/3.

(6) زيتير سين: عصر سلاطين المماليك، ص 26 - 27 . ابن إياس: المصدر السابق، 375 /1/1 -

376. السيد الباز العريني: المماليك، ص 64 . حكيم عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، دار

الكتاب العربي، القاهرة، 1967م، ص 11-14.

كان برقوق أحد عناصر الفرقة التي كان يُطلق عليها اسم "اليلبغاوية"، نسبة إلى الأمير يلبغا بن عبد الله العمري الخاصكي الناصري، الأمير المشهور، كان في أيام الأشرف شعبان أتابك العسكر، وصاحب الأمر والنهي، والحل والعقد، بلغ عدد مماليكه حوالي ثلاثة آلاف مملوك، أصبح عدد كبير منهم نواب ومقدمي ألوف،⁽¹⁾ وهو من أصول جركسية،⁽²⁾ بيع في بلاد القرم لتاجر اسمه فخر الدين عثمان بن مسافر، كان قد ابتاعه للأمير يلبغا الناصري، وقام هذا الأخير باعقائه وقربه منه، وعندما قُتل الأمير يلبغا سنة 768 هـ، نُفي برقوق مع من نُفي من المماليك اليلبغاوية إلى الكرك، ثم أُفرج عنه وتوجه إلى دمشق سنة 773 هـ/ لخدمة نائبها منجك اليوسفي، ثم قدم إلى القاهرة مع المماليك الذين طلبهم السلطان الأشرف شعبان، وهناك عمل في القصر السلطاني في خدمة ولدي السلطان: أمير علي، وأمير حاجي،⁽³⁾ ويذكر الصيرفي الترقيات السريعة التي حققها برقوق بعد عودته إلى القاهرة، فقال: "انتقل من الجندية إلى الخاصكية"⁽⁴⁾ ثم إلى إمرة طبخانة⁽⁵⁾ ثم إلى تقدمة الألوف استقر أمير آخور⁽¹⁾ كبير، ومَلَك الإسطبل⁽²⁾ وباب السلسلة ثم

(1) العسقلاني: (أحمد بن علي، ت: 852 هـ) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية، دار الجيل، بيروت، 4 / 438.

(2) الصيرفي(علي بن داود، ت: 900هـ): والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1970 م ، 33/1 . المقريزي: السلوك، 476/3. ابن إياس: بدائع الزهور، 312/2/1. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11 / 182، 223.

(3) الصيرفي: نزهة النفوس، 33/1 - 34 . المقريزي: السلوك، 476/3-477. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11 / 225-223. ابن إياس: بدائع الزهور، 318/2/1-319. المقريزي: المواعظ والاعتبار، 3/132-133.

(4) هي الفرقة التي تلازم السلطان في خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف، وهم من المقربون في المملكة والمتعينون للإمارة، ويجهزهم في المهمات الشريفة، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المماليك، ص 115-116.

(5) كلمة فارسية معناها الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق، وتطلق وتطلق على طبول متعددة وزمارات تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، جرت العادة أن تدق كل ليلة في القلعة بعد صلاة المغرب كما أنها تكون مع السلطان في سفره، وللطبخانة أمير يكون له من المماليك ما بين أربعين وثمانين مملوك. انظر، ابن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص113، القلقشندي: صبح الأعشى، 4 / 8، 9، 13.

ثم استقر في الإمرة الكبرى،⁽³⁾ فانفرد بتدبير المملكة، فحسنت سيرته وساعدته المقادير بذهاب من يعانده".⁽⁴⁾

كان برقوق على رأس إحدى المؤامرات التي أطاحت بالأمير طشتمر العلاني الدوادر الذي كان يشغل منصب الأتابك⁽⁵⁾ والتي انتهت بتولييه برقوق لهذا المنصب سنة 779هـ/1377م،⁽⁶⁾ "ولما استقر في الأتابكية⁽⁷⁾ أجمل المسيرة في الرعاية بالسياسة وشمل الناس منه أنواع الخيرات

(1) أمير آخور: المتحدث على إسطنبول السلطان، والآخور معناها المعلف، فيكون معنى أمير آخور، أمير المعلف، لأنه المتولي لأمر الدواب. القلقشندي: صبح الأعشى، 5/461.

(2) أي الإسطنبول السلطاني الذي يضم الخيول والأسلحة وهو موجود داخل أسوار القلعة. القلقشندي: صبح الأعشى، 4/474-475. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 125-126.

(3) لم يكن هذا لقب منذ بداية استعماله يدل على وظيفة معينة، فكان يُطلق على كبار الأمراء، وفي سنة 755هـ أُطلق على الأمير سيف الدين شيخو بصفته أمير العساكر، ومنذ ذلك الوقت صار يطلق على الأتابك على الرغم من وجود أمراء كبار إلى جانب الأتابك، وبعد سنة 768هـ استخدم للدلالة على الرتبة الثانية بعد أتابك العسكر، هذا مع العلم أن لقب أمير كبير لا يستلزم دائماً أن يكون صاحبه أمير كبير. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 1/117، 208. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص 112. محمد قنديل البلقي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص 49.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/35 - 36. المقريزي: السلوك، 3/476.

(5) كان طشتمر هذا نائب الشام، فقدم إلى مصر سنة 779هـ/ حيث أُسندت إليه أتابكية العسكر، في الوقت الذي كان فيه برقوق أمير آخور كبير ويسكن الإسطنبول السلطاني، والأمير بركة الجواني كان برتبة أمير مجلس، ولما أخذ طشتمر هذا في العمل حسب القواعد والقوانين؛ عظم ذلك على برقوق وبركة، فاتفقوا على عزله وإقامة برقوق مكانه في ذي الحجة سنة 779هـ/. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/160-163. ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبد الباسط، ت: 920هـ): نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2002م، 2/130.

(6) العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1969م، 1/155. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/135. المقريزي: السلوك، 3/322-323. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/162-163. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/219-220.

(7) أي الأتابك: يتألف اللفظ من مقطعين أتا أو أطا بمعنى أب، ويك بمعنى أمير، استخدم أيام السلاجقة، كانوا يطلقونه على من يولونه الوصاية ورعاية سلطان أو أمير قاصر، وكثيراً ما تزوج هذا من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيع شبه أبوية، وفي العصر المملوكي

والفضائل"،⁽¹⁾ بدا وكأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد "ففي هذه السنة تزايد الرخاء بمصر"⁽²⁾ فاستبشر الناس خيراً بعهد الأتابك برقوق حتى قيل فيه:

إن برقوق لغصن كعبه في الناس أخضر⁽³⁾

في هذه المرحلة سيطر على الساحة السياسية كل من الأمير برقوق والأمير بركة الجوباني، فكانوا أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير، وهما من الأمراء اليلبغاوية، شغل الأمير برقوق منصب الأتابك، وشغل الأمير بركة منصب أمير مجلس،⁽⁴⁾ وكان بيدهما الحل والعقد، وبدأ التنافس بين الأميرين في شراء المماليك من جنسيهما " استغلاظا لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما"، كما أخذ "بيدلان الجاه لتابعهما ويوفران الإقطاع لمن يُستخدم لهما، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدول إليهما وإلى أبوابهما"،⁽⁵⁾ فانصرف الناس عن السلطان إلى برقوق وبركة اللذان (نصبا على الدنيا شبكة).⁽⁶⁾

لم يكن هناك بُدأ من وقوع الصدام بين المتنافسين مادام كل واحد منهم يطمح للغاية نفسها، وهي السلطنة، وقد أشار المقرئزي إلى ذلك معللاً وقوع التحاسد بين الطرفين بأن طبع الملوك "الانفراد بالمجد ومحبة الاستئثار بالملك"،⁽⁷⁾ وفعلاً؛ فبعد تطورات يطول شرحها، اصطدم الأميران

أطلق على قائد العسكر على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء. الفلقشندي: صبح الأعشى، 4/ 18. محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 14.

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 35 .

(2) العسقلاني: المصدر السابق، 1/ 155.

(3) العسقلاني: المصدر السابق، 1/ 155.

(4) هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ومن عمله أيضاً أن يتولى أمر مجلس السلطان، أو الأمير في الترتيب وغيره. الفلقشندي: صبح الأعشى، 4/ 18، 5/ 455.

(5) ابن خلدون: المصدر نفسه، 5/ 1001-1003 .

(6) ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 135. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 220. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 163.

(7) المقرئزي: السلوك، 3/ 381. ذكر ابن إياس أن برقوق كان ينام مع بركة على مخدة واحدة، وهما أعظم من الأخوة والأشقة، فلما أقبلت عليهما الدنيا، أفتت بينهما، ودخل بينهما التحاسد، وطمع كل واحد منهما بتدبير الملك على انفراد. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 256، 260.

وأتباعهما في معارك طاحنة في أرجاء القاهرة سنة 782هـ/، انقسم فيها العسكر إلى فرقتين "فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة أتراك هم أصحاب الأمير بركة"⁽¹⁾ وبعد جولات من المعارك كانت فيها الغلبة بشكل ظاهر لأتباع الأمير بركة الذين "كسروا أصحاب برقوق عشرين كسرة"⁽²⁾، أصبح موقف الأمير برقوق حرجاً وفشلت حيله عندما حاول إرضاء الأمير بركة بنيابة الشام،⁽³⁾ فلم يجد بُدأً من الاستماتة في القتال، فاستعان بالعوام والذعر، واستظهر بهم على بركة،⁽⁴⁾ فقبض عليه ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية في 13 ربيع الأول سنة 782هـ/ 1380 م،⁽⁵⁾ وبذلك يكون الجو قد خلا من المنافسين لطموح الأمير برقوق الذي استبد بتدبير شؤون المملكة، وخاصة بعد أن أفنى ممالك بركة "نفياً وقتلاً، وقرب الجراكسة وأبعد الترك"⁽⁶⁾، وعدّ المؤرخون هذه الحادثة نهاية الدولة المملوكية الأولى (التركية)، وفي ذلك يقول ابن قاضي شهبه: "وانقضت دولة الأتراك بأسرها، وتتبعوا فقتل بعضهم ونفي بعضهم وسجن بعضهم"⁽⁷⁾.

وللتخلص من أي خطر قد يسببه الأمير بركة في المستقبل أرسل الأمير برقوق إلى والي الإسكندرية صلاح بن عرام سراً يأمره بقتل بركة في السجن، وبعد أن نفذ الوالي المهمة تظاهر برقوق بغضبه من الوالي متهماً إياه بقتل بركة بدون إذن مسبق، فأحضره إلى القاهرة وقُتل على يد

(1) المقرئزي: المصدر نفسه، 3/ 383.

(2) العسقلاني: إنباء الغمر، 211/1. ابن قاضي شهبه (تقي الدين أبي بكر، ت: 851 هـ) :

تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي بدمشق، 1977، 1/ 242.

(3) العسقلاني: المصدر السابق، 211/1. ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، 1/ 242.

(4) العسقلاني: المصدر السابق، 211/1. ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، 1/ 25 .

(5) العسقلاني: إنباء الغمر، 211/1. ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، 1/ 25-26. ابن شاهين:

شاهين: نيل الأمل، 166/2. المقرئزي: السلوك، 381-384/3. ابن إياس: بدائع الزهور،

261-257/2/1.

(6) العسقلاني: المصدر السابق، 257/1.

(7) ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، 1/ 26. وقد علق المقرئزي على هذه الحادثة بالطريقة نفسها

إذ قال: (فانقضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا، ونفوا وسجنوا... والله عاقبة الأمور)

السلوك، 3/ 385. وانظر أيضاً ابن شاهين: نيل الأمل، 166/2.

ممالك بركة، وقد أقدم برقوق على هذه الحيلة ليتمتع غضب أخوة بركة وأتباعه الذين تتمروا وأرادوا القيام على برقوق⁽¹⁾.

شكلت هذه الواقعة حدثاً مهماً في تاريخ السلطنة المملوكية، انفرد بعدها برقوق بتصريف أمورها، بعد أن غدا سيد الموقف بلا منازع، والسلطان إذ ذاك الصالح حاجي بن الملك الأشرف شعبان، "صغير لا يفهم الخطاب، ولا يرد الجواب"⁽²⁾، وعندما قلده الخليفة السلطنة سنة 783هـ/1381م بعد وفاة أخيه علي بن شعبان،⁽³⁾ جعل الأمير برقوق كافلة في الولاية والنظر للمسلمين لصغر سنه، ويقول ابن خلدون أن ببيعة الصالح حاجي، ضُرب للأمير برقوق بها سهم، أي أصبح شريك بالسلطنة،⁽⁴⁾ وعندما شعر برقوق بأن الرعية "أنست بحسن سياسته وجميل سيرته"⁽⁵⁾ ولمس ولمس في نفس الأمراء الموافقة على سلطنته⁽⁶⁾، قام بجمع الخليفة مع القضاة وسائر الأمراء، وبدأت المسرحية كالعادة بأن تكلم برقوق بحاجة البلاد إلى إقامة سلطان كبير تجتمع عليه الكلمة ويقوم بأعباء الحروب والتدبير ونحو ذلك،⁽⁷⁾ ولما لم يكن هناك من يناقش الأمير برقوق، اتفق الجميع على سلطنته "لما اجتمع فيه من الدين والمعرفة والشجاعة والتمكين"⁽⁸⁾، وفي يوم الأربعاء 19 رمضان 784هـ تشرين الثاني/1382م خُلع الملك الصالح وبويع برقوق سلطاناً وأُقب بالملك الظاهر.⁽⁹⁾

(1) العسقلاني: إنباء الغمر، 215/1. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 1/32-34. ابن شاهين: نيل الأمل، 169/2. المقرئزي: السلوك، 396/3. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/204. ابن إياس: بدائع الزهور، 274-273/2/1.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، ج1/36.

(3) العسقلاني: إنباء الغمر، 232/1. ابن شاهين: نيل الأمل، 175/2. المقرئزي: السلوك، 439/3. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/206-207. ابن إياس: بدائع الزهور، 285/2/1.

(4) ابن خلدون: العبر، 1011/5.

(5) ابن خلدون: العبر، 1015/5.

(6) الصيرفي: نزهة النفوس، ج1/36.

(7) المقرئزي: السلوك، 475/3. ابن شاهين: نيل الأمل، 195/2.

(8) الصيرفي: نزهة النفوس، ج1/36.

(9) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 86/1. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/301. المقرئزي: السلوك، 475/3، 477. ابن شاهين: نيل الأمل، 195/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11

ثانياً: اضطراب الأوضاع في بلاد الشام:

1- سلطنة برقوق الأولى والاضطرابات في بلاد الشام:

ببيعة برقوق سلطاناً على المماليك تنتهي دولة المماليك الأتراك وتبدأ دولة المماليك الجراكسة سنة 784هـ/1382م، وهذا لم يكن يعني نهاية المشاكل، بل على العكس، فقد عصفت بالبلاد سلسلة من الثورات والمؤامرات استنزفت قوى البلاد، وأيقظت الأحقاد، وأطاحت بالنهاية بسلطنة الظاهر برقوق مدة من الزمن، فلم ينعم برقوق في سلطنته الأولى (784-791هـ/1382-1389م) بشيء من الاستقرار وحلاوة الملك، بل تعرض لثورات ومحاولات انقلاب عديدة.

بدأ برقوق بإجراءات تهدف التخلص من المماليك الترك، فنفي بعضهم، وصادر أملاك وإقطاعات آخرين، وقال عن المماليك الأشرفية⁽¹⁾: "لا آمن منهم على شيء لأنهم خونة وقد خانوا أسنادهم وأعانوا على هلاكه بشيء حقير من المال... فلا بارك الله فيهم"⁽²⁾ ونتيجة للإجراءات التي اتخذها برقوق بحقهم ساءت أحوالهم حتى أصبح بعضهم "ممن كان من أمراء الألوفا أيام الأشرف وقد صار فقيراً يسأل الناس"⁽³⁾.

حنق المماليك الترك على الظاهر برقوق، وبات عليه الاستعداد لمواجهة انتقامهم، وكانت أول محاولة تمرد قامت ضده ثورة الأمير علاء الدين ألتنبغا نائب الأبلستين، إلا أنه لم يوفق في تمردة وفرّ إلى سيواس.⁽⁴⁾

221/ ابن إياس: بدائع الزهور، 312/2/1، 318. حكيم عبدالسيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص 37-60.

(1) أي مماليك الأشرف شعبان.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 50. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 88/1.

(3) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 50.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 92، المقريزي: السلوك، 3/ 481-482، الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 53-54.

أخفت ثورة نائب الأبلستين، لكنها فتحت الباب لحركات التمرد، ودلت على الرفض التركي للحكم الجركسي عندما صرح بذلك الأمير أطنبغا وهو خارج من سيواس إلى بلاد التتار قائلاً: (لا أكون في دولة حاكمها جركسي)⁽¹⁾.

حتى أن الخليفة العباسي المتوكل على الله لم يَرُقْ له الحكم الجركسي، فتحالف مع الترك سنة 785هـ/ 1383م واتفقوا على اغتيال برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان، لكن السلطان كشف المؤامرة وعزل الخليفة وعين مكانه خليفة جديد وعاقب باقي المتآمرين.⁽²⁾

على أن أخطر المنافسين على الإطلاق هو نائب حلب الأمير يلبغا الناصري أحد أفراد الفرقة اليلبغاوية.

كان يلبغا سابقاً أحد ثلاثة أشخاص سيطروا على شؤون السلطنة ومقدراتها، هو والأمير بركة والأمير برقوق، كان قد نفي إلى الشام على اثر مقتل السلطان الأشرف شعبان سنة 778هـ/ ثم عاد إلى القاهرة، عين أمير طبليخانة، ثم رقي إلى أمير ومقدم ألف ورأس نوبة في الوقت الذي لم يتأمر فيه برقوق على عشرة، وفي سنة 779هـ/ أصبح كل من برقوق وبركة أمراء طبليخانة، وبدفعة واحدة أصبح برقوق أمير آخور كبير وسكن الإسطبل السلطاني، وبركة أمير مجلس، تم نجح الأميرين الأخيرين بإبعاده عن الساحة عندما تم عزله عن إمرة السلاح وسجنه، ثم إرساله سنة 780هـ/ نائباً على طرابلس، ثم استدعاه برقوق -بعد أصبح أتابك العسكر- على أثر ثورة إينال الجركسي اليوسفي سنة 781هـ/ وسلمه إمرة السلاح مكان إينال هذا، لكن في الفتنة التي وقعت بين بركة وبرقوق سنة 782هـ/ وقف يلبغا إلى جانب بركة، لذا قام برقوق بإرساله إلى سجن الإسكندرية مع مَنْ اعتقله، إلى أن اعتلى برقوق السلطة فأحضره إلى القاهرة، وقبل يلبغا الأرض بين يديه نائباً، فعفا عنه وأسند إليه نيابة حلب.⁽³⁾

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 229.

(2) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 275، ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 110/1.

(3) انظر: العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 152، 153، 155، 156، 171، 272. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 249، 262، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 153، 155، 158-160، 162-164، 167، 169، 176، 179-180. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 124، 129-130، 135، 138-139، 166.

في سنة 787هـ/1385م شعر برقوق بخطر يلبغا، فاستدعاه إلى القاهرة، ومن هناك أرسله مكبلاً إلى سجن الإسكندرية،⁽¹⁾ ثم عفا عنه وأرسله مرة أخرى إلى حلب سنة 789هـ/1387م،⁽²⁾ وفي نيابته لحلب للمرة الثانية تمرد على السلطنة نائب ملطية الأمير تمرغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش، وانضم إليه صاحب سيواس، ونائب البيرة، إلا أن يلبغا لم ينضم لهذا التحالف، بل نفذ أوامر السلطان بالتحرك ضدهم لإخضاعهم، حيث هاجم ملطية فهرب منطاش، ثم نازل سيواس، وعلى الرغم من استعانتهم بالأرمن والتتار، إلا أن يلبغا كسرهم، ويادر صاحبها بطلب الصلح وإعلان الطاعة، فكان له ذلك.⁽³⁾

2- ثورة الأمير يلبغا الناصري نائب حلب وانعكاساتها على الأوضاع في بلاد الشام:

شكلت ثورة أو تمرد يلبغا نائب حلب أخطر حركة واجهها السلطان برقوق على الإطلاق، وأحداثها باختصار: في سنة 791هـ/ م، وقعت وقعة عظيمة بين نائب سيس، **وابن خليل بن دلغادر وتركمان الطاعة- وهم من صف السلطنة -من جهة، ومنطاش، وسولي بن دلغادر- وهم متمردين على السلطنة - من جهة ثانية، وفي هذه الوقعة حلت الهزيمة بمنطاش وسولي بن دلغادر**⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ويرى المؤرخون أن سبب ذلك هو تباطؤ يلبغا في تنفيذ أوامر السلطان برقوق باعتقال سولي بن دلغادر التركماني أحد أعداء السلطنة عندما قدم إلى حلب طائعاً، وقام بتهديبه وادعى بأنه هرب ولحقه فلم يدركه مما أوغر قلب السلطان ضده. انظر، العسقلاني: إنباء الغمر، 302/1، الصيرفي: نزهة النفوس، 115/1، 119. ابن شاهين: نيل الأمل، 226/2، 229. ابن إياس: بدائع الزهور، 359 /2/1، 361.

⁽²⁾ الصيرفي: نزهة النفوس، 158/1، ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 181 /1، 222، 223. العسقلاني: الدرر الكامنة، 440 /4، 441. المقرئزي: السلوك 3 /567.

⁽³⁾ العسقلاني: إنباء الغمر، 333-332 /1، الصيرفي: نزهة النفوس، 158 /1، المقرئزي: السلوك، 579، 576، 574، 567/3.

⁽⁴⁾ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 50/9. الصيرفي: نزهة النفوس، 182 /1. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 262/1. ابن شاهين: نيل الأمل، 267/2.

يرد عند المؤرخين إشارات إلى تحالف تم بين منطاش وبلغا الناصري صاحب حلب⁽¹⁾، ولا بد بأن شيء من هذا وصل إلى مسامع السلطان، ناهيك عن أن العلاقة بين السلطان برقوق وبلغا لم تكن شفافة، ويشوبها الحذر والشك، ونعلم بأن بلغا أُسر مرتين على يد برقوق، لذا عندما وقعت الفتنة بين الأمير سودون المظفري⁽²⁾ أتابك العسكر آنذاك وبين بلغا، كتب كل واحد إلى السلطان في الآخر، فأرسل السلطان إلى الناصري هدية جليلة وكتاباً يأمره فيه بالحضور إلى القاهرة، قبل الناصري الهدية واعتذر عن الحضور بحجة خوفه على حلب من التركمان ومنطاش، وربما كان يشعر بنية السلطان تجاهه، تظاهر السلطان بقبول العذر وأرسل مع الأمير تلكتمر المحمدي؛ دوادره الصغير بكتابين إلى حلب، واحد ظاهري لسودون وبلغا يأمرهما فيه بالتصالح أمام الأمراء وكبار حلب، والآخر باطني كتب فيه لسودون بالقبض على بلغا والفتك به.

وصل تلكتمر إلى حلب، وقبل وصوله علم بلغا الناصري بما دُبر له - وذلك عن طريق رسوله الذي كان قد أرسله للسلطان بكتاب الاعتذار عن القدوم - وفي الاجتماع المقرر لإقرار الصلح بين الطرفين اغتتم الناصري الفرصة ويادر بقتل سودون المظفري وبعض مماليكه، ثم قصد قلعة حلب فأخذها بالقوة، وأطاعه جميع من بطلب من الأمراء والعسكر، وقبض على عدد من الأمراء الذين خشي أمرهم، وصار يستدعي التركمان والعربان، فولى وعزل وقطع ووصل، ثم قَدِمَ عليه منطاش وقَدِمَ له الطاعة، ولما وصل الخبر إلى طرابلس ثار الأمراء الترك المنفيون بها على النائب اسندمر، فقتلوه وتسلم النيابة الأمير بزلاز وأعلن الطاعة لبلغا الناصري، وقبض على من كان بها من الجركس، ثم دخل الأمير كشمبغا المنجكي نائب بعلبك في طاعة الناصري، وفي حماه تمرد حاجبها الأمير سيف الدين بيزم العزي على النائب سودون العثماني الذي فر هارباً، وتسلم مكانه الحاجب وأعلن الطاعة للناصرى، ثم دخل كل من سولي بن دلغادر أمير التركمان، ونُعير أمير عرب شمال الشام في طاعة الناصري.⁽³⁾

(1) العسقلاني: إنباء الغمر، 364/1. ابن صصرى (محمد بن محمد بن صصرى): الدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية، تح: وليم م. برينز، كالفورنيا، 1963م، ص 3-4.

(2) الأمير سودون المظفري أتابك العسكر في حلب في ذلك الوقت، كان نائب حلب، فعندما تم تولية بلغا نيابة حلب للمرة الثانية عُزل وعين أتابكاً فيها، انظر: المقريزي، السلوك، 3/ 567.

(3) العسقلاني: إنباء الغمر، 364/1-365. الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 183-187. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 263 - 264. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 50 - 56.

وبهذا تكون بلاد الشام كلها تقريباً خرجت من يد برقوق إلى يد الناصري الذي أعلن أمام الرأي العام نُصرة الخليفة،⁽¹⁾ واتفق مع أتباعه على إعادة دولة الناصر محمد بن قلاوون بتعيين واحد من ذريته، كما أنه كان هناك عدد من الأمراء المماليك بالديار المصرية على اتصال واتفق معهم.⁽²⁾

في القاهرة اضطربت الأوضاع بعد سماع هذه الأخبار، فقام السلطان ببعض الترتيبات، ثم شكل فرقة على رأسها الأمير أيتمش أتابك العسكر، والأمير جركس الخليلي أمير آخور وغيرهم من الأمراء، وأمرهم بالمسير إلى الشام، حيث خرجت العساكر من القاهرة في 14 ربيع الأول 791هـ/⁽³⁾ ودخلت دمشق في 11 ربيع الآخر/⁽⁴⁾ وهناك تقرر بعد الاجتماع بنائبها الأمير حسام الدين طرنطاي إرسال وفد من العلماء إلى حلب لدعوة الناصري للصلح، ولما وصل الوفد إلى الناصري أحسن استقبالهم وأكرمهم ووعدهم بالجميل، ثم غافلهم وسار إلى دمشق وطوى خبره، في حين كان العسكر المصري هناك قد تشاغل "باللهو واللعب وشرب المنكرات، فلم يشعروا إلا والأخبار قد تواترت بأن يلبغا الناصري قد وصل إلى دمشق".⁽⁵⁾

المقريزي: السلوك، 3/ 590 - 597. ابن تغري بردي: النجوم، 11/256-260. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 268-271. ابن خلدون: العبر، 5/1036-1037. ومنهم من يذكر بأن بيرم نائب حماه فر هارباً إلى دمشق من يلبغا الناصري الذي ملك حماه، ابن إياس: بدائع الزهور، 1/396/2. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 4-7.

⁽¹⁾ العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 365.

⁽²⁾ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/57. 58. الصيرفي: نزهة النفوس، 1/189.

⁽³⁾ الصيرفي: نزهة النفوس، 1/191. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/267-268. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 1/58، 61. ابن تغري بردي: النجوم، 11/269. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 6-7.

⁽⁴⁾ الصيرفي: نزهة النفوس، ج1/192. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 7-8.

⁽⁵⁾ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات: ج9/63. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 9-10. ابن تغري بردي: المصدر السابق، 11/262-264. المقريزي: السلوك، ج3/598، ويقول بأنه التقى بالوفد فيما بين قارة والنبك أثناء مسيره إلى دمشق.

اشتبك الفريقان في خان لاجين شمال دمشق، فقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، وكان النصر من نصيب الناصري، حيث فر العسكر المصري "لا يلوى أحد على أحد، كل يريد النجاة بنفسه ويسلك طريقاً".⁽¹⁾

دخل الناصري دمشق في 12 ربيع الآخر 791هـ/ فاستولى عليها وعلى قلعتها من غير قتال ولا ضراب، ولما وصلت الأخبار إلى مصر بذلك "خارت قوى السلطان وأخذ أمره في الاضمحلال"،⁽²⁾ ومن دمشق سار يلبغا الناصري يريد القاهرة بعد أن عين الأمير جنتمر نائباً عليها، واجتمع لديه نواب وأجناد بلاد الشام وقلعها،⁽³⁾ ولما اقترب أمر السلطان برقوق بإغلاق أبواب القاهرة واتخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة الحصار،⁽⁴⁾ لكن بشكل عام سيطر الخوف والذعر على القوات في القاهرة، وانتشرت الفوضى هناك، وقد تزامنت مع تردي الأوضاع الاقتصادية وانتشار مرض الطاعون بشكل لم يتمكن فيه الناس من دفن موتاهم،⁽⁵⁾ ويُجمل ابن تغري بردي أوضاع القاهرة آنذاك بقوله: "وصار الأمر فيها لمن غلب".⁽⁶⁾

التزم السلطان برقوق بالدفاع، ولم يقم بأي عمل هجومي، وربما كان من الأفضل لو نقل المعركة إلى خارج القاهرة.

⁽¹⁾ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 270. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 1/ 63. ابن تغري بردي: المصدر السابق، 11/ 264-265. المقريزي: السلوك، 3/ 599. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 397. ابن خلدون: العبر، 5/ 1038.

⁽²⁾ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 270-271. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 273. أما الصيرفي فعلق على الحدث قائلاً بأن دولة السلطان بعد المعركة (أسفرت ومضت كأن لم تكن ساعة من الأيام)، نزهة النفوس، 1/ 197.

⁽³⁾ المقريزي: السلوك، 3/ 607. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 272. ابن خلدون: العبر، 5/ 1039. ابن صصري: الدرّة المضيئة، ص 18.

⁽⁴⁾ الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 197، 202. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 71. المقريزي: السلوك، 3/ 608 - 610. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 271-274.

⁽⁵⁾ عن أوضاع القاهرة آنذاك، انظر، ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 275. الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 202. المقريزي: السلوك، 3/ 608 - 609. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 273.

⁽⁶⁾ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، 11/ 273.

على كل حال أقبلت طلائع الناصري في 4 جمادى الآخرة 791هـ/ 1389م "كأنها الموت الأحمر"،⁽¹⁾ وأول من اصطدم معهم قجماس ابن عم السلطان برقوق، ولم يُسفر هذا القتال عن نتائج مهمة، ولكن وضع تخاذل الناس عن الملك الظاهر برقوق، إذ بدأ بعض الأمراء بالهروب من عنده والانضمام إلى جانب يلبغا على الرغم من كثرة ما أنفقه السلطان عليهم من أموال،⁽²⁾ ولما رأى السلطان أنه لا طائل من المقاومة أثر أن يجنب القاهرة الخراب وسفك الدماء، لذا أرسل إلى يلبغا يعرض عليه الصلح والتنازل عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته، فكتب له الناصري أماناً، وحرص على الالتزام به، لذا فقد أوصى حامل هذا الأمان بأن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخدم الفتنة ويدبر له أمراً،⁽³⁾ وكان ذلك، ففي يوم الاثنين 5 جمادى الآخرة دخل يلبغا الناصري وعسكر في القاهرة، وفي يوم الثلاثاء أحضر الصالح حاجي بن الأشرف شعبان وعقد له السلطنة ولقب هذه المرة بالملك المنصور، وجعل الناصري أتاكه⁽⁴⁾.

كانت السلطة الفعلية آنذاك بيد الأمير يلبغا الناصري، ولم يكن للسلطان حاجي من السلطة إلا اسمها، وقد سيطرت مظاهر الفوضى على الوضع العام في القاهرة، فانتشرت المماليك، والترك، والذعر ينهبون ويسلبون "إلى أن ضاق بالناس الخناق من كثرة النهب، والخوف، وقلة الأمن، وشدة الأمور، واتفاق حوادث لم يقع مثلها بالديار المصرية"،⁽⁵⁾ مما زاد في نقمة الناس على السلطة بشكل جعلهم يرددون عبارة "راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه".⁽⁶⁾

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 208/1.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 83-84. المقريزي: السلوك، 3/614. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/281-282. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 1/ 2-400. ابن خلدون: العبر، 5/1040.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/87. المقريزي: السلوك، 3/615. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/368. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/285. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 1/ 2-402. ابن خلدون: العبر، 5/1040.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 77. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 274.

(5) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 90.

(6) المقريزي: السلوك، 3/ 627.

اعتقل السلطان برقوق ونُفي إلى الكرك،⁽¹⁾ واعتقل عدد كبير من أتباع الظاهر برقوق، ومن بقي منهم فقد نودي بعدم إقامته بديار مصر، إنما عليهم التوجه لخدمة نواب الشام، ومن تأخر حل ما له ودمه،⁽²⁾ وذلك رغبة من يلغا في إبعادهم عن حلبة الصراع في القاهرة، وسيُلاحظ أن هذا الأمر سوف يخدم الظاهر برقوق فيما بعد.

لم تستقم الأمور ليلغا الناصري سوى أشهر قليلة، حتى بدأت الفتنة تشتعل بينه وبين الأمير منطاش في شهر شعبان من تلك السنة،⁽³⁾ أما عن أسباب الفتنة، فقد ذكر ابن خلدون أن منطاش كان طاوياً جناحه على الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الإقطاع، ولم يجعلوا اسماً من الوظائف حين اقتسموها، ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارنته الأعداء، فاستوحش وأجمع على الثورة،⁽⁴⁾ ففي شهر شعبان بدأت مظاهر التمرد عندما عزم الناصري ورأس نوبته أطنبغا الجوباني الجوباني على ابعاد منطاش إلى الشام، فتغيّب منطاش عن الخدمة وتمارض، ولما أرسل السلطان الأمير أطنبغا الجوباني لعيادته، سارع منطاش بالقبض على الجوباني واعتقاله مع مماليكه،⁽⁵⁾ ثم ركب مع مماليكه إلى الإسطبل السلطاني وصادر الخيول الموجودة هناك، وحاول الدخول ليدهم الناصري على حين غفله، فغلقت الأبواب في وجهه ولم يتمكن من الدخول.⁽⁶⁾

وبعد أن اجتمع لديه عدد من المماليك والفرسان أصبح هو المتحكم في شؤون القاهرة، بل نصّب والياً عليها هو الأمير ناصر الدين المعروف بابن يعلي بعد أن توارى والي القاهرة -الأمير

(1) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 369. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 275. ابن خلدون: العبر، 1042/5. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 19-20.

(2) المقرئزي: السلوك، 3/ 624-625، 632. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 407/2.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 281. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 24-25.

(4) ابن خلدون: العبر، 5/ 1042. وذكر العسقلاني أن خاطر منطاش تغيّر (بسبب أشياء سأل فيها، فلم يجبه الناصري إليها، وفهم من الناصري أنه يطلب السلطنة لنفسه) إنباء الغمر، 1/ 372.

(5) ابن خلدون: العبر، 5/ 1043. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 281. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 372. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 411/2. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 24.

(6) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 234 - 235. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 411/2. ابن خلدون: العبر، 5/ 1043.

حسين بن علي الكوراني- عن الأنظار، وقد نادى الوالي الجديد بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وإبطال المكوس والدعاء للأمير منطاش بالنصر.⁽¹⁾

شعر الناصري بضعف موقفه، فطلب من الخليفة التوسط لعقد الصلح وإخماد الفتنة، فرفض منطاش التنازل، وخاطب الخليفة قائلاً: "أنا في طاعة السلطان.. لكن غريمي الناصري لأنه خان الوعود والأيمان، فإنه حلف لي أيمان متعددة بسيواس ويحلب والشام بأني أكون أنا وإياه شيئاً واحداً، ... وانفرد بالمملكة.. ولم يجعل لي من المال سوى مائة ألف درهم وأخذ هو ما لا يحصر من الأموال، وأخرج أحسن الإقطاعات وأضافها لنفسه وأعطاني أحقرها... والله ثم والله ما أكف عنه حتى أقتله أو يقتلني أو يقيم سلطاناً يتصرف في الأمور"،⁽²⁾ وعاد القتال بين الطرفين سجالاً إلى أن هرب الناصري في 18 شعبان حيث استولى منطاش على الإسطنبول السلطاني ودخل إلى الخليفة معلناً الطاعة والولاء له،⁽³⁾ أما يلبغا الناصري فقد قبض عليه وأرسل مع عدد من الأمراء إلى سجن الإسكندرية.⁽⁴⁾

بدأ منطاش للوهلة الأولى أنه سيد الموقف في القاهرة، لكن هو الآخر لم تستتب الأمور له، وكانت نهايته على يد الظاهر برقوق.

بدأ منطاش بتعقب المماليك الجراكسة، وبالأخص الظاهرية منهم "فأبادهم قتلاً وحبساً"،⁽⁵⁾ وبدأ يقرب أتباعه ويوليهم، ثم أرسل إلى نائب الكرك الأمير حسن الكجكني رسالة مع شخص من أهل الكرك اسمه الشهاب البريدي؛ فيها أمر بتصفية الظاهر برقوق المسجون هناك،⁽⁶⁾ إلا أن

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 117/9-118. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 281/1-282. الصيرفي: نزهة النفوس: 1/ 234 - 237.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 237 - 238.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 282-283. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 123-124. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 412/2.

(4) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 373. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 412-413. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 277.

(5) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 374، المقريزي: السلوك، 3/ 650-651. ابن شاهين: نيل الأمل، 277/2-278. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 413/2.

(6) ابن شاهين: نيل الأمل، 278/2. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 413-414.

النائب ماطل في تنفيذ الأوامر، ولما علم أهل الكرك بالأمر قتلوا الشهاب البريدي وسحبوه إلى أمام السلطان برقوق وقالوا له: "دس برجلك على عدوك".⁽¹⁾

وسرعان ما تطورت الأمور لصالح برقوق، إذ أعلن أهل الكرك الطاعة له ومكنوه من الاستيلاء عليها وعلى حصنها في رمضان 791هـ/، ثم توافد عليه المماليك الجراكسة الموجودين في بلاد الشام ناهيك عن العربان من بني عقبة وغيرهم،⁽²⁾ ومن جهة ثانية فقد خرج عن طاعة منطاش في ذلك الشهر كل من نُعير أمير العرب وبزلار نائب دمشق،⁽³⁾ وفي شهر شوال خرج الأمراء المقيمين في قوص عن الطاعة عندما سمعوا بخبر برقوق في الكرك، وقبضوا على الوالي هناك،⁽⁴⁾ ثم قدم الخبر بخروج نائب حلب كشمبغا الحموي عن طاعة منطاش بعد سماعه بالخبر ذاته.⁽⁵⁾

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 250-251. ابن خلدون: العبر، 5/1046. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/414-415. ابن صصري: الدرة المضيئة، ص 25.
الشهاب البريدي شخص من أهل الكرك وكان مكروه عندهم لأمر عدة. المقرئزي: السلوك، 3/656. أما العلاقة بين نائب الكرك والسلطان المأسور عنده فكانت علاقة طيبة. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/2/415، كما يذكر المؤرخون بأن الناصري لما شعر بقرب زوال ملكه أرسل إلى الكجكني بإطلاق سراح برقوق. انظر: ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/140، المقرئزي: السلوك، 3/657.

(2) المقرئزي: السلوك، 3/651. ابن خلدون: العبر، 5/1047.

(3) المقرئزي: السلوك، 3/651. ابن خلدون: العبر، 5/1045.

(4) المقرئزي: السلوك، 1/662. ابن خلدون: العبر، 5/1048-1049. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/416/2/1.

(5) المقرئزي: السلوك، 1/662. ابن خلدون: العبر، 5/1049-1050. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/416/2/1.

تجمع لدى الظاهر برقوق قوة عزم على الخروج بها إلى دمشق، وفعلاً سار لمحاصرتها، ولما خرج نائبها الأمير جنتمر⁽¹⁾ للتصدي له اشتبكوا بمعركة في شقحب هُزم فيها جنتمر وفر هارباً إلى قلعة دمشق حيث تحصن بها.⁽²⁾

نزل الظاهر برقوق في قبة يلبغا جنوبي دمشق ومعه قوة صغيرة لا تساعد على حصار دمشق، واتفق في هذا الوقف خروج كشمبغا نائب حلب على منطاش، فقام بإرسال تجريدة من منتي مملوك لمساعدته⁽³⁾، وفي هذه الأثناء انتصر برقوق على نائب غزة ابن باكيش، واحتوى على جميع أنقاله، فقوي بذلك⁽⁴⁾، كما وصل إليه من صفد ابن عمه الأمير قجماس، والأمير إينال اليوسفي، بعد أن تمكن أحد مماليك الظاهر من إخراجهم من السجن، فقدموا إليه ومعهم مجموعة من المماليك وهو نازل على قبة يلبغا "فكانوا له فرجاً عظيماً"⁽⁵⁾ وعندما وصل نائب حلب بذاته إلى برقوق قويت أحواله "بعد أن كادت تتلاشى"⁽⁶⁾، وأكثر من ذلك فإن خروج الأمراء بقوص كما ذُكر من قبل وانضمام المماليك الظاهرية إليهم⁽⁷⁾ أعطى فرصة قوية لبرقوق للتحرك اغتناماً لوقوع منطاش بين نارين.

3- معركة شقحب 792هـ / وسلطنة برقوق الثانية:

(1) لما خرج بزلاز نائب دمشق عن طاعة منطاش تمكن الأمير جنتمر من القبض عليه واستلام النيابة بدلاً منه بعد أن وعده بها منطاش. انظر، المقرئزي: السلوك، 655/3.

(2) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 375، المقرئزي، السلوك، 3/ 667. ابن خلدون: العبر، 5/ 1047. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 280. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 26-27.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 291. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 34.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 261. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 375. ابن خلدون: العبر، 5/ 1047.

(5) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 376. الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 263. ابن خلدون: العبر، 5/ 1048. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 417/2/1. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 33.

(6) العسقلاني: المصدر السابق، 1/ 376. ابن خلدون: العبر، 5/ 1050. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 285. ابن

ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 418/2/1-419.

(7) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 256 - 257.

أهلت سنة 792هـ/ وديار مصر وبلاد الشام من الفرات إلى أسوان كما يقول المقرئزي: في غاية الاضطراب، وترقب الشر، فقد خرج منطاش من القاهرة على رأس العسكر المصري؛ ومعه السلطان والخليفة، يريد قتال برقوق، فوصل غزة في 2 محرم 792هـ/ ، وعندما علم برقوق بخروجه فك الحصار عن دمشق وتوجه جنوباً إلى وادي شقحب حيث التقى الجمعان في 14 محرم⁽¹⁾.

في اللقاء الأول تعرضت قوات برقوق لهزيمة فر على أثرها كشمبغا نائب حلب عائداً إلى بلاده، كما عاد الأمير حسن الكجكني إلى الكرك، إلا أن الظاهر برقوق ظل يقاوم بشراسة إلى أن تمكن من هزيمة القلب واعتقال الخليفة والسلطان، في حين أن منطاش ساق خلف المنهزمين من قوات برقوق ودخل دمشق ظاناً أنه حقق النصر،⁽²⁾ وصار الأمراء من أتباع منطاش الذين ساقوا خلف المنهزمين من قوات برقوق يعودون إلى معسكرهم في شقحب ظناً أن العسكر هناك هو عسكر منطاش، فإذ يفاجئوا بالملك الظاهر، "فينزل ويبوس الأرض ويطيع الظاهر ومن لم يطيع إما أن يقتل أو يقبض عليه"،⁽³⁾ وهكذا أصبح الظاهر في اليوم الثاني وعنده جيش كثيف التقى به مع منطاش؛ الذي أقبل إليه بعدد كبير من عامة دمشق وعسكرها، وبعد قتال دام منذ شروق الشمس حتى غروبها يوم 16 محرم أجبر منطاش في آخره على التراجع إلى دمشق والتحصن بها، أما الظاهر برقوق فقد ظل مقيماً هنا سبعة أيام،⁽⁴⁾ إلى أن غلت الأسعار وقلت الأقوات، فقام بجمع أهل الحل والعقد وأشهدهم على المنصور حاجي أنه خلع نفسه، وباع الجميع برقوق الذي

(1) المقرئزي: السلوك، 3/ 690، 692-694. ابن خلدون: العبر، 5/ 1052-1053. ابن شاهين: نيل الأمل،

284/2-285. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 43، 49.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 284. ابن خلدون: العبر، 5/ 1053. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 285. ابن إياس:

بدائع الزهور، 1/ 427-428. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 186. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي

شهبة، 1/ 319-321. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 49-50.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 187. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 11/ 269. ابن خلدون: العبر،

5/ 1053. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 285. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 428. ابن صصرى: الدرة

المضيئة، ص 50.

(4) سبعة أيام على قول الصيرفي في نزهة النفوس، 1/ 285، وعلى قول ابن الفرات تسعة أيام،

تاريخه، 9/ 187.

شرع على الفور في تولية النواب، بعد هذه البيعة استقر الرأي على العودة إلى مصر، فوصلها في 14 صفر 792هـ / 139م حيث استقبل في القاهرة استقبال الأبطال⁽¹⁾.

4- سلطنة برقوق الثانية 792-801هـ / وإرساء دعائم سلطنة المماليك الثانية:

بعد عودة السلطان الظاهر برقوق إلى القاهرة قام بمجموعة من الأعمال والترتيبات لإعادة الاستقرار للسلطنة، كما بات عليه التخلص من العناصر المعارضة له، فقام بحركة ذكية؛ إذ عمد إلى ضرب الأطراف المناوئة له ببعضها، فأخرج بعض الأمراء المسجونين في الإسكندرية، ومنهم الأمير يلبغا الناصري والأمير أطنبغا الجوباني، فعفا عنهم، وعين الجوباني نائباً لدمشق، ثم عبأ قوة وقدم عليها يلبغا الناصري وأمرهم بالمسير لقتال منطاش في دمشق⁽²⁾، وخاطبه قائلاً "هو غريميك، اعرف كيف تقاتله"⁽³⁾.

في ذلك الوقت كان هناك عدد من المماليك المنطاشية هربوا من الشام إلى مصر تاركين خدمة منطاش، بالإضافة إلى الأمير قطلوبغا الذي أرسل من قبل منطاش لمحاصرة صفد فتركها وتوجه إلى السلطان طائعاً⁽⁴⁾، لذا عندما تقدم العسكر المصري إلى دمشق تركها منطاش هارباً إلى

(1) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 322 - 323. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 371/11. الصيرفي: نزهة النفوس: 1/ 286. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 187 - 188. المقرئزي: السلوك، 3/ 703 - 704. ابن خلدون: العبر، 5/ 1054. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 288-285. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 428-429.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 296 - 297، 300، 302. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 332. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 288، 290، 291. ابن إياس: بدائع الزهور، 2/ 435-436. المقرئزي: السلوك، 3/ 710، 712.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 9.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 206، المقرئزي: السلوك، 3/ 712، الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 302. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 59.

حمص بسبب قلة قواته، فدخلها الجوباني وعليه خلعة النيابة في جمادى الآخرة 792هـ/ نيسان 1390م.⁽¹⁾

كان منطاش قد أرسل جيشاً بقيادة أحد الأمراء واسمه تمان تمر الأشرفي لحصار حلب بعد توجه السلطان إلى مصر عقب معركة شقحب، فصمد نائبها كشمبغا الحموي مدة أربعة شهور ونصف أمام الحصار، إلى أن سمع تمان الأشرفي بهروب منطاش من دمشق، فترك الحصار وهرب هو أيضاً.⁽²⁾

اجتمع الطرفان في معركة قرب سلمية في شهر شعبان 792هـ/ تموز 1390م، لم تُسفر عن انتصار أو هزيمة أحد الأطراف، إلا أن الجوباني قُتل فيها وجُرح منطاش،⁽³⁾ فرسم السلطان بناية دمشق ليلبغا الناصري،⁽⁴⁾ في حين كان منطاش قد فر هارباً إلى حلب ثم إلى عينتاب ومنها إلى مرعش.⁽⁵⁾

عاد منطاش مهاجماً حماه حيث فر نائبها إلى طرابلس، ثم هاجم حمص حيث فر نائبها إلى دمشق ومن هناك توجه إلى بعلبك، فقصدته يلبغا الناصري ولكن من طريق مغاير للطريق الذي قدم

(1) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 336-337. المقرئزي: السلوك، 3/ 715.

العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 397. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 63 64.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 214-215. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 12-13.

ابن خلدون: العبر، 5/ 1059-1061. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 439. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 341. المقرئزي: السلوك، 3/ 717.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 218-219. ابن خلدون: العبر، 5/ 1058-1062. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 342-343. ابن صصرى: الدرّة المضيئة، ص 66.

(4) المقرئزي: السلوك، 3/ 722. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 295. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 440.

(5) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 314، 322. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 296، 301. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 440. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 368.

فيه منطاش، لذا فقد أضله، ودخل منطاش دمشق في مطلع شهر رجب 793هـ دون مقاومة تذكر، فمكث فيها إلى آخر الشهر، ثم تمكن الناصري من دخولها.⁽¹⁾

لم تعجب السلطان هذه الحركات، وقرر حسم الأمر بنفسه، فانطلق بنفسه على رأس جيش من القاهرة إلى دمشق فدخلها في 22 رمضان، ومنها سار إلى حلب ماراً بحمص وحماه لتأكيد سلطته هناك⁽²⁾.

صحيح أنه لم يتمكن من القبض على منطاش، لكنه تخلص من عدوٍ آخر لا يقل خطراً عنه، وهو يلبغا الناصري، فقبض عليه في حلب بعد أن بلغه بأن منطاش ما حضر إلى دمشق إلا بمكاتبه من الناصري، وأنهما اجتمعا في الحمام بدمشق ثلاث مرات، وكل ما وقع من منطاش كان بموافقة الناصري، وعندما قبض على منطاش من قبل أحد الأمراء في ماردين؛ وهو الأمير سالم الدوكاري، وأراد تسليمه إلى السلطان، كتب له الناصري: "خذ منطاش واهرب فإنه ما دام منطاش موجوداً نحن موجودين"، ولما تأكد السلطان من ذلك قام بقتله.⁽³⁾

عاد السلطان إلى القاهرة ولم يتمكن من القبض على منطاش، الذي عاد للتحرك في بلاد الشام إذ هاجم سلمية سنة 795هـ/⁽⁴⁾، كما هاجم حماه،⁽¹⁾ وفي الأخير احتال عليه نائب حلب

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 328-330. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 255، المقرئزي: السلوك، 3/ 742-743. ابن إياس: بدائع الزهور: 1، ق 444/2. ابن شاهين: نيل الأمل، 303/2. ابن خلدون: العبر، 5/ 1071-1072.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 14-15. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 307. المقرئزي: السلوك، 3/ 748-750. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 93، 99.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 271. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 447-448. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 311. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 101. المقرئزي: السلوك، 3/ 753 (يذكر اسم الأمير سالم الذكرى)، وهذا أحد أمراء التركمان، قبض على منطاش عند ماردين، وأراد تسليمه، وأرسل للسلطان بذلك، لذلك أرسل السلطان نائب حلب قرادمرdash لتسلمه، وأعقبه بيلبغا الناصري، ثم عدل الدوكاري عن رأيه ورفض تسليمه بأمر من الناصري. ابن خلدون: العبر، 5/ 1074.

(4) ابن الفرات: ابن الفرات، 9/ 332. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 39. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 330. المقرئزي: السلوك، 3/ 783. ابن خلدون: العبر، 5/ 1077.

الأمير جلبان واعتقله، فقتل وحُمل رأسه وطاف به في شوارع حلب ثم جيء به إلى القاهرة حيث عُلق رأسه على باب القلعة ثم على باب زويلة.⁽²⁾

وبذلك يكون السلطان قد تخلص من أخطر مناوئيه في بلاد الشام ليستتب إلى حدٍ ما الحكم للمماليك الجراكسة.

رابعاً - الاجتياح التيموري لبلاد الشام واحتلال دمشق:

ترافق قيام دولة المماليك الثانية مع ظهور قوة جديدة في الشرق من المغول الجغتائيين بقيادة زعيمهم تيمورلنك.

قبل الحديث عن تيمورلنك؛ لا بد من توضيح معنى مصطلح المغول الجغتائيين، فجنكيز خان الذي أسس إحدى أكبر الإمبراطوريات في التاريخ قام قبيل وفاته بتقسيم إمبراطورية بين أربعة من أبنائه (باتو، وجغتاي، وتولوي، وأوكتاي)، فكانت بلاد ما وراء النهر مع المناطق الممتدة من

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 358. ابن تغري بردي: المصدر السابق، 40/12. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/330. المقرئزي: السلوك، 3/783.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 470-471. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 338-339. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/332-333. المقرئزي: السلوك، 3/785-786. ابن خلدون: العبر، 5/1087. ابن صصري: الدرّة المضيئة، ص 139.

جبال أطاى حتى نهر جيحون من نصيب ابنه جغطاي، ويقال له كداي،⁽¹⁾ فعرفت البلاد نسبةً له ببلاد جغطاي وأهلها بالجغطائيين⁽²⁾.

ظلت خانبة جغطاي تابعة لخان المغول في العاصمة قراقورم حتى وصول الخان (دوا) Dauwa إلى حكمها حوالي 675-706هـ/1274-1306م وهو الخان العاشر من سلسلة خانات جغطاي،⁽³⁾ ليبدأ في عهده نوع من الاستقلال عن التبعية لأبناء جنكيزخان، وتؤكد الاستقلال بشكل أكبر في عهد ابنه كبك الذي استلم الحكم سنة 1318م، فبنى عاصمة مستقلة وسك نقوداً خاصة باسمه،⁽⁴⁾ ثم خلفه أخوه ترماشيرين 727-734هـ/1326-1334م، فاعتنق الإسلام وبدأ بنشره هناك⁽⁵⁾، لكنه قتل على إثر ثورة قامت ضده بسبب اعتناقه الإسلام.⁽⁶⁾

وبالنسبة للمرحلة التي تلتها فقد اكتتفها الغموض حتى قيام تيمورلنك الذي كان ظهوره سبب في ظهور عدد من المؤلفات التاريخية، لكنها لم تتناول الحقبة السابقة له⁽⁷⁾.

(1) ابن خلدون: العبر، 5/ 1120-1121، 1128. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، 1/164-165.

(2) كلافيجو (السفير الإسباني): سفارة إلى تيمورلنك 1403-1406، ترجمة سهيل زكار، مطبوع ولم ينشر بعد، ص 232، 235، كانت ممالك القراخانيين من نصيب جغطاي، وكانت حدود مملكة تشمل ما يعرف اليوم بتركستان (سواء تركستان الغربية أو الشرقية أو تركستان الأفغانية) وكانت عاصمته مدينة قنتاس. انظر، عباس إقبال: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م، ص 137.

(3) زامباور: معجم الأنساب، ج2/ 372 . 373.

(4)

(5) ابن خلدون: العبر، 5/ 1129، ويقول أنه اعتنق الإسلام سنة 725هـ.

أطلق هذا على نفسه اسم علاء الدين، وقد قابله الرحالة ابن بطوطة ووصف بأنه عظيم القدر كثير العساكر والجيش، الرحلة، ص 350.

أما الفلقتندي فوصفه بأنه حسن الإسلام عادل، السيرة طاهر الدين، مؤثراً للخير، صبح الأعشى، 7/ 305.

(6) ابن بطوطة: الرحلة، ص 359.

(7) بارتولد: تاريخ الترك، ص 213.

1- تيمورلنك:

هناك خلاف حاد وغموض حول الأصول التي ينحدر منها تيمورلنك، ولكن اعتماداً على النقش الموجود على قبره يتبين بأن نسبه يلتقي بجنكيزخان عن طريق جده العاشر قراجا ابن عم جنكيزخان،⁽¹⁾ وكان جنكيز خان عندما قسّم إمبراطوريته وأعطى لجغطاي حصته، أسند إلى ابن عم جغطاي وهو "قراجا" - أحد أجداد تيمورلنك - أمور مملكة جغتاي وجيشه، وأوصى جنكيز خان ابنه جغطاي بالاعتماد على قراجا الذي أظهر كفاءة عالية بفضل رجاحة عقله وإدارته الحازمة⁽²⁾، وبناءً على ذلك يكون قراجا الحاكم الفعلي لمملكة جغطاي آنذاك.

أما ابن عريشاه الذي عاصر تيمورلنك؛ فقد كتب ترجمة له وذكر بأنه من منشأ وضيع، فأبوه كان راعياً أو إسكافياً، وابنه تيمور لصاً، وقد أصيبت كتفه وقدمه في إحدى عمليات السطو فصار أعرجاً.⁽³⁾

وبالنسبة لابن خلدون الذي قابل تيمورلنك في دمشق فإنه يشكك في نسبه إلى جنكيز خان، فيقول: (لا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم، ويقال أنه من غير نسبهم،... وما أدري أهو طينة من نسب جغطاي أو من أحلافهم وأتباعهم).⁽⁴⁾

أما السفير الإسباني كلافيجو الذي زار كيش سنة 1403هـ/ فيذكر أن تيمورلنك بدوياً من قبائل جغطاي الذين قدموا إلى المنطقة على أثر الاجتياح المغولي للمنطقة أيام جنكيزخان، أما والده فكان رجلاً من أسرة جيدة ونبيلاً امتلك ثلاثمائة إلى أربعمائة خيال، ولكن يذكر بأن تيمورلنك

(1) . أورد بلوشيه النص كاملاً في كتابه:

Bloch et (E): Introduction a l' histoire des Mongols. London, 1910, p 61.

والنص هو:

(2) Bloch et: I bid. p. 62.

معتمداً في ذلك على ما كتبه المؤرخ الفارسي علي يزدي في كتابه ظفر نامه.

(3) ابن عريشاه (أبو العباس أحمد بن محمد دمشقي): عجائب المقدور في نوائب تيمور، تح: سهيل

زكار، دار التكوين، دمشق، 2005م، ص10.

(4) ابن خلدون: العبر، 5/ 1129.

في صباحه كان لصاً وقاطع طريق حتى أن يده وقدمه أصيبتا في إحدى جولات السرقة وصار بعدها أعرجاً.⁽¹⁾

وهناك بعض المؤرخين المحدثين ممن يصر على نسب تيمورلنك التركي، وأنه من قبائل تركية قدمت مع جنكيز خان أو من القبائل المغولية المنتزعة، لذا يعدون وصوله إلى الحكم نهاية للحكم المغولي وبداية لمرحلة كان فيها الطابع التركي هو السائد.⁽²⁾

مهما كان أصله مغولياً أم تركياً أم مغولياً منتزكاً، ومهما اختلفت الروايات في نسبه، فالواقع التاريخي يثبت أنه كان يمثل امتداداً فعلياً للمغول وحضارتهم، وأن تاريخه يمثل جزء من التاريخ المغولي العام.

ولد تيمورلنك حوالي سنة 736هـ/ 1336م في مدينة كيش أو كش⁽³⁾ Kech جنوب سمرقند في إقليم ما وراء النهر.⁽⁴⁾

كان في بداية حياته، وقد النف حوله مجموعة من الشباب، يقوم بعمليات الإغارة على القطعان والمواشي، فيسلب الأبقار والأغنام، ثم تطورت به الحال لأن أصبح قاطع طريق ويجبي من التجار الأتاوات والمكوس⁽¹⁾.

(1) كلافيجو: سفارة إلى تيمورلنك، ص 231-234.

(2) (مظهر ص 95). Saunders: The Histroy p173.

ويذكر بارتولد أن القبائل المغولية القاطنة في ما وراء النهر تتركبت بدليل أنها نست لغتها الأصلية واستعاضت عنها باللغة التركية (بارتولد ص 135) .

(3) تقع على نهر كشكا داريا في إقليم ما وراء النهر، وقد اشتهرت سابقاً باسم شهر بزباب أو شهر

سبزي أي (المدينة الخضراء) لي سترانج: بلدان الخلافة، ص 512-513.

(4) بارتولد: تاريخ الترك، ص

بارتولد: العالم الإسلامي، ص

أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، 1972م، ص 559.

ينفرد ابن عريشاه بذكر اسم قرية "خواجه إيلغار" على أنها القرية التي ولد فيها تيمورلنك وهي من ضواحي مدينة كش، انظر، ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 9.

أصدر بحقه من قبل سلطان سمرقند أمر بالإعدام، ثم عُفي عنه بعد وساطة أقربائه الذين كانوا يعملون في البلاط السمرقندي، ثم أصبح هو الآخر يعمل في البلاط⁽²⁾.

في سنة 761هـ/ قُتل حاكم بلاد ما وراء النهر، وسادت الفوضى بشكل استدعى قدوم الأمير تغلقتيemor-وهو الحاكم للقسم الشرقي لخانية جغتاي- إلى بلاد ما وراء النهر لفرض السيطرة عليها، وأحدث قدومه اضطراباً شديداً بين أمراء ما وراء النهر، ففر قسم منهم إلى خراسان، أما تيمورلنك فقد تم استدعائه من قبل هذا الأمير، ولما أعجب به أعطاه حكم مملكة بلاد ما وراء النهر كلها، ثم نزعها منه وأعطاه لابنه إلياس خواجه وجعل تيمورلنك مستشاراً له⁽³⁾.

ظل تيمورلنك مستشاراً لإلياس خواجه ابن تغلقتيemor، ولكن الأخير أساء السيرة في سكان ما وراء النهر، واتبع سياسة الاضطهاد والتتكيل، فأعلن تيمورلنك الثورة ضده، وخاض صراعاً مريباً ضد الجغتائيين، بحيث لم تأت سنة 771هـ/ 1370م إلا وتيمورلنك هو سيد بلاد ما وراء النهر⁽⁴⁾.

وبعد سيطرته على ما وراء النهر بدأ تيمورلنك يسير بخطوات سريعة نحو تأسيس إمبراطورية شاسعة امتدت في أقصى اتساعها من نهر الفولغا في روسيا شمالاً حتى دمشق جنوباً، ومن أزمير غرباً حتى نهر الغانج في الهند شرقاً، خوارزم إلى سلطانه، فشرع في غزو فارس سنة 782هـ/ 1381م حيث عبر نهر جيحون نحو هراة عاصمة الكرت وتمكن من السيطرة عليها، وحتى سنة 795هـ/ 1393م كان قد استولى على تبريز وشيراز وأصفهان وكرمان ودخل جورجيا وأرمينيا⁽⁵⁾.

(1) يذكر هذا الكلام السفير الإسباني كلافيجو نقلاً عن أهل مدينة كش. انظر: سفارة إلى تيمورلنك، ص232.

(2) كلافيجو: سفارة إلى تيمورلنك، ص233.

(3) تيمورلنك: مذكرات تيمور، ص8-11.

(4) تيمورلنك، مذكرات تيمور، ص 11 وما بعد.

(5) البديسي: شرفنامه، 67-60/2.

Browne، Aliterary history of Persia، Vol. III، The tartar dominion، 1265 0

1502، Combridge university press، 1951، p 160، 190.

Howorth: History of the Mongols: part III، p. 661 – 662.

2- اجتياح بلاد الشام:

لم تكن بلاد فارس وأذربيجان وجورجيا غاية تيمورلنك، وإنما كان يتطلع إلى أكثر من ذلك غرباً، بلاد الشام وآسيا الصغرى، فالوصول إلى المتوسط شكل عبر التاريخ حلم لكل الإمبراطوريات الشرقية.

في بلاد الشام كانت السلطنة المملوكية تمثل قوة خطيرة أو عقبة كبيرة أمام تيمورلنك، فجيوشها المدربة تمكنت قبل قرن ونصف تقريباً من إنزال ضربات موجعة ومميتة بالمغول وردهم على أعقابهم إلى ما بعد الفرات شرقاً، إلا أن سلطنة المماليك في هذه الآونة كانت تعاني من مشاكل داخلية نتيجة الصراع على السلطة ما بين المماليك الترك والمماليك الشركاسة، حتى تمكن السلطان برقوق من حسم الصراع لصالحه سنة 784هـ / 1382م، ثم سنة 792هـ / - كما تبين آنفاً- وهو أمر استنزف الكثير من قوة السلطنة، نظراً لكثرة المعارك الداخلية التي دارت هناك.

لم تكن السلطات المملوكية أيام فرج بن برقوق الذي خلف والده سنة 801هـ، تجهل خطر تيمورلنك، ولكنها كانت تتجاهله، وعلى قول ابن تغري بردي: أنه لما وصلت الأخبار باقتراب تيمورلنك "لم يتأهب أحد من المصريين لقتال تيمور، ولا التفت إلى ذلك، بل كان جل قصد كل أحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها، ويدع الدنيا تتقلب ظهراً لبطن"،⁽¹⁾ وذلك على الرغم من وصول التحذيرات والتنبيهات المتتالية منذ عدة سنوات.

ففي تجريدة أرسلت سنة 789هـ إلى الفرات "لكشف أخبار تيمورلنك" علمت السلطات بأخبار تقدمه وأنه وصل إلى آمد،⁽²⁾ ناهيك عن تكرار عمليات القبض على شبكات تجسس تابعة لـتيمورلنك في مصر والشام،⁽³⁾ مما يزيد في إيضاح نوايا تيمورلنك العدوانية، واقتصر رد الفعل المملوكي على إرسال السلطان برقوق بعض الأمراء لحفظ بلاد الشام من المغول بعد أن كثرت

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 217 - 218.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 14. المقرئزي: السلوك، 3/ 565. ابن شاهين: نيل الأمل، 249/2.

(3) ابن الفرات: المصدر نفسه، 9/ 14. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 509. المقرئزي: السلوك، 3/ 802.

الإشاعات بقصد تيمورلنك بلاد الشام،⁽¹⁾ ثم إنه في سنة 795هـ / 1393م دخلت العلاقات المملوكية التيمورية مرحلة جديدة عندما سيطر تيمورلنك على بغداد وأصبح على تماس مع الحدود المملوكية.

في بغداد كان الحكم لأحمد بن أويس أحد أفراد الأسرة الجلائرية،⁽²⁾ وقد تمكن في سنة 788هـ / 1386م من الفرار أمام تيمورلنك أثر هجومه على تبريز،⁽³⁾ فتوجه إلى بغداد، لكنه لم يصبح بمنأى عن خطر تيمورلنك الذي زحف باتجاه بغداد سنة 795هـ / 1393م، فأرسل له ابن أويس يسأله في الكف عن بغداد ويجهز له ما اختار من الأموال، فتظاهر تيمورلنك بالقبول، ثم هاجم بغداد من الجهة الغربية، فما كان من ابن أويس إلا أن فر هارباً ولاذ بحمي السلطان برقوق في القاهرة.⁽⁴⁾

تشير المصادر إلى أن تيمورلنك أرسل وفداً إلى السلطان الظاهر برقوق سنة 796هـ، ولما وصل الوفد إلى الرحبة على الفرات، أرسل نائبها إلى السلطان يسأله في شأن هذه السفارة وتمكينها من الوصول إلى القاهرة فجاءه الرد بعدم تمكين أعضاء الوفد من بلوغ غايتهم - الوصول إلى القاهرة -، وعدم السماح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يتسببوا في موتهم، وفعلاً فقد تم قتلهم، وكان عددهم حوالي أربعين رجلاً، باستثناء البغداديين وعددهم تسعة،⁽⁵⁾ وبذلك يكون الظاهر برقوق قد

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9 / 14.

(2) بعد وفاة الخان المغولي أبي سعيد سنة 736هـ تفككت الإيلخانية وتأسس على أنقاضها عدة دول كان من بينها الدولة الجلائرية التي ضمت العراق وأذربيجان وكانت عاصمتها تبريز، ومؤسسها هو شيخ حسن الكبير. انظر: ابن خلدون: العبر، 5 / 1167-1173. شعبان طرطور: الدولة الجلائرية، دار الهداية، 1987م، ص 7 وما بعد. عباس إقبال: تاريخ المغول، ص 361.

(3) العسقلاني: إنباء الغمر، 1 / 312.

(4) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، 1 / 472-473، 504. الصيرفي: نزهة النفوس، 1 / 363-364، 375. ابن خلدون: التعريف برجلته شرقاً وغرباً، ص 36. المقرئزي: السلوك، 3 / 787-789، 799-801. ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 464/2. ابن صصري: الدرّة المضيئة، ص 140.

(5) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9 / 362. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1 / 479. المقرئزي: السلوك، 3 / 797.

صرح بالعداء لتيمورلنك، الذي استشاط وأرسل فيما بعد رسالة شديدة اللهجة تتكر على برقوق قتل السفراء.⁽¹⁾

انسحب تيمورلنك من بغداد باتجاه الشمال سنة 796هـ بعد أن علم بمقتل رسله، فأغار على الموصل وعلى رأس العين وعلى الرها، وفي الرها على ما ذكر ابن عريشاه لم يمكث سوى يومين سار بعدها إلى ماردين، وفي ماردين أخفقت محاولات نائبها مجد الدين عيسى في مهادنة تيمورلنك الذي أباح المدينة لجنوده فدخلوها "عنوة وقهراً، ومأوها فسقاً وكفراً"،⁽²⁾ ثم هاجم آمد وأعمل فيها الخراب والدمار،⁽³⁾ وعلى مقربة من الرها أثناء وجود تيمورلنك هناك سنة 796هـ/ أرسل نائب حلب تجريدة من ألف فارس اصطدمت بقوات تيمورلنك، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جماعة وهرب الباقي.⁽⁴⁾

بالنسبة للظاهر برقوق فإنه أمر عساكره بالتأهب للخروج إلى الشام لقتال تيمورلنك،⁽⁵⁾ وقرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش الذي سار في "أبهج زي وأفخر هيئة وأحسن ملبس"، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة،⁽⁶⁾ وقد خرج الجيش في ربيع الآخر 796هـ/ شباط

(1) المقريزي: السلوك، 3/ 803-807. الصيرفي: نزهة النفوس، 1/ 379-381. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 507-508. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 466. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 343.

(2) ابن عريشاه: المصدر نفسه/ 68-71. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 339. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 1/ 504، 513.

(3) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 71-73.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 370. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 342. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 507. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 473.

(5) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 1/ 504. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 342.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 54-55. ابن صصري: الدرّة المضيئة، ص 151.

1394م وكان برفقة السلطان برقوق أحمد بن أويس سلطان بغداد، وقد وصل الجيش إلى دمشق في 22 جمادى الأولى⁽¹⁾.

في ذلك الوقت انسحب تيمورلنك نحو الشرق لمواجهة خطر مغول القفجاق بعد أن وصلته أخبار تفيد بهجوم طقتمش خان القفجاق على منطقة الأبواب الحدودية بين الدولتين،⁽²⁾ وبذلك تأجل الاضطدام مع الجيش المملوكي الذي وصل بلاد الشام إلى وقت آخر تكون فيه الظروف أفضل.

أما بالنسبة لبرقوق الذي وصل دمشق في جمادى الأولى 796هـ/ فقد أرسل عساكره إلى الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لمواجهة أي هجوم مفاجئ يقوم به تيمورلنك،⁽³⁾ وأثناء إقامته في الشام سار قدماً في تشكيل تحالف أو جبهة موحدة ضد تيمورلنك من خلال سلسلة من التحالفات مع قوى المنطقة، إذ تبين للظاهر برقوق بوضوح مدى أطماع تيمورلنك في السلطنة المملوكية، وفي سبيل ذلك -تشكيل تحالف- بالغ في الاهتمام بضيغه السلطان أحمد بن أويس، وخصه بعناية كبيرة،⁽⁴⁾ واصطحبه معه في الجيش الذاهب إلى الشام، وعندما وصل إلى دمشق؛ وبعد أن علم بمسير تيمورلنك إلى بلاده، كتب لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد، بعد أن جهزه وأنعم عليه بمبلغ " ذهب وفضة عين نقد خمسمائة ألف درهم... وأخلع عليه خلعة أطلسين بشاش

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 1/ 509 . 512. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 475. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 343، 345. المقرئزي: السلوك، 3/ 813. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 467-468. ابن صصري: الدرة المضينة، ص 151.

(2) ابن خلدون: التعريف برحلتها/ 364. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 345. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 469-467. عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، 1936، 2/ 219-220.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 56. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 347.

(4) المقرئزي: السلوك، 3/ 799. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 469.

متمر وسيف سقط ذهب"،⁽¹⁾ وبالتالي فقد حكم ابن أويس بغداد كنائب عن السلطان في القاهرة، وخطب فيها باسم الملك الظاهر.⁽²⁾

هذا بالنسبة للجهة الشرقية، أما بالنسبة للعثمانيين في الشمال فقد أرسل السلطان بايزيد إلى برقوق أثناء وجوده في دمشق سنة 796هـ / 1394م سفارة تحمل الهدايا وتخبر برقوق بأن السلطان بايزيد تحت يديه مائتي ألف فارس بانتظار أوامر السلطان⁽³⁾ كما وصل إلى السلطان في 23 جمادى الأولى أثناء إقامته دمشق وفد من طقتمش خان القفجاق يعرض عليه "أن يكون هو وإياه يداً واحدة على الطاغي الباغي تمرلنك"،⁽⁴⁾ وفي السنة ذاتها أقدم القاضي برهان الدين حاكم سيواس على قتل أعضاء الوفد التيموري الذي جاءه يطلب منه إعلان الولاء لتيمورلنك، وأرسل إلى كل من السلطان برقوق والسلطان بايزيد يخبرهم بما فعله معلناً لهم الولاء والطاعة وطالباً منهم المساعدة.⁽⁵⁾

لم تقتصر التحالفات على القوى الكبرى في المنطقة، بل إن الإمارات الحدودية الصغيرة سارعت للانضمام إلى الطرف الأقوى، فإمارة ماردين التي كان تيمور قد أخذها حيلة؛⁽⁶⁾ لم تبق على ولائها له، بل سارعت للانضمام إلى حلف سلطنة المماليك عندما قام واليها مجد الدين عيسى

(1) المقرئزي: المصدر نفسه، 3/ 814. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 347. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 515. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 9/ 383. الصيرفي: نزهة النفوس: 1/ 388-389. ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص 158-159.

(2) العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 475. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 57. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 347.

(3) المقرئزي: السلوك، 3/ 817. ابن الفرات، المصدر السابق، 9/ 476. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 348. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 471.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 512. المقرئزي: السلوك، 3/ 813. العسقلاني: إنباء الغمر، 1/ 471.

(5) ابن عريشاه: عجائب المقدور / 90 وما بعد. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/ 348-349. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 471.

(6) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 69 وما بعد.

بإرسال سفارة سنة 800هـ / 1398م إلى القاهرة يعلن فيها ولائه للسلطان المملوكي الذي أجابه بالشكر، وكتب له تقليداً بنبابة ماردين⁽¹⁾.

وبذلك يكون قد تشكلت جبهة قوية في وجه تيمورلنك، لكن هذه التحالفات ظلت شفهوية ولم تترجم على أرض الواقع، ذلك أن تيمورلنك اغتتم الفرص وسدد ضرباته في الوقت المناسب كما سيتبين.

ففي شهر شوال 801هـ / 1399م توفي السلطان برقوق وخلفه ابنه فرج الذي كان لا يزال في العاشرة من عمره،⁽²⁾ كما أنه لم يتمتع بكفاءة أبيه ومقدرته، لذلك عمت البلاد حالة من الفوضى والفتن،⁽³⁾ بالإضافة إلى ذلك فالسلطان العثماني الذي كان يُعد حليفاً للسلطنة المملوكية استغل هذه الظروف وقام بالاستيلاء على ملطية والأبلستين التابعتين للسلطان المملوكي،⁽⁴⁾ وبذلك إنتهى التحالف العثماني المملوكي.

بالنسبة لتيمورلنك لقد سر سروراً عظيماً عندما سمع بخبر وفاة السلطان برقوق،⁽⁵⁾ وبسرعة أوقف أعماله على الجبهة الشرقية لينفرغ لأعمال جديدة على الجبهة الغربية، اغتناماً للفرصة حيث سيطرت مظاهر الفوضى على السلطنة وعلى السلطان الصغير، كما أن التحالفات التي شكلت فيما سبق رادعاً لتيمورلنك، لم تعد الآن موجودة، كل ذلك جعله يتجه بسرعة نحو الغرب سنة

(1) المقريزي: السلوك، 3 / 898. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/393. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/499/2.

(2) الصيرفي: نزهة النفوس، 1 / 493، 2 / 5-7. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/168. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/23-24.

(3) ابن عريشاه: عجائب المقذور، ص107. يمكن قراءة أحدث سنة 801 وسنة 802هـ عند المقريزي والعسقلاني وابن الفرات وغيرهم من المؤرخين لمعرفة حجم الفوضى والثورات التي قامت ضد السلطان الصغير وكان أخطرها على الإطلاق ثورة (تنم) نائب دمشق حيث أطاعه نائب صفد ونائب طرابلس.

(4) العسقلاني: إنباء الغمر، 2 / 55. المقريزي: السلوك، 3 / 971. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/28.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/179.

(5) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 100-101.

801هـ/ وقد أخفى السبب الحقيقي وادعى أن خلافاً مع ابنه ميران شاه الحاكم؛ للأجزاء الغربية من الإمبراطورية استلزم حضوره.⁽¹⁾

في هذا الوقت قامت ثورة ضد أحمد بن أويس في بغداد بعد أن أساء السيرة بين رعيته وأمرائه⁽²⁾، ففر منها هارباً مستجداً بحاكم الموصل قرا يوسف التركماني، وعندما حاول الاثنان دخول بغداد أخفقوا في ذلك لأن أهالي بغداد كانوا قد استتجدوا بصاحب شيراز وهو يومذاك أحد أمراء تيمورلنك،⁽³⁾ فسار الاثنان ومعهما سبعة آلاف فارس إلى حلب وطلبوا من نائبها الأمير دمرداش استضافتهما وتحديد مكان ينزلان فيه، فخشي منهم أن يقصدوا حلب بالقوة التي معهم، فطلب المساعدة من نائب حماة الأمير دقماق، ثم التحم الطرفان بمعركة في 24 شوال أُسر فيها نائب حماة ونائب البيرة في حين فر دمرداش إلى حلب وانهزم فيها العسكر الشامي، ثم قام أحمد ابن أويس وقرا محمد بالالتجاء بالسلطان العثماني الذي أجارهم⁽⁴⁾.

بذلك تكون العراق قد أصبحت من أملاك تيمورلنك، الذي زحف باتجاه سيواس، وأثناء مسيره إليها أخذ أرزنجان ثم أخذ سيواس في أواخر سنة 802هـ/ بعد أن حاصرها وقتل من أهلها مقتلة عظيمة،⁽⁵⁾ ومن سيواس زحف باتجاه بهنسا فأخذها، ثم إلى ملطية حيث وصلها في المحرم سنة

(1) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 101 وما بعد.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 179/12. ابن إياس: بدائع الزهور، 589/2/1. المقرئزي: السلوك، 1020/3.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 100 - 101. ابن إياس: بدائع الزهور، 589/2/1. المقرئزي: السلوك، 1020/3. ابن شاهين: نيل الأمل، 43/3.

(4) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 4 / 101. الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 60 - 61. العسقلاني: إنباء الغمر، 2 / 108 - 109. ابن إياس: بدائع الزهور، 589/2/1. المقرئزي: السلوك، 1020/3. البديسي: شرفنامه، 67/2.

(5) الصيرفي: المصدر السابق، 2 / 71. ابن حجي (أحمد بن حجي الحسيني): الذيل على تاريخ ابن كثير، تح: عمر الشامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، 1999، ص 191. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 142. المقرئزي: السلوك، 1027/3. ابن شاهين: نيل الأمل، 46/3. البديسي: شرفنامه، 67/2. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 216/12.

803هـ/ "قأبأدها ودك أطوأدها"،⁽¹⁾ ومن هناك سار بجنوده إلى عينتاب فأعمل فيها الخراب والدمار، وبعد أن أقام بها أربعة أيام توجه إلى حلب.⁽²⁾

في حلب اجتمع مع عسكر حلب كل من قوات دمشق، وطرابلس، وصفد، وغزة، وحماء مع نواب تلك البلاد، وكان وصولهم إليها في ربيع الأول،⁽³⁾ وعلى الرغم من كثرة العساكر المجتمعة في حلب إلا أن الكلمة كانت متفرقة "والعزائم محلولة لعدم وجود السلطان"،⁽⁴⁾ وقبل أن يخوض تيمورلنك المعركة معهم حاول شق صفوفهم وخلق الفوضى بينهم، وذلك بأن أرسل إلى نائب حلب الأمير دمرداش يعده بالاستمرار في نيابته إن هو أمسك بنائب دمشق الأمير سودون، ثم قام هذا الرسول وليضع دمرداش في موقع محرّج خاطبه بأن تيمورلنك قدم إلى حلب بناءً على مكاتبة منه يقول له فيه "إن البلاد ليس بها أحد"، فحنق عليه دمرداش وقتله.⁽⁵⁾

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور / 118. ابن شاهين: نيل الأمل، 46/3.

(2) الصيرفي: المصدر السابق، 2 / 71-72. ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 118-119. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 144-146. ابن إياس: بدائع الزهور، 593/2/1. المقرئزي: السلوك، 1028/3-1029.

(3) الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 74. ابن إياس: بدائع الزهور، 593/2/1. دي ميغانانلي (تاجر ايطالي كان مقيم في القدس أيام الاجتياح التيموري): حياة تيمورلنك، تر: أحمد سليمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1985م، ص9.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 221/12.

(5) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 153. ابن إياس: بدائع الزهور، 596/2/1. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/48. المقرئزي يذكر بأن هذا الكلام من تنميق تيمورلنك ليفرق بين العساكر، أما ابن عريشاه فإنه لا يتردد في جعل نائب حلب خائناً وموافقاً في الباطن لتيمورلنك. المقرئزي: السلوك، 3 / 1032، ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص122.

كان جيش تيمورلنك يضم أخلاطاً من الشعوب،⁽¹⁾ قدّر ابن خلدون عدده بمليون مقاتل،⁽²⁾ استغرق مسيره من عينتاب إلى حلب على قول ابن عريشاه سبعة أيام حيث ظهر أمامها في تاسع شهر ربيع الأول سنة 803هـ.⁽³⁾

في حلب تداول الأمراء الموجودين هناك إجراءات الدفاع والتصدي، فاختلقت الآراء بين الدفاع عن المدينة من الداخل؛ أو الخروج إلى خارج الأسوار لملاقاة القوات المغيرة، واستقر في النهاية رأي الأمير تمرداش نائب المدينة بالقيام بهجوم عام يشارك فيه سكان حلب لرد القوات الغازية، وقد أجمع الأمراء على هذا الرأي، مع أنه -على قول ابن عريشاه- رأي غير صائب؛ وإنما قبلوا به لأن تمرداش كان صاحب البلد وعلى كلامه المعول والمعتمد.⁽⁴⁾

بشكل عام كانت الروح المعنوية ضعيفة، و"الأهواء مختلفة، والآراء مفلوطة، والعزائم محلولة، والأمر مدبر"،⁽⁵⁾ وقد بدأت المناوشات منذ اليوم الذي وصل فيه تيمورلنك، وهو يوم الخميس تاسع تاسع ربيع الأول واستمرت أيضاً يوم الجمعة، خسرت فيها القوات المغيرة بعض الجنود،⁽⁶⁾ إلا أن المصاف الأكبر كان خارج المدينة يوم السبت 11 ربيع الأول/31 تشرين الأول، وقد استخدم تيمورلنك في هجومه على حلب الفيلة التي تقدمت قواته وبلغ عددها حوالي 28 فيل.⁽⁷⁾

(1) يقول ابن عريشاه أن جيشه كان يضم: (رجال توران وأبطال إيران ونمور تركستان، وبيور بلخشان، وصقور الدشت والخطا، ونسور المغول، وكواسر الجتاد، وأفاعي خزند...) انظر، عجائب المقدور، ص 117-118. أيضاً الصيرفي: نزهة النفوس، 74/2-75.

(2) ابن خلدون: التعريف برحلته، ص 382.

(3) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 122. المقرئزي: السلوك، 3/ 1032. ابن إياس: بدائع الزهور،

597/2/1. ابن شاهين: نيل الأمل، 48/3.

(4) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 120-121.

(5) المقرئزي: السلوك، 3/ 1032. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/221.

(6) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 151، 153. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص 209. ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 122.

(7) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 2/ 47. وقد أشار ابن عريشاه إلى استخدام الفيلة، المصدر السابق، 123.

في بداية اللقاء ثبت العسكر المملوكي، ولكن ليس طويلاً، "فما كان غير ساعة وحتى دهمها خلق كأموج البحر المتلاطم"،⁽¹⁾ فانهارت المقاومة المملوكية، وفرت العساكر تريد المدينة، يطاردهم العسكر التيموري "فمشى عليهم مشي الموس على الشعر"،⁽²⁾ والذي حدث أنه أثناء التراجع داس فرسان الجيش المملوكي على من كان أمامهم من المشاة، كما رموا السلاح واللباس تخفيفاً للوزن، وتزاحموا على أبواب المدينة أثناء الدخول حتى هلك خلق كثير على الأعتاب، وأمام هذه الفوضى لم تتمكن الحاميات من إغلاق أبواب المدينة، فدخلها العسكر التيموري و"أضرموا فيها النار وعاثوا بها فساداً: نهباً، وأسرّاً، وسفكاً... وأسرفوا في قتل الأطفال، فلا يُرثى لبقاء صغير، ولا يستحيي من العهر في المساجد بمحضر الجم الغفير والعدد الكثير... واستمروا على ذلك من ضحوة يوم السبت إلى يوم الثلاثاء".⁽³⁾

في الوقت الذي انصرف فيه قسم من قوات تيمورلنك للقيام بالسلب والنهب والقتل، كان هناك قسم آخر محاصراً للقلعة التي لجأ إليها الأمراء وجمع غفير من السكان، فبدؤوا بنقب أسوار القلعة وردد الخندق المحيط بها، ولما شعر الأمراء بعدم جدوى المقاومة طلبوا الأمان من تيمورلنك، فأجابهم إلى طلبهم، وكان أول من نزل إليه نائب حلب الأمير دمردش، فأحسن استقباله وأرسل باقي الأمراء يستنزلهم من القلعة، فلما تكامل وجودهم عنده قيدهم ثم أشبعهم تويخاً وتقريعاً،⁽⁴⁾ وقد

(1) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 154. المقريزي: السلوك، 3 / 1033. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 222/12.

(2) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 123. المقريزي: السلوك، 3 / 1033.

(3) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 154، الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 75 - 76، ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 123 - 124، ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص 209، العسقلاني: إنباء الغمر، 2 / 135. المقريزي: السلوك، 3 / 1033. ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 596-597. ابن شاهين: نيل الأمل، 3 / 48. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 223/12.

(4) المقريزي: السلوك، 3 / 1033-1034. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 155. الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 76. ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 598-599. ابن شاهين: نيل الأمل، 3 / 49. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 224/12. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 12-13.

وقد بدأ بمصادرة الأموال والمتعة المكدسة بالقلعة وقد أثارت تعجبه قائلاً: "ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر".⁽¹⁾

طالت إقامة تيمورلنك في حلب قرابة الشهر، اجتمع فيها مع عدد من العلماء، وناقشهم في قضايا متعددة؛ وخاصة قضية الإمام علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، وقد أظهر في المناقشة تعصبه وتشيعه للإمام علي رضي الله عنه،⁽²⁾ ثم رحل عنها "وهي خاوية على عروشها، خالية من سكانها وأنيبها وقد تعطلت من الأذان، وإقامة الصلوات، وأصبحت مظلمة بالحريق، موحشة قفراء مغبرة، لا يأويها إلا الرخم".⁽³⁾

وفي اليوم الذي سقطت فيه قلعة حلب (14 ربيع الأول)، تمكن مرزه شاه بن تيمورلنك من دخول حماه، وسواها "كمدينة حلب سوداء مغبرة خالية من الأنيس".⁽⁴⁾

خرج تيمورلنك من حلب إلى حماه، وكان قد فعل ابنه فيها ما فعل، ومن هناك سار إلى حمص، و"لم يتعرض لها بتهديد ولا تنكيد احتراماً لسيدي خالد بن الوليد"،⁽⁵⁾ وقبل رحيله عنها عين فيها أحد أبنائه ونادى فيها بالأمان،⁽⁶⁾ تم قصد بعلبك فوجدها خالية من أهلها وقد هربوا منها.⁽⁷⁾

(1) العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 135.

(2) لقد ذكر ابن عريشاه نقلاً عن ابن الشحنة هذه المناقشات بالتفصيل، عجائب المقدور، ص 127. ابن شاهين: نيل الأمل، 49/3.

(3) عن مجازر المغول بلطب، انظر: المقرئزي: السلوك، 3/1033-1034. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4/155. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/598-599. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/48. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/76-77. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/225.

(4) المقرئزي: السلوك، 3/1035-1036. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/600-601. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/49. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/225-226.

(5) ابن الشحنة (أبي الفضل محمد بن الشحنة): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م/ 272. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/51. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/603.

(6) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 133.

(7) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/163. المقرئزي: السلوك، 3/1038.

في دمشق اضطربت الأوضاع لدى سماع هذه الأخبار، وانتشر الذعر بين الأهالي، وحاول بعضهم الفرار؛ فمُنعوا، ونودي من سافر نُهب، واستقر الرأي على تحصين المدينة والدفاع عنها، ولا سيما بعد أن سُمع بأن السلطان خرج من القاهرة إلى دمشق، فصعد الناس على الأسوار استعداداً للقتال، وحمل القضاة السلاح تشجيعاً للأهالي،⁽¹⁾ وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت مظاهر الفوضى في المدينة نتيجة انعدام وجود قيادة موحدة، فقد وجد في المدينة سلطتان أو قيادتان تتنازعا م صير البلد، كان نائب الغيبة أحد هاتين القيادتين، وقد نادى في المدينة بأنه لا يشهر أحد سلاحاً ولا يضرب بمقلع ولا غيره لأن المدينة سوف تُسلم بالأمان، أما القيادة الثانية فمثلها نائب القلعة الذي نادى بالاستعداد للقتال لأن المدينة لن تُسلم، ومن كان محتاجاً لسلاح فليأخذ من القلعة.⁽²⁾

أما بالنسبة للموقف في القاهرة:

اتسم موقف السلطنة بالقاهرة إزاء هذه الأحداث باللامبالاة، والعجز، وعدم إدراك حقيقة الموقف، فعلى الرغم من أن التحذيرات كانت تأتي تباعاً من بلاد الشام منذرة بالخطر التيموري، كان السلطان ورجاله قد تشاغلوا "بشرب الخمر وسماع الزمور"⁽³⁾، وأكثر من ذلك فإن إمكاناتهم السياسية كانت ضعيفة، فلم يغتموا العرض الذي تقدم به السلطان العثماني بايزيد على إثر اجتياح تيمورلنك لسيواس؛ والذي يتضمن التحالف معهم ضد تيمورلنك، ورفضه قائلين "يقاتل هو عن بلاده، ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا" بحجة أنه غدر بهم واحتل ملطية التابعة للسلطنة، والمصلحة تقتضي آنذاك -على قول ابن تغري بردي- الصلح مع العثمانيين، إلا أنه لم يكن هناك من اهتم للأمر، "فكان جل قصد كل واحد منهم ما يوصله إلى سلطنة مصر وإبعاد غيره عنها ودع الدنيا تنقلت ظهراً لبطن"،⁽⁴⁾ مما أعطى تيمورلنك فرصة ذهبية لمواجهة أعدائه منفردين.

(1) ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، 210 - 211. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4/

156. ابن إياس: بدائع الزهور، 599/2/1. ابن شاهين: نيل الأمل، 49/3. المقريزي: السلوك،

1034/3-1036. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 227/12.

(2) ابن حجي: المصدر السابق، ص 212. ابن إياس: بدائع الزهور، 599 /2/1.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، 601 /2/1.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 217 /12 -218.

لم يكن الاستعداد المملوكي على قدر الخطر الداهم، فمثلاً في محرم 803هـ/ قبيل وصول تيمورلنك إلى حلب، وبعد استيلاءه على سيواس، وصل إلى القاهرة كتاب يقول "أدركوا المسلمين وإلا هلكوا"، اجتمع السلطان والقضاة والأمراء وأعيان الدولة للتشاور في خطر تيمور الذي وصل إلى عينتاب في طريقه إلى حلب، والذي غلب على النقاش هو طريقة جمع الأموال والنفقات اللازمة لمواجهة الخطر، والنتائج الفعلية التي تمخض عنها الاجتماع هو إرسال الأمير أسنبغا الحاجب بالديار المصرية إلى بلاد الشام لكشف الأخبار وتعبئة العساكر الشامية،⁽¹⁾ كما أرسلوا إلى نائب حلب أنه متى خشي من العدو يرسل إلى نائب دمشق بالحضور، ورُسم لنائب دمشق أنه متى طلبه نائب حلب يأتيه.⁽²⁾

استمر الموقف المتخاذل على ما هو حتى بعد سقوط حلب وقلعتها، فعندما جاءهم الأمير أسنبغا -الذي توجه لكشف الأخبار- في 4 ربيع الآخر يحمل خبر سقوط حلب وما جرى لها، كذبوه و"تسبوه إلى أغراض كثيرة".⁽³⁾

أما المشايخ والقضاة فقد كان موقفهم عكس ذلك تماماً، إذ طافوا في شوارع القاهرة يدعون الناس إلى الجهاد ضد تيمورلنك الذي "قتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والمساجد والجوامع وجعلها اصطبالات لدوابهم".⁽⁴⁾

وبعد هذه المماثلة والتهرب سار جزء من الجيش المملوكي من مصر في 8 ربيع الآخر 803هـ/ تشرين الثاني 1400م وعلى رأسه مقدم العسكر، ثم تبعه السلطان مع باقي الجيش في 10 ربيع الآخر،⁽⁵⁾ وفي غزة طرح الأمير تغري بردي-والد المؤرخ أبو المحاسن والنائب الجديد

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 73. ابن تغري بردي: المصدر السابق، 12/ 218. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 145. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 593-594. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/ 47. المقرئزي: السلوك، 3/ 1028-1029.

(2) ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص 192.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 159.

(4) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 4/ 159. المقرئزي: السلوك، 3/ 1036. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 601.

(5) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 79. المقرئزي: السلوك، 3/ 1037-1038. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 602-603. ابن شاهين: نيل الأمل، 3/ 50.

لدمشق بعد حبس النائب الأسبق الأمير سودون - خطة لمواجهة الخطر المغولي مفادها: أن يبقى السلطان والقسم الأكبر من عساكره في غزة، وأن يسير الأمير تغري بردي إلى دمشق لتحصينها وحض أهلها على القتال، وخاصة أن المدينة تمتاز بحصانتها وبها مؤن تكفي للحصار، ولدى قدوم تيمور إلى دمشق يصبح بين نارين، ناهيك عن أنه يجهل طبيعة الأرض، ولن يمكث طويلاً أمام قلة الإمدادات، لذا سيضطر للعودة ومن ثم تقوم قوات السلطان بملاحقته إلى الفرات، إلا أن الخطة رُفضت لعدم ثقتهم بالأمير تغري بردي،⁽¹⁾ وعليه فقد سار الجيش كتلة واحدة حتى شارفت طلائعه مدينة دمشق في 6 جمادى الأولى، وفي يوم السبت الثامن منه وصل السلطان مع باقي العساكر إلى قبة يلبغا جنوب دمشق⁽²⁾، أما تيمورلنك فقد نزل في يوم السبت 15 جمادى الأولى في قطنا "فملأت جيوشه الأرض".⁽³⁾

تتداخل المعلومات عند معظم المؤرخين عن الاشتباكات التي حدثت بين الطرفين، إلا أن المؤرخ الدمشقي ابن قاضي شهبة الذي كان معاصراً لتلك الأحداث ومعاشياً لها، يورد معلومات مفصلة ومرتبطة عن الأحداث، فيذكر أنه في العاشر من جمادى الأولى حدثت اشتباكات في مكان يدعى (جب)⁽⁴⁾ بين بني الغزاوي وجماعة من المغول انكسر على أثرها المغول؛ وقتل منهم جماعة،⁽⁵⁾ ثم تكررت المناوشات في 18 جمادى الأولى وهزم فيها العسكر التيموري.⁽¹⁾

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 2/ 231 - 232. الصيرفي: نزهة النفوس، 81/2.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 164. يذكر المقرئ وغيره بأن السلطان وصل في 6 جمادى الأولى إلى قلعة دمشق ثم خرج إلى قبة يلبغا في 8 من هذا الشهر. انظر: السلوك، ج3/ 1041. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 2/ 232. الصيرفي: نزهة النفوس، 82/2. ابن إياس: بدائع الزهور، 606/2/1.

(3) المقرئ: السلوك، ج3/ 1040. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 234. ابن إياس: بدائع الزهور، 606/2/1.

(4) يرد موقع هذه المعركة عند ابن حجي باسم (خبب)، ويورد الحدث أنه يوم الجمعة 7 جمادى الأولى، الذيل على تاريخ ابن كثير، ص230. وخبب هي إحدى قرى حوران تقع عند الأطراف الشمالية الغربية لمنطقة اللجاة. انظر، المعجم الجغرافي للقطر السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1992م، 3/ 209.

(5) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 165.

لم تسفر المناوشات عن نتائج مهمة، سوى بعض الخسائر في مقدمة عسكر تيمورلنك، الذي سارع بنقل معسكره إلى الكسوة جنوب دمشق في 19 جمادى الآخرة،⁽²⁾ وأصبح من هناك يراقب العسكر المصري المعسكر في قبة يلبغا.⁽³⁾

عاد تيمورلنك إلى دهائه الدبلوماسي، وأرسل إلى السلطان برسالة، يفتخر فيها بما لديه من قوات، وما هو عليه من علو الهمة والحزم، ويقترح إطلاق سراح أتلامي،⁽⁴⁾ وضرب السكة وإعلان الخطبة باسمه، ويكون ذلك سبباً في حسم الصراع، وقد هدد باجتياح دمشق إن لم تتم الإجابة لما طلب،⁽⁵⁾ وقد انقسم الأمراء حيال هذا الأمر، فقد رأى فريق متابعة القتال، ظناً منهم أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن القتال⁽⁶⁾، في حين رأى فريق آخر أن المصلحة تكون بالاستجابة لمطلب تيمور ووقف القتال،⁽⁷⁾ في حين أدرك فريق آخر حقيقة الموقف وأن الهزيمة باتت وشيكة وبدأ بالفرار إلى مصر.⁽⁸⁾

رفض السلطان طلب تيمورلنك⁽⁹⁾ ووقعت معركة حاسمة يوم الأربعاء 19 جمادى الأولى قرب الكسوة، تقهر فيها المماليك أمام العسكر التيموري، وتراجعوا إلى قبة يلبغا والمغول في أثرهم،

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 4/ 165-166، المقرئزي: السلوك، 3/ 1044. ابن إياس: بدائع الزهور، 607/2/1. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 18.

(2) ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، 4/ 166. الصيرفي: نزهة النفوس، 83/2.

(3) ابن خلدون: التعريف برحلتها/ 367.

(4) أتلامي أو أطلمش هو أحد قادة تيمورلنك المقرئين منه، أسره قرا يوسف بن قرا محمد حاكم إمارة الشاة السوداء سنة 798هـ وأرسله إلى الظاهر برقوق الذي سجنه بالقاهرة، انظر: ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 1/ 574.

(5) شرف الدين علي يزدي: ظفر نامه، 2/ 315-316، نقلاً عن ملاحق كتاب قيام دولة المماليك الثانية، الدكتور حكيم أمين عبد السيد، القاهرة، 1967، ص 173-174.

(6) العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 137.

(7) وهو رأي الأمير تغري بردي. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 2/ 235.

(8) المقرئزي: السلوك، 3/ 1044-1045. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 2/ 235.

(9) العسقلاني: المصدر السابق، 2/ 137، المقرئزي: السلوك، 3/ 1044. ابن إياس: بدائع الزهور، 609/2/1. إلا أن المؤرخ الفارسي علي يزدي يقول بأن السلطان وافق على العرض وطلب مهلة خمسة أيام لإطلاق سراح أتلامي، لكن يزدي يقول بأن المماليك كانوا غير صادقين. انظر علي

حتى حال الليل بين الطرفين، وفي اليوم الثاني اصطفت العساكر التيمورية والمملوكية يفصل بينهم قبة يلبغا، ويقول ابن قاضي شهبة بأن الفريقان استمرا ذلك اليوم يرى بعضهم بعضاً ولا يقرب أحداً منهم الآخر، إلى أن أساء المساء ودخل السلطان القلعة،⁽¹⁾ وفي هذه الليلة- ليلة الجمعة 21 جمادى الأولى- ترك السلطان دمشق وفر هارباً إلى مصر، لتصبح دمشق "أكلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها"، وقد أصبح أهالي دمشق يوم الجمعة والسلطان فرج ليس موجوداً، وسرعان ما أحاطت العساكر التيمورية بالبلد،⁽²⁾ وقد أصبح أهالي دمشق يوم الجمعة "متحيرين قد عميت عليهم الأنباء"،⁽³⁾ وقد ظنوا أن خروج فرج والعسكر المصري كان حيلة منهم للالتفاف إلى خلف العسكر التيموري، فقاتل العوام من أهالي دمشق ذلك اليوم وقتلوا جماعة من المغول.⁽⁴⁾

قدم المؤرخون تفسيرات متفاوتة لرحيل السلطان المفاجئ من دمشق، بعضهم يجعل رحيل كبار الأمراء إلى مصر بحيث لم يبق منهم أحد، سبباً في رحيل السلطان،⁽⁵⁾ وبعضهم يذكر أن رحيل الأمراء إلى مصر أثار مخاوف السلطان لأنهم كانوا يعملون على خلعه وتنصيب الأمير

يزدي: ظفر نامه، 2/ 230، نقلاً عن ملاحق كتاب قيام دولة المماليك الثانية، حكيم السيد، ص 175-230.

(1) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 166. أما الخطيب الجوهري الصيرفي، ذكر بأن القتال وقع بين الطرفين ذلك اليوم واستمر إلى آخر النهار، انظر: نزهة النفوس، 2/ 84. وذكر كل من المقرئزي وابن إياس أن المعارك كانت في 8 و 11 جمادى الأولى. السلوك، 3/ 1044. بدائع الزهور، 1/ 2/ 609. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 19-20.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 166.

(3) ابن خلدون: التعريف برحلته، ص 367.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 166. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص 231. ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 139، الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 88. وعلى قول المقرئزي فقد قتلوا ألف رجل من قوات تيمورلنك وأسروا منهم وغنموا غنائم، السلوك: 3/ 1046. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 88. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 2/ 610.

(5) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 84.

لاجين الشركسي لذلك لحق بهم ليفسد عليهم تأمرهم،⁽¹⁾ أما التفسير الذي قدمه ابن قاضي شهبة فهو الأقرب إلى الواقع حيث يقول أن "هروب السلطان والعساكر كان بسبب اختلاف الكلمة"، ويعود ليؤكد ذلك عندما يقول: هو أمر شاهدناه.⁽²⁾

بعد أن علم أهل دمشق بخبر السلطان، أدركوا أنه لا طاقة لهم بقتال تيمورلنك، لذا دخلوا معه في مفاوضات طلباً للأمان، والمؤرخون على خلاف فيمن طلب الأمان، فالبعض منهم ذكر أن أهالي دمشق هم الذين طلبوا الأمان،⁽³⁾ ومنهم من ذكر بأن تيمورلنك هو الذي عرض الدخول في مفاوضات والصلح.⁽⁴⁾

انقسم الناس بين مؤيد ومعارض لفكرة طلب الأمان ونتج عن ذلك تشاجر بين الناس على حد قول ابن خلدون،⁽⁵⁾ وفي النهاية؛ بعد أن قابل قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي تيمورلنك ووعده بالأمان لأهل دمشق، غلب رأي الصلح، ونودي في المدينة من خالف ذلك قتل، وتشكل وفد ضم عدد من القضاة والمشايخ ساروا إلى تيمورلنك مصطحبين معهم التقدمة والهدايا، وقد تدلى هذا الفد من على سور المدينة بعد أن رفض نائب القلعة فتح الأبواب لهم،⁽⁶⁾ فاستقبلهم تيمور استقبالاً حسناً، وأطعمهم وأخلع عليهم ثم ردهم ومعهم أماناً إلى أهل دمشق نصه: "يعلموا السكان بدمشق أن الله تعالى بفضله العميم ملكنا بلاد الشام لما يعلم في قلوبنا من الرحمة

(1) المقرئزي: السلوك، 3/ 1045. ابن شاهين: نيل الأمل، 52/3. ابن إياس: بدائع الزهور، 609/2/1.

(2) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4/ 168.

(3) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4/ 167، ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 140، ابن خلدون: التعرف برحلته، ص 367، ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص 231.

(4) المقرئزي: السلوك، 3/ 1046، العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 137. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 238/12.

(5) ابن خلدون: التعرف برحلته، ص 367.

(6) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4/ 367. المقرئزي: السلوك، 3/ 1046. ابن خلدون: المصدر السابق، ص 367-368. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 239-240. ابن إياس: بدائع الزهور، 609/2/1. أما أعضاء الوفد فهم ثمانية ذكرهم ابن عريشاه بالاسم: عجائب المقدور، ص 140.

للرعية، فيعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم"،⁽¹⁾ وقرر تيمورلنك على البلد مبلغ ألف ألف دينار.⁽²⁾

في يوم الأحد 23 جمادى الأولى؛ وحسب الاتفاق، فُتح الباب الصغير ودخل العسكر التيموري، وقد عين تيمورلنك حاكم لدمشق اسمه شاه ملك، كما عين القضاة والحجاب والوزراء والكتاب.⁽³⁾

3- تيمورلنك في دمشق:

انطلقت الحيلة على الفقهاء، ودخل تيمورلنك دمشق، ثم نادى في أهل دمشق بالأمان والاطمئنان، حتى أنه قام بإعدام بعض عساكره لأنهم قاموا بعمليات السلب، فاطمأن له الناس في البداية، وصلى أول جمعة في المسجد الأموي، وكان الخطيب آنذاك قاضي القضاة محي الدين محمود بن العز، وقبل دخول دمشق كان تيمورلنك نازلاً في القصر الأبلق، أما بعد دخوله إليها فقد نزل في بيت الأمير بتخاص السوداني.⁽⁴⁾

اشتغل في المرحلة الأولى من إقامته في مناظرة العلماء، وكان ترجمانه الفقيه عبد الجبار بن النعمان؛ أحد رجال حاشيته، وقد تعرض في المناقشة أكثر الشيء لموضوع الفتنة بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، قائلاً إن قَتْلَ الحسين "ظلم، وفُسق، ونكر، ومن استحلّه فهو واقع في الكفر، ولا شك أن ذلك الفعل الحرام كان بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليه فهم كفار، وإن

(1) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 167. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/240-241.

ابن إياس: بدائع الزهور، 1/611/2. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 23-24، 27.

(2) المقرئزي: السلوك، 3 / 1047. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 176. ابن تغري بردي: النجوم، 12/241. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/612/2.

(3) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 167-168. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/612/2. المقرئزي: السلوك، 3 / 1047.

(4) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 143. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/88. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/240. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 24-25.

كانوا غير مستحليه فهم عصاة وبغاة وأشرار، وأن الحاضرين على مذهب الغابرين"،⁽¹⁾ وفي هذا تقرّيع شديد للعلماء الحاضرين.

بعد ذلك انشغل في أمر القلعة، فنائبها المدعو "أزدار أو يزدار" كان قد رفض من قبل فكرة الصلح وطلّب الأمان، لذا فقد حصّن القلعة واستعد للحصار، منتظراً قدوم مساعدة من مصر.⁽²⁾

بدأ حصار القلعة في 6 جمادى الآخرة، وتمكنت القوات المغيرة في مساء أول يوم أن تصل إلى مشارف الخندق المحيط بالقلعة، على الرغم من كثرة الرمي عليهم من القلعة ومن كثرة القتلى، فكان إذا سقط الواحد منهم قتيلاً يدوس عليه الآخر ويتقدم.⁽³⁾

أظهرت القلعة مقاومة شرسة، فاستخدم تيمورلنك العلماء وأهالي دمشق كورقة ضغط على نائب القلعة، إذ استدعى العلماء والقضاة وادعى بأنه سمع بوجود طريق تحت الأرض يوصل إلى القلعة، وعندما نفى هؤلاء علمهم بذلك هددهم باجتياح المدينة قائلاً: "أنا ما أعرف إلا ثلاثة أيام إن لم تُبصروا طريقاً أعبّر إلى القلعة أو ينزل نائب القلعة، وإلا عبرتُ حاصرتُ من داخل، وما أقدر أرد العسكر عما يفعلوا وتخرب البلد".⁽⁴⁾

دفعت هذه التهديدات بالعلماء للسعي عند نائب القلعة لتغيير موقفه وتسليم المدينة، حيث تم إرسال اثنان من المشايخ تم سحبهم بالحبال إلى القلعة، ولما اجتمعوا به لم يُجيبهم في طلبهم، ولما عاد الوفد وسألهم تيمورلنك "إيش عملتم" فأخبروه بما وقع، فأمرهم بفتح باب الجابية وإخلاء ما حول الجامع من منازل لأنه سيحاصر القلعة من هناك؛ ومن تأخر وأصيب بحريمه أو ماله فلا يلومن إلا نفسه،⁽⁵⁾ ثم بدأ بنصب المجانيق عليها من كافة الجهات، وقد بلغ عددها -على قول ابن خلدون- مع ما شابهها من آلات الحصار حوالي ستون آلة،⁽⁶⁾ ثم بدأ بنقب الأسوار وصرف الماء

(1) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 144 - 145.

(2) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 141. ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، 4 / 171.

(3) ابن قاضي شهبه: المصدر نفسه، 4 / 171. الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 88.

(4) ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبه، 4 / 171.

(5) ابن قاضي شهبه: المصدر نفسه، 4 / 171 - 172.

(6) ابن خلدون: التعريف برحلته، ص 374. الصيرفي: نزهة النفوس، 2 / 88. لكنه لا يذكر العدد.

الماء عن القلعة،⁽¹⁾ وقد عمد جنوده إلى إنشاء تلتين من أخشاب وتراب واحدة من جهة الغرب وأخرى من جهة الشمال، وعليهما وُضعت آلات تضرب القلعة من هناك، فلما "أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيانها وعن شمائلها"⁽²⁾ وتهدم بنائها، أيقن أهل القلعة بعدم جدوى المقاومة، لذا طلبوا الأمان وسلموا القلعة في 21 رجب بعد حصار استمر 43 يوماً.⁽³⁾

لا بد من الحديث عما عانته دمشق خلال إقامة تيمورلنك فيها، بدايةً فالغرامة التي فرضها تيمورلنك على المدينة أول الأمر بلغ قيمتها ألف ألف (مليون) درهم مقابل الأمان،⁽⁴⁾ ولما جُمع له له المبلغ استقله، ولم يرض به، فأمر أن يُجبي له عشرة آلاف ألف (عشرة ملايين) دينار،⁽⁵⁾ فعاد الجباة لجبي الأموال، إذ فرضوا على كل إنسان من أهل دمشق، ذكر وأنثى، حر وعبد، صغير وكبير، عشرة دراهم، وأخذوا من أموال الأوقاف، وجبوا أجرة مساكن دمشق كلها عن ثلاثة أشهر "فنزل بالناس من استخراج هذا بلاء عظيم".⁽⁶⁾

وعلى قول دي ميغانللي فإن تيمورلنك كان على علم دقيق بممتلكات المدينة وأهلها، وميزانية التجار، وذلك من خلال عمليات الجرد التي قام بها أتباعه في الحوانيت وفي غيرها من الأماكن التي تتم فيها المعاملات التجارية، بحجة حماية ممتلكاتهم، وإعادتها إليهم إذا تعرضوا

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 98 / 2.

(2) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 147. ابن تغري بردي: النجوم، 242/12-243.

(3) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 147. الصيرفي: نزهة النفوس، 88/2. ابن خلدون: التعريف برحلته، ص 374. ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 176. ابن تغري بردي: النجوم، 242/12. ابن إياس: بدائع الزهور، 613/2/1.

(4) المقريزي: السلوك، 3 / 1047. ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 176. ابن تغري بردي: النجوم، 241/12. ابن إياس: بدائع الزهور، 612/2/1.

(5) ابن قاضي شهبة، المصدر نفسه، 2 / 176. ابن شاهين: نيل الأمل، 3 / 53. يقول المقريزي وغيره أنه طلب ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، وأشار إلى أن سعر الدينار عندهم يختلف، والمطلوب هو عشرة آلاف ألف دينار، السلوك، 3 / 1047-1048. ابن تغري بردي: النجوم، 241/12. ابن إياس: بدائع الزهور، 612/2/1.

(6) ابن إياس: بدائع الزهور، 612/2/1-613. المقريزي: المصدر نفسه، 3 / 1048. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 242/12.

للسرقة،⁽¹⁾ وعندما جُمع له هذا المبلغ قال: "هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف ألف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار"،⁽²⁾ أي فرق العملة، ولما عجزوا عن الجمع، أمرهم برسم خطط دمشق وحاتها وسككها، ولما أتوه بخطها قسّم البلد بين أمرائه، ونزل كل أمير في قسمه لجمع ما تقرر عليه من المال، وقد تحدث المؤرخون عن الولايات التي نزلت بأهل دمشق أثناء جمع الأموال.⁽³⁾

شُلت الحياة في المدينة خلال مدة إقامة تيمورلنك، فتعطلت المساجد من الصلوات والأذان، وبطلت الأسواق عن البيع والشراء، ومنذ أن هرب السلطان . على حد قول ابن قاضي شهبة: "لم يُر أحد خبز في فرن إلا إن كان بئتي، ولا يوجد القمح والشعير إلا بعزة، فإنهم لما تسلّموا البلد ختموا على جميع الحواصل الذي به للغائبين والحاضرين، وهلك الفقراء، وغلبت الأغنياء، وبقي الإنسان لا يقدر يمشي من الموتى ولا يدفن أحد أحدًا".⁽⁴⁾

وبعد أن أنهى جُباة تيمورلنك جمع الأموال من سكان دمشق، أطلق العنان لعساكره بالتهب العام، والسبي الطام، فبدأت غارة الجند على المدينة يوم الأربعاء 30 رجب كما يذكر ابن قاضي شهبة، بأيديهم السيوف المصلّنة، فانتهبوا ما بقي من المتاع، وسبوا النساء، وأسروا الرجال، واستمر هذا العمل ثلاثة أيام، الأربعاء والخميس والجمعة⁽⁵⁾، ثم أضرمت النيران في المدينة، فاحترق داخل

(1) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 26.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 176. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12 / 243. ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 613/2. المقريزي: المصدر نفسه، 3 / 1049.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 614-615. المقريزي: المصدر نفسه، 3 / 1050. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12 / 244-245. وقد تحدث دي ميغانللي في مقاله حياة تيمورلنك عن عمليات الابتزاز هذه بالتفصيل، انظر، ص 26-32.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخه، 4 / 174-175، 176.

(5) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 4 / 177، المقريزي: السلوك، 3 / 1051. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12 / 245-246. ابن إياس: بدائع الزهور، 1 / 615/2. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 33.

داخل البلد بأسره، وعلى قول ابن عريشاه فإن النار استمرت نهار وليلة أصبحت المدينة بعدها "حصيداً كأن لم تغني بالأمس".⁽¹⁾

في 3 شعبان 803 / 20 آذار 1401م غادر تيمورلنك دمشق ثم لحق به ما بقي من عساكره في اليوم التالي، ويذكر ابن حجي أن جنود تيمور عندما غادروا المدينة كانوا يمشون بالجمع ويأخذون ما شاؤوا من النساء دون أن يقدر أحد على صدهم لما حصل عندهم من الخوف والجبن،⁽²⁾ ولكثرة ما أخذوا من المدينة لم تستطع دوابهم حمله، لذا بدأوا يطرحون بعضه على الطرقات أثناء عودتهم، كما أخذ تيمورلنك من دمشق المحترفين من أرباب الصنائع من نساجين وخباطين وحجارين ونجارين وأطباء وبياطرة... إلخ.⁽³⁾

في مسيره أثناء العودة اتجه شمالاً فوصل حمص، حيث سلمت منه للمرة الثانية إكراماً لخالد بن الوليد المدفون فيها، إلا أنه نهب قراها، ثم اتجه إلى حماة فتعرضت للنهب، ومنها اتجه شمالاً إلى الجبول التي تقع شرقي حلب، إذ لم يدخل حلب هذه المرة، بل اكتفى بأخذ ما استودعه بقلعتها، ومن هناك عبر الفرات إلى الرها ثم إلى ماردين ثم تابع المسير شرقاً إلى بلاده.⁽⁴⁾

ترك تيمورلنك دمشق -كما يقول المقرئزي- بعد أن أضحت أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد أقفرت من الساكن وامتألت أرضها بجثث القتلى ولم يبق (دابة تدب إلا الأطفال لا يتجاوز عددهم عدة آلاف)،⁽⁵⁾ أما ابن عريشاه فقد أقسم قائلاً بن تلك الأيام كانت علامة من علامات يوم القيامة.⁽⁶⁾

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص153. ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص243. ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، 4 / 77. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/245. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/616-617. ابن شاهين: نيل الأمل، 2/57. أما المقرئزي تذكر أن النار استمرت ثلاثة أيام، السلوك، 3 / 1051. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 34.

(2) ابن حجي: الذيل على تاريخ ابن كثير، ص244. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 34، 41.

(3) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 154، 156. دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 34، 41.

(4) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص158-159.

(5) المقرئزي: السلوك، 3 / 1051.

(6) ابن عريشاه، المصدر السابق، ص 153.

خامساً- الاجتياح التيموري لآسيا الصغرى، وهزيمة الجيوش العثمانية في معركة أنقرة 804هـ/ 1402م:

لم يُنه تيمورلنك أعماله في مشرق البحر المتوسط بهذا النصر على سلطنة المماليك، بل استأنف العمل من جديد هناك على جبهة آسيا الصغرى ضد السلطنة العثمانية.

لقد أحسن تيمورلنك استغلال الفرص، فما إن سمع بموت الظاهر برقوق وما تبعه من فوضى سيطرت على الحكم المملوكي، وقيام السلطنة العثمانية باحتلال ملطية التابعة للمماليك وما تبعه من حدوث جفاء في العلاقات،⁽¹⁾ حتى أدرك بأن الفرصة أصبحت مواتية لضرب خصميه، فاختر في البداية ضرب السلطنة المملوكية مستغلاً ضعف حاكمها واضطرابها، وبعد سنة فقط من فراغه من تخريب دمشق ورحيله عنها في شعبان 803هـ/ ظهر أمام حصن **أونيك** شرقي الأناضول في رمضان 804هـ/ أيار 1402م ليباشر أعماله ضد السلطنة العثمانية.

يذكر تيمورلنك في مذكراته أنه بعد فراغه من تدمير السلطنة المملوكية أراد أن يمنح السلطان العثماني فرصة للتفكير بمخاطر معاداته له، لذلك انسحب نحو الشرق ولم يهاجم السلطنة العثمانية مباشرة، ثم ذكر السبب الرئيس الذي استدعى قدومه، وهو قيام الأمير قرا يوسف- حاكم إمارة الشاة البيضاء والملجئ عند السلطان بايزيد هرباً من تيمورلنك- بالإغارة على إحدى قوافل الحجاج الذاهبة إلى الحجاز، فالتجأ هؤلاء إلى تيمورلنك وطلبوا منه التدخل لحمايتهم والانتقام لما حل بهم، فكان لا بد من تأديب قرا يوسف وحاميه السلطان العثماني.⁽²⁾

(1) عندما اقترن خطر تيمورلنك أرسل بايزيد للمماليك يعرض عليهم اجتماع الكلمة ضد تيمورلنك، فلم يلتفت أحد لكلامه وقالت أمراء مصر: الآن صار صاحبنا، وعندما مات أستاذنا الظاهر برقوق استولى على ملطية من بلادنا، فليس هو لنا بصاحب، فليقاتل عن بلاده ونحن نقاتل عن بلادنا، وكتب له السلطان بهذا المعنى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 217/12-218.

(2) تيمورلنك: مذكرات تيمورلنك مدبر العالم، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2005م/ 52 .

ورد عند بعض المؤرخين أن تيمورلنك أثناء وجوده في "قرباغ"⁽¹⁾ أرسل إلى السلطان بايزيد بأنه سيهاجم بلاده بسبب وجود أحمد بن أويس وقرا يوسف في ضيافته، لأنهما "مادة الفساد ووبار البلاد ودمار العباد...والرضى بالمعصية معصية، والإقرار على الكفر كفر،... فصاروا في الفساد وزيريه وهو الأمير، وفي العناد صغيرين وهو الكبير..."، وبالتالي يترتب على السلطان بايزيد إخراجهم وقتلهم، مع التهديد باجتياح البلاد عند مخالفة الأوامر.⁽²⁾

كان رد السلطان العثماني على هذا التهديد بتقريع وتوبيخ لتيمورلنك، وأن انتصاراته السابقة حققها بسبب ضعف أعدائه؛ وأنه بانتظاره، ويوضح ابن عريشاه أنه بهذا الرد الذي رده السلطان العثماني توفر المبرر لتيمورلنك للهجوم على السلطنة العثمانية.⁽³⁾

على كل حال هذه الأسباب والمسوغات لا يمكن أن تخفي الدوافع الطبيعية للأعمال التوسعية التي قام بها تيمورلنك شرقاً وغرباً، والتي تمثلت في رغبته بتأسيس إمبراطورية تابعة له، وهي فطرة جُبل عليها أي قائد عسكري امتلك القوة والإمكانات.

قبيل الهجوم راسل تيمورلنك السلطان العثماني، وادعى أنه لا يريد محاربة السلطان، وعلى العثمانيون إعادة الأراضي التي كانت تابعة لمغول فارس في آسيا الصغرى قبيل وفاة أبو سعيد، فانخدع السلطان بكلماته، وفوجئ عندما سمع خبر اكتساح تيمورلنك قلعة "كماخ"⁽⁴⁾ الواقعة على المجرى الأعلى لنهر الفرات على مسافة يوم واحد من أرزنجان،⁽⁵⁾ وهي قلعة حصينة (من إحدى جهاتها نهر الفرات...، ومن الجهة الأخرى وادٍ متسع... ومن الجهتين الأخرتين هضاب...)⁽⁶⁾،

(1) مصيف فيما بين مدينة السلطانية وتبريز، ابن بطوطة: الرحلة، 44/1. لي سترانج

(2) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 164، 169. كذلك يجعل ابن حجر العسقلاني من وجود كل من قرا يوسف وأحمد بن أويس عند السلطان العثماني سبباً في هجوم تيمورلنك عليه. انظر، إنباء الغمر، 2/ 228.

(3) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 163-167، 170.

(4) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/150. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/659/2. المقريزي: السلوك، 3/1091.

(5) الحموي: معجم البلدان، مادة كملی، لي سترانج: بلدان الخلافة الشرقية،

أما ابن عريشاه فيقول أنها على مسافة نصف يوم من أرزنجان، عجائب المقدور، ص 169.

(6) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 167-168.

فتم ردم الوادي وقصف المدينة بالمجانيق من هناك، ولما تيقن أهل المدينة عدم جدوى المقاومة طلبوا الأمان، وتم تسليمها في شوال 804هـ/، حيث دخلها العسكر التيموري واستباحوها.⁽¹⁾

1- معركة أنقرة 805هـ/ :

كان السلطان بايزيد مقيم بجيشه على حصار القسطنطينية أثناء دخول تيمورلنك الأراضي العثمانية، فاضطر إلى فك الحصار عنها والتوجه شرقاً لملاقاة تيمورلنك،⁽²⁾ وكانت خطته تقتضي التصدي لتيمورلنك في ضواحي سيواس ومنعه من التوغل في الأراضي العثمانية لحماية البلاد من ضرره، ولا سيما أنه كان قد حل موسم الحصاد وجني الفواكه،⁽³⁾ أما خطة تيمورلنك فكانت تعتمد على التوغل في الأراضي العثمانية وخلق الإرباك للجيوش العثمانية وإرهاقها، ولذلك -بعد الفراغ من أمر كماخ- بدلاً من التوجه من كماخ إلى توقات⁽⁴⁾ في الشمال الشرقي؛ حيث نزل الجيش العثماني قادماً من القسطنطينية، قام بالمسير نحو الجنوب الغربي حيث وصل إلى قيصرية، ومنها توجه إلى مدينة "قيرشهر" الواقعة جنوب شرقي أنقرة، وأثناء وجوده هناك وصلت أخبار تفيد بوجود الجيش العثماني في ضواحي أنقرة،⁽⁵⁾ ومعنى ذلك أن الجيش العثماني تراجع من توقات شرقاً إلى أنقرة غرباً في عملية تعقب وملاحقة للجيش التيموري.

قرر تيمورلنك خوض المعركة في أنقرة، ولكن قبل المسير إليها أرسل قوة استطلاعية تتألف من ألف فارس تمكنت من استدراج الجيش العثماني إلى خارج أنقرة مسافة بعيدة،⁽⁶⁾ فقام هو مسرعاً ببقية الجيش وتقدم نحو أنقرة، في حين تمكنت طلائعه من ردم بعض الآبار، ودس السم في بعضها الآخر، كما قامت بتحويل مجرى النهر الصغير الذي كان يسقي مدينة أنقرة،⁽⁷⁾ وعندما

(1) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 150. ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 168-169.

(2) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 170.

(3) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 173-174.

(4) توقات: بلدة بين قونية وسيواس، فيها قلعة حصينة. الحموي: معجم البلدان، مادة توسكاس. لي

سترايج:

(5) علي يزدي: ظفرنامه، 2/ 298.

(6) علي يزدي: المصدر نفسه، 2/ 299.

(7) علي يزدي: المصدر نفسه، 2/ 300.

وعندما وصل أنقرة بلغ القوات العثمانية ذلك، فاضطرت للعودة مسرعة إلى أنقرة ثانية واستغرقت مسيرة العودة ثمانية أيام.⁽¹⁾

كان ذلك في شهر تموز من سنة 1402م، والحر على أشده، فنال ذلك من العسكر العثماني حتى أصبحوا "كالموتى من التعب"،⁽²⁾ وقد حالت القوات التيمورية بين العسكر العثماني والماء، في حين أن تيمورلنك سار إلى أنقرة متمهلاً متباطئاً إلى أن وصل أنقرة و"خيله ورجاله مستريحة موقرة".⁽³⁾

يذكر ابن عريشاه أن المعركة وقعت على نحو ميل من مدينة أنقرة في سبع عشر ذي الحجة من سنة 804هـ/ تموز 1402م، وفي هذه المعركة تعرض العسكر العثماني لهزيمة منكرة لم يتعرض لمثلها من قبل، وأسر السلطان بايزيد، وفر باقي الجيش متفرقاً في البلاد⁽⁴⁾

2-أسباب الهزيمة:

استمر القتال يوم كامل، كان التفوق في البداية للعسكر العثماني، إلا أن المعركة لم تُحسم كما بدأت، وانقلبت الموازين لصالح تيمورلنك، وكان من الطبيعي أن يتم ذلك لأسباب عديدة.

فالجيش العثماني الذي كان يتألف من عناصر عديدة، هي في حقيقتها غير متجانسة، فقد ضم الجيش العثماني تركمان الإمارات الأناضولية مثل إمارة قرمان ومنتشا وصاروخا، بالإضافة إلى العناصر الأوروبية الواقعة تحت السيطرة العثمانية، وخاصة الصرب، بالإضافة إلى التتار

(1) تحدث المقريري والعسقلاني وغيرهما عن عملية الالتفاف هذه بأنها مكيدة ظن بها بايزيد أن تيمورلنك خافه وهرب، انظر: السلوك، 3/ 1091-1092. إنباء الغمر، 2/ 225، 228.

الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 151. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 659/2.

(2) العسقلاني: المصدر نفسه، 2/ 225. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 150. ابن إياس: بدائع الزهور،

1/ 659/2. المقريري: السلوك، 3/ 1092.

(3) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 175.

(4) ابن عريشاه: المصدر نفسه، ص 175 وما بعد. وعلي يزدي يذكر أيضاً أن المعركة في ذي الحجة الحجة سنة 804هـ، لكن بعض المؤرخين يجعلها في محرم 805هـ. انظر: علي يزدي: ظفرنامه،

2/ 314. المقريري: السلوك، 3/ 1091-1092. العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 225 وما بعد.

الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 151-152. ابن إياس: بدائع الزهور، 1/ 659-660.

المقيمين في آسيا الصغرى،⁽¹⁾ وعدم تجانس هذه العناصر ظهر واضحاً في أرض المعركة عندما بدأت كتائب بالفرار وأخرى بالانضمام إلى العسكر التيموري.

فتيمورلنك عمد قبل بدء المعركة إلى الاتصال مع العناصر التنزيرية الموجودة في الجيش العثماني قائلاً لهم: "إن حسبكم حسبي، ونسبكم متصل بنسبي،..." وأن أراضي ابن عثمان هي لأجدادهم، ووعدهم بإعادة القوس إلى باريها والدار إلى بانيها والمياه إلى مجاريها إذا تم النصر، وأمرهم أن يكونوا بالظاهر مع ابن عثمان، ولكن "إذا التقينا امتازوا، وإلى عساكرنا انحازوا".⁽²⁾

وفعلاً أثمرت مساعي تيمورلنك، فيصف القرماني أن التتار الذين انسحبوا من الجيش العثماني وانضموا إلى جانب تيمورلنك "كانوا هم صلب العسكر والأوفر والأكثر"،⁽³⁾ ويقدر ابن عريشاه نسبتهم بحوالي ثلث عسكر ابن عثمان.⁽⁴⁾

وعندما انضم القسم الأعظم من الجيش العثماني إلى تيمورلنك، وباتت الهزيمة واضحة بدأت فرق من الجيش تلوذ بالفرار، حتى أن سليمان بن بايزيد عندما شاهد ذلك أثر الانسحاب من المعركة مع عساكره باتجاه مدينة بورصة تاركاً والده في ساحة المعركة بمفرده مع ما بقي من عساكر ومعظمهم من المشاة، وقدر عدد القوات التي عادت مع سليمان بمئة ألف مقاتل.⁽⁵⁾

ويجب أن لا ننسى نقطة مهمة، وهي أن الجيش العثماني كان يعاني من التعب نتيجة مسيره وتحركاته وتعقباته للجيش التيموري الذي ضلل الجيش العثماني في مسيره المتعرج من كماخ إلى قيصرية ثم إلى قيرشهر ومن هناك إلى أنقرة بعد أن نجح في استدراج العثمانيين إلى خارج أنقرة،

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 170-171، وقد أشار ابن تغري بردي إلى ذلك عندما قال: (فجمع أبو يزيد بن عثمان عساكره من المسلمين والنصارى والتتار). انظر، النجوم الزاهرة، 267/12.

(2) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 172-173. القرماني (أحمد بن يوسف القرماني): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص 302.

(3) القرماني: المصدر نفسه، ص 302، ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 176.

(4) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 176.

(5) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 176. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/152. ابن إياس: بدائع الزهور،

660/2/1. المقرئزي: السلوك، 1092/3. القرماني: المصدر السابق، ص 302.

وبهذه التحركات فرض على عدوه زمان ومكان المعركة، وأجبره على خوض المعركة وهو في حالة من التعب والعطش، في وقت كان فيه الجيش التيموري على أهبة الاستعداد، وفي غاية النشاط.

3- النتائج:

خسر العثمانيون المعركة، ووقع السلطان بايزيد في الأسر وبقي فيه إلى أن توفي في 4 شعبان سنة 805هـ، ودفن في بورصة،⁽¹⁾ في حين أن ابنه سليمان الذي هرب من المعركة ذهب إلى بورصة -العاصمة آنذاك- واحتاط على ما فيها من الخزائن والأموال والحريم ونقلها إلى أدرنة على البر الأوروبي،⁽²⁾ وتفرقت باقي العساكر العثمانية في البلاد شذر مذر.⁽³⁾

أما تيمورلنك فإنه أطلق قواته شرقاً وغرباً تعيث في الأرض دماراً وسرقة وقتل،⁽⁴⁾ كما سعى في الوقت ذاته إلى إحياء الإمارات التركمانية التي كان قد قضى عليها العثمانيون من قبل، وتفكيك الأناضول، فقام بإطلاق سراح محمد وعلي أبناء علاء الدين بن قرمان حاكم الإمارة القرمانية، الذين كانا محبوسين في بورصة من قبيل السلطان بايزيد بعد أن قتل والدهم وقضى على إمارته سنة 792هـ/، وخلق عليهما وأعادهما إلى إمارتهما،⁽⁵⁾ ثم استقبل الأمير اسفنديار بن بايزيد

(1) القرماني: المصدر السابق، ص 303. ابن شاهين: نيل الأمل، 91/3. العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 255. ابن إياس: بدائع الزهور، 677/2/1.

(2) ابن عريشاه: عجائب المقذور، ص 177. ابن إياس: بدائع الزهور، 660/2/1. المقرئزي: السلوك، 1092/3.

(3) الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 152.

(4) ابن عريشاه: عجائب المقذور، ص 184. ابن إياس: بدائع الزهور، 660/2/1. المقرئزي: السلوك،

1092/3. الصيرفي: نزهة النفوس، 2/ 152.

(5) القرماني: أخبار الدول، ص 300.

من أسرة اسفنديار حكام قسطنطيني⁽¹⁾ شمالي آسيا الصغرى وأقره مكانه نكاية ببني عثمان الذين كانوا على عدااء معهم، وكذلك فعل مع حكام إمارات أرزنجان وكرميان ومنتشا وصاروخان.⁽²⁾ والهدف من هذه العملية هو إعادة الكيانات السالفة، ومنع العثمانيين من التفرد بحكم آسيا الصغرى، وانشغالهم بمحاربة هذه الدويلات بشكل يحول دون قيام دولة قوية إلى جانب دولته.

وبعد إقامة استمرت حوالي سنة انسحب تيمولنك باتجاه الشرق تاركاً آسيا الصغرى جثة هامدة، لم يسلم من شره على قول القرماني لا التلث ولا الربع.⁽³⁾

على أن أهم النتائج التي خلفها الاجتياح التيموري؛ وأخطرها، هو خلاص الإمبراطورية البيزنطية من الخطر المحيط بها، وتأجيل سقوط القسطنطينية مدة نصف قرن.

بعد معركة نيقوبولس التي انتصر به الجيش العثماني على جيوش أوروبا سنة هـ/ 1396م، شدد السلطان بايزيد الحصار على القسطنطينية، ثم تداعت جيوش أوروبا لرفع الحصار عنها، وتمكنت من فك الحصار ولكن لسنة واحد فقط (1399م)، ثم عاد الحصار عليها من جديد مما استدعى الإمبراطور مانويل للخروج في جولة امتدت ثلاث سنوات (هـ/ 1400 - 1402م)، جاب فيها قصور ملوك أوروبا يطلب منهم المساعدة، لكن مساعيه باءت بالفشل،⁽⁴⁾ واستمر الحصار العثماني للقسطنطينية إلى قبيل قدوم تيمورلنك إلى أراضي السلطنة العثمانية، وقد أوشكت على السقوط،⁽⁵⁾ إلا أن السلطان العثماني أُجبر على فك الحصار والتوجه شرقاً للتصدي لتيمورلنك، وحين نزلت الهزيمة بالجيش العثماني في أنقرة، زال الخطر الذي كان يهدد الإمبراطورية، وعاد الإمبراطور البيزنطي إلى عاصمته، لا بل إن سليمان بن بايزيد اضطر إلى عقد هدنة مع

(1) مدينة في آسيا الصغرى شرقي هرقله ، تبعد عن أنقرة مسافة خمسة أيام، وهي إلى الجنوب الغربي منها. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 393.

(2) ابن عريشاه: المصدر السابق، ص 182-183. العسقلاني: إنباء الغمر، 2/ 269. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 12/ 268-269.

(3) القرماني: المصدر السابق، ص 303.

(4) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 131-132. مقدمة رحلة كلافيجو (سفارة إلى تيمورلنك)، ص 7-8.

(5) القرماني: المصدر السابق، ص 302.

البيزنطيين في القسطنطينية،⁽¹⁾ وطال بالتالي عمر الإمبراطورية خمسين سنة، لأن وريثة السلطان بايزيد دخلوا في صراع طويل على السلطنة استهلك قواها لعدة سنوات.

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 178 - 180.

الفصل الخامس

النشاط التجاري في مشرق البحر المتوسط

«القرنين الثالث عشر والرابع عشر»

أولاً- الطرق التجارية.

ثانياً- المحطات التجارية.

ثالثاً- السلع المتبادلة.

رابعاً- العلاقات التجارية بين المدن التجارية الأوروبية وسلطنة المماليك.

خامساً- قبرص وأرمينية الصغرى، التنافس التجاري مع المماليك.

سادساً- التجارة الكارمية.

سابعاً- الاهتمام المملوكي بالتجارة.

أولاً - الطرق التجارية:

تنوعت الطرق التجارية التي ربطت شرق آسيا بأوروبا، وتبدلت بين آونة وأخرى حسب الظروف السياسية، لكن كان هناك طرق شكلت شرايين الاتصال في العالم، وهي لا تزال تُستخدم حتى الوقت الحاضر، فعلى الرغم من توقفها لفترات من الزمن إلا أنها كانت تستعيد عافيتها دوماً، وما يهم هنا هو الطرق التي ربطت المشرق بأوروبا مروراً بالحوض الشرقي للمتوسط، وهي عديدة ومتنوعة، وسيتناول البحث فقط الطرق التي نقلت عبرها بضائع شرق آسيا إلى الحوض الشرقي للمتوسط، أي إلى أسواق بلاد الشام ومصر وإرمينية الصغرى.

الطرق التجارية التي تربط بين أقصى الشرق ومشرق البحر المتوسط:

تقسم هذه إلى طرق بحرية وأخرى برية، فبالنسبة للطرق البحرية:

كانت السفن التي تخرج من موانئ شرق وجنوب شرق آسيا تبخر شرقاً باتجاه جنوب الجزيرة العربية، ومن هناك فإما أن تسلك طريق البحر الأحمر، أو أن تسلك طريق الخليج العربي.

طريق البحر الأحمر يبدأ من ميناء عدن في اليمن، ومن ثم تعبر السفن باب المنذب إلى موانئ البحر الأحمر المصرية، وأهمها عيذاب،⁽¹⁾ وقد كان أكثر الموانئ ازدحاماً بتجار الكارم وغيرهم من التجار، وذلك نظراً لاتساع حوضه وقلة الشعاب المرجانية فيه، ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص على النيل بالبضائع ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط في بحر النيل.⁽²⁾

وإلى الشمال من عيذاب هناك القصير،⁽³⁾ وتتجه إليه عدد من المراكب ولكن أقل من عيذاب،⁽⁴⁾ ومن هناك تنقل البضائع براً إلى موانئ النيل مثل: قوص⁽¹⁾

(1) عيذاب: بلدة تقع على ضفة البحر الأحمر من جهة مصر وهي مرسى للمراكب القادمة من عدن إلى الصعيد. انظر: الحموي، معجم البلدان، مادة (عير).

(2) القلقشندي: صبح الأعشى،

(3) القصير: موضع قرب عيذاب فيه مرفأ سفن اليمن. انظر، الحموي: معجم البلدان، (مادة قصيبة).

(4) القلقشندي: صبح الأعشى،

وأسوان،⁽²⁾ وقنا،⁽³⁾ ومنها تُنقل البضائع عبر نهر النيل إلى القاهرة، ومن القاهرة تنطلق البضائع إلى موانئ البحر المتوسط كالإسكندرية ودمياط ورشيد.

وأحياناً كانت السفن لا ترسو في موانئ البحر الأحمر المصرية، بل تستمر في سيرها شمالاً حتى ترسو في خليج السويس أقصى شمال البحر الأحمر، ومن السويس تتجه البضائع براً إما إلى القاهرة فموانئ البحر المتوسط عبر النيل، أو شمالاً إلى دمشق وحلب فموانئ بلاد الشام على المتوسط مثل بيروت وطرابلس وعكا وغيرها...⁽⁴⁾

أما بالنسبة لطريق الخليج العربي، فكان هذا الطريق يشترك مع الطريق الأول حتى مداخل الخليج العربي، فيتجه شمالاً لتُقرغ السفن حمولتها إما على الشاطئ الفارسي أو على الشاطئ العربي.

أهم الموانئ الفارسية هي: هرمز،⁽⁵⁾ وسيراف،⁽⁶⁾ وقيس (كيش)،⁽¹⁾ أما الموانئ العربية فأهمها هي البصرة، والأبلة⁽²⁾ على رأس الخليج عند مصب دجلة والفرات.

(1) قوص: مدينة كبيرة، قصبه صعيد مصر، أهلها أغنياء، وهي محط التجار القادمين من عدن، انظر، الحموي: المصدر نفسه، (مادة قوص).

(2) أسوان: مدينة كبيرة، وكورة آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه مشهورة بتمورها، انظر: الحموي: المصدر نفسه، (مادة أسوان).

(3) قنا: كسر القاف، والقصر، كلمة قبطية: مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد، وتتسب إليها كورة. الحموي: المصدر نفسه، مادة (قنا).

(4) وليم الصوري: الأعمال المنجزة، 916/5. **الفلقشندي: صبح الأعشى**، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص 118 – 124. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، تر: أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985 – 176/1994، وما بعده. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، 298/2 – 299.

(5) هرمز: أهم مراكز التجارة الفارسية في العصور الوسطى، مدينة في البحر يصل إليها خور، هي على ضفة ذلك البحر، تقع في إقليم كرمان، وهي فرضة ذلك الإقليم، إليها ترفأ المراكب، ومنها تنقل أمتعة الهند إلى خراسان وسجستان وكرمان. انظر، الحموي: معجم البلدان، مادة هرمز، ابن سعيد المغربي (علي بن موسى): كتاب الجغرافية، تح: إسماعيل المغربي، المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1970م، ص 132.

(6) سيراف: مدينة جليلة على ساحل فارس، الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة تجارية غنية. انظر، الحموي: معجم البلدان (مادة سيراف)، ابن سعيد المغربي، الجغرافية، ص 160.

وكانت القوافل تبدأ مسيرها عبر الخليج باتجاه الشمال سالكة طرق برية، أو نهريّة عبر نهر دجلة، وكانت عندما تصل إلى بغداد تتفرع إلى فرعين، أحدهما يسير شمالاً والآخر يسير غرباً.

بالنسبة للقوافل التي تتجه غرباً كانت تذهب إلى دمشق، لتُحمل سلعتها إلى موانئ الساحل الشامي ومن هناك تتولى السفن الأوروبية نقل بضائعها إلى أوروبا، أو تخرج القوافل جنوباً إلى مصر عبر غزة، وأحياناً فإن القوافل المتجهة من بغداد غرباً تسير إلى حلب، ومن حلب تسير القوافل في طرق متعددة، إما إلى الساحل الشامي، أو إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية.

أما بالنسبة للقوافل التي كانت تتجه شمالاً من بغداد فإنها ذهبت إلى ديار بكر وأرمينية، وهناك كانت تلتقي مع القوافل القادمة من الشرق براً لتتابع المسير معها نحو القسطنطينية فأوروبا.⁽³⁾

أما الطرق البرية التي كانت تأتي من الهند عبر جبالها لتتقي مع الطرق القادمة من الصين على مقربة من نهر الأتل (الفلجا)،⁽⁴⁾ حيث يسيران معاً حتى بخارى ومن هناك تتفرع إلى عدة طرق:

— من بخارى تتجه عبر بحر قزوين إلى أسترخان⁽⁵⁾ حيث تُحمل البضائع من هناك في نهري الفولجا والدون إلى القرم شمالي البحر الأسود فالقسطنطينية⁽¹⁾.

(1) قيس أوكيش، جزيرة في بحر عمان، مرفأً مراكب الهند وبر فارس، فيها أسواق وخيرات، وفيها مغاص للؤلؤ، انظر، الحموي: معجم البلدان، (مادة قيادية)، ابن سعيد المغربي: الجغرافية، ص 132.

(2) الأبلّة: تقع على رأس الخليج العربي عند مصب شط العربي، زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، انظر، الحموي، معجم البلدان: (مادة الأبلّة)، ابن سعيد المغربي؛ الجغرافية، ص 159 + حاشية رقم 172، ص 248.

(3) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص 117 – 118. الكنانى: العلاقات التجارية بين جنوة والشرق الأدنى، ص 300 – 301.

(4) نهر الأتل أو الأتل، أعظم أنهار بلاد الترك، ينبع من أقصى الشمال والشرق، ويمر في بلغاريا، كما يمر من جنوب غربي مدينة صراي، ويصب في بحر الخزر من الناحية الشمالية الغربية. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص 50.

(5) شمال بحر الخزر.

— أو من بخارى إلى جنوب بحر قزوين إلى آسيا الصغرى حيث تسير محاذية جنوب البحر الأسود إلى القسطنطينية.

— أو من بخارى إلى إيران ومن هناك إلى العراق وديار بكر، ثم إلى دمشق وحلب فموانئ الساحل السوري.⁽²⁾

وترافق قيام دولة المماليك في مصر والشام مع ازدهار طريق البحر الأحمر والموانئ المصرية، واطمئنان ما عداه من طرق تجارية بين الشرق والغرب، فكما هو معروف في سنة 656هـ/1258م سقطت بغداد بيد المغول وتبع ذلك امتداد نفوذهم إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى فضلاً عن فارس التي أصبحت مقراً لدولة هولاء، وطبعاً تم ذلك بعد أن عانت المنطقة من حروب ضارية امتدت لعقود شلت خلالها الطرق التجارية البرية القادمة من الهند والصين والمارة في هذه المنطقة، وقد أشار ماركوبولو الذي قام برحلة إلى تلك المناطق أواخر القرن الثالث عشر الميلادي إلى انعدام الأمن على ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل التجارية،⁽³⁾ كما أن عمليات القرصنة قد انتشرت في الخليج العربي مما دفع بالسفن التجارية للتوجه إلى البحر الأحمر،⁽⁴⁾ إلى أن عدن التي شكلت مدخل البحر الأحمر واشتهرت على أنها أهم محطاته بدأت تفقد رونقها نظراً للمعاملة السيئة التي كان يلقاها التجار هناك،⁽⁵⁾ كل هذا جعل سلطنة المماليك تغتنم الفرصة الذهبية لتقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب.

(1) سونيا، هاو: في طلب التوابل، تر: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، 1957م، ص 42.

(2) زكي: طرق التجارة الدولية، ص 154 — 155. إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين

المماليك، دار المعارف، مصر، 1983، ص 20.

(3) — ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، 1/ 52، 66، 72، 90.

(4) — سعيد عاشور: بحوث ودراسات في التاريخ الاقتصادي، ص 134.

(5) — كانت السفن التجارية عندما تصل إلى عدن تتعرض لتفتيش دقيق، إذ يصعد إليها عمال ملك اليمن وينزعوا قلوبها ودفتها ومرساتها، كي لا تتمكن من السفر قبل دفع الضرائب، ثم يتعرض رجالها لتفتيش دقيق يشمل العمامة والشعر والكمين والسراويل وتحت الإبط...، كذلك وجدت عجوز تفتش النساء، وإذا ما أراد التاجر الرحيل لا يُسمح له بذلك حتى يُنادى في شوارع عدن أن فلان سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال

ثانياً - المحطات التجارية:

أ - أهم المحطات والمراكز التجارية على البحر المتوسط:

- الإسكندرية:

السوق العالمية، والمركز الرئيس للتبادل التجاري بين منتجات الشرق والغرب، فهي تتمتع بموقع موائم للغاية لمواصلات تجارة واسعة، مما جعل الأغلبية العظمى من السفن الأوروبية تقصد الإسكندرية حيث كان بها عدد كبير من الوكالات التجارية التي كان يتم بها تسجيل أكبر المعاملات التجارية.⁽¹⁾

تحدث وليم الصوري عنها فقال: "تشتهر الإسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع من أي مدينة بحرية أخرى، ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللؤلؤ والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية فإنه يجلب إلى هنا"،⁽²⁾ وقبيل عصر سلاطين المماليك زارها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي وقال أنها "بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم، وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها، ... ولتجار كل أمة فندقهم الخاص"، ثم أحصى ما يقرب 50 جنسية للتجار الموجودين بها آنذاك،⁽³⁾ ففي المدينة كان للبنادقة فندقان، كما كان لكل من النابوليين

فليطالبه به، وعندما تثبت براءة ذمته يُسمح له بالرحيل. بامخرمة (أبو محمد عبد الله): تاريخ ثغر عدن، طبعة ليدن، 58/1، 67 - 68.

بالمقابل عومل التجار من قبل المماليك معاملة طيبة، هذا ما جعل التجار يلجأون لهم عند حدوث أية مشاكل، ومنها ما حدث سنة 704هـ / 1304م عندما شكوا بعض التجار الكارمية للناصر محمد سوء معاملة صاحب اليمن لهم، وهو آنذاك الملك المؤيد أحد حكام الدولة الرسولية، وإرهاقهم بالضرائب، فكتب له السلطان يهدده، ولما لم يستجب جهز له حملة وهم بإرسالها لولا تدخل الكارمية أنفسهم ورجائهم بحل المشكلة سلمياً، عندئذ تم إرسال الخليفة العباسي وتمكن من حلها سلمياً. المقرئزي: السلوك، 7 / 2، 32 - 33، 38. القلقشندي: صبح الأعشى، ج6، 422 - 426.

(1) النويري: الإلمام، ص 55، 56، 57. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، 915/5. هايد: تاريخ

التجارة، ج3، ص 300.

(2) وليم الصوري: الأعمال المنجزة، 915/5.

(3) بنيامين (بنيامين بن بونة التطيلي الأندلسي): رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، 1945م،

ص 178-179.

والفرنسيين والمرسيليين والقطالونيين والكريتيين والقبارصة والأتراك والمغاربة والتتار... إلخ فندق واحد،⁽¹⁾ ناهيك عن الوكالات والأحياء والأفران.

كان للمدينة مرسيان أو ميناءان منفصلان عن بعضهما⁽²⁾ الميناء الجديد في ناحية الشرق مخصص لاستقبال السفن الغربية المسيحية، والميناء القديم من ناحية الغرب ويعرف ببحر السلسلة، وهو مخصص لاستقبال السفن الإسلامية،⁽³⁾ وذكر ابن بطوطة أنه لم ير في الدنيا مثل مراسي الإسكندرية⁽⁴⁾، وأنشط تجارة كانت قائمة آنذاك هي تجارة التوابل، حتى أن باباً من أبواب الجمرك فيها سمي باب البهار، وشارعاً له الاسم نفسه،⁽⁵⁾ وزبدة الكلام فيما قاله وليم الصوري عندما عدها «سوقاً عامة لهذين العالمين»⁽⁶⁾ أي أوروبا والشرق.

— دمياط:

كانت دمياط تشكل ثاني موانئ مصر بعد الإسكندرية، فهي ميناء نهري وبحري، إلا لأنه لا يمكن للسفن الدخول إلى دمياط مباشرة من فرع النيل، وذلك بسبب ردم مدخل النهر بالحجارة الكبيرة⁽⁷⁾ وإنما كان الدخول إليها يتم عن طريق بحيرة المنزلة المتصلة مع المتوسط والمفصلة مع دمياط بقناة،⁽⁸⁾ وخوفاً من الصليبيين الذين كثر تعديهم على دمياط جرى نقل المدينة وإعادة بنائها في موضع بعيد عن البحر،⁽⁹⁾ ومع ذلك فقد بقيت الإيرادات الجمركية كبيرة.⁽¹⁾

(1) النويري: الإمام، ص 55-56. هايد: المرجع السالف، 3/ 304 - 305.

(2) النويري: الإمام، ص 41، 30. وليم الصوري: المصدر السابق، 5/ 915.

(3) النويري: الإمام، ص 30، 98، 264، 268-269. سانوتو: كتاب الأسرار، 38/ 227. هايد:

المرجع السابق، 3/ 305.

(4) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي): رحلة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1958م، 1/ 9.

(5) النويري: الإمام،

(6) وليم الصوري، الأعمال المنجزة، 5/ 916.

(7) تم ردم مدخل النيل بحجارة من قبل السلطان بيبرس سنة 676هـ خوفاً من دخول الصليبيين بسفنهم

غزة إلى دمياط. المقرئزي: السلوك، 1/ 639.

(8) نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص 132.

(9) لودولف فون سوفم: وصف الأرض المقدسة، 39/ 334.

شكلت دمياط مخرج تجارة مصر لموانئ الساحل الشامى وكريت وآسيا الصغرى وقبرص،⁽²⁾ وكان بالمدينة عدد كبير من اليونانيين والجنوبيين والبنادقة والفرنسيين، فضلاً عن قنصلية لفرسان القديس يوحنا (الاسبتارية)، وقد اشتهرت بتجارة السكر والأسماك التي كانت تشحن إلى جميع أجزاء الدنيا على قول لودولف.⁽³⁾

إضافة إلى دمياط الإسكندرية كان لمصر عدد من الموانئ هي:

— ميناء أبى قير المتصل بالنيل عن طريق قناة تصل إلى البحيرة القريبة منه، ويبعد عن الإسكندرية ثمانية أميال وهو مرفأً للسفن السورية الواردة إلى الإسكندرية، تخصص للسفن الصغيرة، أما الكبيرة فتتصل به من البحر عن طريق قوارب، وهذا الميناء هو أحد المراكز الرئيسية لصيد وتصدير الأسماك.⁽⁴⁾

— ميناء رشيد النيلي، وله صفة حربية، لذلك حرمت السلطات المملوكية التعامل به ونقلت نشاطه التجارى إلى ميناء بلدة «فوة» جنوبه، كانت تتصل بالإسكندرية عن طريق قناة ملاحية⁽⁵⁾، وكان بإمكان الأجانب الذهاب منه إلى القاهرة في مراكب عبر النيل والعودة إليه، ولكن لا بد من النزول عند رشيد والمسير إلى الإسكندرية براً على ظهور الحمير أو البغال.⁽⁶⁾

— الموانئ الشامية:

كما هو معلوم، على السواحل الشامية كانت تنتهى الطرق التجارية القادمة من:

1 — الشرق الأقصى براً عبر إيران والعراق.

2 — الخليج العربى إلى بغداد ثم الشام.

(1) هايد: تاريخ التجارة، 2/ 291.

(2) زكى: طرق التجارة، ص 132. هايد: تاريخ التجارة، 3/ 300 — 301.

(3) لودولف: وصف الأرض المقدسة، ص 334. هايد: تاريخ التجارة، 3/ 300.

(4) النويرى: الإمام، ص 34. زكى: طرق التجارة الدولية، ص 131.

(5) زكى: المرجع نفسه، ص 131، محمد الأشقر: تجارة التوابل في مصر في القصر المملوكى، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، 1999م، ص 335.

(6) هايد: تاريخ التجارة، 3/ 300-301.

3 – البحر الأحمر بعد أن تأخذ القوافل طريقها براً عبر سيناء إلى بلاد الشام.

4 – الفرع المتجه جنوباً من آسيا الصغرى.

5 – الطرق القادمة من أوروبا بحراً وبراً.⁽¹⁾

وبناءً عليه فقد ازدهرت التجارة في المدن والموانئ الشامية، واستقر فيها عدد كبير من التجار الأجانب الذين اعتادوا منذ أيام الحروب الصليبية على تزويد بلادهم منها بما تحتاجه من السلع، إلا أن الأسواق الشامية تراجع نشاطها وشهدت بعض الركود على أثر قرارات الحرمان الكنسية التي كثرت عقب تحرير عكا، والتي تحرم التعامل التجاري مع المماليك، لذلك؛ ولفترة من الزمن، كان تجار بيروت وطرابلس وغيرهم من أهل الشام يركبون البحر لبيع منتجاتهم في قبرص التي أصبحت المركز التجاري الرئيسي – كما سيتبين – للصليبيين.⁽²⁾

لم تكن قبرص وحدهما ما يحول الغربيين عن سوريا، بل وجدت آنذاك مملكة أرمينية الصغرى، التي شكلت من حيث موقعها رأس حربة لطريق تجاري جديد آمن، وبالتالي بما أن قبرص متقدمة لكل الغربيين بلا تميز، وطالما كانت أرمينية الصغرى مسيحية، وفارس باعتبارها صديقة وحليفة للغرب، فإن التجار الأوروبيون كثيراً ما ترددوا في التعامل مع سوريا تجارياً.

إلا أن الوضع تبدل كلياً في الربع الأخير من القرن الرابع عشر وعاد النشاط التجاري إلى بلاد الشام لأسباب ثلاثة:

الأول: احتلال مدينة فيماغوستا، المدينة الأشهر تجارياً في قبرص ومشرق البحر المتوسط من قبل الجنوية سنة 1374، وبالتالي كل الأمم المنافسة لجنوة حولت تجارتها عن قبرص، وخاصة البندقية.

الثاني: سقوط مملكة أرمينية الصغرى عام 1375م بيد المماليك.

(1) هايد: المرجع نفسه، 3/ 332 – 333.

(2) ماكارياس: مرويات، ص 56-57.

الثالث: تحركات وحروب تيمورلنك في آسيا جعلت الطرق القادمة عبر فارس وشمالها طرق غير صالحة للاستخدام بعد أن دمر تيمورلنك المحطات الرئيسية على هذا الطريق.

وبالتالي فكان لا بد من عودة النشاط التجاري إلى ساحل بلاد الشام ومراكزه التجارية، وكان أهمها على الإطلاق:

– ميناء بيروت:

كان ميناء بيروت بالنسبة للتجار أفضل الموانئ الشامية لأنه يتصل مباشرة مع أكبر سوقين في بلاد الشام؛ حلب ودمشق، ونظراً لهدوء المياه فيه كانت تلجأ إليه السفن في معظم أوقات السنة، وكان يستقر به بناطقة وجنويون وقطالونيون وأرمن وجورجيون، ولهم فيها فنادق وقياسر ووكالات ونواب وقناصل، لذلك فقد غدا هذا الميناء وخاصة في أواخر القرن الرابع عشر أشهر المراكز التجارية الشامية.⁽¹⁾

ويتحدث لودولف بأنه من بيروت بإمكان الإنسان الذهاب إلى أي بلد من البلدان عن طريق المتوسط،⁽²⁾ وهذا ما يدل على حركة ونشاط الميناء وكثرة وتنوع الأمم المترددة عليه، وهذا ما جعله -بالإضافة لميناء طرابلس- هدفاً لغارات القراصنة الأوربيين أواخر القرن الرابع عشر كما تبين سالفاً.

– ميناء طرابلس:

كان ميناء طرابلس يشكل الميناء الثاني بعد بيروت من حيث النشاط التجاري، وقد كثر تردد الأوربيين عليه حيث التقوا هناك بتجار من دمشق وحلب وحماه وبعلبك، وعلى طول الميناء كان يمتد عدد كبير من المخازن الواسعة المليئة بالبضائع التي يمكن بسهولة اختيار المناسب منها.

(1) – زكي: طرق التجارة الدولية، ص 148. هايد: تاريخ التجارة، ج3، ص 335 – 337. الأشقر:

تجارة التوابل، ص 329.

(2) – لودولف: وصف الأرض المقدسة، ج39، ص 389.

شكل هذا الميناء المخرج الرئيس لتجارة حلب، كما كان ميناء بيروت المخرج الرئيس لتجارة دمشق، كما أقام به قناصل ومندوبون ووكلاء، ووجدوا به آنذاك مصارف وفروع مؤسسات أوروبية وقياسر وفنادق⁽¹⁾.

بالإضافة إلى هذين الميناءان وجد هناك موانئ في صيدا وصور وعكا ويافا، إلا أنها ل نشاطاً من طرابلس وبيروت.

- ميناء آياس:

مدينة آياس أهم مدن إرمينية الصغرى، تقع على الساحل الشمالي الغربي لخليج الإسكندرونة، لها ميناءً واسعاً يشكل المدخل البحري والتجاري لها، ترتبط آياس مع محيطها بعدد من الطرق الميسرة، فالقافلة التي تخرج منها إلى شمال سورية عليها فقط أن تسير محاذية ساحل خليج آياس تجتاز ممر بيلان أحد ممرات جبال الأمانوس من الإسكندرونة إلى أنطاكية، من ناحية أخرى يربطها نهر جيحان الذي يصب من خليجها بإقليم الفرات العلوي، وهو نهر صالح للملاحة في معظم أجزاءه، و ترتبط بقبرص عن طريق البحر،⁽²⁾ أما الطريق الرئيس للتجارة فيها فهو ذلك الذي يربطها مع تبريز.⁽³⁾

عندما زارها ماركوبولو سنة 670هـ/1271م تحدث عنها عادداً إياها المدخل لبلاد الشرق عندما قال بأن من يريد السفر إلى الشرق فعليه التوجه إلى ميناء آياس، كما تحدث عن "تجارة ضخمة" تدور فيها، إذ يكثر التجار من ارتياد مينائها قادمين من البندقية وجنوة ومن أماكن أخرى كثيرة، وهم "يتجرون فيها التوابل وفي العقاقير المختلفة الأنواع، وفي منسوجات الحرير والصوف، وغير ذلك من السلع الثمينة".⁽⁴⁾

(1) هايد: تاريخ التجارة، ج3، ص 335 – 337. زكي: طرق التجارة، ص 151. الأشقر: تجارة التوابل، ص 330.

(2) هايد: تاريخ التجارة، 2/ 309 – 310.

(3) Balducci Pagolotti, F.: La Pratica della mercatura. ed. A. Evans Cambridge. 1936, p.7, 13, 48, 50, 79.

(4) ماركوبولو: رحلته، 1/ 44.

ومع سقوط عكا وزوال الكيانات الصليبية من ساحل بلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر، ومع كثرة قرارات الحرمان الكنسية التي تحرم المتاجرة مع المماليك انتقل؛ النشاط التجاري الذي كان لبلاد الشام أيام الصليبيين إلى إرمينية الصغرى وقبرص، فسانوتو يذكر بأن التجار المسيحيين خشيّة من قرارات الحرمان البابوية بدأ يذهبون إلى آياس للمتاجرة هناك،⁽¹⁾ حتى بلغ ما يجنيه الملك الأرمني من ضرائب جمركية من ميناء آياس لوحده حوالي 30 ألف دينار شهرياً.⁽²⁾

يوجد في إرمينية الصغرى إلى جانب ميناء آياس ميناء طرسوس، وكان له أهمية ثانوية بعد ميناء آياس، ولكن هذا لا يقلل من شأنه تجارياً، فالإدريسي يؤكد بأن المدينة ذات نشاط تجاري مهم، ويشكل حصن أولاش الموجود على البحر فرضتها.⁽³⁾

أما الأسطخري فقد أكد عالمية التجارة في هذه المدينة عندما قال: "ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان إلى كرمان وفارس والجبال وخوزستان وسائر العراق والحجاز واليمن والشامان ومصر إلا وبها لأهلها دار وأكثر".⁽⁴⁾

— ميناء فيما جوستا:

عقب تحرير عكا وخسارة الصليبيين لممتلكاتهم في بلاد الشام نزح كثير منهم إلى قبرص وأقاموا فيها، وحتى سنة 741هـ/1340م عندما زارها لودولف كانوا لا يزالوا مقيمين في الجزيرة، ويذكر هذا الرحالة بأن الأمراء والبارونات والنبلاء؛ وحتى الشعب القبرصي، هم الأغنى والأفضل في العالم، والسبب في ذلك؛ أن قبرص شكلت آنذاك أقصى الشرق بالنسبة للعالم المسيحي، وبالتالي بات على جميع السفن الصغيرة والكبيرة وعلى جميع التجارات مهما كان نوعها ومن أي بلد كانت

(1) سانوتو: الأسرار، 94/38.

(2) المقريري: السلوك، 430/2.

(3) الإدريسي (محمد بن محمد بن إدريس): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية،

القاهرة، 2/647.

(4) — الأسطخري (أبو اسحاق بن محمد، ت: 346هـ): المسالك والممالك، الهيئة المصرية لقصور

الثقافة، القاهرة، ص 47.

أن تأتي أولاً وقبل كل شيء إلى قبرص، ففي قبرص " يمكن سماع جميع اللغات المحكية في العالم والتحدث بها وكذلك تعليمها في مدارس خاصة".⁽¹⁾ في قبرص كانت تتم عمليات التبادل التجاري بين المسلمين والأوروبيين، فلقربها من السواحل الشامية كان تجار المسلمين ينقلون بضائعهم إليها، وكان على التجار الأوروبيين حملها فقط والتوجه بها إلى أوربا،⁽²⁾ وبالتالي فقد غدا ميناء فيما جوستا ميناء " لجميع البحر وللممكة كلها، وهناك لا بد من تجمع التجار والحجاج، لأن المدينة مواجهة لتركيا وعكا وأرمينيا، وهذه أغنى المدن في قبرص، وسكانها أثرياء إلى أبعد الحدود، وتزدهر فيها تجارة التوابل والأحجار الكريمة والثياب المذهبة..."⁽³⁾ فلم يكن يضاهي هذا الميناء في النشاط والحركة آنذاك سوى القسطنطينية والإسكندرية.⁽⁴⁾

كذلك الأمر فقد كان لمدينتي ليماسول ونيقوسيا أهمية تجارية آنذاك.

ب – أهم المحطات والمراكز التجارية الداخلية:

– القاهرة:

زار لودولف القاهرة حوالي سنة 741هـ/1340م، وذكر أنها أكبر بسبع مرات من مدينة باريس،⁽⁵⁾ هذه المدينة الشاسعة يقطنها عدد لا حصر له من السكان، ناهيك عن مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين،⁽⁶⁾ وكان يوجد فيها أكثر من 30.000 من مؤجري الدواب عملاً كثيراً، فالحركة بالمدينة لا تتوقف والمراكب تجوب النهر ذهاباً وإياباً.⁽⁷⁾

(1) – لودولف: وصف الأرض المقدسة، 39/ 295 – 296. ماكارياس: مرويات، ص 56-57.

(2) (ماكارياس: مرويات، ص 56-67.

(3) – لودولف: المصدر نفسه، 39/ 293 – 294.

(4) – Mos Latrie: p237.

(5) لودولف: وصف الأرض المقدسة، 39/ 311

(6) مارينو سانوتو: الأسرار، 38/ 73.

(7) ابن بطوطة: رحلته، 1/ 19. هايد: تاريخ التجارة، 3/ 307.

ونظراً لتوسط موقع القاهرة فقد شكلت مركز لتجميع السلع وتوزيعها شمالاً وجنوباً، فميناء بولاق التابع لها بقي الميناء الأهم على النيل، تصله السفن من المتوسط عبر دمياط ورشيد، ومن الجنوب تصله سلع الحبشة والنوبة، وحتى سلع الهند كانت تصل إلى القاهرة إما براً من السويس أو نهراً من عيذاب – كما سلفت الإشارة –، وكان في الميناء مخازن ومتاجر ووكالات،⁽¹⁾ أما ابن بطوطة – الذي زار المدينة سنة 729هـ/ 1328م – فذكر أن في القاهرة من السقائين 12 ألف، ومن المكاريين 30 ألف، وفي النيل 36 ألف مركب تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات.⁽²⁾

أما عن تنظيمها التجاري فقد وجدت بها أسواق متخصصة، منها سوق للقطارين وآخر للنحاسين، ووكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحريير والأحجار الكريمة، وكان لكل طائفة تجارية وكالة، وبالقاهرة تجار أثرياء لا يقل ما بيدهم – حسب قول السفير الفرنسي هناك – عن مليوني قطعة ذهبية.⁽³⁾

– دمشق:

مركز بلاد الشام الاقتصادي، ومستودع تجارة وسط آسيا إلى أوروبا، كان الغربيون الذين يزورون دمشق يبهرهم ثراء المدينة وتنظيمها وجمال المعروضات وأناقتها، ولتوضح الصورة من المفيد ذكر مشاهدة لودولف الذي زار المدينة حوالي سنة 741هـ/ 1340م إذ وصفها بأنها: «غنية بجميع أنواع البضائع، وفيها وفرة عظيمة من الأطعمة والتوابل والأحجار الكريمة والحريير واللآلئ والأقمشة المذهبة والعطور من الهند ومن بلاد التتار ومن مصر ومن سورية ومن أماكن من البحر المتوسط... وهي مسكونة بمختلف الصناعات والتجار ومن الأكثر براعة من الحرفيين وأعظمهم جلاله... وتجارهم الأكثر نبلاً...، وكل حرفة وتجارة مقيمة بشكل مستقيم في شارع خاص، ويقوم كل حرفي بتقديم عرض رائع لأعماله أمام

(1) سونياهاو: في طلب التوابل: زكي: طرق التجارة الدولية، ص 129.

(2) ابن بطوطة، رحلته، 1/ 19.

(3) زكي: المرجع السابق، حاشية ص 128 و 129.

واجهة بيته... ويعمل التجار مثلهم بتجارتهم، أما الحرفيون فيعملون هناك بشكل رائع وبراعة فائقة".⁽¹⁾

وكانت دمشق تتلقى القسم الأكبر من بضائعها عن طريق الخليج العربي وبغداد، أو الطريق البري عبر فارس والعراق، ناهيك عن المنتجات المحلية التي اشتهر بها الدماشقة، فعن جمال صناعتها كتب أحدهم أنه لا يوجد في جهة من جهات العالم أحسن مما يُصنع في دمشق،⁽²⁾ وكانت معظم بضائعها تصرف عن طريق ميناء بيروت المتصل بها مباشرة ويبعد عنها مسيرة يومين فقط.⁽³⁾

كان يقيم في دمشق عدد من قناصل الدول الأجنبية، ووجد إلى جانبهم جاليات من مختلف الأمم التجارية الأوروبية،⁽⁴⁾ وقد تمتعت دمشق بقسط كبير من الأمان، فالبضائع كانت تترك تقريباً بلا حراسة، ونادراً ما جرت عمليات سرقة في المدينة.⁽⁵⁾

– حلب:

كانت ثاني أسواق سورية بعد دمشق من حيث النشاط التجاري، تمتلئ أسواقها بكميات كبيرة من سلع الهند حتى أُطلق عليها اسم "الهند الصغيرة".⁽⁶⁾ ساعدها موقعها المتوسط على ازدهار التجارة، فهي تعترض الطرق القادمة من فارس ومن تركيا، وتبعد عن الفرات عشرين فرسخاً، وتتصل بالبحر المتوسط بطريق سهل، فكان ميناء طرابلس يُعد مخرج بضاعة حلب.⁽⁷⁾

(1) – لودولف: وصف الأرض المقدسة، 39/ 382 – 383.

(2) – هايد: المرجع نفسه، 3/ 334.

(3) – زكي: طرق التجارة الدولية، ص 148.

(4) – هايد: المرجع السابق، 3/ 338.

(5) – لودولف: وصف الأرض المقدسة، 39/ 383.

(6) – أشتور: التاريخ الاقتصادي، ص 393.

(7) زكي: طرق التجارة، ص 150. الأشقر: تجارة التوابل في مصر، ص 330.

ثالثاً – السلع المتبادلة:

وكما هو معلوم إن فكرة التبادل التجاري نشأت وتطورت على أساس التخصص في الإنتاج، وعلى هذا؛ فالاختلاف الذي خلقت عليه أقاليم العالم من اختلاف في الصفات المناخية – برودة، وحرارة، ومطر، وجفاف – والصفات الجيولوجية – من تربة، وثروات باطنية... الخ، أدى إلى انفراد هذا الإقليم أو ذاك بنوع من الإنتاج يفتقر إليه الآخر، فأى بلد؛ ومهما تنوعت ثرواته لا يمكنه أن يكفي نفسه بنفسه، فطبيعة التخصص في الإنتاج تفترض وجود فائض في مُنتج معين وحاجة إلى مُنتج آخر، وبالتالي فالتجارة وحدها تأمن توفير الحاجيات.

عانت أوروبا في العصور الوسطى من تخلف في وسائل الإنتاج، لذا فقد كان اعتمادها الرئيسي على غلات الشرق، وفي الوقت ذاته وجد عندها بعض السلع التي افتقر إليها لشرق، وهنا سيتم الحديث عن المواد الرئيسية التي كانت تقوم عليها التجارة آنذاك⁽¹⁾:

– التوابل:

شكلت التوابل إحدى السلع الأساسية في التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، فهي أحد أهم مستلزمات الحياة اليومية في أوروبا، فنبلاء أوروبا استخدموها لإضافتها للطعام لكي تُكسبه نكهة خاصة، لكن هناك استعمال آخر جعلها ضرورة يومية وليست مادة كمالية، وهو استخدام التوابل في حفظ نكهة الطعام، فأوروبا كانت تجهل آنذاك طريقة التبريد باستخدام الثلج لحفظ الطعام من الفساد، ولذا فقد لجأوا إلى الإكثار من التوابل – وخاصة الفلفل – كوسيلة للاحتفاظ بنكهة الطعام سليمة أطول مدة ممكنة، ومن هنا أتت أهمية التوابل في الحياة اليومية الأوروبية.⁽²⁾

(1) لا يمكن تناول كل سلعة على حدة لأن البضائع التي دخلت في مجال التبادل التجاري آنذاك بلغت المئات، وإنما سيقصر الحديث عن السلع الرئيسية والمهمة.

(2) سونيا هاو: في طلب التوابل، ص47. عاشور: بحوث ودراسات، ص 132. هايد: تاريخ التجارة،

– الفلفل:

وكان على ثلاثة أنواع؛ الفلفل الأسود؛ وهو الفلفل التجاري الأكثر شيوعاً واستعمالاً، والفلفل الأبيض و الفلفل الطويل، فالفلفل الأسود هو المجفف بالشمس دون أن يُنزع جلده، فبعد جنيهِ يُطرح على حصر، ويعرض على أشعة الشمس الحارقة فيأخذ اللون الأسود والمظهر المتجدد،⁽¹⁾ أما الفلفل الأبيض فهو نفسه بعد أن ينزع جلده، لكن هذا الأخير كان قليل الاستعمال في أوروبا.⁽²⁾

وكانت أكثر مناطق إنتاجه هي ساحل الملبار شرقي الهند، وجزيرة سيلان أو ما كان يعرف باسم سرنديب، وكان يزرع وينتج أيضاً بشكل كبير على طول الساحل الغربي في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى كوشين وكاليكوت.⁽³⁾

وكانت كميات الفلفل المصدرة من هذه البلاد يصل معظمها إلى أوروبا عن طريق مصر والبنديقية، فمصر شكلت الطريق الرئيس لعبور هذا المنتج، لتتولى البنديقية من هناك نقل القسم الأكبر إلى أوروبا، ولأهمية الفلفل آنذاك فقد تمتع بقوة شرائية، فكانت الضرائب أو رسوم المرور –ولا سيما في أوربا– تحدد بالفضة والفلفل، وأحياناً بالفلفل وحده.⁽⁴⁾

بالإضافة إلى الفوائد التي ذكرت من قبل للتوابل، وخاصة في حفظ رائحة الطعام من الفساد، استخدم الفلفل طبيياً كعلاج لبعض الأمراض، فهو عند مزجه بورق الغار يفيد في حالات لدغ الحشرات وغيرها، وعندما يمزج بالزيت يستخدم

(1) بنيامين التطيلي: رحلته، ص 165. ابن بطوطة: رحلته، 2 / 112. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص 21. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1996م، ص 70.

(2) بنيامين التطيلي: رحلته، ص 165. هايد: تاريخ التجارة، 4 / 166. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص 21.

(3) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 64. ابن سعد المغربي: كتاب الجغرافية، ص 120، القزويني: عجائب المخلوقات، ص 230. ماركوبولو: رحلاته، 3 / 16. ابن بطوطة: رحلته، 2 / 112. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص 66.

(4) هايد: تاريخ التجارة، 4 / 171، سونيا هاو: في طلب التوابل، ص 22. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص 67.

كمرهم له مفعول قوي، وإذا أُضيف للنبيذ أفاد في النزلات الشعبية والتهاب الرئة وهو يستخدم كثيراً في تنشيط الجهاز الهضمي.⁽¹⁾

– القرفة:

اسم أطلق على الحاء الداخلي المجفف لشجرة القرفة (C.Zeylanicum)، وهي شجرة صغيرة دائمة الخضرة، وعرفت أيضاً باسم (الدار صيني) أي خشب الصين،⁽²⁾ وكثر استخدامه مطحوناً في حفظ الأطعمة، وفي إعداد النبيذ المعطر، ناهيك عن الاستخدامات الطبية المعروفة له عند العرب.⁽³⁾

ينتج بشكل رئيسي من الصين، بالإضافة إلى ساحل الملبار والهند بشكل عام، وسيلان⁽⁴⁾، أما الطريق الرئيسية لتصديره إلى أوروبا فهي طريق البحر الأحمر والإسكندرية.⁽⁵⁾

– القرنفل:

من التوابل شائعة الاستخدام، وهو بالأصل البرعم الزهري الغير منفتح لشجرة القرنفل، يُجمع قبل سقوط التويج ثم يجفف، استخدم كتابل في الطبخ وفي تركيب بعض الأدوية، كما استخدم في إعداد الأشربة العطرة.⁽⁶⁾

(1) – سونيا: في طلب التوابل، ص 21-22. كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص 41.

(2) كولن كلير: التوابل والأعشاب الطبية، ص 41. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، 1/289. الزبيدي (محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، ت: 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة قرف.

(3) الأشقر: تجارة التوابل، ص 257. هايد: تاريخ التجارة، 4/97.

(4) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 70. ماركوبولو: رحلاته، ج2، ص 107. هايد: تاريخ التجارة، 4/98 – 99. ابن بطوطة: رحلته، 2/118. بنيامين التيطلي: رحلته، ص 165.

(5) هايد: تاريخ التجارة، 4/97.

(6) القزويني: عجائب المخلوقات، ص 231. كولن كلير: التوابل، ص 45. هايد: تاريخ التجارة، 4/105. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص 21.

وكثر إنتاجه في جزر جاوة والملوك (إندونيسيا)،⁽¹⁾ وفي أيام الحروب الصليبية كانت عكا سوقه الرئيسية، وبعد ذلك أصبحت طرق تبريز والبحر الأحمر طرق تجارته الرئيسية،⁽²⁾ أما أسعاره فقد كانت ضعف إلى ثلاثة أضعاف ثمن الفلفل.⁽³⁾

– الزنجبيل:

هو الجذر أو الساق الترابي لنبات عشبي معمر واسع الانتشار في المناطق الاستوائية، كان من أشهر التوابل المستخدمة في العصور الوسطى، وكان يباع على شكلين إما أخضر وإما محفوظاً بعد معالجته بالسكر.⁽⁴⁾

كثرت استخداماته في الطهي، وتحضير النبيذ، والتداوي وخاصة لعلاج القصبه الهوائية،⁽⁵⁾ أما أشهر مناطق إنتاجه فهي الهند والصين بشكل عام، وأحياناً في اليمن،⁽⁶⁾ ويتم تصديره إلى أوروبا عن طريق تبريز أو عن طريق الإسكندرية، إلا أن سانوتو يذكر أن الزنجبيل المحمول عن طريق المغول أفضل وأغلى ثمناً من ذلك المحمول عن طريق الإسكندرية، لأن المحمول عن طريق المغول إلى إرمينية هو من منتجات الهند، والزنجبيل الهندي -كما يقول البغدادي- أقوى وأحد من اليمني.⁽⁷⁾

المستحضرات الطبية:

– الكافور:

-
- (1) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية 807/4، ماركوبولو: رحلاته ج2 / 107، ج3 / 21، ص35. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص82. كولن كلير: التوابل، ص45.
- (2) زكي: طرق التجارة الدولية، ص303 – 304.
- (3) كولن كلير: التوابل، ص46. هايد: المرجع السابق، 4 / 106.
- (4) هايد: المرجع السابق، ج4، ص125. سونيا هاو: في طلب التوابل، ص21.
- (5) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية 367/2، هايد: المرجع السابق، ج4، ص126.
- (6) ماركوبولو: رحلاته، ج4، ص91، 92، 96، 107، 129، 191، ج3، ص65، 68. البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة، ت: 629هـ): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشره وعلق عليه ده ساسي، مطبعة وادي النيل، 1286 هـ، 11. بنيامين التطيلي: رحلته، ص165.
- (7) سانوتو: الأسرار، ج38، ص68. البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص11.

مادة سائلة تستخرج من شجرة الكافور وتستخدم كعلاج يفيد في تقوية الأعصاب والقلب والكبد ويذهب الرطوبة،⁽¹⁾ تحدث الجغرافيون العرب عن طرق استخراجها، فقالوا أن بسيلان شجر كافور؛ الشجرة تُظل مائة إنسان، يُنقب أعلى الشجرة فيسيل منها ماء الكافور ويملئ عدة جرار، ثم ينقب أسفل من ذلك في وسط الشجرة فينسب الكافور على شكل صمغ (لزج).⁽²⁾

وكان الكافور يُنتج في سيلان وجزر الهند الشرقية والصين وسومطرة،⁽³⁾ ويتم نقله بالطرق التقليدية إلى أوروبا، أما أسعاره فمرتفعة مقارنة ببقية البضائع، وكان يصدر إما كمادة خام أو مصفى ومنقى، وهو ضروري — كما ذكر — للاستخدامات الطبية.⁽⁴⁾

— الإهليج:

ثمرة ذات نواة، تشبه فواكه الخوخ، شكلت في العصور الوسطى أحد أهم السلع التجارية الطبية، تفيد في علاج أمراض المعدة والأمعاء والبصر، وله فائدة كبيرة في تسهيل العملية الهضمية.⁽⁵⁾

كثر إنتاجه في الهند وخاصة ساحل الملبار، وكاليكوت، وأفغانستان، ويُذكر أن خراسان والسند كانتا تقدمه كضرائب لبغداد، وأوروبا حصلت عليه من الأسواق التقليدية في عدن والإسكندرية.⁽¹⁾

(1) ابن الأثير الجزري (علي بن أبي الكرم ت 872هـ): تحفة العجائب وطفرة الغرائب، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، برقم ط 1344، ورقة 417 و 418 أ.

(2) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 65. القزويني: عجائب المخلوقات، ص 232. المقدسي (محمد بن أحمد البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مدبولي، القاهرة، 1991م، ص 14. المسعودي: مروج الذهب، 204/1.

(3) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، 42/4 — 43. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 65. المسعودي: مروج الذهب، 204/1.

(4) هايد: المرجع نفسه، 4/ 92، 96.

(5) ابن الأثير الجزري: تحفة العجائب، ورقة 417 أ. رينهارت دوزي: تكملة المعجم العربية، 1-8 ترجمة محمد النعيمي، 9-10 ترجمة جمال الخياط، وزارة الثقافة، العراق، 1979-2000م، 153/1، 208. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، 78/1.

- الصبر :

هو عَصارة ورق شجر نباتات الصبار بعد حزها، حيث يتم تجفيفه ومداولته في التجارة ، أكثر استخداماته الطبية كعقار مسهل ، أشهر مناطق إنتاجه البنغال وجزيرة سقطرى وحضرموت في اليمن، وعلى الرغم من إنتاجه في إيطاليا واليونان إلا أن ما كانت تنتجه سقطرى كان الأكثر شراءً آنذاك في السوق الأوروبية.(2)

- البلسم:

من العقاقير الطبية التي نالت شهرة عظيمة في تجارة العصور الوسطى، وهو نتاج شجرة البلسان التي توجد بشكل رئيسي في حدائق المطرية بالقرب من القاهرة.(3)

أما طريقة استخراجها من الشجرة: ففي شهر آذار من كل عام يجري قطع الأغصان والفروع أو إحداث شقوق فيها، ومنها يجري البلسم ويتم جمعه في قوارير، وما ينتج من شجرة البلسان هو وقف للسلطان يتولى إهداء قسم منه للملوك والأمراء ورؤساء الدول وللشخصيات المهمة، ويذهب جزء منه للمشافي، وما تبقى يُباع لحساب السلطان بأسعار غالية.

(1) هايد: تاريخ التجارة، 4/ 146 – 147.

(2) الزبيدي: تاج العروس، مادة صبر. السيرافي (أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي، توفي بعد 330هـ): رحلة اليرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص 87-88. الادريسي: **نزهة المشتاق**، 1/ 51. هايد: تاريخ التجارة، 4/ 60 – 62. جواد علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار الساقى، ط4، 1422هـ/ 2001م، 1/ 238.

(3) لودولف: وصف الأرض المقدسة، ص 320 – 321. ويتفق لودولف مع القزويني من أن زراعة البلسم وإنتاجه حكر على المسيحيين في مصر، ولا يعلمونها إلا لأولادهم. لودولف: المصدر المتقدم، الصفحة نفسها. القزويني: عجائب المخلوقات، ص 217. السيوطي: **حسن المحاضرة**، 2/ 329. زكي: طرق التجارة الدولية، ص 207 – 210.

وهناك نوع أقل جودة منه، فالأغصان التي قطعت يقوم العمال بجمعها وغليها بالماء فما بقي من البلسم يذوب مثل الدهن ويطوف على وجه الماء مثل الزيت، وهنا يجري جمعه بملعقة ووضعها في وعاء ثم تركه حتى يتماسك، وهذا المغلي يكتسب لوناً أحمر مائل للسواد، أما الطبيعي فلونه كلون النبيذ.⁽¹⁾

أما عن استخداماته الطبية، فيستخدم في طب العيون، ولمداواة الجروح الخطيرة،⁽²⁾ ناهيك عن استخدامه في الطقوس الدينية المسيحية كعنصر من عناصر التعميد مع الزيت المقدس،⁽³⁾ أما ابن سينا فذكر أنه يفيد في علاج الرئة والجنين والصرع والنسيان والدوران والعقم ولسع الأفاعي والعقارب، وعسر البول... الخ.⁽⁴⁾

وكان البلسم نادر الوجود، لذا كان غالي الثمن، وثمة إشارة إلى وجود زراعته في الجزيرة العربية وخاصة اليمن،⁽⁵⁾ ونجد وتهامة والمناطق المحيطة بمكة بالإضافة إلى فارس.⁽⁶⁾

هناك بالإضافة إلى هذه الأنواع، أنواع عديدة راج استخدامها في العصور الوسطى، فقد كانت القاهرة سوقاً لتجارة الأعشاب الطبية وصناعة الأدوية من الأعشاب الواردة من الشرق، ويبيع من هذه الأعشاب ما لا يقل عن 600 قنطار سنوياً، تبلغ قيمتها حوالي 3000 دينار، تضاعفت خمس مرات في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بعضها للاستهلاك المحلي والآخر للتصدير إلى أوروبا، وهذه الأعشاب هي التي طورت طب العصور

(1) لودولف: المصدر المتقدم، 322/39.

(2) عن فوائده الطبية انظر: الملك الأفضل يوسف بن عمر الرسولي: المعتمد في الأدوية المفردة، تح:

مصطفى السقا، القاهرة، 1975م، هايد: تاريخ التجارة، 4/ 87 – 88.

(3) القزويني: عجائب المخلوقات، ص 217، وقد نقل ذلك عن ابن سينا.

(4) ابن سينا

(5) سونيا هاو: في طلب التوابل، ص 17-18.

(6) البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور، ص 10. مع أن القزويني يقول بأنها لا توجد إلا بمصر،

وحصرها في مكان يسمى بعين شمس، عجائب المخلوقات، ص 217.

الوسطى إلى الطب الحديث القائم على علم الكيمياء، فقول «إن علم الكيمياء الحديث قد قضى على تجارة مصر وراثتها في الأعشاب والعقاقير الطبية»⁽¹⁾.

المواد العطرية:

— المسك:

في شرق آسيا، ولا سيما في التبت، يكثر وجود حيوان يشبه الظبي الصغير ويسمى فأرة المسك، هذا الحيوان هو المنتج الأساسي لمادة المسك، والمسك هو فضل دمويّ يجتمع من جسمها إلى سرتها.⁽²⁾

أما عن طرق جمعه فهناك طريقتان، الأولى وقد تحدث عنها الجاحظ قائلاً: "تصاد لنوافجها وسررها،"⁽³⁾ فإذا اصطادها صائد عصب سرتها بعصاب شديد، وسرتها مدلاة، فيجتمع فيها دمها فإذا أحكم ذلك ذبحها، فإذا ماتت قورّ السرة التي كان عصبها له والفأرة حيّة، ثم دفنها في الشعير حتى يستحيل ذلك الدم المحتقن هناك، الجامد بعد موتها، مسكا ذكياً، بعد أن كان ذلك الدم لا يرام نتناً.⁽⁴⁾

أما الطريقة الثانية فهي عملية التقاط هذه المادة بعد أن يفرزها فأر المسك في أوقات محددة من السنة، حيث يصبح في سرتها ورم، ويجتمع إليها دم غليظ أسود فيشتدّ وجعها حتى تمسك عن الرعي وورود المياه حتى يسقط عنها بعد حك سرتها بالحجارة.⁽⁵⁾

(1) زكي: طرق التجارة، ص 201.

(2) الجاحظ (عمرو بن بحر، ت:255هـ): الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، 162/5.

القلقشندي: **صبح الأعشى**، . هايد: تاريخ التجارة، 4 / 141.

(3) النوافج: جمع نافجة، وهي وعاء المسك. السرر: جمع سرّة؛ وهي الوقبة في وسط البطن.

(4) الجاحظ: الحيوان، 162/5. السيرافي، رحلته، ص 75-76.

(5) القلقشندي: **صبح الأعشى**، ماركوبولو: رحلته، 102/2. السيرافي: رحلته، ص 75-76. اليعقوبي

(أحمد بن اسحاق، ت: 292هـ): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ص 209.

كثُر وجود هذا الحيوان في الصين والتبت وأحياناً في سيلان وجزر جاوة،⁽¹⁾ كان يصل إلى موانئ وأسواق البحر المتوسط – وخاصة عكا والإسكندرية – بواسطة مختلف الطرق التجارية، ومن بعدها يصدر إلى أوروبا التي قصرت استخدامه – إلى حدٍ كبير – على المجال الطبي نظراً لارتفاع سعره، أما العرب والفرس فهم كبار هواة العطور وكانوا أكثر استخداماً له من الأوروبيين.⁽²⁾

– العنبر:

مادة صلبة تفوح منها رائحة زكية عند تسخينها أو حرقها، ولها تصنيف ممتاز في تجارة العطور، اختلفت الآراء في مصدر هذه المادة، بعض الروايات تعدّه منتج بحري؛ نبات ينمو في قاع البحر، وهو نوع من الإسفنج تنزعه الأمواج وتلقيه على الشواطئ، وبعضها يعدّه منتج حيواني، وهذا الاختلاف يعود إلى تنوع أماكن وجودها، إذ توجد على شواطئ البحار بعد أن تقذفها الأمواج، وتوجد بين الصخور وتارة توجد في أجسام بعض الأسماك.⁽³⁾

تنوعت وتعددت أماكن وجوده أو إنتاجه، إلا إن معظم أماكن وجوده هي في المحيط الهندي وجزره، ولاسيما السواحل الجنوبية من الجزيرة العربية، ويعدّد اليعقوبي ثمانية أنواع للعنبر.⁽⁴⁾

يُحمل إلى أوروبا إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق الخليج العربي، أما التجار الأوروبيون فكانوا يحصلون عليه من أسواق الإسكندرية وبيروت والقسطنطينية وتبريز وفاماجوستا.⁽⁵⁾

(1) السيرافي: رحلته، ص75. اليعقوبي: البلدان، 209. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص64. زكي: طرق التجارة، ص228.

(2) هايد: تاريخ التجارة، 4/ 142 – 144.

(3) الجاحظ: الحيوان، 5/ 194. اليعقوبي: البلدان، 210-211. القزويني: عجائب المخلوقات، ص

117، الإدريسي: نزهة المشتاق، 1/ 66. هايد: المرجع المتقدم، 4/ 69

(4) اليعقوبي: البلدان، ص 210-211. الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 52، 66، 77.

ماركوبولو: رحلته، ج3، ص 76، 78. ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 61، 71.

(5) هايد: تاريخ التجارة، ج4، ص 71.

– البخور:

عصارة بيضاء تسيل من لحاء أنواع معينة من الأشجار بعد إحداث شقوق فيها، وتكون الأنواع الجيدة منه صافية وبيضاء نقية، وتكون الأنواع الرديئة مخلوطة بالتراب أو بقشر الشجر ويكون داكن اللون، وبشكل عام ما جاء عن طريق تبريز وبغداد جيد وما جاء عن طريق الإسكندرية رديء، أما مناطق إنتاجه فهي الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، بالإضافة إلى جاوة وسومطرة.⁽¹⁾

وهنا لا بد من الإشارة إلى أهمية البخور في أوروبا، وخاصة في الكنائس والأديرة، فإحراق البخور في هذه الأماكن الدينية يُعد أمراً ضرورياً في أوقات الصلاة والاحتفالات الدينية، لأنه يُضفي على الجو نوع من الرهبة، وفي العصور الوسطى – عصور الإيمان – كانت الكنيسة تحتل المكانة العليا في المجتمع، وبالتالي فإن مطالب الكنيسة تأتي في المقام الأول من عناية المجتمع، ناهيك عن أن الكنيسة آنذاك كانت تمتلك الثروات والأموال التي تمكنها من شراء مستلزماتها مهما ارتفعت أثمانها، وبالتالي فقد ازداد الطلب على البخور آنذاك.

– خشب الصبر:

خشب عطري، يُصدر رائحة زكية إذا تعرض للحرق، يُنتج بكثرة في الصين والهند، وجاوة، وسومطرة، والهند الصينية،⁽²⁾ والأوروبيون يحصلون عليه من أسواق القسطنطينية، ودمشق، وعكا، والإسكندرية، وفاماجوستا،⁽³⁾ فهو من السلع الرائجة التجارة في العصور الوسطى.

وبالإضافة إلى خشب الصبر كان هناك خشب الصندل وخشب البقم، ولهذين النوعين الاستخدامات نفسها.⁽⁴⁾

(1) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 117 – 119.

(2) ماركو بولو: رحلاته، ج3، ص 16، 19، 20، 25، حاشية 7 ص 159. هايد: تاريخ التجارة، ج4، ص 82 – 83.

(3) لودولف: وصف الأرض المقدسة، 39 / 294. هايد: تاريخ التجارة، ج4، ص 81. الأشقر: تجارة التوابل، ص 270.

(4) للاستزادة: انظر: هايد تاريخ التجارة، ج4، ص 85، 87. زكي: طرق التجارة الدولية، ص 231.

وشكلت هذه السلع التي ورد ذكرها مادة التجارة آنذاك بالإضافة إلى السكر والقطن والأقمشة والحريير... الخ، وبالمقابل كانت أوروبا تصدر إلى الشرق مواد عديدة أهمها العسل والشمع والزبيب واللوز والجوز والبندق... الخ.

رابعاً-العلاقات التجارية بين المدن التجارية الأوروبية وسلطنة المماليك:

قوبل تحرير عكا في أوروبا بذهول نتج عنه ردة فعل عنيفة من قبل البابا وقادة أوروبا تمثلت بإصدار مجموعة من القرارات والمراسيم التي تحرم التجارة مع سلطنة المماليك، ففي سنة تحرير عكا أصدر البابا نقولا الرابع مرسوم يحرم توريد الأسلحة، والخيل، والحديد، والخشب، والمواد الغذائية... وغيرها للبلاد الخاضعة لحكم المماليك، ومن خالف ذلك وقع عليه، أولاً: عقوبة الحرمان، وثانياً: الإعلان بأنهم ملعونون إلى الأبد ومجردون من حقوقهم الكنسية والمدنية، ومن أهليتهم لأن يوصوا أو يورثوا.(1)

وتكرر هذا التحريم على أيدي خلفائه عدة مرات، ولم يقتصر الأمر على البابوات بل حتى قادة أوروبا وأمرائها أصدروا قراراتٍ مشابهة، ففي سنة 691هـ/ 1291م حرّمت حكومة جنوى كل عمليات المتاجرة مع أراضي السلطان، كما فعل ذلك جاكوب الثاني ملك أراغون وكتالونيا في سنة 702هـ/1302م، في حين منعت بيزا في قانوني صدر سنة 702 و722هـ/ 1302 و1322م بيع الأسلحة والمواد الحربية فقط، أما فيليب الجميل ملك فرنسا فقد اتخذ موقفاً أشد صرامة عندما منع أي عملية متاجرة مع مصر وسورية بقرار أعلنه سنة 712هـ/ 1312م ، ثم تبعته في هذا الأمر البندقية.(2)

(1) الموسوعة، ماكارياس: مرويوات، ص56. مارينو سانوتو: الأسرار، 3/ 17-18. نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 307. هايد: تاريخ التجارة، ج2/ ص255.
Boase, T. S. R. :Kingdom and strongholds of the Crusaders, London, 1971. P. 215.

(2) أشتور: التاريخ الاقتصادي، الاجتماعي، ص 387.

والسبب في اتخاذ هذه القرارات، هو أن إمكانية إرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام بات أمراً مستحيلاً في ظل ظروف أوروبا التي تعاني من الحروب الدينية والسياسية ما تعاني، ناهيك عن أنها لا تمتلك نقطة ارتكاز في بلاد الشام، وأرمينية بلد غير مناسب لأنها بعيدة كثيراً، بالإضافة إلى فتور شعوب وأمراء أوروبا، ومن جهة ثانية فإن السلطنة المملوكية بحاجة مستمرة للعبيد البيض الذين يشكلون قوام الجيش المملوكي، وهؤلاء يتم جلب معظمهم عن طريق التجار الأوروبيين، فحرمان مصر منهم يوقع السلاطين في ضيق شديد، ويضطرهم إلى تعبئة جيوشهم من عناصر محلية أقل كفاءة، ناهيك عن أن مصر لا تنتج خشب ولا حديد، وهي مواد ضرورية لتسليح جيوشهم وتجهيز أساطيلهم، وحرمانهم من هذه المواد سيؤدي إلى إضعاف القوة العسكرية في مصر.

ولضمان تطبيق هذه القرارات جُهِز العديد من السفن الحربية، وكُلفت بأن تجوب باستمرار الحوض الشرقي للمتوسط، وتهاجم في عرض البحر السفن المسيحية والمسلمة التي يشتبه بأنها تتاجر مع المماليك.⁽¹⁾

والسؤال هنا:

هل تم تنفيذ هذه القرارات؟.

في الحقيقة ما من شك في أن هذه القرارات لاقت بعض النجاح وثبتت بعض التجار عن التردد إلى موانئ مصر والشام، إلا أن نداءات "الثروة القبيحة" كانت أشد من نداءات البابا وغيره، فاستمرت التجارة، بدليل أن مارينو سانوتو طلب في كتابه الذي رفعه للبابا أن تكون قرارات الحرمان أشد مما عليه، ويطالب بملاحقة المخالفين وانزال العقوبات بهم وبمن يستضيفهم.⁽²⁾

1 - البندقية:

تعد البندقية أشهر الجمهوريات التجارية في العصور الوسطى، وتاريخها حافل بالنشاط التجاري مع مصر والشام، فيعود النشاط التجاري للبندقية في مشرق البحر

(1) مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، 38/18، 76.

(2) مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، 38/17، 59-60.

المتوسط إلى ما قبل القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وفي أيام الخلافة الفاطمية شهدت العلاقات التجارية بين الطرفين نمواً وتطوراً كبيراً على الرغم من التهديدات البيزنطية والتي تقضي بمنع البنادقة من تصدير بعض المواد الحربية لمصر.⁽¹⁾

إلا أن العلاقات التجارية استمرت بين الطرفين ولم تتأثر بمثل هذه القرارات، حتى في أيام الحروب الصليبية تمكنت البندقية من الحفاظ على علاقاتها مع الطرفين، ففي وقت واحد كانت سفنها تجوب موانئ الإسكندرية وعكا وصور والقسطنطينية، وتحمل إلى مصر الرقيق والخشب والحديد، وتحمل من مصر التوابل والحريز... إلخ، على الرغم من أن الحروب بين المسلمين والصليبيين كانت على أشدها،⁽²⁾ وقد تعجب ابن جبير من ذلك عندما زار بلاد الشام ومصر أواخر القرن الثالث عشر إذ قال: "ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"،⁽³⁾ كما أن في رسالة صلاح الدين المرسله إلى الخليفة في بغداد سنة 570هـ/ 1182م إشارة واضحة إلى ازدواجية الموقف التجاري للمدن الإيطالية وفي مقدمتها البندقية.⁽⁴⁾

قبل قيام السلطنة المملوكية كان هناك عدد من الاتفاقيات التجارية التي نظمت العلاقة بين الأيوبيين والبندقية، كان أقدم ما وصلنا تلك الاتفاقية التي عقدها السفيرين مارينو داندولو Marino Dandolo وبطرس ميخائيل Pietro Michiel مع الملك العادل الأيوبي سنة 605هـ/ 1208م التي منحت البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانئ المصرية، ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة، ومنحهم فندق ثاني في الاسكندرية، في المقابل تعهد البنادقة بعدم تقديم العون لأي مشروع صليبي،⁽⁵⁾ وفي

(1) آدم منز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر: عبد الهادي أو ريدة، 2/ 429.

(2) Tompson. J. W.: Economic Social History of the Middle Ages. 2 Vols. Newyork. 1959. V.1, P.320-321.

(3) ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني، ت: 614هـ): رحلة ابن جبير، دار الهلال، بيروت، ص 245.

(4) أبو شامة: الروضتين، الموسوعة الشاملة، 18/ 233.

(5) Mas Latrie: *Traite des Paixet de Commerce. Paris, 1865.P. 70-72.*

السنة ذاتها تمكن البنادقة من توقيع معاهدة تجارية مع حاكم حلب غياث الدين غازي بن صلاح الدين حصلت فيها على امتيازات واسعة.⁽¹⁾

وتكرر إرسال سفارات إلى حلب في أعوام 1225 و 1229 و 1254م عُقدت فيها معاهدات تجارية.⁽²⁾

أما المعاهدة الأهم على الإطلاق فهي التي عُقدت سنة 636هـ/ 1238 بين البندقية والسلطان الملك العادل الثاني، لأنها شكلت الأساس أو النموذج الذي عقدت على غراره باقي المعاهدات بين الطرفين فيما بعد حتى أواخر الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وفيها تعهدت السلطات المصرية بمنح البنادقة الحماية في الموانئ والأراضي المصرية، وحددت أشكال المعاملات التجارية والمالية التي يجب على البنادقة ممارستها في الأسواق المصرية، كما حددت حقوق وواجبات البنادقة.⁽³⁾

وعلى إثر هذه المعاهدة انتظمت العلاقة التجارية وازدهرت بين الطرفين، وتم تجديدها سنة 641هـ/ 1244م، في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل مع إضافة بند جديد وهو حماية البنادقة وممتلكاتهم من الاعتقال والمصادرة.⁽⁴⁾

وفي مطلع خمسينيات القرن الثالث عشر حدثت تحولات خطيرة في مشرق البحر المتوسط، كان أولها وصول المغول إلى المنطقة، وقد نتج عن عملياتهم العسكرية في شرق آسيا توقف كل الطرق التجارية القادمة عبر آسيا والخليج العربي والعراق، وثانيها هو تبدل الأوضاع السياسية في مصر بانتهاء حكم بنو

(¹) Tafel and Tomas: V.2, P. 62-66.

هايد: المرجع السابق، ج2، ص 23

(²) الحديث عن هذه المعاهدات هو خارج نطاق البحث، ولكن للاستزادة يمكن العودة إلى تاريخ التجارة لهايد حيث تحدث عنها بالتفصيل، 23 / 2 - 25.

(³) قام المؤرخ الفرنسي ماس لاتري بتحقيق ونشر هذه الوثيقة في كتابه:

Traite des Paixet de Commerce. p.72 - 75.

وقامت الدكتورة عفاف صبرة بترجمتها ونشرها في كتابها العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة، القاهرة، 1983م، ص 269-275. ونظراً لأعميتها تم تضمينها في الملاحق.

(⁴) Ibid, P. 76-77.

أيوب واعتلاء مماليكهم لسدة السلطنة، وقد ترافق ذلك مع ازدهار الطريق التجاري القادم عبر البحر الأحمر بسبب توقف الطرق الأخرى كما سلف القول، وهذا الطريق الأخير كان قد خضع بمعظمه لسلطنة المماليك، لذا فقد سارعت البندقية إلى إرسال سفارة إلى السلطان المعز أيبك سنة 652هـ / 1254م تمكنت من تجديد امتيازات سنة 636هـ / 1238م، مع إضافة بعض المواد التي تتعلق بحماية التجار البنادقة وحماية بضائعهم في الأراضي والمياه المصرية، مع إعفاء من بعض الرسوم والضرائب، بالإضافة إلى مواد تتعلق بالمساءل القضائية بالنسبة للبنادقة المقيمين والمترددين على مصر، كما حددت حقوق البنادقة ونظمهم في فنادقهم.⁽¹⁾

مع قيام السلطنة المملوكية ونشاط الحروب والمعارك من جديد بين الصليبيين والمسلمين لم تتعطل التجارة مع البنادقة، وقد لاحظ ذلك الأمير الإنكليزي إدوارد الذي قدم إلى عكا على رأس بقايا حملة صليبية سنة 670هـ / 1271م، فقد ساءه أن البندقية تحتفظ بعلاقات تجارية قوية مع المماليك وتمدهم بالأخشاب والحديد،⁽²⁾ واستمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين زمن السلطان المنصور قلاوون إذ وقعت معه البندقية معاهدة سنة 688هـ / 1289م خفض فيها الرسوم الجمركية عليهم إضافة إلى منحهم الأمن والحماية على ممتلكاتهم وأرواحهم.⁽³⁾

وأصيب النشاط التجاري للبندقية وغيرها من المدن التجارية الأوروبية بنكسة قوية في مشرق البحر المتوسط بعد تحرير عكا على يد الأشرف خليل سنة 690هـ / 1291، بسبب قرارات الحرمان البابوية، ومن جهة ثانية فإن البندقية بسقوط عكا فقدت أهم مستعمراتها التجارية،⁽⁴⁾ وأودع عدد كبير من تجارها الذين

(1) Mas Latrie: *Traite des Paix* . P. 77-80.

أيضاً قامت عفاف صبرة بترجمة هذه الوثيقة كاملة ونشره في كتاب العلاقات بين الشرق والغرب، ص 277-283. وقد تم إرفاقها في ملاحق هذه الرسالة.

(2) Powicke: V.2, P. 604-605.

زينب عبدالقوي: النجليز والحروب الصليبية، ص 213. الموسوعة

(3) Mas Latrie: *Traite des Paix* . P.81.

(4) — كانت عكا المركز الرئيسي للتجار البنادقة في بلاد الشام كما كانت طرابلس المركز الرئيس للجنوية.

كانوا في عكا في سجون القاهرة، وبعد مدة غير بعيدة وقعت سفينة بندقية في أسر المماليك، حيث كانت تبحر قرب غزة وفيها شحنة ذات قيمة كبيرة من معادن نفيسة نُقلت إلى القاهرة وأودع تجارها في السجون.⁽¹⁾

زادت هذه الإجراءات من حنق البنادقة الذين قاموا بأسرت بعض تجار المسلمين في عرض البحر، فرد الأشرف خليل باعتقال عدد من تجارها المقيمين في الإسكندرية وسجنهم،⁽²⁾ وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأحداث أن فتوراً ساد العلاقات التجارية والسياسية بين الطرفين، لكن هذا الفتور لم يستمر طويلاً، إذ أن تعطل التجارة كان يعني بالنسبة للبنادقة انهيار أسباب ومسوغات عظمتها، لا بل حتى وجودها، لذا قامت البندقية سنة 692هـ / 1292م بتجاهل كل قرارات الحرمان البابوية وأرسلت سفارة إلى السلطان الأشرف خليل تحمل هدايا وتحف فاخرة، وطلبت منه الإفراج عن المعتقلين البنادقة مقابل 70 ألف درهم كتعويض لما لحق التجار المسلمين الذين تم اعتقالهم في عرض البحر، فوافق السلطان، وأطلق سراح البنادقة وأصدر السلطان "أمان شريف" منح فيه البنادقة، والبيازنة، والجنوية وغيرهم حرية المتاجرة مع مصر والشام "والتردد إلى الثغور الإسلامية آمنين مطمئنين".⁽³⁾

وفي سنة 701هـ / 1302م قدم إلى مصر سفارة من البندقية نجحت في توقيع معاهدة تجارية مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون جُددت فيها الامتيازات القديمة التي كانت ممنوحة للبنادقة، إضافة إليها حصلت على إعفاء من نصف الرسوم الجمركية، مع التعهد بحماية التجار البنادقة وممتلكاتهم، كما حصلت على استقلال قضائي في مصر وحرية في ممارسة طقوسهم وعباداتهم، وفي المقابل تعهد البنادقة باستمرار جلب المواد الحربية المحرمة من قبل البابوية وعلى رأسها الخشب

(1) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية: ص 45.

(2) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص 44 – 45. المقرئزي: السلوك،

(3) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص 45.

والحديد والقار....، شريطة أن يسمح السلطان بتصدير مواد مصرية معفاة من الرسوم الجمركية تعادل بقيمتها المواد المحرمة المجلوبة.⁽¹⁾

أعطت هذه المعاهدة العلاقات التجارية بين الطرفين مزيداً من الاستقرار والازدهار، وسعيًا من البنادقة لتثبيت أقدامهم في سورية وإقامة مراكز عوضاً عن تلك التي فقدوها في عكا قدمت سفارة بندقية إلى صدد سنة 704هـ/1304م لعقد معاهدة تجارية، واختار البنادقة صدد بالذات لأنها كانت آنذاك أهم النيابات المملوكية على الساحل، وكان يتبع لها جينين، وعكا، والناصر، وصور، وطبرية، وهونين، وتبينين، وعتليت، والجون، ومرجعيون، والشقيف... الخ⁽²⁾، وكان لها نشاط اقتصادي قوي.

المهم أن والي صدد رحب بالبنادقة وعلى ضوء التعليمات التي أتته من السلطان الناصر محمد بن قلاوون فإنه أعلمهم بإمكانية المتاجرة في المنطقة مع ضمان الحماية لهم ولممتلكاتهم.⁽³⁾

وعلى هذا فإن النشاط التجاري للبنادقة في الحوض الشرقي للمتوسط قد استعادة عافيته مجدداً، على الرغم من الحظر البابوي الجديد الذي فرضه البابا حنا الثاني والعشرين على البنادقة سنة 722هـ/1322م،⁽⁴⁾ إلا أن تجارتهم استمرت، وفي سنة 743هـ/1344م أصدر البابا كليمنت السادس مرسوم سمح فيه للبنادقة بالمتاجرة مع سلطنة المماليك لمدة خمس سنوات "شفقة على البندقية التي تعتمد على التجارة البحرية وحدها للحصول على قوتها اليومي"، وعلى أثر هذا المرسوم سارع البنادقة بإرسال سفارتين إلى المماليك في سنتي 743 و744هـ/1344 و1345م

(1) Mas Latrie: *Traite des Paixet*. P.82-83.

(2) شيخ الربوة (محمد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثني، ص 210 – 212. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 182، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 150 – 151. سهيل زكار: تاريخ صدد، ص

(3) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 271، أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 393.

(4) أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص 393.

لاستئناف النشاط التجاري المعهود، وحملت السفارة الأولى مرسوماً من السلطان الصالح إسماعيل يتعهد فيه "بحماية الرعايا البنادقة المقيمين في الأراضي المصرية أو المترددين عليها، ومعاملتهم أطيب معاملة"، وانطوى المرسوم على مجموعة من التدابير والإجراءات الاحتياطية، ونجحت السفارة الثانية بأن حملت خطاباً جدد فيه السلطان التزاماته السالفة. (1)

وبذلك عادت العلاقات التجارية إلى سالف عهدها، واستمر إرسال السفراء والقناصل من قبل البنادقة، وجُددت الاتفاقيات، ومنح البنادقة امتيازات جديدة في سنتي 756هـ / 1355م، (2) و 763هـ / 1361م، (3) واستمرت التجارة على أفضل حال حتى سنة 767هـ / 1365م، ففي هذه السنة هاجم القبارصة مدينة الإسكندرية واستباحوها، وقد سلف الحديث عن ذلك، وقد تورطت البندقية بأن شاركت بهذه الحملة على جاري عادتها بالعمل المزدوج. (4)

وعلى إثر ذلك أُصيبت التجارة بالصميم، وتعطلت مع سلطنة المماليك، ولاسيما عندما أصدر السلطان أوامره سنة 767هـ / 1365م "بالقبض على جميع من بديار مصر والشام من الفرنج"، (5) ناهيك عن أن متولٍ ثغر الإسكندرية الأمير جنغرا عندما خرج من الإسكندرية على اثر الاجتياح القبرصي كان قد اعتقل نحو

(1) Hodgson, F. G.: Venice in the Thirteenth and Fourteenth Centuries, London, 1972, P. 380-382.

هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 266 – 277.

(2) Mas Latrie: **Traite des Paixet. P.88-92.**

(3) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 280.

(4) النويري: الإمام ص 35، وفي صفحة 72 ذكر أن البندقية شاركت ب 14 غراب. في حين تحدث المقريري عن مشاركة البندقية بـ 24 سفينة، السلوك، 3 / 107. لكن مؤرخ الحملة القبرصي ماكارياس لا يأتي على ذكر هذا العدد الضخم.

(5) المقريري: السلوك، ج3، ق1، ص 107.

خمسين تاجراً أوروباً وساقهم معه إلى دمنهور،⁽¹⁾ كما تم القبض على جميع التجار الموجودين في بلاد الشام.⁽²⁾

أكثر من ذلك؛ تعرضت مستودعات البنادق وفنادقهم وبضائعهم في الإسكندرية للنهب من قبل القبارصة أنفسهم،⁽³⁾ ويذكر المؤرخ القبرصي ماكارياس أن أهل البندقية عندما سمعوا بخبر الهجوم على الإسكندرية - لم تكن وجهة الحملة معلومة، وقد اكتفى قبرص أثناء وجوده في البندقية بالقول أن الحملة إلى سورية - "غضبوا بمرارة لأن مرابحهم الكثيرة من التجارة هناك، وفي سورية"، وعلى الفور قاموا بإرسال وفد إلى السلطان المملوكي ليوضحوا له أن الهجوم الذي تم لم يكن برغبتهم، وهم لا يعرفون شيئاً عنه، وهم راغبون بأن يسود السلام مع المماليك، لكن السلطان رفض ذلك.⁽⁴⁾

وبناءً عليه فقد توقفت الحركة التجارية في الأعوام الخمسة التالية لاجتياح الإسكندرية، وكثرت عمليات الاعتقال بحق التجار الأوربيين، ففي سنة 768هـ/ 1366م اعتقلت السلطات المملوكية في بيروت حوالي 50 تاجراً بندقياً،⁽⁵⁾ وفي سنة 769هـ/ 1367م اعتقل نائب الإسكندرية 150 من الفرنج كانوا قد وصلوا إلى الميناء على مراكب تحمل البضائع،⁽⁶⁾ وخلال هذه المدة بُذلت جهود حثيثة من قبل البنادقة والجنوية والقطلان للتوصل إلى تسوية بين قبرص والسلطنة المملوكية، ولولا جهودهم في ذلك لما تمكن الطرفين من التوصل إلى التسوية التي عُقدت سنة 772هـ/ 1370م، بين المماليك من جهة، والقبارصة والبنادقة والجنوية ورودس

(1) النويري: الإمام، ص 50-51. المقرئزي: السلوك، ج3، ق1، ص 104 - 106. ابن شاهين: نيل

الأمل، 1/374.

(2) ابن شاهين: نيل الأمل في ذيل الدول، 1/375.

(3) النويري: الإمام، ص 55-56.

(4) ماكارياس: مرويات، ص 101-102.

(5) ماكارياس: مرويات، ص

(6) المقرئزي: السلوك، 3/156.

من جهة ثانية،⁽¹⁾ وأعقب هذا الصلح مرسوم صدر من البابا متضمناً إلغاء المراسيم السالفة المتعلقة بتحريم المتاجرة مع مصر،⁽²⁾ فكان أن سارعت البندقية إلى إرسال وفد إلى القاهرة تمكن من الحصول على امتياز جديد من السلطان الأشرف شعبان سنة 775هـ / 1373م، ذكر فيها السلطان بأن طلبات السفير البندقي كلها مُجابهة.⁽³⁾ بناءً عليه عادت العلاقات التجارية إلى سالف عهدها، وازدهرت التجارة بين الطرفين حتى مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، دون أن يعكر صفوها أحد حتى الاجتياح التيموري، فمع هذا الجديد حدثت تحولات جذرية في المنطقة عطلت التجارة مدة من الزمن، لأن التجار الايطاليون تركوا متاجرهم وهربوا إلى بلادهم، ومن أشهرهم التاجر الإيطالي دي ميچناتلي الذي كان مقيماً آنذاك في القدس وهرب مع من هرب من التجار، ثم كتب رسالة مختصرة عن حياة تيمورلنك وهجومه على بلاد الشام.

2 – جنوة:

النشاط التجاري الجنوبي في مشرق البحر المتوسط قديم جداً، وأقدم الإشارات إليه وردت في الوثائق التي تعود إلى أيام الدولة الفاطمية، حيث كان للجنوية فنادق ونزل خاصة في موانئ مصر والشام، ولكن مع قيام الحروب الصليبية تعززت التجارة الجنوبية في بلاد الشام، لأن المساعدة الجنوبية للصليبيين كانت حاضرة في كل مرحلة من مراحل الحملة الصليبية الأولى التي انتهت بإقامة أربع دويلات

(1) النويري: الإمام، ص . ماكارياس: مرويات، ص . غليوم دي ماخوت: اجتياح الإسكندرية، ص . المقريزي: السلوك، 3 / 191.

(2) Hill.G.: History of Cyprus, VII, p. 376.

(3) Mas Latrie: *Traite des Paixet*. P. 93-94.

والسيطرة الكاملة على ساحل بلاد الشام،⁽¹⁾ لذلك كوفئ الجنوية بمنحهم امتيازات تجارية واسعة في الساحل الشامي.⁽²⁾

من خلال الامتيازات التي حصل عليها الجنوية من الصليبيين أصبح وجودهم كقوة تجارية في مشرق البحر المتوسط أمراً واضحاً للعيان، وعلى الرغم من حالة الحرب القائمة مع المسلمين إلا أن العلاقات التجارية كانت مستمرة آنذاك، وخير مثال عليها الاتفاقية التجارية التي تم عقدت بين الجنوية وصلاح الدين سنة 573هـ/ 1177م والتي شكلت قاعدة للعلاقات التجارية مع مصر لسنوات عديدة.⁽³⁾

بقيت الأمور على منوالها حتى منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حيث أصيبت التجارة الجنوية بنكسة قوية على إثر حرب دارت بينهم وبين البنادقة، بعد خلاف دب بينهم من أجل السيطرة على دير القديس سابا الذي يقع على مرتفع مطل على ميناء عكا، استمرت المعارك على مرحلتين في سنتي 654 و 656هـ/ 1256 و 1258م، واتسعت فيها دائرة الصراع وانقسم الصليبيون على أنفسهم، وانتهت الحرب بسيطرة البنادقة على عكا وطرد الجنوية من أحيائهم هناك إلى صور.⁽⁴⁾ ومنذ ذلك الوقت والتجارة الجنوية في بلاد الشام ضعيفة حتى نهاية الحروب الصليبية.

وكان لهذا الصراع نتائج سيئة ليس فقط على مستقبل التجارة في مشرق البحر المتوسط فقط، بل على مستقبل الوجود الصليبي أيضاً في بلاد الشام، ذلك أن هذه المعركة أحدثت ردة فعل عند الجنوية ودفعتهم للقيام بسلسلة من التحالفات ضد البنادقة ولتعويض خسارتهم في عكا، منها تحالف الجنوية مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، وتقديم المساعدة له لاستعادة حكم القسطنطينية من اللاتين،

(1) عن المساهمة الجنوية في الحملة الصليبية الأولى، انظر: جاك دي فترى: تاريخ القدس، الموسوعة الشاملة، 34/ 133، 134، 150. وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ج2/ 302، 398، ج3/ 421-422، 493-494، 497، 512-513، 530-533. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص 260-268.

(2) عن هذه الامتيازات انظر، وليم الصوري: الأعمال المنجزة، ج3/ 494، 497، 512، 513.

(3) الكنانى: العلاقات بين جنوة والمشرق الأدنى الإسلامي، 2/ 149 - 150.

(4) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص

مقابل امتيازات تجارية واسعة في أرجاء الإمبراطورية، وفعلاً تم ذلك سنة 660هـ/ 1261م حيث انتهى الحكم اللاتيني ورجع الحكم البيزنطي للمدينة، وبموجب معاهدة (نيمفيوم) بين البيزنطيين والجنوية أصبح الجنويين هم سادة التجارة في الأرخبيل والبوسفور والبحر الأسود، مُنهين بذلك التفوق التجاري البندقي في تلك المناطق والذي استمر قرابة ستين سنة في عهد الأباطرة اللاتين.⁽¹⁾

وتعرض الجنوية لنكسة تجارية ثانية بعد تحرير أنطاكية من قبل السلطان بيبرس سنة 666هـ/ 1268م،⁽²⁾ ومع ذلك استمر النشاط التجاري للجنوية، وحاولوا تعويض خسارتهم بعقد معاهدات تجارية مع المماليك، ففي سنة 674هـ/ 1276م أرسلوا سفارة إلى السلطان الظاهر بيبرس انتهت بتوقيع صلح "وموادة بعدة فصول".⁽³⁾

وتكررت السفارة بعد عشرة أعوام أيام سلطنة المنصور قلاوون سنة 684هـ/ 1285م،⁽⁴⁾ إلا أن العلاقات التجارية بين الطرفين بدأت بالتدهور بعد سنتين عند قيام المماليك سنة 686هـ/ 1287م بالاستيلاء على سفينة جنوية محملة بالسلع والمتاجر في ميناء الإسكندرية لأسباب مجهولة، ولم يرض السلطان قلاوون إطلاقها إلا بعد دفع فدية كبيرة،⁽⁵⁾ إلا أن الطامة الكبرى بالنسبة للجنوية كانت فب تحرير طرابلس سنة 688هـ/ 1289م.

(1) هايد: تاريخ التجارة، ج2/ 13 وما بعد.

(2) لقد كان للجنوية في أنطاكية امتيازات واسعة منها، كنيسة وسوق وبئر وثلاثين بيتاً وفرن ومستودع ضخمة وإعفاء من المكوس والضرائب في المدينة وتوابعها ومحاكم خاصة ثم حصلوا على ثلث دخل ميناء أنطاكية (السويدية)، وأليم الصوري: الأعمال المنجزة،

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7/ 44.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8/ 22، المقرئزي: السلوك، ج1، ق3، ص 729. ويشير الكنانى إلى معاهدة تجارية بين الطرفين تم عقدها عام 686هـ/ 1287م إلا أن نصها لم يتم العثور عليه في المصادر المعاصرة. انظر: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، ج2، ص 360.

(5) هايد: تاريخ التجارة، ج2/ ص68.

شكلت مدينة طرابلس أحد أكبر المراكز التجارية لجمهورية جنوة في مشرق البحر المتوسط وخاصة بعد سنة 676هـ / 1287م، ففي هذه السنة توفي بوهيمند السابع حاكم طرابلس ولم يكن له وريث يخلفه، وبعد تطورات عديدة توصل أهل طرابلس بالاتفاق مع جمهورية جنوة إلى تشكيل قومية جنوية لحكم طرابلس، وبالتالي كان أن سيطرت جنوى على كل مقدرات طرابلس التجارية، دفع هذا بعض الأطراف المنافسة لجنوة لإرسال وفد إلى السلطان قلاوون يحذره من خطر الجنوية في طرابلس، وشجعوه على تحرير طرابلس، وفعلاً انتهز السلطان قلاوون أقرب فرصة وقام بتحرير المدينة سنة 688هـ / 1289م. (1)

تحرير المدينة كان كارثة بحق تجارة جنوة في مشرق المتوسط، وربما هذا ما يفسر نشاط القرصنة الجنوية ضد السواحل المملوكية بزعامة آل زكارييا حكام قومية طرابلس المحررة، (2) لكن أعمال القرصنة لم تكن لتعوض خسارة جنوة، ولم يكن هناك بدأً من إعادة العلاقات مع المماليك، وتأمين البديل عن طرابلس، لذا أرسلت جنوة إلى السلطان قلاوون سنة 689هـ / 1290م سفارة قدمت اعتذارها، وتبرأت من أعمال القرصنة التي قام بها آل زكارييا، وردت ما قد سلبوه من قبل، وبعد إلحاح من السفارة وتردد من قبل السلطان قلاوون، وافق الأخير على عقد هدنة معهم "لأجل عمارة الثغور، ولأن هذا الجنس - الجنوية - يجلبون الأموال، ويحصل للديوان منهم الجمل الكثيرة"، (3) وقد أورد ابن عبد الظاهر بنود المعاهدة بالتفصيل، وفي الحقيقة بهذه المعاهدة أصبحت بلاد السلطنة المملوكية كلها مفتوحة أمام التجارة الجنوية مع كل الضمانات اللازمة لحمايتهم وبضائعهم، مع تخفيضات ضريبية على بعض البضائع وإعفاءات جمركية، وبذلك استعادة التجارة الجنوية عافيتها في مشرق البحر المتوسط.

(1) تقدم الحديث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 165.

(3) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص 165 - 168.

لم يكن تحرير عكا يعني الكثير بالنسبة للتجارة الجنوبية إذا ما قارنا ذلك بالنسبة لتجارة البندقية، فالجنويون لم يكن لهم نشاط تجاري قوي في عكا، والضربة كانت قد وجهت لهم منذ عامين على إثر تحرير طرابلس، وعوضوا خسارتهم تلك بمعاهدة سالفة الذكر مع السلطان قلاوون، والتي على أثرها – على حد قول أحد المؤرخين – تربع الجنوبية على عرش التجارة الشرقية،⁽¹⁾ ثم جاء لهم "الأمان الشريف" الذي أصدره الأشرف خليل والذي شمل البنادقة، والجنوية، والبيازنة،⁽²⁾ ليعطي الجنوبية المزيد من حرية التحرك في مصر والشام.

لكن في الوقت ذاته لم يكن بمقدور الجنوبية مقاومة القرارات البابوية والحراسة المشددة التي فرضتها على التجارة مع سلطنة المماليك في مشرق البحر المتوسط، لذا لجأت إلى تهريب السلع والمتاجر إلى الديار المصرية وبخاصة الخشب والحديد والقار،⁽³⁾ ونتيجة لذلك فقد تكررت الشكاوى من قبل البابا يوحنا الثاني والعشرين ضد الجنوبية الذين استمروا بالتجارة مع المسلمين وتزويدهم بالعبيد والعتاد الحربي.⁽⁴⁾

وتخلل العلاقات التجارية بين المماليك والجنويين بعض المشاكل، وكان أبرزها قيام صاحب جزيرة خيوس⁽⁵⁾ الجنوي باعتقال رسل السلطان الناصر محمد الموجهين إلى الملك طقطاي خان مغول القفجاق، ومن معهم من رسل طقطاي، وبلغ عددهم ستون رجلاً، طلب فدائهم ستين ألف دينار، وكالعادة كتب السلطان إلى

(1) Byrne, R. H.: Commercial Contractes of the Genoese in the Syrian Trade of the 12th Century. Vol. xxxl. 1916 – 1927. p128

(2) ابن عبد الظاهر: الألفاظ الخفية، ص 45.

(3) عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص 221.

(4) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 267.

(5) أحد جزر الأرخبيل اليوناني، اسمها خيوس وعرفت بالمصطكي نظراً لشهرتها بذلك الصمغ الذي

يجلب منها.

الإسكندرية ودمياط بالحوطة على تجار الفرنج واعتقالهم، فكان بين المعتقلين أحد تجار الجنوية، وقد تعهد بإحضار الرسل وما معهم، فمُكن من السفر لذلك.⁽¹⁾

وعقب هجوم القبارصة على الإسكندرية سنة 767هـ/ 1365م والذي شارك فيه الجنوية "بغرابين"⁽²⁾ توقفت التجارة بشكل كامل تقريباً، ولا بد أن يد الاعتقال والمصادرة طالت التجار الجنوبيين كما طالت زملاءهم من التجار والقناصل الفرنج التي قامت بها السلطات المملوكية كما ذكر من قبل عقب الهجوم القبرصي، وعلى غرار البندقية؛ بذلت جنوه جهوداً حثيثة لعقد الصلح مع المماليك، ففي سنة 768هـ/ 1366م أرسلت سفارة تطلب تمكين تجارهم من المتاجرة في الإسكندرية على عادتهم، وعلى قول المقريزي فإنهم أُجيبوا إلى ذلك،⁽³⁾ وفي الحقيقة العلاقات والنشاط التجاري لم يستقرا إلا بعد عقد الصلح سنة 772هـ/ 1371م.

لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، فبعد احتلال الجنوية لمدينة فيماجوستا سنة 776هـ/ 1374م أشهر المدن التجارية في قبرص، بدأت بعض الأمم التجارية بالتخلي عن تجارتها في قبرص والذهاب إلى الموانئ المملوكية وفي مقدمتها البندقية، فردت جنوة بسلسلة من عمليات القرصنة ضد السواحل المملوكية، فعلى سبيل المثال هاجمت في سنة 780هـ/ 1378م عشرة مراكب جنوية مدينة طرابلس،⁽⁴⁾ وفي سنة 784هـ/ 1383م أغار الجنوية على مدينة صيدا واستولوا على بعض المراكب في مينائها، ثم أغاروا على ميناء بيروت في العام نفسه وصادروا سفينتين للبنادقة،⁽⁵⁾ وأيضاً قاموا في شعبان 790هـ/ تموز 1388م بالاستيلاء على سفينة قادمة من بلاد الشام إلى مصر وعلى ظهرها أقارب السلطان

(1) المقريزي: السلوك، 2/ 101 – 102.

(2) غرابين على قول المقريزي: السلوك، 3/ 107. وعلى قول ماكارياس ثلاث سفن: مرويات،

ص96.

(3) المقريزي: السلوك، 3/ 141.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 2/ 573.

(5) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 31 – 32.

برقوق، مما حدا به إلى اعتقال كل تجار الفرنج في البلاد الساحلية،⁽¹⁾ وأمر بمنع الجنوبية من دخول بلاد المسلمين، فسارعت جنوة بإرسال سفارة لتسوية الوضع حيث تم في ذي الحجة من السنة نفسها إعادة من أسر على ظهر هذه السفينة ومعهم كل أمتعتهم "ما نقص من مركبهم شيء يساوي الدرهم الفرد ولا الفلس الواحد".⁽²⁾

وفي سنة 806هـ / 1403م قام بوسيكو حاكم جنوة بحملة عسكرية استهدفت الموانئ المصرية والشامية انطلاقاً من جزيرة قبرص، فهاجم في المحرم/ آب طرابلس، إلا أن مناعة أسوارها ويقظة حاميتها وأهلها، وقدم المساعدة من قبل الأمير شيخ المحمودي نائب دمشق، جعلهم يغادرونها إلى بيروت، وفي بيروت أحرق الجنوبية بعض المواقع وقتلوا عدداً من أهلها، كما أسروا سفينة محملة ببضائع ثمينة قادمة من دمياط إلى بيروت، ومن هناك ساقوا إلى صيدا، فتصدى لهم الأمير شيخ المحمودي، وفي شهر صفر هاجموا الإسكندرية، لكنهم لم يصيبوا أية نتائج.⁽³⁾

3- النشاط التجاري لبيزا وباقي المدن الأوروبية مع سلطنة المماليك:

شكلت المتاجرة مع بلاد الشام ومصر حرفة قديمة لتجار مدينة بيزا، وأقدم ما حُرر عن نشاطها التجاري هناك سفارة بيزية قدمت سنة 549هـ / 1154م إلى الدولة الفاطمية في القاهرة لتسوية العلاقات التجارية بين الطرفين⁽⁴⁾، وقد سجل أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر نشاط تجاري حافل للبيازنة في حلب.⁽⁵⁾

(1) المقرئزي: السلوك، 581/3. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 33/9.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 38/9، الصيرفي: نزهة النفوس 174/1، 178. المقرئزي: السلوك

581/3، 585-589.

(3) المقرئزي: السلوك 1114/3، 1116. وعن أعمال القرصنة التي تمت أواخر القرن الثامن الهجري/

الرابع عشر الميلادي انظر: السلوك، ج3، ق2، ص 410، 499، 515، 533، 562، 581، 589، 723، 813.

(4) هايد: تاريخ التجارة، 2/ 42 - 43.

(5) Beazley, C.R: The dawn of Modern Geography. 3vols, Oxford, 1901 - 1906. vol II. p.445.

نقل الإشارات الواردة في المصادر عن العلاقات التجارية بين سلطنة المماليك وبيزا، إلا أن هذا لا يعني انعدام النشاط التجاري للبيزانة مع السلطنة، فاللوائح التنظيمية لإدارة التجارة في هذه المدينة تبين وجود أوامر صادرة بين سنتي 705 و722هـ/ 1305 و1322م تحذر من توريد الأدوات الحربية إلى مصر، أي أن التجارة مع السلطنة المملوكية كانت قائمة على المواد الغير حربية، وتشير أيضاً إلى وجود قنصلية للبيزانة في الإسكندرية سنة 722هـ/1322م، وفي القوائم يرد غرامة مفروضة على فرن للبيزانة في الإسكندرية،⁽¹⁾ وفي هذا إشارة واضحة لوجود جالية ضخمة تمارس نشاطها التجاري مثل باقي الجاليات، وفي مطلع العصر المملوكي الثاني قدمت سفارة بيزية إلى السلطان برقوق سنة 788هـ/1385م، لتتفاوض مع السلطان وتناقشه في الأضرار التي لحقت بالتجار البيزانة في بلاده، وأسباب الضرر مجهولة، إلا أن في ذلك إشارة جديدة تؤكد أن النشاط البيزاوي ظل قائماً حتى نهاية القرن الرابع عشر ميلادي.⁽²⁾

أما بالنسبة للمدن التجارية الإسبانية، والتي كانت تتوزع آنذاك بين مملكتين هما مملكة أراغون ومملكة قشتالة، فقد كانت برشلونة أهم المراكز التجارية الإسبانية، وقد كانت منفذ مملكة أراغون على البحر المتوسط، وكان ميناء برشلونة يستقبل على الدوام سفناً مصرية وسورية لكن الشيء الجديد الذي بدأ يظهر في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي هو الحركة العكسية، أي حركة انطلاق تجار برشلونة يجوبون المتوسط دون مساعدة أجنبية.⁽³⁾

لقد كانت العلاقات المصرية الأراغونية علاقات طيبة وصلت ذروتها أيام الملك ألفونسو الثالث، فقد أرسل هذا بعثة إلى القاهرة بالاتفاق مع أخيه جاك ملك صقلية، وكانت البعثة مكلفة بعقد معاهدة تحالف دفاعي وهجومي مع السلطان

(1) هايد: تاريخ التجارة، 2/ 268.

(2) Amari, M.: Diplomi Arabi del R. Archivio Florentino ;1863. P.315-316.

المقريري: السلوك، 3/ 546.

(3) هايد: تاريخ التجارة، ج1، ص 332.

قلاوون، وقد أبرمت المعاهدة في 13 ربيع الآخر 689هـ / 23 نيسان 1290م، واشتملت المعاهدة على بنود تنظم العلاقات السياسية والتجارية بين الطرفين،⁽¹⁾ ثم أعقب توقيع هذه المعاهدة معاهدة ثانية بين خايم الثاني والأشرف خليل سنة 692هـ / 1293م، تم فيها تجديد التحالف بين الطرفين، وقد تكرر إرسال السفارات من أراغون إلى مصر، منها على سبيل المثال سفارة إلى الناصر محمد سنة 703هـ / 1303م وقد رافق السفارة تجار وسفن محملة بالبضائع، ثم سفارات أخرى على التوالي في سنوات 705 و714 و718هـ / 1305 و1314 و1318م، وكانت هذه الأخيرة تضم تجار من جنسيات مختلفة، ثم سفارة سنة 728هـ / 1327م اشترك فيها سفير فرنسي، وسفارة سنة 730هـ / 1329م.⁽²⁾

وكان من المراكز التجارية الإسبانية المهمة أيضاً قطلونيا، التي ارتبطت بعلاقات تجارية مع مصر وسورية، وكان سوقها من أشهر أسواق أوروبا على الإطلاق.⁽³⁾

وكان لمدينة مرسيلىا الفرنسية تجارة رائجة مع مصر، فمن خلال قوانين بلدية مرسيلىا العائدة إلى القرن الثالث عشر الميلادي يتضح أن تجارتها مع سلطنة المماليك كانت في أوج نشاطها آنذاك، كما كان لها جالية وقناصل مقيمين في مصر.⁽⁴⁾

وأخيراً لكي نتصور حجم التجارة الدولية التي كان يتم تبادلها في الأراضي المصرية نذكر بشهادة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي قدم إلى الإسكندرية ورأى تجار من خمسين دولة أو مدينة في سوقها.⁽⁵⁾

خامساً- قبرص وأرمينية الصغرى، التنافس التجاري مع سلطنة المماليك:

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص 156 وما بعد.

(2) النشار: ص 203، 206-212.

(3) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص 138.

(4) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 73.

(5) بنيامين التطيلي: رحلته، ص 179.

بعد تحرير عكا، والضغط الذي مارسه البابوية على الأمم التجارية لمنع مزاولة التجارة مع سلطنة المماليك، أصبحت المنطقتان اللتان بقيتا في أيدي المسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهما قبرص وإرمينية الصغرى، مركزين مهمين للتجارة الدولية، والتجار الأوربيين الذين اعتادوا على شراء بضائعهم من شواطئ مصر والشام أصبح بإمكانهم شرائها من قبرص وإرمينية الصغرى.

1- قبرص:

لا يمكن الحديث عن نشاط تجاري مميز لقبرص قبل تحرير عكا سنة 690هـ/1291م، ذلك أن المدن التجارية الأوروبية كانت تمارس نشاطها بشكل مباشر مع المدن الصليبية على الساحل الشامي، أما بعد تحرير عكا بدأت كل من قبرص، وإلى حد ما إرمينية الصغرى، تراثان الرخاء الاقتصادي الذي نعمت به الكيانات الصليبية من قبل، فبعد تحرير عكا نزح معظم الصليبيين كما هو معلوم إلى قبرص مع أموالهم واثرواتهم، وأصدرت البابوية قرارات تحظر بها التعامل التجاري مع المسلمين، وإن لم يكن تم العمل بها بشكل دقيق، إلا أنها أثرت على التجارة، فقد التزم بعض التجار بدافع الإيمان بهذه القرارات وابتعدوا عن السواحل المحرمة، في حين أن بعضهم الآخر خاف من العقوبات التي كانت تهددهم، ناهيك عن المراقبة التي قامت بها سفن قبرص والبابوية بشكل جعل قسم كبير يتجنب الوقوع في الأسر، لذلك فإن معظم سفن التجار المسيحيين التي كانت تأتي من الغرب لم تغامر بالذهاب إلى أي مكان آخر باستثناء قبرص التي كانت تصلها البضائع من مصر والشام عن طريق البحر،⁽¹⁾ من ناحية ثانية استغل ملوك قبرص من آل لوزينان هذا الوضع، واستخدموا قوتهم البحرية لإعتقال الخارقين لقرارات الحظر البابوية،⁽²⁾ وبالتالي لم

(1) ماكارياس: مرويات، ص 56-57.

(2) نورمان هاوسلي: الحروب الصليبية المتأخرة، ص 307.

يعد هناك أمامهم إلا قبرص التي غدت على حد تعبير الرحالة الألماني لودولف:
"أقصى الشرق بالنسبة للبلدان المسيحية".⁽¹⁾

أمام الوضع الجديد بدأت القوى التجارية تتسابق لتوطيد أقدامها في قبرص، وفي مقدمتها قبرص التي توصلت إلى عقد معاهدة سنة 706هـ/ 1306م مع عموري أخ هنري الثامن ملك قبرص، والوصي على العرش آنذاك، حصل فيها البنادقة على امتيازات تجارية واسعة، أهمها: إلغاء الرسوم الجمركية على بضائع البندقية، ومنح البنادقة حق تشييد المنازل في فيماجوستا ونيقوسيا وليماسول، كما منحهم في كل من هذه المدن الثلاث كنيسة ومقر للممثل البندقي ومساعديه، ومنح البنادقة حقوقاً قضائية واسعة، ناهيك عن تعهد الحكومة القبرصية بحماية ممتلكات البنادقة في حال تحطم سفنها أو غرقها أو وفاة المالك.⁽²⁾

وشكلت هذه المعاهدة نموذج أو أساس تم تكراره في كل المعاهدات التي تم توقيعها بين الطرفين حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، ومن خلال هذه الامتيازات تمكنت البندقية من القيام بتجارة مزدهرة في قبرص.

وتم توقيع معاهدة ثانية بين الطرفين سنة 729هـ/ 1328م اشتملت على البنود ذاتها مع تعديل شكلي في مضمون المعاهدة،⁽³⁾ وبعد اعتلاء بطرس الأول لعرش قبرص (1359 – 1369م) تم إرسال سفارة من البندقية لتنهئته ولتجديد ما للبنادقة من امتيازات هناك، وفعلاً تم توقيع معاهدة اشتملت على البنود التي تم ذكرها في معاهدة سنة 706هـ/ 1306م مع تدليل جوهرى هو تعهد من قبل البنادقة بعدم نقل البضائع المهربة، وبعدم نقل أشخاص ليسو ببنادقة أو لا يحملون تصريحاً خاصاً بالسفر من الحكومة القبرصية، ولمندوب الملك الحق في تفتيش السفن للتأكد

(1) لودولف: وصف الأرض المقدسة، ج39، ص 296.

(2) Mas Latrie: Hist, de Chypre. II. p. 102-106.

نورمان هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص 298.

(3) Ibid, p. 142 – 144.

نورمان هاوسلي: المرجع المتقدم، ص 308.

من ذلك، مع تعهد قبرصي بدفع التعويضات عن الأضرار التي قد يلحقها القبارصة بالجالية البندقية في الجزيرة.⁽¹⁾

شكلت حملة بطرس الأول على الإسكندرية سنة 767هـ/ 1365م ضربة قاسية للتجارة الأوربية في أراضي السلطنة المملوكية، وقد أثارت هذه الحملة غضب البنادقة،⁽²⁾ مما حدا بالبندقية إلى إصدار مرسوم بمنع توريد الأسلحة والخيول إلى قبرص،⁽³⁾ لكن التجارة عادت إلى حالتها الماضية بعد أن وقع بطرس الثاني خليفة بطرس الأول معاهدة صلح مع مصر سنة 772هـ/ 1370م، ثم تعرضت مصالح البنادقة في قبرص لنكسة قوية على إثر النزاع الجنوبي البندقي سنة 775هـ/ 1373م، وقيام الجنوبية - كما سيتوضح لاحقاً - باحتلال الجزيرة، حيث أصدرت البندقية تعليماتها سنة 777هـ/ 1375م لتجارها بمغادرة الجزيرة في الحال،⁽⁴⁾ وظل الأمر على ما هو حتى سنة 780هـ/ 1378م حيث صدرت قرارات بعودة القنصل والتجار إلى الجزيرة وأخذت أساطيل البندقية بالرسو في الموانئ القبرصية،⁽⁵⁾ وظلت التجارة بين الطرفين تسير على ما يرام حتى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر.

2- جنوة:

فقد كان لها نشاط تجاري قديم في قبرص تم تنظيمه بموجب معاهدة عقدت بين الطرفين سنة 615هـ/ 1218م، اشتملت على إعفاءات من الرسوم والضرائب، واستقلالاً قضائياً، والحق في بناء مكاتب ومنازل في فيماجوستا وليماسول مع تعهد قبرصي بحماية التجار الجنوبية وممتلكاتهم وبضائعهم، وفي المقابل تقدم جنوة المساعدات لقبرص عند الضرورة.⁽⁶⁾

(1) Mos Latrie: Hist. de chypre. II. p. 228 – 232.

(2) ماكارياس: مروييات، ص 101.

(3) Ibid, p. 285.

(4) Mos Latrie: Hist. de chypre. II. p363 – 364.

(5) Ibid. p. 365.

(6) Mos Latrie: Hist. de chypre. II. p. 39.

نورمان هاوسلي: الحروب المتأخرة، ص 297.

كونت هذه المعاهدة الأساس التي بنيت عليه باقي المعاهدات، ففي سنة 630هـ/1232م تم تجديدها مع زيادة بند ينص على إعطاء الجنوية إمكانية إقامة جاليات وامتلاك أفران وبيوتاً في كل من نيقوسيا ويافوس وفيماجوستا.⁽¹⁾

أُصيب النشاط التجاري الجنوبي في قبرص بركود فيما بين 692-730هـ/1292 - 1329م، بسبب توتر العلاقات مع الحكومة القبرصية،⁽²⁾ وعلى إثر اتفاقية 730هـ/1329م التي جددت فيها معاهدة 630هـ/1232م تحسنت العلاقات، واستعادت التجارة عافيتها، وتعهدت الحكومة القبرصية بتعويض الجنوية عما لحقهم من أضرار خلال فترة الانقطاع، ودفع ما أخذه الملكان القبرصيان، عموري وهنري الثاني، من ديون من الجنوية،⁽³⁾ وعلى أثر ذلك استأنف النشاط الجنوبي في جزيرة قبرص وقام الطرفان بتجديد المعاهدة في سنة 739هـ/1338م مع وعد من الملك القبرصي آنذاك (هيو الرابع) بإعادة النظر في المشاكل التي يعاني منها الجنوبيون في مملكته.⁽⁴⁾

في سنة 766هـ/1364م وقع خلاف بين مقدم الجنوية في فيماجوستا وأمير البحر القبرصي، وتطورت المشاكل إلى أن أصدرت الجنوية أمر لتجارها بمغادرة قبرص، وفي هذا الوقت كان بطرس الأول يجول في أوريا للترويج لحملة، وحرصاً على إنجاح حملته سارع إلى جنوة لتسوية الأمر، وعقد معها معاهدة قدم فيها تنازلات عديدة، ومنحها امتيازات واسعة في قبرص.⁽⁵⁾

— احتلال الجنوية لقبرص:

في سنة 775هـ/1373م وأثناء الاحتفال بتتويج الملك بطرس الثاني، وقع خلاف بين البنادقة والجنوية تحول إلى اقتتال وقف فيه القبارصة إلى جانب البنادقة،

(¹) Ibid. p. 51 – 56.

(²) — هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 243 – 244.

(³) Mas Latrie: : Hist. de chypre. II. P. 150 – 158.

(⁴) Ibid: p.166 – 168 – 170 , 174 – 179 .

(⁵) ماكارياس: مرويات، ص 83-85، 87-91.

Ibid. p. 248 – 250.

فسلبوا محلات الجنوية ومستودعاتهم، وقتلوا أعداداً منهم، مما دفع حكومة جنوة إلى إرسال أساطيلها لاحتلال قبرص، فأعملوا السلب والنهب بشواطئ الجزيرة، حتى إنهم احتلوا العاصمة نيقوسيا، واحتلوا قسماً كبيراً من الجزيرة، وطال الأمر الملك نفسه وأمه اللذان وقعا في أسر الجنوية، وبعد حرب طالّت أكثر من عام توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية سنة 776هـ/ 1374م، تُلزم ملك قبرص بدفع مبالغ باهظة كتعويض لجنوة، وأرسل أحد أعمامه واثنان من أبناء عمومته وعدد من رجال البلاط أسرى إلى جنوا كرهينة، أما الضمان الحقيقي لوفاء الديون فكان مدينة فيماجوستا التي وضعت تحت سيطرة الجنوية حتى يتم وفاء الديون، غادر بموجبها الجنوية قبرص، وفي سنة 784هـ/ 1382م وقع ملك قبرص جيمس الأول الذي كان رهينة في جنوة اتفاقية زيدت فيها الغرامة المالية، وتنازل فيها عن فيماجوستا التي أصبحت ملك لجنوة بعد أن كانت مرهونة حتى تسديد الديون، وأخفقت محاولات استرداد فيماجوستا التي بقيت في يد الجنوية حتى سنة 869هـ/ 1464م.⁽¹⁾

كان بقاء فيماجوستا بيد الجنوية قرابة قرن يعني بكل بساطة سيطرة الجنوية على معظم مقدرات الجزيرة التجارية حتى منتصف القرن الخامس عشر. أما بالنسبة للبيزيين، فإنهم كانوا قد حصلوا بعد سقوط عكا على امتياز يكفل لهم رسماً منخفضاً قدره 2% على الاستيراد والتصدير، يخفض بمقدار النصف للتجارة المارة بالجزيرة، ومن خلال وثائق عديدة تبين وجود البيازنة مقيمة بمناطق مختلفة من الجزيرة ويمارسون التجارة وكانت ليماسول مقرهم المفضل ولهم فيها دار عامة "تشبه القنصلية".⁽²⁾

2- النشاط التجاري في أرمينية الصغرى:

شغلت أرمينية الصغرى دوراً اقتصادياً مهماً في مشرق البحر المتوسط لا يقل شأناً عن دورها السياسي في المنطقة، وذلك عائد إلى موقعها الاستراتيجي في

(1) ماخارياس: مروييات، ص 189 – 326، 359، 364-365، 372، 374-375. نورمان هاوسلي:

الحروب المتأخرة، ص 312-315.

(2) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 231.

الزاوية الشمالية الشرقية للمتوسط، ولقد ازدادت أهميتها بعد فقدان أوربا لموانئها على الساحل الشامي في نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ غدت أرمنية الصغرى الكيان المسيحي الوحيد في المنطقة، فكان من الطبيعي توجه التجار الأوربيين نحوه، وقد طرحه سانوتو وغيره كبديل للتجار الأوربيين عن الإسكندرية وغيرها من موانئ المماليك. (1)

ليس هذا هو السبب الوحيد الذي جعل التجار الأوربيين يقصدون مراكز إرمينية الصغرى التجارية، ولكن هناك سبب مهم هو أنه في إرمينية الصغرى بدأت وانتهت عدد من الطرق التجارية النشطة، فماركوبولو الذي اتخذها نقطة بداية لرحلته إلى المغول تحدث قائلاً: "والعادة أن من يبتغون السفر إلى داخلية بلاد المشرق يقصدون ابتداءً إلى ثغر آياس"، (2) ونظراً لأهمية الطريق التجاري المتجه من آياس إلى تبريز قام التاجر الإيطالي بيلوتي بوصفه بدقة، مع ذكر الرسوم الجمركية المفروضة عليه، وذلك خدمة للتجار الإيطاليين، (3) بالإضافة إلى هذه الطرق كان هناك الطرق المتجهة نحو الخليج العربي، ونحو الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود، وقد شهد ميناء آياس إقبالاً شديداً من قبل التجار الأوربيين نتيجة انخفاض الرسوم الجمركية المفروضة فيه مقارنة بالإسكندرية، (4) ناهيك عن العلاقات الجيدة التي ربطت بين المغول والأرمن، وهذا يجعل من الطبيعي تدفق القوافل التجارية القادمة عبر أراضي المغول إلى حلفائهم الأرمن، وربما هذا ما يفسر المحاولات المملوكية الحثيثة للسيطرة على القلاع الشرقية لأرمينية الصغرى، لكي تتحول الطرق التجارية المارة في أرمينية الصغرى إلى بلادهم. (5)

(1) مارينو سانوتو: الأسرار، 68/38.

(2) ماركوبولو: رحلته، 44/1.

(3) Balducci Pagolotti, F.: La Pratica della mercatura p.7, 13, 48, 50, 79.

(4) Grousset: L'empire, du Levant. P. 414.

(5) مارينو سانوتو: الأسرار، 25/38.

ولم تقتصر التجارة في إرمينية الصغرى على التجار الأوربيين والمغول، بل حتى التجار المسلمين ترددوا عليها، وفي هذا السياق يكفي بأن نشير إلى رواية اليوسفي الذي شارك في حملة 737هـ/ 1338م واستضاف في بيته أحد التجار المسلمين الذين كانوا مأسورين عند الأرمن، والذي أخبره أنه من أهالي حلب ويتردد كثيراً في تجارته على سيس وآياس وغيرها من مدن إرمينية الصغرى، وقد وقع بأسر الأرمن نتيجة توتر العلاقات مع المماليك سنة 734هـ/ 1334م.⁽¹⁾

لذلك فقد ازدهرت التجارة في مملكة أرمينية الصغرى، بشكل دفع ماركوبولو للقول بأنه توفرت فيها كل مقومات الحياة،⁽²⁾ وعندما تحدث المقريزي عن ميناء آياس قال أنه "ميناء للتجار الأوربيين والمسلمين على السواء يُقصد من ساير الجزاير والمدن"، وذكر أن ما يجبيه الملك الأرمني من ضرائب ورسوم جمركية فقط من برج أطلس التجاري التابع لآياس يبلغ ثلاثين ألف دينار شهرياً.⁽³⁾ أما عن النشاط التجاري للأمم التجارية في مملكة أرمينية الصغرى، فنبدأ بـ:

1 – البندقية:

النشاط التجاري للبندقية في إرمينية الصغرى قديم جداً، فثمة امتياز ممنوح للبنادقة في هذا الإقليم منذ سنة 475هـ/ 1082م من قبل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنيون (Alexis Comenone)،⁽⁴⁾ وفي الحقيقة إن الحديث عن النشاط التجاري للبنادقة في أرمينية الصغرى منذ أن كانت إمارة إلى أن أصبحت تابعة للمماليك يختصر في الحديث عن المعاهدة التي وقعها البنادقة مع ليون الأول

(1) اليوسفي: نزهة الناظر، ص 408-409.

(2) ماركوبولو: رحلته، 1/

(3) المقريزي: السلوك، 2/ 2 / 429-430، 435. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 11.

(4) Balducci Pagolotti, F.: L'amenie Cosmopolite, P.184

فايز اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، مقال منشور في الندوة الدولية عن الاقتصاد بين العرب والأرمن، القاهرة، 2010م، ص 150.

سنة 599هـ/ 1201م، لأن هذه المعاهدة هي الأساس الذي سارت عليه البندقية في نشاطها التجاري في أرمينية الصغرى، فبموجب هذه المعاهدة مُنحت البندقية كنيسة ووكالة وأرض لبناء دار عامة في المصيصة، ولهم كامل الحرية في التنقل داخل أرمينية الصغرى وحتى خارجها إلى البلدان المجاورة "بشرط أن تكون أرمينية على علاقة سلمية معهم"، ولا يدفع البنادقة أي ضرائب على مرورهم، باستثناء البنادقة المقيمين في سورية إذا ما مروا في الأبواب الكيليكية، وسوى ذلك فلا يدفعون أية ضرائب جمركية أو رسوم إلا إذا حملوا ذهباً أو فضة بهدف تحويلها إلى نقود فإنهم يدفعون ضريبة جمركية عليها، ونصت المعاهدة أنه إذا توفي أحد من البنادقة في أرمينية الصغرى ولم يكن له وريث تودع ثروته عند كبير أساقفة أرمينية حتى يبيت بأمرها دوج البندقية أو قنصل البنادقة في عكا.⁽¹⁾

على هذا الأساس سارت العلاقات البندقية الأرمينية في كيليكية، فقد جددت هذه المعاهدة في أعوام 1245 و 1261 و 1271 و 1307 و 1321 و 1333م.⁽²⁾

2 – جنوة:

كانت الامتيازات التي حصلت عليها جنوة في أرمينية الصغرى أوسع مما حصل عليه البنادقة، فقبل أن يحصل البنادقة على امتيازهم متقدم الذكر حصل الجنوية في السنة نفسها (599هـ/ 1201م) على امتياز أعفى تجارها من الرسوم الجمركية والمكوس وسائر الضرائب، ومنحهم عقارات وأراضي لبناء المخازن في العاصمة سيبس وفي طرسوس والمصيصة، ولهم الحق في تشييد الكنائس وممارسة طقوسهم الدينية، ناهيك عن صلاحيات قضائية واسعة، وفي سنة 612هـ/ 1215م وقعت جنوة معاهدة جديدة زادت من العقارات التي يمتلكها الجنوية في طرسوس، و نصت على منحهم فرن وحمام وحديقة، بالمقابل فرضت عليهم بعض القيود في

(1) Saint-Martin: Notices et Extraits. Des Manuscrits. T. xi. P. 19-20.

هايد: تاريخ التجارة، 2/ 16 وما بعد. فايز إسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص 156.

(2) فايز إسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص 157.

حرية التنقل وممارسة التجارة، وفي بعض الإعفاءات الجمركية والضرائب، وذلك لأن البلاد كانت مقسمة بين بارونات وأمراء رفض بعضهم منح مثل هذه الامتيازات للجنوية. (1)

ومع السقوط المتتالي للكيانات الصليبية في بلاد الشام سعت جنوة إلى تعزيز تجارتها في أرمينية الصغرى، فأصبح لهم قنصل في آياس، مع استقلال قضائي وإداري، وتم تنظيم العلاقات بمعاهدة جديدة وقعت سنة 687هـ / 1288م مع الملك ليون الثالث الذي توفي بعد سنة، فمنحهم خليفته هيثوم الثاني سوقاً، وخفض رسوم الخروج على البضائع المعاد تصديرها من أرمينية إلى الإقليم التركي. (2)

وبالنسبة لباقي الأمم التجارية:

— البيازنة حصلوا على امتيازات أقل من الجنوية والبنادقة، فهم لم يتمتعوا بعفو كامل من الضرائب والرسوم، بل كانوا يدفعون رسماً قدره 2% على السلع الداخلة والخارجة، كما كان لهم قنصل يمثلهم. (3)

— بالنسبة للصقليين كان لهم نشاط تجاري في إرمينية الصغرى، وعلى الرغم من أن الملك ليون الخامس قد صاهرهم، إلا أنه في الامتياز الممنوح لهم سنة 732هـ / 1331م لم يعفهم من الرسوم كما كان للبنادقة والجنوية، بل فرض عليهم رسوم بين 1 و 2% على السلع حسب أنواعها. (4)

(1) Grousset: Levant. P. 414. Balducci Pagolotti, F.: L'amenie Cosmopolite, P.185. R. H. C. Doc. Arm., T. I. P.745-746.

هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 17 — 18. فايز اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص 152-153.

(2) R. H. C., Doc. Arm. T. I. P. 745-762.

هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 321 — 322. فايز اسكندر: تجارة أرمينية الصغرى، ص 154-155.

(3) هايد: المرجع المتقدم، 2/ 323. فايز اسكندر: المرجع المتقدم، ص 159.

(4) ورد نص الامتياز كاملاً في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخون الأرمن، الجزء الأول.

R. H. C. Doc. Arm. T. I. P. 758-762.

هايد: تاريخ التجارة، 2/ 322. فايز إسكندر: تجارة إرمينية الصغرى، ص 160 — 162.

— تمثل النشاط الفلورنسي بالبيت التجاري (بيت باردي) ومنافسه (بيت بيرونزي)، وقد حصل الأخير على امتياز سنة 763هـ/ 1335م أعفاه من الرسوم على الدخول الخروج.⁽¹⁾

التنافس التجاري بين سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى:

تبين فيما سلف صورة واضحة عن حجم النشاط التجاري الذي شهدته مملكة أرمينية الصغرى، وفي الحفاظ على النشاط التجاري قام ملوكها بمنح الامتيازات التجارية، وخفض الرسوم الجمركية، وفتحوا أرمينيا الصغرى على مصراعيها أمام التجارة العالمية.

ولما كانت أرمينية الصغرى بنشأتها وطبيعتها صليبية معادية للمسلمين ومنافسة لهم،⁽²⁾ فإن ذلك لم يقتصر على المجال السياسي والعسكري، بل تعداه إلى حرب اقتصادية قام بها كل طرف ضد الآخر.

ففي سنة 659هـ/ 1260م أصدر الملك الأرمني هيثوم الأول أوامره إلى تجار أرمينية بمنع الاتجار مع المماليك، وعدم تزويد سفنهم بما يلزم من حاجيات وبضائع، وبعد تصدير المواد اللازمة لتصنيع السفن، حتى إن الحظر شمل المواد الغذائية من قمح وزيت.⁽³⁾

بل تطور الحال بأن قام هذا الملك بقطع الطرق التجارية المارة من أراضيه إلى أراضي السلطنة المملوكية، وأقدم سنة 666هـ/ 1267م على اعتقال بعض التجار القاصدين أراضي السلطنة المملوكية، وأرسل إلى أبغا خان المغول بأمرهم، فطلب منه هذا الأخير الحوطة عليهم وإرسالهم إليه، فأرسل له السلطان الظاهر

(1) هايد: تاريخ التجارة، 2/ 322.

(2) نذكر هنا بقول ابن كثير: «كانوا أضر شيء على المسلمين زمن القتال» البداية والنهاية، ج13،

ص247.

³ — Mas Latrie: Hist. de Lile de Chypre, I p.412.

بيبرس عن طريق نائبه في حلب يتهدده بأنه إذا تعرض لهؤلاء التجار بشيء يساوي درهماً واحداً سيأخذ عوضه مراراً، فأطلق سراحهم.⁽¹⁾

وتكررت هذه المضايقات أكثر من مرة، ففي سنة 672هـ/1273م " كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد"، وعمد الأرمن هناك إلى لبس زي المغول، وإخافة القوافل التجارية القادمة إلى أراضي السلطنة المملوكية، والإدعاء أنه عساكر المغول، مما استدعى إرسال حملة لتأديبهم.⁽²⁾

قامت سلطنة المماليك فيما بعد بغارات وحملات كثيرة على مملكة إرمينية الصغرى لأسباب اقتصادية استهدفت فك الحصار الاقتصادي الذي فرضته إرمينية الصغرى على المماليك، وتدمير مالية إرمينية من خلال تدمير المنشآت الاقتصادية، وفرض غرامات مالية كبيرة، وأبلغ مثال على ذلك حملة سنة 664هـ/1265م، فقبيل هذه الحملة أرسل الظاهر بيبرس إلى هيثوم الأول يطلب منه فتح الطرق التجارية بين البلدين، والسماح بتبادل البضائع،⁽³⁾ ولما رفض هيثوم هذه المطالب سير له الظاهر بيبرس حملة دمرت القلاع الإرمينية الشرقية القائمة على الطرق التجارية، كما دمرت الموانئ على المتوسط،⁽⁴⁾ ولما أخفقت هذه الحملة بتحقيق أهدافها الاقتصادية بفتح المعابر التجارية، أرسل السلطان حملة بعد سنتين تمكنت من تحرير أنطاكية والسيطرة على ميناء السويدية، كما حررت بغراس، الواقعة على أحد الطرق المؤدية إلى إرمينية الصغرى.⁽⁵⁾

وعلى الرغم من ذلك استمر إرسال الحملات المملوكية على إرمينية الصغرى، والهدف منها على قول مارينو سانوتو هو تحويل طرق التجارة التي كانت تمر عبر

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 181/7

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 417، 432.

(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 284، تاريخ الزمان، ص 324-325.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 269-271. أبو الفداء: المختصر، 333/2. النويري: نهاية

الأرب، 30/ 290-292. سمباط: تاريخ سمباط، 36/ 344.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 308-309، 325-326.. أبو الفداء: المختصر، 333/2.

النويري: نهاية الأرب، 30/ 307. وللاستزادة انظر الفصل الثاني، ص

إرمينية الصغرى،⁽¹⁾ ولما أخفق المماليك في ذلك مؤقتاً قبلوا بجزية سنوية، ففي سنة 684هـ/ 1285م توصلوا إلى عقد معاهدة فرض فيها المماليك على الأرمن ضريبة سنوية مقدارها مليون درهم، كما نصت المعاهدة على إطلاق سراح جميع التجار على اختلاف جنسياتهم مع أموالهم وبغالهم وبضائعهم ومماليكهم، كما نصت على حرية المرور والعبور للتجار في أراضي أرمينية الصغرى، وتقديم خمسين رأس من الخيل الجياد والبغال سنوياً، بالإضافة إلى عشرة آلاف تطبيقاً من التطبيقات الحديد بمساميرها، وهذه التطبيقات ضرورية للخيل التي يعتمد عليها الجيش المملوكي، ويتراوح سر الواحدة بين 60 و 70 درهم.⁽²⁾

ويتضح الهدف الاقتصادي للتحركات المملوكية في تعليق ابن عبد الظاهر على هذه المعاهدة عندما قال: "وانتفعت خزائن الأموال بهذه الجملة العظيمة التي تحمل في كل سنة، ولو فتحت وعمرت سيس لما فضل عن كلفها هذا القدر"⁽³⁾.

وفي سنة 723هـ/ 1323م تم توقيع معاهدة أخرى زيدت فيها هذه الضريبة إلى مليون ومئتي ألف درهم مع التنازل عن نصف إيرادات جمرك آياس.⁽⁴⁾ ولسد مطالب السلاطين المماليك لجأ الأرمن إلى رفع الضرائب على التجارة القائمة بأراضيها مما انعكست سلباً على النشاط التجاري هناك.⁽⁵⁾

من ناحية ثانية يُلاحظ أن المماليك في معظم حملاتهم استهدفوا آياس، الميناء التجاري المهم والمنافس للإسكندرية، فهبت آياس في سنة 664هـ/ 1266م⁽⁶⁾

(1) الأسرار، 25/38.

(2) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص 93 – 103.

(3) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص 93.

(4) النوير: نهاية الأرب، 60/32. الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 8، 11، المقرئى: السلوك،

246/2. وللاستزادة انظر الفصل الثالث، ص

(5) هايد: تاريخ التجارة، ج2، ص 326.

(6) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 269-271. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، 347-344/2/1.

أبو الفداء: المختصر، 333/2. ابن أيبك: الدرر الزكية، ص 118. وللاستزادة انظر الفصل الثالث، ص

وسنة 673هـ / 1275م⁽¹⁾ من قبل المماليك، ودمرت سنة 722هـ / 1322م، ولم يُسمح لهم بعمارته حتى أرسل الأرمن وفداً في السنة التالية يطلب السماح لهم بعمارة آياس مقابل 100 ألف درهم سنوياً، فسُح لهم بعمارته.⁽²⁾

وفي حملة سنة 737هـ / 1337م التي جعل بها المماليك أرمينية الصغرى «أوحش من بطن حمار»،⁽³⁾ دمرت آياس كلياً مع برجها التجاري الشهير المعروف ببرج أطلس، وسُلّمت للمماليك بشكل نهائي مع سبعة قلاع،⁽⁴⁾ وباستيلاء المماليك عليها انتهى عصر التجارة الأرمينية، وأصيبت المستوطنات التجارية الأرمينية الأخرى بالصميم، وواصلت حياتها بمشقة حتى تم دمار المملكة كلياً، واندثرت دون أن تترك أثراً لها.

وبالمناسبة فقد تكررت المحاولات القبرصية للسيطرة على آياس نظراً لأهميتها التجارية، فقد توجه بطرس الأول إليها بحملة سنة 768هـ / 1366م، لكنه أخفق في السيطرة عليها،⁽⁵⁾ ولما خلفه ابنه بطرس الثاني كرر المحاولة سنة 771هـ / 1369م، وعاد بالنتيجة ذاتها.⁽⁶⁾

سادساً- تجارة الكارم:

صحيح أن تجارة الكارم والحديث عنها يشكل خروجاً عن نطاق البحث، ولكن لا بد من التطرق إليها بشيء يسير لكي تتكامل جوانب البحث.

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 434-436. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 3 / 88. المقرئزي: السلوك، 1 / 617-618. وللاستزادة انظر الفصل الثالث، ص

(2) المقرئزي: السلوك، 2 / 237، 246. ابن حبيب: تذكرة النبيه، 2 / 124-125. أبو الفداء: المختصر، 2 / 439. النويري: نهاية الأرب، 33 / 39، 60. وللاستزادة انظر الفصل الثالث، ص

(3) المقرئزي: المصدر نفسه، 2 / 409.

(4) المقرئزي: المصدر نفسه، 2 / 429 - 430، الشجاعى: تاريخ الملك الناصر، ص 114. ابن

الجزري: تاريخ حوادث الزمان، 3 / 940-941. ابن الوردي: تنمة المختصر، 2 / 445.

(5) ابن كثير: الاجتهاد في طلب الجهاد، ص 426. ماكارياس: مرويات، ص 123. النويري: الإمام، ص 192. المقرئزي: السلوك، 3 / 150.

(6) ماكارياس: مرويات، ص 170-171.

بداية، وقبل كل شيء يجب التعرض لمصطلح "الكارم" الذي أثار جدلاً بين المؤرخين، فالمصطلح – كما هو معلوم – استخدم للدلالة على طائفة من التجار، عملت بشكل رئيسي بتجارة التوابل والبهار الواردة إلى مصر من الهند عبر ثغور اليمن والبحر الأحمر، وشكلوا أكبر قوة مالية في سلطنة المماليك بعد قوة الحكومة. يقول بعضهم أن هذا الاسم مشتق من الكانم، وهو اسم منطقة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، كان معظم التجار الذين اشتغلوا بتجارة البهار يعودون بأصلهم إلى هذه المنطقة فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أُطلق الاسم على جميع من مارس تلك التجارة في مصر.⁽¹⁾

تأتي أهمية هذا القول على ضوء ما جاء عند الملاح أحمد بن ماجد أن طريق التجار القديم لاستجلاب الفلفل هو بلاد الكانم «أي السودان الغربي»⁽²⁾. أما المستشرق "ليتمان" فيرى أن تسميتهم عائدة إلى سلعة تاجروا بها اسمها (Kuararima)، وهي لفظة أمهرية تفيد معنى نوع من التوابل التي حملوها معهم من أثيوبيا، ثم صحفت الكلمة وأصبحت كارم.⁽³⁾

يقدم مؤرخ مصري رؤية جديدة جديرة بالذكر، فيقول: أن الكارمية نشأت أولاً في المحيط الهندي، وإذا قسم الاسم إلى لفظين وجدناه يتكون من "كار" و "يم" أي "كاريم"، و "كار" تعني الحرفة أو العمل أو التجارة.. إلخ. و"يم" تعني المحيط، أو البحر، أو النهر الكبير، وبالتالي فهي تعني حرفة العمل في البحر أو حرفة التجارة في البحر، ومع كثرة التداول سقطت الياء وحولت إلى كسرة فأصبحت "كارم"، وخاصة أن لفظي "كار" و "يم" حتى اليوم يُستخدمان بالمعنى الذي ذُكر آنفاً.⁽⁴⁾

(1) الفلفشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 461، 468، 469، ج5، ص 280 – 281. دوزي: تكملة

المعاجم العربية، 72/9. مصطفى زيادة: كتاب السلوك، الحاشية رقم 2 من ص 899/ج1.

(2) صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصرفي العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية،

المجلد الرابع، 1954، عدد2، ص 7.

(3) لبيب: المرجع نفسه، ص 6.

(4) الشاطر بصيلي عبد الجليل: الكارمية، المجلة التاريخية المصرية، 1976، المجلد الثالث عشر، ص

ويقدم جواتياين تفسير قريب منه، فنذكر أنه في لغة "التامل" المنتشرة في جنوب الهند توجد كلمة (كاريام) وتعني الأعمال أو الأشغال، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقي هي في الأصل أعمال تجارية، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أُطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد. (1)

وردت لفظة كارم لأول مرة في وثائق الجنيزة العائدة إلى أيام الدولة الفاطمية، (2) وفي العصر المملوكي وصلت التجارة الكارمية إلى ذروة نشاطها وازدهارها، نتيجة تعطل طرق التجارة المارة عبر أواسط وشمال آسيا على أثر الحروب التي شنّها المغول هناك، وازدهار الطريق التجاري عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر، وقد انفرد هذا الطريق الأخير بالحجم الأكبر من التجارة الدولية حتى أوائل القرن السادس عشر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

ظهر الاهتمام المملوكي واضحاً بالتجارة الكارمية وتجارها، والسبب في ذلك هو ما قدمته التجارة الكارمية من دعم لاقتصاد سلطنة المماليك، فالتجارة الكارمية كانت تحمل حاجيات يومية لا يمكن الاستغناء عنها من توابل وعقاقير وعود،... الخ.

كان طريقها الرئيس يمر بمصر، فكانت الخزائن السلطانية تنتفع بما تجبّيه من ضرائب من تلك التجارة، ويمكن أن نقدر الفائدة التي تعود على سلطنة المماليك من هذه التجارة إذا علمنا بأن البضائع عندما كانت تخرج من الإسكندرية يكون قد بلغ ثمنها ما يقرب من أربعة أمثال ثمنها الأصلي، (3) أما سانوتو فيجعل ثلث دخل الخزينة السلطانية من تجارة التوابل العابرة المحيط الهندي والبحر الأحمر. (4)

(1) جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ت: عطية القوسي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980م، ص 289-290.

(2) جواتياين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص 281-283، 287.

(3) المقرئزي: الخطط، 117/2، 118.

ليلي عبد الجواد: مصر على مفرد الطرق، القاهرة، 1987م، ص 17، 18.

(4) سانوتو: الأسرار، 38/66.

ولأهمية تجارة الكارم تحول المماليك من وسطاء إلى تجار احتكروا هذه التجارة في أواخر القرن الخامس عشر⁽¹⁾.

ولا يفوتنا الحديث عن أن هذه التجارة كانت مصدر رزق لعدد كبير من المصريين الذين كانوا يشتغلون كوسيط في المبادلات التجارية أو نقل البضائع واستخدام دوابهم، أو تقديم خدمات لتجار الكارم، كالفنادق والأطعمة والمشروبات، فساعد ذلك على نشاط الحركة والحياة في مدن القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد.⁽²⁾

وقد بلغ ثراء تجار الكارم أنهم في بعض الحالات قدموا مساعدات مالية للسلطنة نفسها، فعلى سبيل المثال: في سنة 699هـ/ 1300م عندما ازداد خطر غازان واقترب من بلاد الشام طلب السلطان محمد بن قلاوون المساعدات المالية من الكارمية لتغطية النفقات،⁽³⁾ وفي حالة مماثلة أيام السلطان الملك الصالح بن الناصر محمد عندما هاجم قراجا بن دلغادر حلب سنة 752هـ/ 1351م، واحتاج السلطان إلى أموال لتجهيز الجيش، استدان من تجار الكارم.⁽⁴⁾

وأخيراً لتقديم صورة واضحة عن أهمية تجار الكارم ودورهم النشط، لا بد من الإشارة إلى ما جاء في أحد المراسيم لأحد ولاة الصعيد، إذ جاء: ".... وأكرم قدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك أنك أول ما قدمناه لهم من المكارم، فهم سمار كل نادي، ورفاق كل ملاح وحادي ولا بد أن يتحدث السمار، وتتداول بينهم الأسمار، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم، ومننا حلية أعناقهم، ومنحنا سبباً لاستجلاب رفاقهم، فهم من مواد الإرفاق وجواد ما يحمل من طرق الآفاق".⁽⁵⁾

(1) أحمد حطيظ: الكارمية وتجارة الكارم، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد 54، عام 1988م، ص 178. لبيب: التجارة الكارمية، ص 44 – 47.

(2) الأشقر: تجارة التوابل، ص 63 – 68.

(3) المقرئ: السلوك، 1/ 899.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/ 271.

(5) الفلقشندي: صبح الأعشى، 11/ 437.

سابعاً- اهتمام السلطنة المملوكية بتنشيط التجارة الدولية في أراضيهم:

لا ريب في أن اقتصاد سلطنة المماليك ارتكز بشكل رئيس على النشاط التجاري الدولي القائم على أراضيها، إذ أن موقعها الجغرافي جعلها تعترض الطرق التجارية الرئيسية في العالم، فسيطرت عليها، وجنت منها أرباحاً هائلة كانت أساساً لقوتها العسكرية، حتى أن أوروبا عندما أخفقت في القضاء على السلطنة والتصدي لها عسكرياً، جندت قواها لقطع سبل التجارة عليها كمقدمة للانهيـار الاقتصادي الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى انهيار عسكري، ولا بد أن نذكر في هذا السياق بخطـط أوروبا آنذاك لفرض الحصار الاقتصادي، ومنها ما كتبه مارينو سانوتو البندقي في كتابه "الأسرار"، إذ تضمن الكتاب بعض الإجراءات المتوجب القيام بها لاستعادة الأرض المقدسة، خصص مطلع الكتاب والقسم الأول منه لبحث طرق إضعاف السلطنة وتدميرها اقتصادياً عن طريق قطع العلاقات التجارية معها، وما يترتب على ذلك من أضرار جسيمة سوف تنزل بالمماليك إذا ما توقف التعامل البحري معهم.

فيوضح هذا أن "القسط الأكبر من العظمة والهيبة، والمداخيل التي ينعم بها السلطان والشعوب الخاضعة له"⁽¹⁾ تأتي من مرور الطرق التجارية عبر أراضيها، وبالتالي على الغرب الأوروبي "منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان"⁽²⁾ حتى يتم القضاء على هذه الهيبة والعظمة، ويقدم سانوتو البديل عن الطرق المارة بسلطنة المماليك، الطرق المارة بأراضي التتار وكيليكيا.⁽³⁾

أدرك المماليك هذا الأمر، وعلموا جيداً أن التجارة أساس قوتهم الاقتصادية والرخاء الذي كانوا يتمتعون به، لذلك فقد نالت التجارة والتجار أهمية خاصة في سياستهم، وصدر عن سلاطينها قرارات ومراسيم عدة تؤكد رعاية الدولة وحمائيتها للتجار وللتجارة القائمة على أراضيها، وتوصي عمالها بحسن معاملتهم.

(1) — مارينو سانوتو: كتاب الأسرار، 38 / 65.

(2) — مارينو سانوتو: المصدر نفسه، 38 / 67.

(3) — مارينو سانوتو: المصدر نفسه، 38 / 68.

فقد أشار ابن عبد الظاهر إلى اهتمام السلطان بيبرس بتشجيع التجار الفرنجة بصفة عامة للقدوم إلى الديار المصرية، وكشف ابن عبد الظاهر عن الأهمية التي كانت لهؤلاء التجار في الحياة الاقتصادية للمسلمين في مصر والشام، فقد أشار إلى أن من بين الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر لتوقيع الصلح مع صاحب يافا وممتلك بيروت في سنة 659هـ/ 1261م هو الغلاء الذي عم بالشام، لأن كثرة الجلب إنما يكون من بلاد الفرنج⁽¹⁾ وفي أعقاب هذا الصلح «أمنت السبل وكثر الجلب»⁽²⁾ و"ترددت التجار وسلكت السفار"⁽³⁾.

حتى في أوقات الحروب لم ينس السلطان أمر الثغور وتأمين التجار، وفي معاهداتهم التي كان يتم عقدها مع الصليبيين لا تقل الناحية الاقتصادية أهمية عن الناحية العسكرية، فعندما عقد السلطان بيبرس هدنة مع الفرسان الاستبارية في حصني الأكراد والمرقب عام 665هـ/ 1267م، أكد على ضرورة تأمين التجار وتأمين حرية حركتهم ضمن البلاد التي وقعت عليها الهدنة، ومما جاء في نص الهدنة: "... على التجار والسفار والمترددین من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين... على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم".⁽⁴⁾

وفي المعاهدة التي وقعها السلطان الظاهر بيبرس مع ملكة بيروت في رمضان 667هـ/ 1269م أشار فيها إلى حماية التجار وبضائعهم أيام المعاهدة، ثم إعطائهم أربعين يوم بعد انقضاءها من أجل العودة إلى ديارهم آمنين.⁽⁵⁾

وفي هدنة أخرى عقدها السلطان بيبرس مع الاستبارية في قلعة المرقب سنة 669هـ/ 1271م تم الاتفاق على تقسيم ما يتحصل من التجار في المرقب من ضرائب ورسوم مناصفة بين الطرفين، مع اتفاق الطرفين على تأمين التجار، فقد

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 118.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 118.

(3) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ج9، ص 44.

(4) ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص 37.

(5) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص القلقشندي: المصدر السابق، ج14، ص 42.

جاء في الهدنة: "وعلى أن التجار السفار والمترددین بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانئ المحددة أعلاه⁽¹⁾ يتوجهون بحفارة الجهتين من غير حق: لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمين مطمئنين تحت حفظ الجهتين، ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المراقب وموانئها فالترتيب على الخفارة من الجهتين، مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً ووارداً بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى الموانئ بالمرقب المحدودة أعلاه، طيبين آمين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ما شرحناه"⁽²⁾.

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون تدفق التجار بأعداد كبيرة إلى الموانئ المصرية نتيجة السياسة الودية التي تبناها السلطان تجاه التجار، ففي الوصية التي كتبها لابنه الصالح علي، يحضه على ضرورة «حفظ فنادق الفرنج وحفظ مفاتيحها في الليل وفي وقت صلاة الجمعة، وفي حفظ الأمكنة المجاورة لها وفي حفظ الموانئ من جميع الجهات»³، كما أوصاه بأن «يأمر ولاية الثغريين، الإسكندرية ودمياط، باستمالة قلوب التجار ومعاملتهم بالعدل والإحسان والرفق والإنصاف ليتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار»⁽⁴⁾، «فالعدل أجلب للبركات وأحلب لثدي المرضعات وبه عمارة البلاد وتثمير الأموال...»⁽⁵⁾.

(1) الموانئ المذكورة في المعاهدة (من ميناء بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقبة) انظر:

القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص 44.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص

القلقشندي: المصدر السابق، ج14، ص 47.

(3) شافع بن علي: الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة

العصرية، صيدا.

(4) شافع بن علي: الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة

العصرية، صيدا.

(5) شافع بن علي: الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة

العصرية، صيدا.

كما كتب السلطان قلاوون منشوراً إلى التجار الذين يفدون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويغريهم بالقدوم إليها بمتاجرهم: «... ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدة لمن قطن، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن. فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر... هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض «يببتغون من فضل الله»... ليقروا منه ما تيسر لهم من حكمة، ويهتدوا بنجمه، ويقنتوا بعلمه»⁽¹⁾، وعندما كان يتم تولية ولاية ونواب في المناطق النشطة تجارياً، كانت مهمة الحفاظ على التجار والتجارة وتتميتها أهم الأعمال المنوطة بهم، ففي كتاب تولية القاضي جمال الدين بن بصاص لثغر الإسكندرية كان عليه أن «..... يجتهد في تحصيل أمواله «أي أموال الثغر» وتحصين ذخائره، واستخراج زكاته وتنمية متاجره، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا لأفوه منه والرفق الذي نقلوا أخباره السارة عنه، فإنهم هدايا البحور، ودوالبه الثغور، ومن ألسنتهم يطلع ما تجنه الصدور، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور، وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت»⁽²⁾.

ومن صور الاهتمام المملوكي بالتجارة وصية كتبها السلطان الصالح علي بن المنصور قلاوون لنائبه في مصر الأمير زين الدين كتبغا بعد سفر الصالح علي إلى الشام يوصيه بالاهتمام بالثغر وما يرد عليه من تجار وتجارة: «... والتيقظ لمهمات

(1) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام، ص 236 – 237.

(2) القلقشندي: المصدر نفسه، ج11، ص 420 – 421.

الثغر، واستجلاب قلوب التجار، واستمالة خواطرهم؛ ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجارة وتعمر الثغور...»⁽¹⁾.

تتعدد صور الاهتمام المملوكي بالتجارة، وما ذُكر آنفاً لا يشكل إلى عرض موجز لهذا الجانب، وما الهدف منه إلا التدليل على المكانة التي كانت تحتلها التجارة في السياسة المملوكية، التي بنت عظمتها على أساس التفوق الاقتصادي، ولقد قدرت لهم الجمهوريات التجارية اهتمامهم، وبادلتهم السفارات والرسائل التي تؤكد احترام العلاقات التجارية، توصي بتجارها في مصر⁽²⁾.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج13، ص 96.

(2) يذكر القلقشندي وصول سفارتان من البندقية وجنوة في عام 814هـ/1411م تؤكد أن تأكيد العلاقات التجارية بين الطرفين، صبح الأعشى، ج8، ص 123 – 125.